

قصة بلال هاشمي

تأليف
ميشائيل إندره

ترجمة وتقديم
دكتور باهر محمد الجوهري

مكتبة | ٦١٧



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٦

مجلس الوزراء
الجمهورية العربية السورية
مِلثَبَة ٢٠٠٦

هدية لأهلنا في غزة

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المشرف العام

د. ناصر الأنصاري

الإشراف الطباعي

محمود عبد المجيد

الفلاف

سامي بخيت

تقديم مكتبة | ٦١٧

منذ أطلقت السيدة الفاضلة سوزان مبارك دعوتها بأن «الحق فى القراءة مثل الحق فى التعليم والحق فى الصحة، بل الحق فى الحياة نفسها» ، والقارئ المصرى ينتظر كل عام مهرجان القراءة للجميع. وها هى «مكتبة الأسرة» أحد روافد المهرجان الرئيسية تكمل عامها الثالث عشر ، وقد أصبحت خلال هذه السنوات أضخم مشروع نشر فى مصر، وقدمت مكتبة عملاقة تجاوزت ٢٤٤٤٢ (ثلاثة آلاف وأربعمائة واثنين وأربعين) عنواناً، من ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) كاتباً ومفكراً وأديباً، طبعت منها أكثر من ٣٩,٠٠٠,٠٠٠ (تسعة وثلاثين مليوناً) نسخة بأسعار فى متناول الجميع، وذلك فى مختلف الفروع: العلوم والتكنولوجيا، والعلوم الاجتماعية، والتذوق الموسيقى، والتصوير، والمسرح، والسينما، والأعمال الأدبية الرفيعة، التى مثلت مسيرة الإبداع فى مصر والعالم، والأعمال الفكرية التى تبذ الخرافة والإرهاب، والأعمال الدينية التى تعكس صحيح الأديان، وعيون الأدب العربى والتراث، التى تربط الأجيال الجديدة بتاريخها المضى فى مراحلها المتميزة، ورصد إسهام هذا التراث فى بناء الإرث الثقافى الإنسانى.

تطلق «مكتبة الأسرة» لعام ٢٠٠٦ تحت الشعار النبيل الذي طرحته السيدة الفاضلة «سوزان مبارك»: ثقافة السلام، وهو يدعو إلى نشر ثقافة السلام فى المجتمع، ودعم التسامح ونبذ العنف، والتعرف على عادات وتقاليد الشعوب الأخرى، والتأكيد على أهمية الحوار واحترام الآخر، وتقديم التنوع الثقافى، ونشر المعرفة والتواصل مع الحضارات الأخرى.

أتى «مكتبة الأسرة» هذا العام والعالم كله يعانى من وطأة العنف والإرهاب. ولم يعد هناك منقذ سوى مواجهة قوى الظلام بالتطوير على يد المفكرين والمثقفين والمبدعين، الذين ظل دورهم عبر التاريخ هو ترسيخ القيم العقلانية والجمالية والإنسانية، ومحاربة النزعات البدائية، التى تستخدم القوة لإشعال الحروب وتدمير البشرية وإنجازاتها.

و«مكتبة الأسرة» هذا العام من خلال سلسلها المتنوعة ستعكس الدور الرائد لثقافة التسامح، التى تستطيع الحفاظ على تراث الأمة الحضارى.

وحتى نلتقى مع مكتبة الأسرة ٢٠٠٦، سنعيد إصدار نحو مائة عنوان بشكل جديد كتمهيد لانطلاقة المشروع.

ناصر الأنصارى

من يأتي إلى « فانتازين » يحصل من « الامبراطورة الطفولية » على ميدالية هي علامة النفوذ بلا حدود : « افعل ما تريد » هذا هو المكتوب عليها ولكن باستيان فسر معناها في بادىء الأمر على أنها تعنى : « افعل ما يروق لك » ولذلك ازداد توغله على الدوام في دوامة لا كايح لها من الخيال الذى يؤدى إلى النسيان ، وإلى أن اتضح له أن هذا الشعار يمكن أن يعنى : إفعل ما يدفحك إليه ما بداخلك ، افعل إرادتك الحقيقية . وبدون صديقه أتريو لما وجد الطريق إلى خارج تلك البلاد التى لا حدود لها .

« هناك أناس لا يستطيعون أبداً المجيء إلى فانتازين ، وهناك أناس يستطيعون ، ولكنهم يمشون هناك إلى الأبد . ثم هناك البعض الذين يذهبون إلى فانتازين ثم يعودون ثانية . مثلك ياباستيان ، وهؤلاء يصلحون كلا العالمين . »

ميشائيل إنده حياته وأعماله

ولد في ١٢ نوفمبر ١٩٢٩ بمدينة جارمش بارتنكرشن (جنوب ألمانيا الغربية) ، إينا للفنان الرسام إدجار إنده ، الذي كان (١٩٠١ - ١٩٦٥) أحد أوائل الرسامين السيراليين الألمان . وفي عام ١٩٣١ انتقلت الأسرة إلى ميونخ بازنج ، وفي عام ١٩٣٥ إلى ميونخ - شفابنج . ونشأ ميشائيل إنده في وسطٍ من الفنانين الرسامين والنحاتين والأدباء وبين أبنائهم . وفي عام ١٩٣٦ التحق بالمدرسة الابتدائية ، وفي نفس العام أوقعت الغرفة الثقافية التابعة للرابح الحظر على ممارسة أبيه لعمله الفني ، ولكنه واصل عمله في السر دون أن يقيم معارض لأعماله . وتسعى الأم لتعلم مهنة الرياضة العلاجية والتدليك لكي تكسب قوت أسرتهما التي كانت تمر بوقت عصيب . وفي عام ١٩٤١ أستدعى والده للجيش ، وفي عام ١٩٤٣ أُخليت مدارس مدينة ميونخ من الطلبة بسبب تزايد الغارات الجوية ، وأُرسل التلاميذ إلى مدارس أخرى بالأقاليم ، وهكذا عاد ميشائيل إنده إلى جارمش مرة أخرى . وفي عام ١٩٤٤ احترق مرسوم الوالد في ميونخ وبه حوالى ٥٠٠ لوحة ، ونُقلت الأم إلى أحد المساكن بأطراف المدينة . وفي السنة الأخيرة للحرب العالمية الثانية أستدعى التلاميذ ذوى الأربعة عشر والخمسة عشر من العمر إلى الجيش لمواجهة الدبابات الأمريكية . وفي اليوم الأول سقط ثلاثة من زملاء ميشائيل إنده في الحرب .

وفي نهاية الحرب بقليل يعود الوالد من الأسر الأمريكي الى شفابنج مرة أخرى ويشترك مع فنان آخر في فتح مرسوم له - وفي عام ١٩٤٦ يُعاد فتح المدرسة الثانوية ولكن ميشائيل إنده لا يبقى بها إلا عاما واحدا ، لحصوله على عون مادي من المعارف لاستكمال العامين الباقيين من دراسته في مدينة شتوتجارت .

وقد بدأ ميشائيل إنده في الكتابة منذ عام ١٩٤٣ ، وكانت في أغلبها أشعارا وقصصا قصيرة وكانت رغبته أن يصبح كاتباً مسرحياً . وفي ذلك الوقت لم تكن لديه الامكانية المادية للدراسة بالجامعة . وفي عام ١٩٤٨ قام بأداء اختبار للقبول في إحدى مدارس التمثيل بميونخ واجتاز الإختبار وأنهى الدراسة عام ١٩٥٠ ، وبدأ التمثيل على مسرح اقليم شليزفيج - هولشتاين بمدينة ريند زبورج ، ولكن أمنيته في أن يصبح كاتباً مسرحياً دعتة إلى العودة إلى ميونخ مرة أخرى ومعه مسرحية كوميدية من تأليفه ولكن لم يقبلها منه أحد للأسف .

وفي ليلة رأس السنة من عام ١٩٥١ يتعرف ميشائيل إنده على من تزوجها فيما بعد وهى الممثلة انجبورج هوفمان ، وعن طريقها يقوم بعلاقات مع عديد من الفرق الصغيرة وكتب لها اسكتشات وأغان فردية ، وقام بالإخراج عدة مرات بالمسرح الشعبى لمدينة ميونخ (فولكستياتر) .

وابتداء من عام ١٩٥٤ عمل ناقدا للأفلام لدى اذاعة بافاريا ، ولكن أجره لم يكن كافيا لدفع إيجار مسكنه ومسكن والدته بعد أن انفصلت عن والده ، وازدادت الأحوال المادية سوءاً ومر بأزمة أدبية بسبب موقفه من كتابات بريشت عن نظريات الفن والمسرح . وقرر ميشائيل إنده أن يتوقف عن الكتابه ، فقد كان يريد أن يكتب شيئا مختلفا تماما عما يميله جمود الأديب المسرحى الكبير . وطلب منه أحد معارفه ، وكان رساما ، أن يكتب له نصا لرسوماته لتصدر في كتاب ، فنشأ عن ذلك مخطوط سميك : « جيم كنوبف ولوكاس سائق القاطرة » وكان ذلك عام ١٩٥٨ . وعلى مدى عامين ونصف كان يتلقى دائما ردا من دور النشر بالاعتذار عن قبولها للنشر بدعوى أنها لا تتوافق مع برامج الكتب التى تصدرها . وأخيرا وصل المخطوط إلى يد لوته فايبريشت ، وكانت انذاك تعمل مديرة لدار نشر تينمان ، وقبلت القصة وكان شرطها الوحيد هو اختصار المخطوط الكبير إلى أن يصبح مجلدين إثنين فقط . وصدر الجزء الأول عام ١٩٦٠ وحاز عام ١٩٦١ - عند صدور الجزء الثانى - على جائزة كتب الشباب الالمانية ، وقامت الإذاعة والتلفزيون باعداده فى مسلسلات . وتزايد الإقبال على الكتاب وترجم الى عديد من اللغات .

ولهذا النجاح الأدبي والمادى ترك ميشائيل إنده عمله بالاذاعة وكرّس نفسه للكتابة للمسرح . وفي عام ١٩٦٧ أقيم أول عرض لمسرحيته التراجى - كوميدية « مفسدى اللعبة » فى مدينة فرانكفورت ، وكان الإخراج فاشلا ، وفشل العرض فشلا ذريعا ، ولذلك لم يجرؤ أى مسرح آخر على عرض المسرحية .

وفى عام ١٩٧٣ صدرت روايته الأسطورية « مومو » التى حصلت عام ١٩٧٤ على جائزة كتب الشباب الألمانية أيضا . وعمت شهرة الكتاب وترجم إلى عشرين لغة أجنبية . وفى عام ١٩٧٥ تعاون مع المؤلف الموسيقى مارك لوتار فى إعدادها إلى أوبرا « مومو ولصوص الزمن » ، وعرضت الأوبرا لأول مرة عام ١٩٧٨ فى كوبورج . وصدر له عام ١٩٧٦ « أسطورة المشعوذ » تمثيلية سحرية لمسرح العرائس والأقنعة .

وفى عام ١٩٧٧ سافر إلى اليابان وتأثر تأثراً بالغاً بمسرح « كابوكى واللامسرح » . وفى نفس العام بدأ فى كتابه « قصة بلا نهاية » التى استغرقت عامين وصدرت فى خريف ١٩٧٩ .

وقد صدرت الأعمال التالية لميشائيل إنده : « ترانكيلا ترامبلتروى السلحفاء المثابرة ، وقراقوز الهلاهيل » ، و« ليروم لاروم فيلى فاروم » ، « وآكل الأحلام الصغير » . وتحت التأليف كتاب : « يور أو المرأة فى المرأة » ، سلسلة من القصص السيرىالية .

(دكتور باهر محمد الجوهرى - بوخوم ، المانيا الغربية ، خريف عام ١٩٨٣)

المترجم

الدكتور باهر محمد الجوهري أستاذ الأدب الألماني المساعد بكلية الألسن جامعة عين شمس أتم دراسته الجامعية بالقاهرة ، والدراسات العليا في ميونخ والدكتوراة في الأدب الماني من جامعة فينا . وهو حاليا منتدب كملحق ثقافي لسفارة جمهورية مصر العربية في المانيا الاتحادية .

عمل محاضرا وأستاذا زائراً في جامعات زالسبورج وفيينا بالنمسا . وجامعات بون والرور بمدينة بوخوم بالمانيا الغربية ، كما عمل بالترجمة الفورية بالمؤتمرات الدولية داخل مصر وخارجها .

من مؤلفاته باللغة الألمانية :

— يوسف فون همر بورجشتال ، شاعر وناقل أمين لحضارة وأدب الشرق إلى الغرب ، شتوتجارت ١٩٧٩

— مراحل تطور الفن القصصي لدى برابرا فريشموت ، القاهرة ١٩٨٢

— فضل همر بورجشتال في استقبال دنيا الاسلام في الغرب ، القاهرة ١٩٨٢

— ميراث الأساطير الشرقية من « الف ليلة وليلة » في الأدب الألماني، جوتنجن

١٩٨٥

ومن ترجماته العربية من اللغة الألمانية :

— الجدة الأولى ، للأديب النمساوي فرانس جريلبارتسر ، الكويت ١٩٨٢

— سابفو ، للأديب النمساوي فرانس جريلبارتسر أيضا ، الكويت ١٩٨٣

مكتبة

t.me/t_pdf

مقدمة

ما أحوجنا اليوم إلى دنيا الخيال لكي نصلح بها عالم الواقع . فما أكثر مادية الحياة التي نغمرنا فتلهينا وتنسينا ما بنا من جوهر الروح وشفافية النفس . وكلما توغلنا في معترك الحياة سعيا وراء رزق يلوح لنا من بعيد أو قريب ، فيغرينا بمزيد من السعي والجري والدأب الحثيث ، كلما تعرضنا للاندفاع والانجراف وراء تيار المادة ، فنطلب المزيد والمزيد ، رغم ما يمكن أن يكون لدينا بما يكفيننا ، فنقتحم الصعاب ونقبل على الصراع ، ومع زيادة المغريات يعلو صوت النفس الأمانة بالسوء الى أن يصل إلى الصراخ المدوي ، فترى الجميل قبيحا ، والخير شرا ، والصديق عدوا ، فتحاول أن تزيل من الطريق كل ما بدا معيقا لها ، وإن كان مخلصا نصوحا .

وما التأمل والتدبر إلا سياحة بالفكر في دنيا الخيال ، نعود منها وقد انتعشت النفس مما شاهدته في تلك الدنيا ، ورأته من تصور أجمل لعالم الواقع ، فيزداد الأمل أو ينشأ من جديد ، وتنبعث في النفس قوة تواجه الواقع بأمل الخيال ، فتتحول بالسعي مشاريع التأمل إلى واقع أجمل وأصلح .

وما المصلحون والمفكرون بل والمخترعون إلا بشرا لديهم القدرة الأكبر على التخيل والتصور ، فمن أجل تطوير وتغيير واقع الحياة استطاعوا أن يعلوا بأفكارهم الى قمم أسمى ليتمكنوا من رؤية أوضح وأشمل للعالم المادى الملموس ، دون أن يضلوا في التفاصيل والصغائر ، وبعدها لا بد أن يعودوا إلى عالم الواقع لكي يطبقوا ما شاهدوه في تصورهم وما تعلموه من تأملهم ، وإلا أصبح سموهم

تساميا ، وعلوهم تعاليا وتكبيرا على ما هم وعالمهم عليه ، وإلا تحولت السياحة
الوقتية هياما أزليا لا طائل منه ، وتصورهم خيالا بلا جذور ولا أصول صالحة
بأرض الواقع . بل ويمكن أن يتحول هذا الخيال إلى سلاح ينقلب نصله إلى حامله
فيسمى إلى دماره ، وهو ما زال غارقا في خياله الذي أصبح وهما ، يصور له أمورا
منها ما يصيبه بالغرور وطعناته النفاذة إلى قلب حامله متوهما أنه يصيب به الغير ؛
ومنها ما يصيبه بالتسلط والتحكم بلا سبب ولا وازع حقيقى ، فيفقد الصديق
المخلص ، الذى يسمى لإطلاقه واعادته إلى صواب الحقيقة ، فلا يجد إلا الشك
والتعالى ؛ وإذا ما وصل المرء إلى هذه الدرجة من تحكم الوهم والخيال منه ،
هيئات له هيئات أن يرجع ، فالطريق الذى قطعه يكون بعيدا ورجوعه يستلزم قوة
أشد ، هى قوة الرؤية الحقيقية واعتراف بالواقع والسير معه لا عليه .

هذه الأفكار تطراً على الذهن عند قراءة « قصة بلا نهاية » أو « قصة لا تنتهى »
التي كتبها الأديب الألماني المعاصر ميشائيل إنده . والأديب لا يقم على القارىء
هذه الأفكار بتصريح الواعظ أو بتعاليم المعلم ، ولكن تارة بالرمز الخفى ، وتارة
بالتلميح الخفيف ، بل وأحيانا بكلمة عابرة في حوار ، تدفع للتأمل والتدبر ،
ومحاولة قراءة ما بين السطور .

وقد وضع الأديب أحداث الرواية في قالب أسطورى يتيح له وضع الرموز التي
توضح رغم رمزيته معالم الحياة ومواقفها . وأحداث الرواية تدور بين عالمين ،
عالم الواقع ، ودنيا الخيال ، وأثناء سردها تضع مرآة أمام النفس البشرية ، فتظهرها
في ضعفها وخنوعها ، وفي جاهها وسلطانها ونفوذها ، وما يعترها من مشاعر وما
يصدر عنها من سلوك تجاه الصديق وغير الصديق ، وما يحدث بداخلها من تغيير
يصل إلى القمة والسفح ، القمة في الغرور ، والسفح في الخنوع .

والرواية ترمز إلى طريق الحياة بأفراحه وأتراحه ؛ بإستقامته والتوائه ، بمشاقه
وبهجاته ، إنها مرآة رمزية خيالية وواقعية في نفس الوقت ، تنعكس فيها حياة البشر
في سرد مشوق يصل في حيكته ودرجة تشويقه إلى ما تحدثه الرواية البوليسية من
تأثير .

قصة بلا نهاية

تأليف

ميشائيل إنده

ترجمة وتقديم

الدكتور باهر محمد الجوهري

تَيْبُ الْقَابِ التَّيْبَةِ

لرَبِّهَا

مَنْ يَرَى مَا فِيهَا

هذه الكتابة كانت على الباب الزجاجي لكان صغير ، ولكنها بالطبع لم تكن تبدو هكذا إلا عندما كان يُنظر إلى الشارع من خلال اللوح الزجاجي من داخل الغرفة المعتمة .

وفي الخارج كان صباح يوم بارد مغييم من أيام نوفمبر ، وكان المطر ينهمر مدرارا ، والقطرات تجري من أعلى الزجاج إلى أسفله مارة بالأحرف المزخرفة . وكل ما كان يمكن رؤيته من خلال اللوح الزجاجي ، كان سورا قد لطخته الأمطار على الجانب الآخر من الشارع .

وفجأة فُتح الباب بشدة لدرجة أن عنقودا صغيرا من الأجراس النحاسية الصفراء الصغيرة والذي كان متدلليا فوقه ، أخذ يرن رنيناً مضطربا ، ولم يتمكن من العودة إلى الهدوء لفترة طويلة .

وكان سبب هذا الضجيج صبي صغير سمين ربما بلغ العاشرة أو الحادية عشرة من العمر . وكان شعره البني الغامق يتدلى مبللا على وجهه ، وقد تخلل المطر معطفه فجعله ليئا يقطر منه الماء ، وكان يحمل حقيبة مدرسية مثبتة على كتفه بسير جلدي . وكان شاحب الوجه قليلا ومتقطع الأنفاس ، ولكنه على العكس تماما من العجلة التي كان ما زال عليها منذ برهة ، فقد وقف حيثئذ كالمتمسك بالباب المفتوح .

وامتدت أمامه غرفة طويلة ضيقة ، تضيع معالمها في الناحية الخلفية في الضوء المعتم . وعلى الجدران كانت أرفف تصل إلى أسفل السقف وقد تكدست بكتب بجميع الأشكال والأحجام . وعلى الأرض تجمعت كومة من الكتب الضخمة ، وعلى بعض المناضد تكومت جبال من الكتب الصغيرة المجلدة والتي كانت جوانبها تلمع بلون ذهبي . وخلف سور من الكتب يبلغ طوله طول أحد الرجال ، والذي كان يرتفع عند الطرف المقابل من الغرفة ، كان يُرى ضوء مصباح وفي شعاع الضوء هذا كانت تتصاعد بين الحين والآخر حلقات من الدخان يتزايد حجمها ، ثم تتلاشى عاليا في الظلام ، وكانت تبدو مثل الإشارات التي يرسل بها الهنود الأنباء من جبل إلى جبل . وعلى ما يبدو كان يجلس هناك شخص ما ، وفعلا سمع الصبي حينئذ من وراء حائط الكتب صوتا فظا نوعا يقول :

« فلتتعجب بالداخل أو بالخارج ، ولكن اقبل الباب فهناك تيار هواء »
فأطاع الصبي وأغلق الباب بصوت خافت ، ثم اقترب من حائط الكتب ونظر بحذر حول الركن . وهناك كان يجلس رجل ثقيل الوزن مرتبعا الجسم على مقعد عال ذي مسندين للرأس يصلا إلى الأذنين مصنوع من جلدٍ قد لمع من الاستهلاك . وكان يرتدى بدلة مكرمشة سوداء ، تبدو متهالكة ومترتبة بشكل ما ، وبطنه مملومة بصديري منقوش بالزهور . وكان للرجل صلعة ، فقط فوق كل أذن من أذنيه شوشة من الشعر الأبيض تقف إلى أعلى . وكان وجهه أحمر اللون ويذكر بوجه كلب شرس أفتس من سلالة (البولدوج) . وفوق أنفه الغليظ كهيئة البطاطا كانت تقبع نظارة ذهبية صغيرة . وخلاف ذلك فقد كان الرجل يدخن غليوناً منحنيا يتدلى من زاوية فمه ، وهذا ما سبب امتطاط الفم كله بميل . وعلى ركبتيه كان يمسك بكتاب ، وعلى ما يبدو أنه كان يقرأ فيه في تلك اللحظة ، لأنه عند غمقه ترك السبابة السمينة ليده اليسرى بين الصفحات - كعلامة للقراءة ، تقريبا .

وبعدئذ خلع نظارته بيده اليمنى ، وتفحص الصبي الصغير السمين الواقف أمامه والذي تقطر منه الماء ، بينما هو يضيق من عينيه ، وذلك ما أزداد أكثر من انطباع الشراسة لديه ، ثم تتمم قائلا فقط : « يا لطيف يا رب » . ثم فتح كتابه ثانية واستمر في القراءة

ولم يعرف الصبي بحق ما ينبغى عليه فعله . ولذلك ظل واقفا ببساطة ناظرا إلى الرجل بعينين مشدوهتين . وأخيرا صفق الرجل الكتاب مغلقا له مرة أخرى - مثلما سبق ، وأصبعه بين صفحاته - وقال متبرما : «اسمع يا بني ، أنا لا أستطيع أن أطيق الأطفال . صحيح أن موضة هذه الأيام الافتماع الهائل المصطنع معكم - ولكنني لا أفعل ذلك . فأنا قلبا وقالبا لست صديقا للأطفال . فالأطفال بالنسبة لي ليسوا سوى حلق بلهاء تصرخ ، ومخلوقات ثقلاء مزعجة ، تحطم كل شيء ، وتلوث الكتب تماما بالمرور وتمزق الصفحات ولا يعاؤون بالمرّة عما إذا كان من الجائز أن للكبار همومهم ومشاكلهم أيضا . انني أقول لك ذلك لكي تعرف الآن أين أنت . وفوق ذلك فليس عندي كتب للأطفال . ولن أبيع لك كتباً أخرى وهكذا أتعشم أن نكون قد فهمنا بعضنا الآخر» .

كل هذا قاله دون أن يأخذ الغليون من فمه . ثم فتح الكتاب ثانية وواصل قراءته . فهز الصبي رأسه بصمت ، واتجه للانصراف ، ولكن بدا له بشكل ما أنه لا يستطيع أن يقبل هذا الكلام دون اعتراض ، ولذلك التفت مرة أخرى وقال بصوت خافت : «ولكن الجميع ليسوا هكذا» .

فرفع الرجل بصره وخلع نظارته مرة أخرى . «أمازلت موجودا هنا ؟ ماذا يجب أن يفعل الإنسان بحق لكي يتخلص من شخص مثلك ، أنتستطيع أن تبيع لي بذلك ؟ أي أمر في منتهى الأهمية كنت تريد أن تقوله منذ برهة ؟» .

فأجاب الصبي بصوت أكثر انخفاضا : «لا شيء هام ، كنت أريد أن أقول فقط - ليس كل الأطفال هكذا ، كما تقول» .

ورفع الرجل حاجبيه عاليا متصنعا الدهشة قائلا : «هكذا . اذن ربما تكون أنت نفسك الاستثناء العظيم ، أليس كذلك ؟» .

ولم يعرف الصبي السمين بم يجب . وهز أكتافه قليلا فقط واتجه مرة أخرى للانصراف .

وسمع من خلفه الصوت المتبرم يقول : «والسلوك الحسن ، السلوك الحسن

ليس عندك منه ما يساوى خمسة فنكات^(١) ؟ ، وإلا كنت قدمت نفسك على الأقل في بادئ الأمر .

فقال الصبي : «اسمى باستيان ، باستيان بلتازار بوكس» .

فدمدم الرجل قائلاً : «اسم غريب نوعاً ، بحروف الباء الثلاثة هذه . لا بأس . ليس لك يد في ذلك ، فأنت لم تمنحه لنفسك . أنا اسمى كارل كونراد كورياندر» .

فقال الصبي جاداً : « هذه ثلاثة أحرف ك »

فدمدم اعجوز قائلاً : « هُم ، صحيح ! »

ونفخ بعض سحبيات من الدخان قائلاً : « لا بأس ، فالأمر أيضاً لا يهم بالمرّة كيف ندعى ، لأننا لن نلتقى مرة أخرى . والآن أود أن أعرف شيئاً واحداً فقط ، ألا وهو لأى سبب اقتحمت دكانى منذ قليل بمثل هذا التسرع . لقد أعطى هذا انطبعا تاماً كما لو كنت هارباً . أليس كذلك ؟ » .

فهز باستيان رأسه بالإيجاب ووجهه المستدير أحدث تأثيراً مفاجئاً بشحوبة أكثر قليلاً عن ذى قبل وعينين أكثر اتساعاً .

فقال السيد كورياندر مُرجحاً : «من المحتمل أن تكون قد سرقت خزينة أحد الدكاكين أو قتلت امرأة عجوز ، أو ما يفعله أمثالكم في هذه الأيام . هل الشرطة من ورائك . يائى ؟ » فهز باستيان رأسه بالنفى .

فقال السيد كورياندر : «انطق ، ممن كنت تهرب ؟ » .

— «من الآخرين» .

— «من أى آخرين ؟ » .

— «من أطفال فصلى» .

— «لماذا ؟ » .

— «انهم . . انهم لا يتركوننى أبداً فى سلام» .

(١) فك أو بفك : عملة المانية صغيرة تعادل المليم تقريبا ، والمارك الألمانى مائة بفك .

— «ماذا يفعلون اذن ؟» .

— «إنهم يترقبون أمام المدرسة» .

— «ثم ماذا ؟» .

— «ثم يصرخون بأشياء بصوت عال . ويصطدمون بـ من جميع الاتجاهات ويضحكون على» .

— «وأنت ترضى بذلك بهذه البساطة ؟» .

وتفقد السيد كورياندر الصبى فترة بعدم رضى ، ثم سأل : «لماذا لا تعطيهـم ببساطة ضربة على أنوفهم ؟» .

فنظر باستيان إليه بدهشة وقال : «لا — لا أحب ذلك . وخلاف ذلك — أنا لا أستطيع الملاكمة جيدا» .

فقال السيد كورياندر راغبا فى المعرفة : «وماذا عن المصارعة ؟ ، والجري والسباحة وكرة القدم ، وألعاب القوى ؟ أفلا تتقن شيئا منها على الإطلاق ؟» .
وهز الصبى رأسه بالنفى .

فقال السيد كورياندر : «بمعنى آخر ، أنت شخص ضعيف ، أليس كذلك ؟»

فهز باستيان أكتافه .

فقال السيد كورياندر : «ولكنك تستطيع أن تتكلم على الأقل ، لماذا لا ترد عليهم عندما يتهكمون عليك ؟» .

— «لقد فعلت هذا مرة . . .» .

— «ثم ماذا ؟» .

— «فألقوا بى فى صندوق الزباله وربطوا غطاءه ، وظللت أصبح ساعتين إلى أن سمعنى شخص ما» .

فدمدم السيد كورياندر قائلا : «هم ، والآن لم تعد تجرؤ» .

فهز باستيان رأسه بالايجاب .

فقال السيد كورياندر مدركا : «إذن ، أنت خواف ، فوق ذلك» .

فأطرق باستيان رأسه .

– «ربما تكون طموحا بحق ، أليس كذلك ؟ أحسن الفصل بدرجات كلها جيد جدا ، حبيب المدرسين كلهم ، أليس كذلك ؟» .

فقال باستيان وما زال خافضا بصره إلى أسفل : «لا ، لقد رسبت في السنة الدراسية الماضية» .

فصاح السيد كورياندر : «يا إله السماء ! اذن أنت فاشل على طول الخط» .
باستيان لم يقل شيئا . فقط وقف ببساطة هناك ، وأذرعته متدلّية إلى أسفل ومعطفه يقطر ماء . وأراد السيد كورياندر أن يعرف المزيد فقال : «بم يصرخون ، عندما يتهكمون عليك ؟» .

– «آخ – بكل شيء ممكن» .

– «مثلا ؟» .

– «فامبو ! فامبو ! قاعد على البوتشامبو ! البوتشامبو ينكسر ، فيقول فامبو : لقد كان هذا لوزي الثقيل» .

فقال السيد كورياندر : «ليس مضحكا للغاية ، وماذا أيضا ؟» .

فتردد باستيان قبل أن يقول معددا :

«مخرف ، عبيط ، فشار ، محتال» .

– «مخرف ؟ لماذا ؟» .

– «أنا أتكلم أحيانا مع نفسي» .

– «ماذا تتكلم على سبيل المثال ؟» .

– «اخترق لنفسى حكايات ، وأخترع أسماء وكلمات ، ليس لها وجود بعد ،

وهكذا» .

– «وهذا تحكيه أنت لنفسك ؟ لماذا ؟» .

– «لست أدري ، فليس هناك شخص يهيمه مثل هذا الشيء» .

فصمت السيد كورياندر برهة مفكرا

– «وما رأى والديك في هذا ؟»

ولم يجب باستيان على الفور ، ولم يقل متمتا إلا بعد برهة من الزمن : «أبي لا يقول شيئا . إنه لا يقول أبدا شيئا . فكل شيء بالنسبة له سيان»

— « ووالدتك ؟ »

— « هي — لم تعد موجودة »

— « هل والداك مطلقان ؟ »

فقال باستيان : « لا ، إنها ميتة . »

وفي هذه اللحظة رن جرس التليفون ، فرفع السيد كورياندر نفسه بشيء من العناء من مقعده ذى المساند وجرّ أقدامه بصوت مسموع إلى غرفته الصغيرة الواقعة خلف الدكان ورفع السماعه ، وسمع باستيان بغير وضوح كيف يذكر السيد كورياندر اسمه ثم انغلق باب الغرفة الصغيرة ، وحينئذ لم يكن ممكنا سماع أى شيء سوى همهمة مكتومة .

ووقف باستيان هناك لا يعرف بحق كيف حدث له هذا ، ولماذا قص كل ذلك واعترف به . فقد كان يكره أن يكون مضطربا على هذا النحو . وفجأة وقع في فكره كوقع حرارة الغليان ، إنه سيذهب إلى المدرسة متأخرا كثيرا ، أجل ، أكيد ، كان عليه أن يسرع كان عليه أن يجرى — ولكنه ظل واقفا كما كان ولم يستطع أن يتخذ القرار . شيء ما كان يمسك به ، لم يدر ما هو .

وكان الصوت المكتوم ما زال يصل إلى مسامعه من الغرفة الصغيرة . لقد كانت محادثة تليفونية طويلة . لقد أدرك باستيان أنه كان طيلة الوقت يحملق في الكتاب الذى كان السيد كورياندر ممسكا به من قبل بين يديه ، والموجود حاليا على المقعد الجلدى إنه ببساطة لم يستطع أن يصرف عينيه عنه . فقد شعر كما لو كان يخرج منه نوع من القوة المغناطيسية التى تجذبه بشكل لا يقاوم .

وأقرب من المقعد ، ومد يده ببطء ، ولمس الكتاب — وفي نفس اللحظة أحدث شيء بداخله صوتا هكذا « كليك ! » كما لو كان فخ قد انغلق . وانتاب باستيان شعور غامض أنه بهذا التلامس قد بدأ شيء لا يمكن مقاومته وأنه من الآن سيتخذ مساره

ورفع الكتاب عاليا وتطلع إليه من جميع الجوانب . الغلاف كان من الحرير بلون النحاس وكان يلمع كلما أداره هنا وهناك . وعند تصفحه السريع له رأى أن الكتابة كانت مطبوعة بلونين مختلفين . وبدا أنه لم تكن هناك صور ، ولكن كانت هناك حروف بداية كبيرة ورائعة الجمال . ولكنه عندما تطلع إلى الغلاف مرة أخرى بدقة أكبر . اكتشف عليه ثعبانين ، واحد فاتح وواحد داكن اللون كل منهما بعض الآخر في ذنبه ، ويكونان بذلك شكلا بياضويا . وفي هذا الشكل البياضوي كان عنوان مكتوب بحروف ملتوية بشكل غريب :

قِصَّةٌ بلا نهاية

إنه لأمر غامض ما يتعلق بالعواطف والأهواء الإنسانية ، وبالنسبة للأطفال فالأمر لا يختلف عنه لدى الكبار فهؤلاء الذين تتباهم لا يستطيعون تفسيرها ، وهؤلاء الذين لم يعاشوا شيئا منها ، لا يستطيعون فهمها وإدراكها فهناك أناس يخاطرون بحياتهم لكي يقهروا قمة من قمم الجبال . لا أحد ، ولا حتى هم أنفسهم ، يستطيع أن يشرح السبب . وآخرون يدمرون أنفسهم من أجل أن يغزوا قلب شخص معين لا يريد أن يعرف عنهم شيئا وهناك آخرون أيضا يحكمون على أنفسهم بالهلاك لأنهم لا يستطيعون مقاومة لذات المذاق - أو لذات قنينة الخمر . بعضهم يبذلون أموالهم وممتلكاتهم لكي يكسبوا في لعبة الحظ والقمار ، أو يضحون بكل شيء لفكرة راسخة لن تستطيع أبدا أن تصبح حقيقة واقعة . والبعض يعتقدون أنهم لن يستطيعوا أن يكونوا سعداء إلا في مكان آخر عما هم فيه ، فيرتحلون طيلة حياتهم خلال العالم . والبعض لا يجدون راحة قبل أن يصبحوا من ذوى السلطان - باختصار هناك كثير من العواطف والأهواء المختلفة مثل وجود أناس مختلفين .

وبالنسبة لباستيان بلتازار بوكس فقد كانت الكتب .

من لم يجلس أبدا في أوقات العصر بطولها بأذنين متوهجتين وشعر أشعث إلى كتاب وراح يقرأ ويقرأ ونسى الدنيا من حوله ، ولم يعد يلاحظ أنه جوعان أو بردان - ومن لم يقرأ في السر على ضوء أحد مصابيح الجيب تحت اللحاف ، لأن الأب أو

الأم أو أى شخص آخر يحمل همه قد أطفأ النور عليه بغرض يقصد الخير ، وهو أنه يجب على الإنسان أن ينام الآن لأنه ينبغي أن ينهض فى الصباح الباكر من الفراش . -

ومن لم يسكب أبدا دموعاً مرةً فى السر أو العلن لأن قصة رائعة قد انتهت واضطر الإنسان أن يفترق عن الشخصيات التى عايش بالمشاركة معها كثيرا من المغامرات التى أحبها وأعجب بها ، والتى خاف من أجلها وعقد الآمال لها ، والذين بدون عشرتهم بدت الحياة للإنسان خاوية وبلا معنى . -

من لم يعرف شيئا من كل ذلك من خبرته الشخصية ، حينئذ ، ربما لن يستطيع أن يفهم ما فعله باستيان وقتذاك .

فقد حملت فى عنوان الكتاب وشعر بالسخونة والبرودة على التوالى . هذا ، بالضبط هذا ما كان يحلم به كثيرا ، وما تمناه لنفسه ، منذ أن انتابته رغبته هذه : قصة لم تنته أبدا . كتاب كل الكتب . وكان عليه أن يمتلك ذلك الكتاب مهما كلفه الأمر .

مهما تكلف ؟ لقد كان ذلك القول سهلا ! حتى وإن استطاع أن يقدم أكثر من الثلاثة ماركات والخمسة عشر فنكا وهو مصروف جيبه الذى كان يحمله معه - فإن السيد كورياندر غير اللطيف هذا كان قد أبان بشكل أكثر من الوضوح فقط ، أنه لن يبيع له كتابا واحدا . وهو لن يقدمه هدية له على الاطلاق . فالأمر كان مقطوع الرجاء .

وبالرغم من ذلك فقد كان باستيان يعرف أنه لن يستطيع الانصراف بدون الكتاب . واتضح له الآن أنه لم يأت إلى هناك على الاطلاق إلا من أجل هذا الكتاب ، لقد نادى عليه بطريقة سرية ، لأنه كان يريد الذهاب إليه ، ولأنه فى الحقيقة كان يخصه منذ الأزل .

وتصنت باستيان على المهمة التى كانت ما زالت مسموعة مثل ذى قبل . وقبل أن يدرك من أمره شيئا ، أدخل الكتاب فجأة وبسرعة تامة أسفل معطفه وضغط عليه هناك بكلتا ذراعيه على جسمه . وبدون أن يحدث صوتا رجع بظهره

تجاه باب الدكان بينما ظل ناظرا بخوف إلى الباب الآخر المؤدى إلى الغرفة الصغيرة
وبحذر ضغط على السقطة ، وكان يريد أن يمنع الأجراس النحاسية الصفراء
الصغيرة أن تحدث ضجيجا ، ولذلك فتح الباب الزجاجي فقط باتساع يمكنه بالكاد
أن يندلف من خلاله . وأغلق الباب بهدوء وحرص من الخارج .
وعند ذلك فقط بدأ يجرى .

الكراريس والكتب المدرسية وعلبة الأقلام في حقيبته كانت تتقاذف وتقرقع على
إيقاع خطواته . وانتابته وخزات في جنبه ، ولكنه استمر يجرى . وجرى المطر فوق
وجهه ، وفي الخلف إلى داخل ياقته . واقتحم البلبل والرطوبة من خلال معطفه ،
ولكن باستيان لم يشعر بها . فقد كان يشعر بالحرارة ، ولكن ليس فقط من الجرى .
ضميره الذى لم يتبرم من قبل في دكان الكتب صحا الآن فجأة . وجميع الأسباب
التي كانت مقنعة جدا ، بدت له فجأة غير معقولة تماما ، فقد ذابت كتماثيل الثلج في
أنفاس تنين يقذف النيران .

لقد سرق . كان لصا !

إن ما فعله كان أفظع حتى من سرقة عادية .
من المؤكد أن هذا الكتاب كان فريدا من نوعه ولا يمكن تعويضه ، ومن المؤكد
أنه كان أعظم كنز لدى السيد كورياندر . فسلب العازف آلة كمانه الفريدة من
نوعها أو الملك تاجه ، كان شيئا مختلفا عن أخذ نقود من إحدى الخزائن .

وبينما كان يجرى على هذا النحو ، كان يضغط الكتاب تحت معطفه على
جسمه . لم يكن يريد أن يفقده مهما كان سيكلفه هذا من ثمن غالٍ . فقد كان هو
كل شيء ما زال يمتلكه في هذه الدنيا .

لأنه بالطبع لم يكن بعد يستطيع الذهاب إلى المنزل .

وحاول أن يتخيل أباه كيف كان يجلس في الحجرة الكبيرة عندما يكون المعمل
مُعَدًّا ويشتغل . ومن حوله عشرات من قوالب الجبس لأطقم أسنان بشرية ، لأن
الوالد كان عاملا فنيا في صناعة الأسنان ولم يفكر باستيان أبدا من قبل عما إذا كان

الأب يؤدي هذا العمل حقا بسرور . لقد خطر له ذلك حينئذ لأول مرة ، ولكنه بعدئذ لن يستطيع أبدا أن يسأله عن هذا .

فإذا ذهب الآن إلى المنزل ، فسوف يأتي الأب في معطفه الأبيض من المعمل ، وربما في يده طقم أسنان من الجبس وسوف يسأله « هل رجعت ؟ » - فيقول باستيان :

« نعم » . - « ألا توجد مدرسة اليوم ؟ » - ورأى الوجه الهادئ الحزين لابيه أمامه ، وعلم أنه من المستحيل أن يستطيع الكذب عليه . ولكن الحقيقة لن يستطيع أن يقوها له بالفعل . لا ، فالشيء الوحيد الذى أمكنه فعله كان أن يستمر في السير ، إلى أى مكان ، بعيدا جدا . فالأب لا ينبغي أبدا أن يعرف أن ابنه أصبح لصا . وربما أنه لن يلاحظ حتى أن باستيان لم يعد هناك . وهذه الفكرة كان لها فضلا عن ذلك وقعا مواسيا له .

وكان باستيان قد توقف عن الجرى . ومشى الآن ببطء وشاهد مبنى المدرسة في نهاية الشارع . وسار في طريقه المعتاد إلى المدرسة ، دون أن يلاحظ ذلك . وبداله الشارع خالٍ من الناس تماما ، بالرغم من أن أناسا كانوا يسيرون هنا وهناك . ولكن بالنسبة لشخص يأت متأخرا كثيرا ، يبدو العالم من حول المدرسة دائما كما لو خلى من الحياة . وكان باستيان يشعر مع كل خطوة كيف يزداد الخوف بداخله . لقد كان يخاف من المدرسة على شتى الأحوال ، من مكان هزائمه اليومية ، كان يخاف من المدرسين الذين كانوا يؤنبونه برفق ، أو يصبون عليه غضبهم ، كان يخاف من الأطفال الآخرين الذين كانوا يسخرون منه ، ولا يتركون فرصة ليبرهنوا له كم هو خامل وغير قادر على الدفاع عن نفسه . لقد كانت المدرسة تبدو له دائما كعقوبة طويلة بالسجن إلى مدى غير محدود ، والتي سوف تستمر إلى أن يكبر ، والتي يجب عليه أن يقضيها بصمت تام واستسلام .

ولكنه عندما سار بعدئذ من خلال الدهاليز التي تحدث رجعا للصدى ، حيث كانت تتصاعد روائح شمع الأرضيات والمعاطف المبللة ، وعندما سد أذنيه السكون المتحفظ في المبنى فجأة كسدادات من الشاش ، وعندما وقف أخيرا أمام باب فصله الذى كان مدهونا بنفس لون السبائخ القديمة كالجدران من حوله ، اتضح له أنه لم

يعد يخسر شيئا هنا أيضا ابتداء من الآن فقد كان عليه أن يذهب بعيدا ثم استطاع أن ينصرف أيضا على الفور .

ولكن إلى أين ؟

وكان باستيان قد قرأ في كتبه حكايات عن أولاد التحقوا بعمل فوق إحدى السفن وسافروا خارجين إلى العالم الفسيح لكي يجربوا حظهم . بعضهم أصبحوا قراصنة أو أبطالا ، وآخرون عادوا بعد سنوات كثيرة رجالا أغنياء إلى أوطانهم دون أن يفطن أحد إلى من كانوا .

ولكن مثل هذا الشيء لم يكن باستيان يجرؤ عليه ولم يكن يستطيع أن يتخيل أيضا أنهم سيقبلونه بوجه عام كصبي عامل على السفينة . وفوق ذلك فلم تكن لديه أقل فكرة عن كيفية وصوله إلى ميناء توجد به سفن صالحة لمثل هذه الأعمال الجريئة .

إلى أين إذن ؟

وفجأة خطر بذهنه المكان الصحيح ، المكان الوحيد ، حيث - مؤقتا على الأقل - لن يبحث الإنسان عنه ويعثر عليه

المخزن كان كبيرا ومظلمًا . وكانت تنبعث منه رائحة التراب وكريات محاربة العُثة ولم يكن يُسمع أى صوت ، سوى الضربات الخافتة للمطر فوق الألواح النحاسية للسطح الضخم . دعامات خشبية ضخمة قد كساها القدم بلون أسود كانت تبرز على مسافات متساوية من أرضية الألواح ، ثم تلتقى ثانية إلى أعلى بدعامات أخرى لهيكل السقف ، ثم تختفى في مكان ما في الظلام . وهنا وهناك كانت تتدلى أنسجة العنكبوت ، كبيرة مثل الحصائر المعلقة ، وكانت تتحرك بهدوء كالأشباح إلى هنا وهناك في تيار الهواء . ومن علٍ ، حيث كانت توجد كوة في السقف انساب شعاع ضوء مغبش إلى أسفل .

والشيء الوحيد الحى في هذا المكان المحيط به والذي كان الزمان فيه يبدو قد توقف ساكنا ، كان فأرا صغيرا ، يقفز فوق أرضية الألواح ويترك من ورائه آثار أقدام

منمنمة صغيرة في التراب . وهناك حيث كان يجرد ذيله الصغير سار خط رفيع بين آثار الأقدام . وفجأة وقف على قدميه وتصنت . ثم اختفى - هوب ! - في ثقب بين الألواح .

وسُمع صوت مفتاح داخل قفل كبير . وانفتح باب المخزن ببطء ومحدثا قرقعة ، وللحظة من الزمن سقط شريط طويل من الضوء خلال الغرفة . ودلف باستيان إلى الداخل ، ثم انغلق الباب مقرقا مرة أخرى وانقفل . وأدخل مفتاحا كبيرا في القفل من الداخل وأداره . ثم شد مزلاجها فضلا عن ذلك وزفر تنهيدة الارتياح . وكان وقتئذ فعلا لا يمكن العثور عليه . فلن يبحث عنه أحد هنا . فلم يكن يأت إلى هناك أحد إلا نادرا جدا - لقد كان يعرف ذلك شبه تأكيد - ، وحتى إذا أرادت الصدفة أن اليوم بالذات أو غدا تحتم على شخص ما أن يفعل شيئا هنا ، فإن ذلك الشخص المعنى سوف يجد الباب مغلقا . ولم يعد المفتاح موجودا هناك . وفي حالة تمكنهم من فتح الباب بطريقة ما ، فسيبقى لباستيان دائما وقت كاف للاختباء بين الأمتعة المهملة

وتعددت عيناه شيئا فشيئا على النور المعتم . لقد كان يعرف هذا المكان . فمنذ نصف عام كلفه مُدبّر شئون المبنى أن يساعده في نقل سلة غسيل كبيرة مملوءة بأوراق مكاتبات واستمارات قديمة كان ينبغي حملها إلى المخزن . وقد شاهد وقتذاك أيضا ، أين يُحفظ مفتاح المخزن : في صوان حائط صغير معلق إلى جوار أعلى بسطة للسلم : ومنذ ذلك الوقت لم يعد يفكر في هذا مطلقا . ولكنه الآن تذكر ذلك مرة أخرى .

وبدأ باستيان يشعر بالبرد ، لأن معطفه كان قد تخلله البلل ، وكان البرد شديدا هناك بأعلى . وكان عليه أولا أن يبحث عن موضع يستطيع أن يجعله مريحاً له بعض الشيء . ففي النهاية سوف يضطر للبقاء هنا وقتا طويلا . كم من الوقت - انه لم يفكر بعد مبدئيا في ذلك الأمر ، ولا أيضا في أنه عن قريب جدا سيشعر بالجوع والعطش .

ومشى قليلا دائرا في المكان . مختلف أنواع الكراكيب كانت موجودة وموضوعة بلا نظام ، أرفف مليئة بالدوسيهات والدفاتر التي لم يُعد في حاجة إليها منذ وقت طويل ، ذلك مدرسية مرصوفة فوق بعضها ذات مناظير متسخة بالحبر ، حامل

علقت عليه دسته من الخرائط المتقادمة ، عدة سبورات سقط عنها اللون الأسود ، أفران حديدية صدئة ، أدوات رياضية لم تعد صالحة للاستعمال ، مثل حصان جمباز تهاكت كسوته الجلدية لدرجة أن حشيته قد تدلت خارجه ، كور طيبة مفرقة ، رصة من دواسات الجمباز القديمة المبقعة ، وفوق ذلك بعض الحيوانات المحنطة التي نهشتها العثة ، من بينها بومة كبيرة ، نسر جبلي ، ثعلب ، مختلف أنواع أنابيب الاختبار والأوعية الزجاجية ذات الشروخ ، ماكينة لتوصيل الكهرباء ، هيكل عظمي بشري معلق على نوع من شماعات الملابس ، وكثير من الصناديق والعلب المليئة بدفاتر قديمة وكتب مدرسية . واستقر رأى باستيان أخيرا على أن يخصص رصة دواسات الجمباز القديمة لتكون مقرا لإقامته . فلو تمدد الإنسان عليها ، لأحس تقريبا كأنه على أريكة . وجرها إلى أسفل طاقة السقف حيث كان أكثر الأماكن نورا . وبالقرب منها كانت بعض الأغشية العسكرية الرمادية مرصوفة فوق بعضها ، ولكنها متربة جدا وممزقة ، ولكنها صالحة للاستعمال تماما . فأقى بها باستيان لنفسه . وخلع معطفه المبلل وعلقه إلى جوار الهيكل العظمي على شماعة الملابس ، فتأرجح الرجل العظمي قليلا إلى هنا وهناك ، ولكن باستيان لم يخف منه . ربما لأنه كان معتادا على أشياء مشابهة في المنزل . وخلع كذلك حذاء الطويل ذا الرقبة الذي تخللته الأمطار فأصبح لنا . واستقر بجواربه جالسا القرفصاء على دواسات الجمباز ، وجذب الأغشية الرمادية فوق كتفيه كأحد الهنود الحمر . وإلى جواره كانت حقيبته – والكتاب ذو اللون النحاسي .

وفكر في أن الآخرين تحت في الفصل لديهم في ذلك الوقت بعينه حصة اللغة الألمانية ربما كان عليهم أن يكتبوا إنشاء في أى موضوع من الموضوعات المملة غاية الملل .

ونظر باستيان إلى الكتاب .

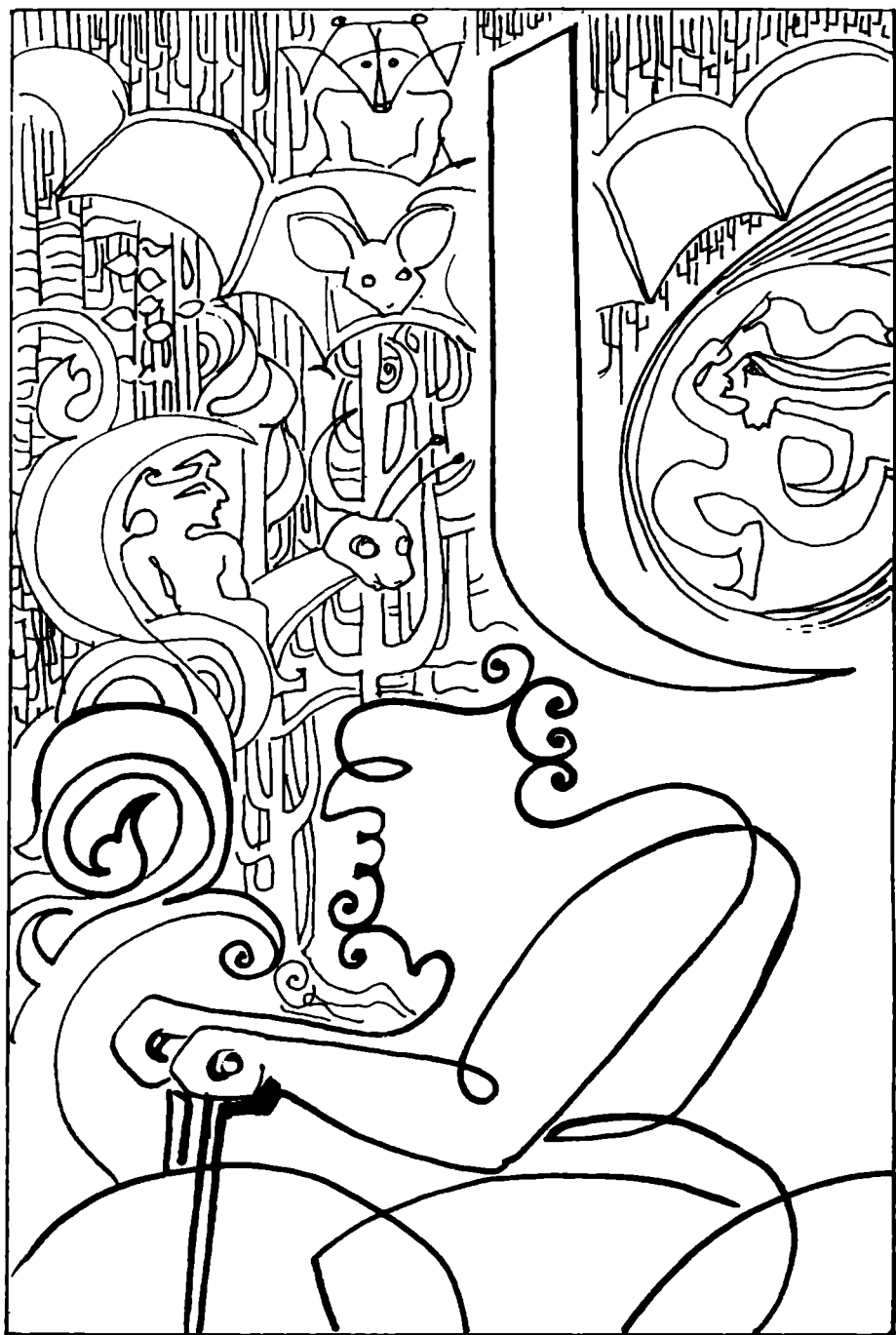
وقال لنفسه : «أود أن أعرف ماذا يحدث فعلا في كتاب طالما هو مقفول . بالطبع ليس بداخله سوى حروف مطبوعة على ورق ، ولكن بالرغم من ذلك – شيء ما لابد أن يكون جاريا ، لأنني عندما أفتحه فهناك فجأة قصة كاملة . هناك اشخاص لا أعرفهم بعد ، وهناك جميع المغامرات الممكنة والأعمال والحروب

— وأحيانا تحدث عواصف بحرية ، أو أن الإنسان يأتي إلى بلاد ومدن غريبة . كل هذا موجود بشكل ما داخل الكتاب . لا بد أن يقرأها الإنسان لكي يعايشها ، هذا أمر واضح . ولكنها موجودة بداخله من قبل . أود أن أعرف ، كيف ؟» .

وفجأة انتابه إحساس يكاد يكون مهيبا .
فاعتدل في جلسته ، وأمسك الكتاب ، وفتح أول صفحة وبدأ يقرأ

قصة بلا نهاية

فانتازين فلاج مكنة



الحيوانات كلها في غابة هاووليخالد قبعت في كهوفها ، وعشوشها وجحورها .

لقد كان وقت منتصف الليل ، وفي أفنان الأشجار العتيقة العملاقة كانت تهب الرياح العاصفة . وكانت الجذوع ذات سمك الأبراج تفرقع وتثن .

وفجأة أسرع شعاع ضوء ضعيف في خطوط متعرجة من خلال الأشجار وظل واقفا مرتعشا هنا وهناك ، وطار إلى أعلى ، وحط على غصن وأسرع بعد ذلك مباشرة مرة ثانية من هناك . لقد كانت كرة مضيئة في حجم إحدى كرات الاطفال ، وكانت تقفز في قفزات واسعة الى هناك ، وكانت تلمس الأرض بين الحين والحين وتعود للتخليق إلى أعلى . ولكنها لم تكن كرة .

لقد كانت شبح الضوء الضليل^(٢) وقد تاه عن طريقه . لقد كان اذن شبح ضوء تائه وهذا نادر الوجود نوعا حتى في فانتازين^(٣) . فعادة ما تكون أشباح الضوء الضليلة هي بعينها التي تؤدي بالناس الآخرين إلى التوهان .

(٢) الضوء الضليل Irrlicht أحد الأشباح التي يعتقد في وجودها عامة الشعب الألماني في الغابات والأحراش والمستنقعات ، ويُقال أنه يظهر للناس ليضلهم ويبعدهم عن الطريق الصحيح .

(٣) فانتازين Phantasien اسم مشتق من كلمة Phantasie وهي كلمة أصلها يوناني ومعناها الخيال ، وواضح أن المؤلف يرمز بإطلاق هذا الاسم على مملكة فانتازين بأنها مدينة الخيال أو بلاد خيالية ليس لها وجود في الواقع ، وقد راودتني فكرة أن أنقل هذا الاسم باللغة العربية مع رمزيته العربية واخترت لذلك اسم «مملكة خياليا» أو «خيالستان» ولكنني آثرت أن احتفظ بالاسم الموجود في الأصل الألماني مكتفيا بهذه الإشارة (المترجم) .

وفى داخل شعاع الضوء المستدير كان يرى شخص صغير فى غاية الحركة ، كان يقفز ويجرى بكل قواه . ولم يكن ذكرا أو أنثى . لأن مثل هذه الفروق غير موجودة لدى أشباح الضوء الضليلة . وكان يحمل فى يده اليمنى راية بيضاء ضئيلة كانت ترفرف من ورائه . فقد كان إذن عبارة عن رسول أو مندوب .

ولم تكن هناك خطورة أن يصطدم بجذع شجرة أثناء قفزاته الهائلة الواسعة فى الظلام ، فأشباح الضوء الضليلة ماهرة وخفيفة الحركة بشكل لا يصدق تماما ، وتستطيع أن تغير اتجاهها وهى فى وسط القفز . ولهذا جاء الطريق المتعرج الذى اتخذته ولكنه بوجه عام كان يتحرك دائما فى اتجاه محدد .

حتى لحظة مجيئه الى بروز صخرى وتراجع به بفرع . فجلس لاهنا ككلب صغير فى ثقب أحد الأشجار وفكر برهة قبل أن يجروا على النهوض مرة أخرى وينظر بحذر حول زاوية الصخرة .

وكان أمامه مكان خال من الأشجار بالغابة وهناك كانت تجلس على ضوء نيران خيم ثلاثة أجسام غاية الاختلاف فى نوعها وحجمها ، عملاق بدا كما لو كان كل شىء فيه من الحجر الرمادى ، كان يرقد ممددا على بطنه وكان طوله يكاد يبلغ عشرة أقدام . وقد اتكأ بنصفه الأعلى على كوعيه ناظرا إلى النيران . وفى وجهه الحجرى المتآكل الذى كان يقف صغيرا بشكل غريب فوق الكتفين العظيمين ، برزت أسنانه كصف من الأزامل الحديدية . واتضح لشبح الضوء الضليل أنه ينتمى الى فصيلة قاضى الصخور ، وهذه كائنات كانت تعيش بعيدا بشكل لا يمكن تخيله عن غابة هاووليثالدى فى إحدى سلاسل الجبال ، - ولكنهم لا يعيشون فقط فى سلسلة الجبال هذه ، وبل كانوا يعيشون أيضا منها ، لأنهم كانوا يلتهمونها شيئا فشيئا . فكانوا يتغذون على الصخور . ولحسن الحظ كانوا قنوعين جدا ، فكانت تكفيهم قزمة واحدة من الطعام المغذى جدا بالنسبة لهم طيلة أسابيع وشهور . وكذلك لم يكن هناك كثير من قاضى الصخور ، وخلاف ذلك فقد كانت سلاسل الجبال كبيرة جدا . ولكن نظرا لأن هذه الكائنات كانت تعيش هناك لفترة طويلة جدا - فهم أصبحوا أكبر عمرا بكثير من غالبية المخلوقات الأخرى فى فانتازين - ، فقد اتخذت سلاسل الجبال بمرور الزمن شكلا غاية فى الغرابة . لقد كانت تشبه قطعة جبن

ضخمة من نوع امتثال مليئة بالثقوب والكهوف . ولذلك كانت تسمى – ربما أيضا – جبل الطرقات .

ولكن قاضى الصخور لم يكونوا يتغذون فقط على الصخور ، ولكنهم كانوا يصنعون منها كل ما يحتاجون إليه : قطع الأثاث ، قبعات ، أحذية ، عُدد ، وحتى الساعات المزودة بطائر الوقوق الصّياح أيضا . ولذلك فلم يكن بعد هذا أمر يدعو للعجب أن قاضم الصخور هذا كان لديه هنا نوع من الدراجات تقف من خلفه ، وهى مكونة بالتمام والكمال من المادة المذكورة ولها عجلتان تبدوان كرحى طاحونة هائلة ، وهى ككل كانت أميل إلى الشبه بوابور زلط ذى دوّاستين .

والشخص الثانى الذى كان يجلس على يمين النار ، فكان شبح صغير من أشباح الليل . وقد كان على أقصى تقدير ضعف حجم شبح الضوء الضليل ، وكان يشبه يرقة داكنة السواد مغطاة بجلد مُشعر ، وقد تهيأت للجلوس . وكان يستعين فى كلامه بحركات شديدة بيديه الصغيرتين المنممتين بلونها الوردى ، وهناك حيث كان يرجح أن يكون وجهه تحت الشعر الأسود المجعد ، كانت تتوهج عينان كبيرتان مستديرتان كالأقمار .

وأشباح الليل مختلفة الأشكال والأحجام كانت موجودة فى كل أنحاء فانتازين . ولذلك لم يكن ممكنا فى بادئ الأمر تخمين اذا كان هذا قد جاء من قريب أو بعيد . ويبدو مؤكدا أنه على سفر أيضا ، لأن حيوان الركوب المعتاد استعماله لدى أشباح الليل ، وهو خفاش كبير ، كان متدليا ورأسه إلى أسفل ، وملفوفاً فى جناحيه مثل المظلة المغلقة ، من خلفه على أحد الأغصان .

والشخص الثالث على الجانب الأيسر من النار لم يكتشفه الضوء الضليل إلا بعد برهة من الزمن ، لأنه كان صغيرا لدرجة أنه لم يكن ممكنا تمييزه من هذا البعد إلا بصعوبة وكان ينتمى إلى سلالة المخلوقات الدقيقة ، وكان آدميا صغيرا ذا أعضاء متناهية فى الدقة مرتديا بدلة صغيرة مختلفة الألوان وعلى رأسه قبة اسطوانية حمراء .

وكانت معلومات الضوء الضليل عن المخلوقات الدقيقة تعادل لا شىء . فقد سمع مرة فقط أقاويل بأن هؤلاء القوم يبنون مدنا كاملة فوق أغصان الأشجار حيث

تتصل المنازل الصغيرة ببعضها بواسطة أدراج وسلام من الجبال والزلاقات . ولكن هؤلاء الناس كانوا يسكنون في جزء آخر تماما من مملكة فاننازين التي ليس لها حدود ، أبعد بكثير ، بكثير جدا من هنا عن قاضى الصخور . وكان مما يزيد الدهشة أن حيوان الركوب الذى كان لدى المخلوق الدقيق الموجود هناك ، كان بالذات قوقعة . وكانت تجلس خلفه . وكان على ظهرها الوردى يلمع سرج فضى صغير ، وحتى اللجام والسيور التي كانت مثبتة بقرون استشعارها ، كانت تلمع كخيوط الفضة .

لقد تعجب الضوء الضليل من أن يجلس بالذات هؤلاء الثلاثة كائنات المختلفة الانواع هنا في وئام . حيث إنه لم يكن معتادا أبدا في فاننازين أن تعيش جميع الفصائل في سلام ووثام مع بعضها . فغالبا ما كانت هناك صراعات وحروب ، وكانت أيضا لمئات السنين مشاجرات بين فصائل معينة ، ولم تكن هناك الى جانب ذلك مخلوقات شريفة وخيرة فقط ، ولكن أيضا متوحشة وشريرة وقاطعة للطرق . والضوء الضليل نفسه كان ينتمى بلا ريب لعائلة يمكن أن تلام على أشياء تتعلق بالصدق والثقة .

فقط بعد أن راقب المشهد لفترة من الزمن على ضوء النيران ، لاحظ الضوء الضليل أن كلاً من الثلاث شخصيات هناك كان لديه امارية بيضاء صغيرة أو يحمل وشاحا أبيض يميل على صدره . اذن لقد كانوا هم أيضا رسلا أو مندوبين ، وهذا بالطبع قد فسر كونهم يتصرفون بسلام هكذا .

هل سيكونوا في النهاية كذلك في طريقهم لنفس الشأن مثل الضوء الضليل ؟

ولم يكن في الاستطاعة من البعد فهم ما يتكلمون بسبب الرياح الهادرة التي كانت تعصف في فنن الأشجار . ولكن لأنهم كانوا يحترمون بعضهم البعض كرسل ، فربما سيعترفون أيضا بالضوء الضليل بالمثل ولن يفعلوا به شيئا . وعلى كل فقد كان لا بد أن يسأل أى شخص عن الطريق وربما لن تتاح تقريبا فرصة أفضل في وسط الغابة وفي وسط الليل . لقد تشجع إذن وخرج من مخبئه ، ولوح بالراية البيضاء وظل واقفا مرتعشا في الهواء .

وكان قاضم الصخور الذى كان يرقد بوجهه ناحيته ، هو أول من لاحظته .

فقال بصوت متحشرج : « توجد هنا حركة هائلة الكثرة اليوم . فهناك شخص آخر قادم . »

فهمس شبخ الليل بينما تفتحت عيناه القمريتان متوهجة : « هو هو ، إنه شبخ ضوء ضليل . تشرفنا ، تشرفنا ! »

ونفض المخلوق الدقيق وسار بضع خطوات ناحية الشخص القادم وزفزق بصوته قائلا : « إذا كنت أرى بشكل سليم فأنت أيضا هنا بصفتك رسول ؟ »

فقال الضوء الضليل : « أجل »

فخلع المخلوق الدقيق قبعته الأسطوانية الحمراء وانحنى انحناء صغيرة وشقشق قائلا : « أوه ، اقترب إذن ، تفضل . نحن أيضا رسل . اتخذ لك مكانا في دائرتنا . »

وأشار وهو يدعوه بقبعته الصغيرة إلى المكان الشاغر عند النيران .

واقرب الضوء الضليل على استحياء وقال : « شكرا جزيلا : أنا ممنون . »

تسمحوا لي أن أقدم نفسي : أنا اسمي بلوب . »

فرد المخلوق الدقيق : « سعداء جدا . أنا اسمي أوكوك . »

وانحنى شبخ الليل وهو جالس قائلا : « اسمي فوشقوسول . »

وقال قاضم الصخور بصوت متحشرج : « تشرفنا . وأنا بيورنراخ تسارك . »

ونظر الثلاثة كلهم إلى الضوء الضليل الذي انحنى من الاحراج . فأشباح الضوء الضليلة تشعر بالخرج البالغ اذا ما تطلع المرء إليهم بشكل ظاهر تماما .

وقال المخلوق الدقيق متسائلا : « ألا تريد أن تجلس ، يا بلوب العزيز ؟ »

فأجاب الضوء الضليل : « في الحقيقة أنى في عجلة شديدة ، وأردت أن أسألكم فقط ، إذا كنتم من الجائز تقدررون أن تقولوا لي ، في أى اتجاه من هنا آتى الى برج العاج . »

فأصدر شبخ الليل صوته قائلا : « هو هو . هل النية الى الامبراطورة الطفولية ؟ »

فقال الضوء الضليل : « تماما جدا ، فعلى أن أبلغها رسالة هامة . »

ففرقع قاضم الصخور قائلا : « أية رسالة ؟ »

فقدم الضوء الضليل رجلا على أخرى وقال : « إذا ما كان من ذلك بد ، فانها

رسالة سرية . »

فرد شبح الليل فوشقوسول : « نحن الثلاثة لدينا نفس الهدف مثلك — هو

هو . زميل بين الزملاء . »

وقال المخلوق الدقيق أوكوك : « من المحتمل أننا لدينا نفس الرسالة

كذلك . »

وجرش بيورنراخ تسارك بصوته قائلا : « إجلس وتكلم . »

فحط الضوء الضليل على المكان الشاغر .

وبدأ بعد تفكير قليل قائلا : « إن وطني بعيد نوعا عن هنا — لا أدرى اذا كان

واحدا من الحاضرين يعرفه . إنه يسمى مودر — مور^(٤) . »

فشهق شبح الليل متحمسا وقال : « هوووو . منطقة رائعة الجمال »

فابتسم الضوء الضليل ابتسامة بسيطة وقال : « أجل ، أليس كذلك ؟ »

وقرّع بيورنراخ تسارك قائلا : « هل هذا هو كل شيء ؟ لماذا أنت على سفر ،

يا بلوب ؟ »

فواصل الضوء الضليل حديثه متلعثما : « عندنا في مودر مور — حدث شيء —

شيء غامض — يعنى ، إنه ما زال يحدث بالفعل — انه من الصعب وصفه — لقد بدأ

الأمر بما يلي بأن — باختصار ، توجد في شرق بلادنا بحيرة — أو بالأحرى كانت

توجد — وكان اسمها برود لبروه^(٥) . وقد بدأ الأمر بأن بحيرة برود لبروه لم يعد لها

وجود في أحد الأيام — ببساطة اختفت ، أتفهمون ؟ » .

فقال أوكوك مستفسرا : « أتريد أن تقول ، أنها جفت ؟ »

(٤) اسم مشتق من كلمتين : Moder بمعنى عفونة أو تحلل ، وكلمة Moor أى مستنقع .

(٥) اسم مشتق من كلمتين : Brodel بمعنى بخار ساخن ، والفعل منه يعنى يفور من الغليان ، والكلمة الثانية Brühe بمعنى حساء أو سائل عكر .

فرد الضوء الضليل : « لا ، وإلا لكانت هناك بعدئذ بحيرة جافة ، ولكن ليس هذا هو الحال . فهناك حيث كانت البحيرة ، لا يوجد الآن أى شىء على الإطلاق - ببساطة لا شىء مطلقا ، أتفهمون ؟ »

فقال قاضم الصخور بصوت كالشخير : « أهناك ثقب ؟ »

فزاد الانطباع المتحير الصادر عن الضوء الضليل وهو يقول : « لا ، ولا ثقب أيضا ، فالثقب شىء ما ولكن هناك لا شىء . »
وتبادل الثلاثة رسل الآخرين النظرات .

وتساءل شبح الليل : « كيف يبدو إذن هذا ال - هو هو - هذا اللا شىء ؟ »
فقال الضوء الضليل مؤكدا ، وهو غير سعيد « هذا هو بعينه ما يصعب وصفه . »

ففى الحقيقة لا يبدو شىء على الإطلاق . إنه - إنه مثل - آخ ، لا توجد كلمة لذلك ! »

فتدخل المخلوق الدقيق قائلا : « إنه كما لو كان الإنسان أعمى عندما ينظر الى المكان ، أليس كذلك ؟ »

وحلق فيه الضوء الضليل فاغرافاه . وصاح قائلا : « هذا هو التعبير الصحيح ولكن من أين - أقصد لماذا - أما تعرفون أنتم هذا أيضا - ؟ »
وتدخل قاضم الصخور مقرعما : « لحظة . قل ، هل اقتصر الامر على هذا المكان وحده ؟ »

فقال الضوء الضليل شارحا : « نعم فى بادىء الأمر أى أن المكان يتزايد حجمه باستمرار شيئا فشيئا . وبشكل ما ازداد التناقص المستمر من المنطقة . الضفدعة الأولى أومف ، والتي كانت تعيش مع قومها فى بحيرة برود لبروه ، اختفت كذلك بعدئذ فجأة تماما . وبدأ سكان آخرون فى الهرب . ولكن الأمر بدأ أيضا فى أماكن أخرى من مودر - مور شيئا فشيئا . وأحيانا كان فى البداية صغيرا جدا فقط ، عدم ، فى حجم بيضة دجاجة المستنقعات . ولكن هذه المواضع اتسعت فاذا وطأ أحد فيه بقدمه - خطأ لا اختفت القدم أيضا - أو اليد - أو أى شىء أخريقع فيه عفوا . وهو بالمناسبة لا يؤلم - فقط تنقص قطعة من الشخص المعنى فجأة بعد ذلك . وفوق

هذا فقد ترك بعضهم أنفسهم يسقطون فيه عمدا ، عندما اقتربوا بشدة من العدم . فهو يحدث قوة جاذبية لا تقاوم ، والتي تزداد قوتها كلما كبر الموضوع . لا أحد منا استطاع أن يفسر لنفسه ماذا يحدث أن يكون هذا الشيء الفظيع ، ومن أين أتى ، وماذا يمكن أن يفعل ضده . ونظرا لانه لم يحدث من تلقاء نفسه مرة ثانية ، بل ازداد انتشارا باستمرار ، تقرر أخيرا إرسال رسول إلى الامبراطورة الطفولية لنسأها النصح والعون . وهذا الرسول هو أنا .

ونظر الثلاثة الآخرون أمامهم في صمت .

وبعد برهة سُمع الصوت الشاكي لشبح الليل قائلا : « هو هو . نفس الشيء بالضبط هناك من حيث أجيء . وأنا على الطريق أيضا لنفس الهدف - هو هو . »

واتجه المخلوق الدقيق بوجهه ناحية الضوء الضليل ، وزقزق قائلا : « كل واحد منا يجيء من بلد آخر من بلاد فانتازين . وقد تقابلنا هنا بمحض الصدفة . ولكن كل واحد يجلب نفس الرسالة للامبراطورة الطفولية . »

وأن صوت قاضم الصخور قائلا . « وهذا يعني أن كل فانتازين في خطر . » ونظر الضوء الضليل من شخص الى آخر وهو فزع فزع الموت . فصاح وهو يقفز عاليا :

« ولكن غير مسموح لنا إذن أن نضيع لحظة واحدة أكثر من ذلك ! »

فقال المخلوق الدقيق مفسرا : « لقد كنا نريد الرحيل على كل حال . إننا لم نتوقف إلا بسبب الظلام الدامس هنا في غابة ها وليقالد . ولكن الآن حيث إنك معنا ، يا بلوب ، فيمكنك أن تنير لنا . »

فصاح الضوء الضليل : « مستحيل . لا أستطيع أن انتظر واحداً يركب قوقعة ، أسف . »

فقال المخلوق الدقيق وقد جرحت كرامته بعض الشيء : « ولكنها قوقعة - سباق . »

ومس شبح الليل قائلا : « وفوق ذلك - هو هو - وإلا لن نذكر لك ببساطة الاتجاه الصحيح . »

فدمدم قاضم الصخور قائلا : « مع من تتكلمون . بالمناسبة ؟ »

وفي الواقع لم يكن الضوء الضليل قد سمع بعد الكلمات الأخيرة للرسول الآخرين ، ولكنه كان قد قفز بالفعل بعيداً من خلال الغابة في قفزات طويلة .

فأعرب أوكوك المخلوق الدقيق عن رأيه قائلاً وهو يضحك قبعتة الأسطوانية الحمراء الى قفاه : « لا بأس ، وعلى كل حال فان شبح ضوء ضليل لم يكن ربما هو الشيء الصحيح تماما كمنارة للطريق . »

وفي هذه الأثناء امتطى صهوة قوقعته - المخصصة للسباق .
وأبان شبح الليل صائحاً ب «هُهُهُ» خافته منادياً على خفاشة : « وبالنسبة فأننا كنت أفضل أيضا ، أن يسافر كل فرد منا معتمداً على نفسه . وأساساً سوف يطير المرء . »

وهوب ، كان قد ابتعد .
وأطفأ قاضم الصخور نار المخيم بأن هوى عليها عدة مرات بيده المفلطحة .
وسمع وهو يقرقع في الظلام قائلاً : « هذا أفضل لي ، فلن أحتاج إلى الانتباه إذا كنت أبطط أى شيء ضئيل . »

ثم سُمع وهو يسير ببساطة بطرقة وقعقة على دراجته الصخرية الهائلة في الاحراش .

وكان بين الحين والآخر يصطدم بصوت مكتوم بشجرة عملاقة ، ويسمع وهو يدمدم ويحرج بأسنانه . وابتعد الضجيج ببطء في الظلام .

وظل أوكوك المخلوق الدقيق وحيداً ، وأمسك اللجام المصنوع من خيوط الفضة الدقيقة وقال : « حسناً ، سنرى من سيصل أولاً . هيا ، يا عجوزتي ، هيا ! »

ثم لم يُعد يسمع شيء سوى الرياح العاصفة التي كانت تصفر في أفنان غابة هاوليقيالد

ودقت ساعة البرج القرية التاسعة .

ولم ترجع أفكار باستيان إلى الواقع إلا بضجر . وقد كان سعيداً أن « قصة بلا نهاية » ليس لها علاقة بالواقع .

ولم يكن يجب الكتب التي تُحكى له فيها بطريقة كثيفة ومهمومة الأحداث المملة تماماً من الحياة الرتيبة جداً لأي أناس عاديين جداً . فلديه من ذلك الكفاية في الواقع ، ولأى هدف كان عليه أن يقرأ عنهم أيضاً ؟ وخلاف ذلك فكان يكره أن يلاحظ أنه يُقاد إلى شيء ما . وفي هذا النوع من الكتب يكون الهدف دائماً أن يُقاد المرء إلى شيء ما بشكل واضح قلّ أو كثر .

وكان الميل الخاص لدى باستيان للكتب المشوقة أو المرححة أو التي يستطيع الإنسان أن يحلم معها ، كتب تعايش شخصيات خيالية فيها مغامرات رائعة ، ومن حيث يستطيع الإنسان أن يتوسع في خياله لكل ما يمكن . لأن ذلك كان في استطاعته - ولعل هذا كان الشيء الوحيد الذي كان يقدر عليه فعلاً : وهو أن يتخيل شيئاً ، بوضوح لدرجة أنه يكاد يراه ويسمعه . وعندما كان يحكى لنفسه قصصه ، فإنه أحياناً ينسى كل شيء من حوله ولا يستيقظ إلا في النهاية كاستيقاظه من حلم . وهذا الكتاب هنا كان بالضبط من نوع قصصه الخاصة ! فثناء القراءة لم يكن فقط يسمع قرعقة الجذوع السمكية وهدير الرياح في أفنان الأشجار ، ولكن أيضاً الأصوات المختلفة الأنواع للأربعة رسل الغرباء ، بل إنه تصور أنه يشم رائحة الطحالب وأرض الغابة . وإلى أسفل في الفصل بدأت حينذاك حصة الطبيعة التي تتكون أساساً من تعديد أنواع نبت الزهور وكثوس حبوب اللقاح . وكان باستيان سعيداً أنه كان يجلس هناك بأعلى في مخبئه ، ويستطيع القراءة . لقد كان بالضبط هو الكتاب الصحيح بالنسبة له ، هكذا كان رأيه ، الصحيح بالضبط تماماً .

وبعد ذلك بأسبوع وصل فوشفوسول ، شبح الليل الصغير لهدفه كأول واحد . أو بمعنى أصح ، لقد كان مقتنعاً أنه سيكون الأول لأنه كان يركب عبر الأجواء .

لقد كانت ساعة غروب الشمس ، وبدت سحببات سماء المساء كالذهب السائل ، عندما شاهد أن خفاشه يحوم فعلاً فوق حديقة التيه . هكذا كان اسم سهل واسع يصل مداه من الأفق إلى الأفق ، والتي لم تكن سوى حديقة زهور واحدة كبيرة مليئة بعطور تحير الألباب وألوان خيالية . ومن بين الأحراش وأسوار الشجيرات والمروج والأحواض ذات أندر وأغرب الزهور كانت تمتد طرقات واسعة

ومرات ضيقة في تنسيق في وكثير التفرعات لدرجة أن الرقعة الخضراء كلها كانت تكون حديقة تيه ذات اتساع لا يمكن تخيله . وبالطبع كانت حديقة التيه هذه قد أنشئت فقط من أجل اللعب واللهو ، وليس مثلاً لتعريض أحد تعريضاً جاداً للخطر ، ولا لصيد المهاجمين . فهي لن تصلح لذلك الغرض ، وكذلك فإن الامبراطورة الطفولية لم تكن حتى في حاجة لمثل هذه الحماية ، فلا يوجد أحد في كل المملكة الفانتازية التي ليس لها حدود الذي يضطرها لحماية نفسها منه . ولقد كان لذلك سبباً سنعرفه عما قريب .

وبينما كان شبح الليل يحوم على خفاشه بلا صوت تماماً فوق حديقة تيه الزهور هذه ، أمكنه مشاهدة مختلف أنواع الحيوانات النادرة أيضاً . فعلى أرض فضاء بين زهور الليلك وأشجار الأبنوس كانت تلعب مجموعة من حيوانات وحيد القرن الصغيرة في شمس الأصيل ، ولقد شعر مرة فجأة كما لو كان قد لمح طائر الفونيكس^(٦) أو العنقاء الشهير في عشه أسفل زهرة ناقوس عملاقة زرقاء اللون ولكنه لم يكن متأكداً تماماً ، ولم يُرد أيضاً أن يرجع ويعاود الرؤية لكيلا يضيع وقتاً ، فلقد ظهر أمامه بعدئذ وفي وسط حديقة التيه برج العاج متلاًكاً في لون أبيض خلاب ، وهو قلب فانتازين ومقر الامبراطورة الطفولية .

أن كلمة « برج » ربما يمكن أن تثير لدى شخص لم ير هذا المكان مطلقاً ، تصوراً خاطئاً ، مثل تصور برج كنيسة أو برج حصن من الحصون . لقد كان برج العاج في حجم مدينة كاملة ، وكان يبدو من بعيد كمخروط جبل عال مدبب ، ملفوف على نفسه مثل بيت القوقعة ، وأقصى نقطة فيه كانت في السحاب . فقط عند الاقتراب منه يستطيع الإنسان أن يتبين أن قمع السكر العملاق هذا يتركب من أبراج لا تحصى ، وأبراج صغيرة ، وقباب وأسطح ، ومشربيات وشرفات وأقواس بوابات وسلام وتعاريج درابزين ، والتي كانت متداخلة في بعضها وفوق بعضها الآخر . وكل هذا كان مصنوعاً من أكثر العاج الفانتازي بياضاً ، وكل جزء على حدة كان

(٦) فونكس Phonix طائر أسطوري يُقال أنه يحرق نفسه ثم يصعد من الرماد شاباً مرة أخرى ، ولذلك يُعتبر رمز للخلود .

محفوراً بشكل ثمين لدرجة أنه من المحتمل الاعتقاد بأنه شبكات أكثر أنواع الدانتيل دقة .

وكان يعيش في كل هذه المباني حاشية البلاط المحيط بالامبراطورة الطفولية ،
الوصفاء والخادmates ، السيدات الحكيمات والمنجمون ، السحرة والمهرجون ،
سعاة البريد والطهارة ، ولاعبو الاكروبات ، الراقصات على الحبال والقصاصون ،
الرسل ، البستانيون ، الحراس ، الخياطون ، الحذاءون ورجال الكيمياء . وفي
أعلى تماماً ، وعلى أعلى قمة من البرج الهائل كانت تسكن الامبراطورة الطفولية في
كشك كان يتخذ شكل برعمة زهرة مانوليا بيضاء . وفي بعض الليالي عندما يهل
البدر يبهاء خاص في السماء ذات النجوم ، تتفتح الأوراق العاجية باتساع مكونة زهرة
رائعة وفي وسطها تجلس الإمبراطورة الطفولية .

وهبط شبح الليل الصغير بخفاشه على احدى الشرفات السفلية ، هناك حيث
كانت حظائر الركائب . لا بد وأن أحداً ما كان قد أبلغ عن وصوله على ما يبدو حيث
استقبله خمسة من حراس حيوانات الامبراطورية . والذين ساعدوه في الترحل من
السرج ، وانحنوا أمامه وقدموا له بعد ذلك صامتين مشروب التحية الرسمي .
ورشف فوشفوسول قليلاً فقط من الكأس العاجي ، لكي يعطى للرسميات
كفايتها ، ثم أعاده . وشرب كل حارس من الحراس أيضاً جرعة ، ثم انحنوا مرة
أخرى ، وذهبوا بالخفاش إلى الحظائر كل ذلك تم في صمت .

وعندما وصل الخفاش إلى المكان المخصص له ، لم يمس شراباً أو طعاماً ، ولكنه
لف نفسه على الفور وتدلّى برأسه إلى أسفل على خطاف وراح في سبات عميق من
الارهاق لقد كان كثيراً بعض الشيء ، ما كلفه به شبح الليل الصغير . وتركه
الحراس في سلام وانصرفوا على أطراف أصابعهم .

وبالمناسبة ، فقد كانت توجد بالخطيرة هذه ركائب أخرى كثيرة : فيل وردي
وفيل أزرق اللون ، طائر عنقاء عملاق كان نصف جسمه الأمامي يشبه النسر ،
والنصف الخلفي يشبه الأسد ، وحصان أبيض ذو أجنحة كان اسمه مشهوراً فيما
مضى خارج فانتازين أيضاً ، ولكنه نُسى الآن ، بعض الكلاب الطائرة ، وبعض
الخفافيش الأخرى أيضاً ، وحتى حشرات أبو المقص والفراشات المخصصة للفرسان

صغيري الحجم جداً . وفي بيوت الحظائر الأخرى كانت هناك ركائب أخرى لا تطيرو ولكنها تجرى أو تزحف أو تقفز أو تسبح . وكل منهم له حراس مخصصون لرعايته وصيانه .

وكان لا بد اعتبار أنه أمر عادي إذا ما سمع المرء هناك حقاً هرجاً ومرجاً من الأصوات : زئير ، صراخ ، صفير ، زقزقة ، نقيق ، ونقنقة . ولكن ساد صمت تام .

وكان شبغ الليل الصغير مازال واقفاً في المكان الذي تركه فيه الحارس . وشعر فجأة بالانكسار واليأس ، دون أن يعرف بحق لأي سبب . وكان أيضاً منهك القوى من الرحلة الطويلة جداً . وحتى حقيقة أنه أول الواصلين ، لم تدخل السرور على نفسه .

وفجأة سمع صوتاً صغيراً يزقزق قائلاً : « هالو ، أليس هذا هو الصديق فوشفوسول ؟ كم هو جميل أنك أيضاً أخيراً هنا . »

ونظر شبغ الليل حوله ، وتوهجت عيناه القمريتان عجباً ، لأن المخلوق الدقيق أو كوك كان يقف هناك على درابزين وهو متكئ بلا مبالاة على أصيص زهور عاجي ويلوح بقبعته الاسطوانية الحمراء .

وأطلق شبغ الليل صيحة « هُوهُو » وهو في أشد الدهشة ، وبعد برهة صاح مرة أخرى « هُوهُو » فلم يخطر بباله قط شيء آخر أكثر مغزى .

وقال المخلوق الدقيق شارحاً : « إن الاثنين الآخرين لم يصلا بعد حتى الآن . وأنا هنا منذ صباح أمس . »

فسأل شبغ الليل : « كيف - هُوهُو - حدث هذا ؟ »

فقال المخلوق الدقيق ، بابتسامة توحى بعض الشيء بشعوره بالتفوق : « لقد سبق أن قلت لك ، أن لدى قوقعة - سباق » .

وحك شبغ الليل شعر رأسه الكث الأسود بيده الصغيرة الوردية . وقال بصوت شاك : « يجب أن أذهب فوراً إلى الامبراطورة الطفولية . »

ونظر إليه المخلوق الدقيق متاملاً وقال : « هُم ! حسنٌ ، لقد سجلت اسمي أمس » .

وتساءل شبح الليل قائلاً : سجلت اسمك ؟ ألا يستطيع الإنسان أن يذهب إليها على الفور ؟ » .

فزفرك المخلوق الدقيق قائلاً : « أخشى أن تكون الإجابة بلا ، لا بد أن ينتظر الإنسان وقتاً طويلاً . فهناك - ماذا أقول - زحمة هائلة من الرسل هنا . »

فقال شبح الليل مولولاً : « هُوهُو ! لماذا ؟ »

وشقق المخلوق الدقيق قائلاً : « من الأفضل أن ترى الأمر بنفسك . تعال يا عزيزي فوشفوسول ، تعال . »

ومشياً كلاهما معاً . وكان الشارع الرئيسي الذي يسير في شكل حلزوني يزداد ضيقاً حول برج العاج متجهاً إلى أعلى ، يتلىء بكمية مكدسة من أغرب الأشكال . جن عمالقة تزين العمائم رؤوسهم ، أشباح ضئيلة ، عفاريت ذات ثلاثة رؤوس ، أقزام ملتحون ، جنيات مضيئة ، عفاريت لهم أرجل كباش ، حاملات الدروع ولهن فروة ذهبية الشعر ، أشباح جليد يلمعون ، وكائنات أخرى لا تحصى كانت تسير متحركة إلى أعلى وأسفل الطريق ، أو تقف في جماعات مع بعضها ويتحدثون بصوت خافت أو يجلسون القرفصاء على الأرض صامتين كذلك ويحملون أمامهم في كَدْر .

وعندما رأهم فوشفوسول ، ظل واقفاً .

وقال : « هُوهُو ! ماذا يجري هنا ؟ ماذا يفعل كل هؤلاء هنا ؟ »

فأبان أوكوك بصوت خافت : « كل هؤلاء رسل ، رسل من جميع أنحاء فانتازين . والجميع معهم نفس الرسالة مثلنا . لقد تحدثت مع كثير منهم . ويبدو أن نفس الخطر قد أندلع في كل مكان » .

وصدرت تنهيدة طويلة شاكية مسموعة من شبح الليل .

وقال متسائلاً : « وهل يُعرف ما هو ومن أى مكان يأتى ؟ »

— « أخشى أن تكون الإجابة بلا . لا أحد يمكنه تفسير ذلك . »

— « ولا الإمبراطورة الطفولية نفسها ؟ »

فقال المخلوق الدقيق بصوت خافت : « الإمبراطورة الطفولية مريضة جداً جداً . ربما هذا هو سبب الشقاء الغامض التى ابتلى فانتازين . ولكن حتى الآن لم يعرف واحد من الأطباء العديدين المتجمعين فى دائرة القصر هناك إلى أعلى عند كشك زهرة المانوليا ، أى مرض هى مصابة به ، وماذا يمكن أن يفعل ضده . لا أحد يعرف دواءً لذلك . »

فقال شبح الليل بصوت مكتوم : « أن هذه — هُوهُو ! — لكارثة . »

فرد المخلوق الدقيق : « أجل ، إنها كذلك »

وتحت هذه الظروف تغاضى قوشفوسول مبدئياً أن يسجل نفسه لدى الامبراطورة الطفولية .

وبعد ذلك بيومين وصل أيضاً الضوء الضليل بلوب الذى كان بالطبع قد مشى فى الاتجاه الخاطيء وبهذا سار طريقاً لافاً هائلاً .

وأخيراً — وبعد ثلاثة أيام أخرى بعد ذلك — وصل أيضاً قاضم الصخور بيورنراخ تسارك وقد جاء وهو يدب الأرض بقدميه ، لأنه كان قد التهم فى نوبة جوع شديدة مفاجئة دراجته الصخرية — والتى كانت تقريباً هى مؤونته فى رحلته .

وفى أثناء فترة الانتظار الطويلة نشأت صداقة حميمة بين الرسل الأربعة غير المتماثلين ، وبقوا كذلك معاً فيما بعد .

ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تُحكى فى مناسبة أخرى .

استدعاء أتريو



بشكل معتاد كانت تُعقد المشاورات التي تتعلق برفاهية وأتراح فانتازين كلها في قاعة العرش الكبرى من برج العاج ، والتي تقع داخل الدائرة الفعلية للقصر على بعد عدة طوابق فقط أسفل كشك زهرة المانوليا .

وكانت هذه الغرفة الواسعة المستديرة حينئذ تمتلئ بيلبلة من الأصوات المكتومة . فقد كان أفضل أطباء المملكة الفانتازية كلها الـ ٤٩٩ مجتمعين هناك وكانوا يتحدثون بهمس أو همهمة مع بعضهم في مجموعات صغيرة أو كبيرة . كل واحد منهم قد زار الإمبراطورة الطفولية - بعضهم منذ بعض الوقت ، وآخرون منذ فترة قصيرة فقط - ، وكل واحد حاول أن يساعدها بفنه . ولكن لم يوفق واحد منهم ، ولم يعرف واحد منهم مرضها وسببه ، ولم يعرف واحد منهم كيف يستطيع شفاءها . الطبيب الـ ٥٠٠ ، وهو أشهر جميع أطباء فانتازين ، والتي تقول عنه الحكايات إنه لا يوجد عشب ولا وسيلة سحر وسر من أسرار الطبيعة غير معروف لديه ، قد كان حينئذ لدى المريضة منذ ساعتين فعلاً ، والجميع في انتظار نتيجة فحصه بشوق .

والآن لا يصح بالطبع أن نتخيل مثل هذا الاجتماع كمؤتمر أطباء من البشر . صحيح أنه كانت توجد في فانتازين كثير من الكائنات التي تشبه البشر في قليل أو كثير من ناحية شكلها الخارجي ، ولكن كان هناك على الأقل في مثل كثيرتهم ما يشبه حيوانات أو مخلوقات ذات صفات تامة الاختلاف على الإطلاق . ومثلها كانت مجموعة الرسل مختلفة الأشكال والتي كانت تسرع بالخارج ، فقد كانت الجماعة في القاعة هناك متعددة الأنواع كذلك . فقد كان هناك أطباء أقزام ذوى لحى بيضاء وحببات على ظهورهم ، وكانت هناك طبيبات جنيات في ملابس زرقاء فضية لامعة

ونجوم متلاثلة في شعورهن . وكان هناك رجال من جن المياه ذوى بطون بدينة وجلود معينة على السباحة في أيديهم وأرجلهم (وقد وُضعت لهم خصيصاً أحواض استحمام للجلوس) ، ولكن كانت هناك أيضاً ثعابين بيضاء كانت متكورة على بعضها على المنضدة الطويلة في وسط القاعة ، وكانت هناك جنيات نحل ، وحتى سحرة ومصاصو الدماء وأشباح لا تعتبر عامة خيرة ومفيدة للصحة بوجه خاص .

ولكى يدرك الإنسان حضور المذكورين مؤخراً ، يجب أن يعرف بالضرورة شيئاً : لقد كانت الإمبراطورة الطفولية – كما يصرح بذلك لقبها – تعتبر حاكمة على البلاد التي لا تخصى عدداً للملكة الفانتازية التي لا حدود لها ، ولكنها في الحقيقة كانت أكثر بكثير من حاكمة ، أو بمعنى أفضل ، لقد كانت شيئاً مختلفاً تماماً .

فلم تكن تحكم ، وهي لم تستعمل القوة مطلقاً أو لم تستعمل سلطتها ، ولم تكن تصدر الأوامر ، ولم تحكم على أحد ولم تتدخل أبداً ، ولم تضطر أبداً أن تدافع عن نفسها ضد أى مهاجم ، لأنه لن يخطر ببال أحد أن يثور عليها أو يفعل بها شيئاً . فقد كان الجميع أمامها سواء .

فقط قد كانت موجودة ، ولكنها كانت موجودة بشكل خاص : فقد كانت هي محور كل الحياة في فانتازين .

وكل مخلوق سواء كان خيراً أو شريراً ، جميلاً أو قبيحاً ، مرحاً أو جاداً ، أبلهاً أو حكيماً ، فالجميع ، الجميع لم يكونوا موجودين إلا عن طريق وجودها . بدونها لم يكن ممكناً أن ينشأ أى شيء ، مثل إمكانية نشأة جسد إنسانى لم يعد له قلب .

ولم يكن أحد يستطيع أن يدرك تماماً سرها ، ولكن الجميع كانوا يعرفون أن الأمر هكذا . وهكذا فقد كانت جميع مخلوقات هذه المملكة يحترمونها على قدر المساواة ، والجميع كان يشعر بنفس القدر بالخوف على حياتها . لأن موتها سيكون في نفس الوقت نهاية الجميع ، زوال مملكة فانتازين الهائلة .

وسرحت أفكار باستيان .

فاستعاد في ذاكرته مشهد طريقة المستشفى الطويلة أمامه ، وحيث أُجريت لأمه

عملية جراحية فيها . فقد جلس مع والده ساعات طوال أمام قاعة العمليات ينتظر وكانت الممرضات والأطباء يجرون هنا وهناك . وعندما كان الوالد يسأل كيف حال الأم ، لم يكن يتلقى سوى إجابات متهربة . وقد بدا أن أحدا لا يعرف بشكل صحيح ماذا بها . وأخيرا جاء رجل أصلع مرتديا معظفا أبيض يبدو عليه التعب والحزن . وقال لهم إن جميع المجهودات قد ذهبت سُدى . وإنه آسف لذلك . وشد على أيديهما وتمتم قائلا : « تعازي القلبية » .

وبعد ذلك أصبح كل شيء مختلفاً بين باستيان ووالده . ليس من الظاهر ، فقد كان لدى باستيان كل شيء يمكن أن يتمناه . كان يمتلك دراجة ذات ثلاث سرعات ، قطار سكة حديد كهربائي ، كثير من أقراص الفيتامينات ، ثلاثة وخمسين كتابا ، حيوان اليربوع الأليف ، حوض ماء أسماك المياه الدافئة ، جهاز تصوير صغير ، ستة مديات جيب عملية ، وكل ما يمكن من الأشياء الأخرى . ولكن في الحقيقة كان كل ذلك بالنسبة له غير ذات أهمية .

وتذكر باستيان أن الوالد كان فيما مضى يجب أن يخرج معه . بل كان أحيانا يحكى له قصصاً أو يقرأها عليه . ولكن هذا انتهى منذ ذلك الوقت . فلم يعد يستطيع أن يتحدث مع والده . لقد كان حوله فيما يشبه الجدار الذي لا يمكن لأحد اختراقه . فلم يكن يسب أبدا ولا يمدح أبدا . وحتى عندما رسب باستيان في المدرسة ، لم يقل أبوه شيئا . فهو لم يشاهده إلا على هذه الحالة الشاردة والمهمومة ، وكان باستيان يشعر أنه غير موجود هناك . وهذا الشعور كان ينتابه غالباً تجاه والده . وعندما كانا يجلسان في المساء أمام جهاز التلفزيون ، يلاحظ باستيان أن الوالد لا يشاهد مطلقاً ، ولكنه بعيد بعيد بأفكاره ، حيث لا يمكنه إدراكه . أو أحيانا ، عندما يكون لديها كتاب واحد ، كان باستيان يرى أن الوالد لا يقرأ على الإطلاق ، لأنه كان ينظر بالساعات إلى نفس الصفحة دون أن يقلبها .

لقد كان باستيان يدرك فعلا أن أبيه حزينا . وهو نفسه بكى في ذلك الوقت ليال كثيرة ، بكى بكثرة لدرجة أحيانا كان يضطر إلى الاستفراغ من النحيب - ولكن ذلك زال شيئا فشيئا ثم إنه كان مازال موجوداً . لماذا لا يتحدث الوالد معه أبداً ؛ ليس عن الوالدة ، وليس عن أشياء هامة ، ولكن فقط عن أهم الضروريات ؟ .

وقال شبح طويل نحيل من أشباح النيران وكانت له لحية من السنة اللهب الحمراء : « لو يعرف الإنسان فقط في أى شيء يكمن مرضها . فهي ليست لديها حمى ، ولا شيء متورم ، ولا طفح جلدي ولا التهاب . فهي ببساطة كما لو كانت في احتضار - ولا يُعرف السبب » .

وعندما كان يتكلم ، كانت تتصاعد بعد كل جملة سحبات دخان صغيرة من فمه مكونة أشكالاً ، وكانت هذه المرة على شكل علامة استفهام .

وأجاب غراب عجوز منتوف الريش ، والذي كان يبدو كشمرة بطاطس كبيرة ، قد شبك أحدهم فيها بضعة ريشات سوداء بطريقة عشوائية ، قائلاً بصوت ناعق (وقد كان أخصائياً في أمراض البرد) : « إنها لا تسعل وليس عندها زكام ، ليس بمرض على الإطلاق بالمعنى الطبى » .

وزحزح النظارة الكبيرة من فوق منقاره ونظر إلى الواقفين حوله متحدياً .

وزام جعران بصوته قائلاً (وهو خنفس يسمى أيضاً « لفاف الحبوب »^(٧)) : « وعلى كل حال هناك شيء يبدو احتمالاً ، فتوجد بين مرضها والأشياء المرعبة التي ينبثونا بها الرسل من جميع أنحاء فانتازين علاقة غامضة » .

فاعترض ذكر من أسماك أم الحبر ساخراً : « يا سلام عليك ، إنك ترى دائماً وفي كل مكان علاقات غامضة » . فصرصر الجعران بصوته غاضباً وقال : « وأنت لا ترى مطلقاً أبعد من حافة محبرتك » .

فصاح شبح غائر الوجنتين حينئذ شاكياً وهو بداخل معطف أبيض طويل : « أيها السادة الزملاء . إننا لا نريد أن نُقحم أنفسنا في منازعات شخصية غير موضوعية . وقبل كل شيء أخفضوا من أصواتكم » .

ومثل هذه الأحاديث وما يشابهها كانت في كل مكان من قاعة العرش الكبرى . وربما يمكن أن يبدو عجباً أن كائنات مختلفة أنواعها على هذا النحو كانت تستطيع أن

(٧) سُمي هكذا على ما يبدو لأنه يجرّك أرجله التي يعلق بها التراب حركة دائرية وتتكون بذلك كريات من التراب والطين ، والمؤلف يرمز هنا أيضاً بشكل ساخر إلى الحبوب التي توصف للمرضى .

تفاهم مع بعضها بوجه عام . ولكن في فانتازين كانت جميع الكائنات تقريباً تتقن لغتين على الأقل : أولاً لغتهم الخاصة التي يتحدثونها فقط مع أمثالهم ولا يفهمها أى شخص غريب ، وثانياً لغة عامة تسمى اللغة الفانتازية الفصحى أو أيضاً اللغة العظمى ، وكان كل فرد يتقنها وإن كان البعض يستعملها بشكل غريب .

وفجأة ساد صمت في القاعة ، واتجهت عيون الجميع ناحية الباب الكبير ذى المصرعين الذى فُتح . ودخل كايرون ، عالم الطب المشهور الذى تدور حوله الحكايات .

لقد كان ما يسمى في العصور القديمة سينتاور ، فقد كانت له هيئة البشر حتى الأرداف والجزء الباقي كان جسم حصان . ولكن كايرون كان ما يسمى بسينتاور – أسود . فقد كان من منطقة نائية جداً ، تقع بعيداً ، بعيداً في الجنوب . فقد كان جزؤه البشرى بلون الأبنوس ، فقط شعر رأسه وذقنه كان أبيض ومجعداً ، أما جسده الحصانى فقد كان مخططاً كما هو الحال لدى الحمار الوحشى . وكان يرتدى قبعة غريبة من الخوص المجدول . ومن حول رقبتة كان يتدلى حجاب ذهبي كبير من سلسلة ، وكان يرى عليه ثعبانان ، واحد فاتح اللون وواحد داكن اللون يعض كل منهما الآخر في ذيله ويكونان شكلاً بيضواياً .

وتوقف باستيان وقد فوجيء . وأغلق الكتاب – ليس بدون أن يترك إصبعه بحذر بين الصفحات – ونظر مرة أخرى يامعان تام إلى الغلاف . فكان هناك حقاً الثعبانان اللذان يعضان ذنب بعضهما ويكُونان شكلاً بيضواياً . ترى ماذا كانت تعنى هذه العلامة الغريبة ؟

كل فرد في جميع أنحاء فانتازين كان يعرف ماذا تعنى هذه الميدالية ؟ لقد كانت علامة من كان في مهمة لدى الإمبراطورة الطفولية ، ومن كان يستطيع أن يتصرف باسمها كما لو كانت هي نفسها موجودة .

وكان يُقال أنها تمنح حاملها قوى خفية ، بالرغم من أن لا أحد كان يعرف بالضبط ما هي . وكل فرد كان يعرف اسمها : أورين .

ولكن كثيرين من الذين يخشون النطق بهذا الاسم ، كانوا يطلقون عليها اسم « الجوهرة » أو أيضا « البانتاكل »^(٨) أو ببساطة فقط « البريق » .

إذن فالكتاب أيضا كان يحمل علامة الامبراطورة الطفولية !

دار همس خلال القاعة وُسِّمعت بعض صيحات الدهشة ، فلم يحدث منذ وقت طويل أن عُهدت الجوهرة لأحد الأشخاص .

ودب كايرون بحوافره عدة مرات إلى أن هدأ الاضطراب ، ثم قال بصوت عميق : « أيها الأصدقاء ، لا تتعجبوا أكثر من اللازم ، إننى سأحمل أورين لوقت قصير فقط . ما أنا إلا موصل له وقريباً سأسلم « البريق » إلى شخص أحق به . وانتشر سكون بلا نفس بالقاعة .

واستأنف كايرون كلامه قائلاً : « إننى لا أريد أن أخفف من هزيمتنا بكلمات جميلة . إننا جميعا نقف حائرين أمام مرض الإمبراطورة الطفولية . إننا لا نعرف سوى أن فناء فانتازين قد جاء في نفس الوقت مع هذا المرض . ولا نعرف أكثر من ذلك . ولا حتى إذا كان فن الطب عامة هو الذى يستطيع إنقاذها . ولكنه من المحتمل – وأرجو ألا تصيب أحد منكم إهانة عندما أقولها صراحة – من المحتمل أننا نحن المجتمعون هنا لا نملك كل المعارف ، ولا كل الحكمة . وفوق ذلك فإن أملى الأخير والوحيد أن يكون فى مكان ما فى هذه المملكة التى لا حدود لها كائن أكثر حكمة منا ويمكنه أن يمنح العون والنصيحة . ولكن هذا أكثر من مشكوك فيه . ومهما كانت إمكانية النجاة كامنة فى مكان ما – فهناك أمر مؤكد : إن البحث عنها يتطلب شخصاً مقتفياً للأثر يستطيع اكتشاف مسالك فى الطرق الوعرة ولا يتراجع أمام

(٨) هذا الاسم Pantakel مشتق من كلمتين ، الأولى Pan بمعنى جميع أو كل أو مشمول ، والثانية Takel بمعنى البكرة الرافعة التى تستخدم لشد حبال أشراع المراكب الشراعية ، أى أن الاسم كله – وهو أيضا تركيب جديد من ابتكار المؤلف – يمكن أن يعنى الرافعة الشمولية أى التى يمكنها أن تشد وترفع كل شىء .

خطورة ولا عناء ، باختصار : بطلا . وقد ذكرت لى الإمبراطورة الطفولية اسم هذا البطل الذى تعهد إليه مصيرها ومصيرنا جميعا : إنه يسمى أتريو وهو يسكن فى بحر الأعشاب خلف جبال الفضة . وسوف أسلم له أورين وأبعثه إلى مهمة البحث الكبرى . والآن أنتم تعلمون كل شىء . » . وبذلك خرج السيتاور العجوز من القاعة محدثاً ضجيجاً .

ونظر الباقون لبعضهم حائرين .

وسأل أحدهم : « كيف كان اسم هذا البطل ؟ » .

وقال آخر : « أتريو أو ما شابه ذلك » .

وقال ثالث : « لم أسمع به أبداً وجميع الأطباء الـ ٤٩٩ هزوا رؤوسهم

مهمومين

ودقت ساعة البرج العاشرة . وتعجب باستيان كيف انقضى الوقت بسرعة .

فى أثناء الدراسة كانت كل حصّة تبدو عادة كتصغير للأزل . تحت فى الفصل كان عندهم حينئذ تاريخ لى السيد درين ، وهو رجل نحيل عكر المزاج فى أغلب الأحيان ، والذى كان يحلوه بوجه خاص أن يستهزىء بباستيان أمام الجميع لمجرد أنه لم يكن يستطيع حفظ سنوات المعارك ، وتواريخ ميلاد وفترات حكم أى أناس .

لقد كان بحر الأعشاب الواقع خلف جبال الفضة يبعد عن برج العاج بسفر أيام كثيرة كثيرة . وكان عبارة عن مروج حشائش الإستبس التى كانت فعلاً واسعة وكبيرة ومسطحة كأحد البحور . وكانت تنمو أعشاب لينة بارتفاع الرجال ، وعندما تهب عليها الرياح ، تسرى أمواج فوق السهول مثلما هو الحال فوق المحيط ، وتحدث هديرأ كالماء .

والشعب الذى كان يعيش هناك ، كان يسمى « قوم الأعشاب » « أو أيضا « أصحاب الجلود الخضراء » فقد كانت لهم شعور زرقاء بسواد ، وكان جلدهم ذا لون أخضر داكن مائل قليل إلى اللون البنى — مثل الزيتون . وكانوا يعيشون حياة قاسية صارمة وقانعة لأبعد الحدود ، وأبناؤهم صبيان وبنات كانوا يُربّون على

الشجاعة والكرم والإيثار وكان عليهم أن يتعلموا تحمل الحر والبرد وقدر كبير من
تحتف ويشتو شجاعتهم وكان هذا ضرورياً لأن أصحاب الجلود الخضراء كانوا
شعباً من الصيادين . وكل ما كانوا يحتاجون إليه في معيشتهم ، كانوا يصنعونه إما
من أعشاب البراري الصلبة ذات الألياف ، أو يأخذونه من الجواميس الأرجوانية
التي كانت تسير في قطعان هائلة فوق بحر الأعشاب .

وكانت هذه الجواميس الأرجوانية تقريباً ضعف حجم الثيران والأبقار العادية ،
ولها جلد أحمر أرجواني وقرون هائلة أطرافها قاطعة وصلبة كالخناجر . وكانت مسالمة
بوجه عام ولكن عندما تشم رائحة الخطر أو تشعر بالهجوم ، يمكن أن تصبح مرعبة
كإحدى قوى الطبيعة ، لا أحد غير أصحاب الجلود الخضراء يمكنه أن يجرؤ على
مطاردة هذه الحيوانات – وفوق ذلك فقد كانوا يفعلون هذا بالقوس والنبال فقط .
وكانوا يفضلون قتال الفروسية ولذلك كثيراً ما كان يحدث أنه ليس الحيوان هو الذي
يضطرب لفقد حياته ولكن الصياد . وكان أصحاب الجلود الخضراء يحبون ويكرمون
الجواميس الأرجوانية ، وكانوا يرون أن اكتساب الحق في قتلها لا يتأتى إلا في حالة
استعداد المرء لأن تقتله هي .

ولم يكن خبر مرض الإمبراطورة الطفولية والمصير الذي يهدد جميع أنحاء
فانتازين قد وصل بعد إلى هذه البلاد . فلم يكن أحد من المسافرين قد أتى إلى
مخيمات أصحاب الجلود الخضراء منذ وقت طويل . وقد نما العشب لنا أكثر من أي
وقت مضى وكان النهار أكثر ضياءً والليل مليئاً بالنجوم . وكل شيء بدأ طيباً .

ولكن في يوم من الأيام ظهر سيتاور – أسود عجوز أبيض الشعر في المخيم .
وكان جلده يقطر عرقاً ، وكان يعطى انطباعاً بأنه مرهق لدرجة مميتة وكان وجهه
الملتحق نحيلاً ومنهكاً . وكان يحمل على رأسه قبة غريبة من الخوص المجدول
وتدلى من رقبتها سلسلة عليها حجاب ذهبي كبير . لقد كان كايرون .

ووقف وسط المكان الخالي الذي تحيط به خيام المعسكر في حلقات تزداد اتساعاً
باستمرار ، هناك حيث يلتقى كبار السن للتشاور أو حيث تقام الرقصات وتُنشد
الأغاني في أيام الأعياد .

وانتظر ونظر حوله ، ولكن لم يتزاحم حوله غير الرجال والنساء العجائز جداً والأطفال الصغار جداً ، الذين يحملون فيه بفضول . ودب بحوافره وهو نافذ الصبر .

وقال وهو ينفخ وقد خلع قبعته وجفف جبينه : « أين الصيادون والصيدات ؟ » .

وأجابت امرأة بيضاء الشعر وعلى ذراعها طفل رضيع : « إنهم جميعاً في الصيد . ولن يعودوا إلا بعد ثلاثة أو أربعة أيام » .
وسأل السيتاور : « وهل أتريو معهم أيضاً ؟ » .
- « أجل أيها الغريب ، ولكن من أين تعرفه ؟ » .
- « أنا لا أعرفه . اتتوني به » .

فرد رجل عجوز بعكازين : « أيها الغريب ، انه سيأتى كارها ، لأن اليوم يوم صيده وهو يبدأ عند غروب الشمس . أتدرى ماذا يعنى هذا ؟ » .

وهز كايرون شعر عرفه بالنفى ودب بحوافره وقال : « لست أدري ، وليس لهذا أهمية أيضاً ، لأن عليه أن يقوم بشيء أهم . أنتم تعرفون هذه العلامة التى أحملها ، احضروه إذن » .

فقال فتاة شابة : « إننا نرى الجوهرة ونعرف أنك تأتى من عند الإمبراطورة الطفولية . ولكن من أنت ؟ » .

ودمدم السيتاور قائلاً : « اسمى كايرون ، الطبيب كايرون ، إذا كان لذلك دلالة عندكم » .

وتزاحمت امرأة مخرية الظهر متقدمة إلى الأمام صائحة : « نعم ، حقا . إننى أتعرف عليه مرة ثانية . لقد رأيته مرة عندما كنت مازلت صغيرة السن . إنه أشهر وأعظم طبيب فى جميع أنحاء فانتازين » .

فانحنى لها السيتاور وقال : « شكراً ، سيدتى ، والآن فرجما يتلطف أحدكم ويأتى بأتريو هذا . فالأمر عاجل . إن حياة الإمبراطورة الطفولية فى خطر » .

فصاحت فتاة صغيرة والتى ربما فى الخامسة أو السادسة من عمرها : « أنا

سأقوم بذلك » .

وجريت بعيدا ، وبعد ثوان قلائل رؤيت بين الخيام وهى تسرع فوق حصان بدون سرج .

فقال كايرون متبرماً : « أخيراً » ثم انهار مغشياً عليه .

وعندما عاد إلى رشده ، لم يكن يدرى أين هو لأن الدنيا كانت مظلمة من حوله . ولكن شيئاً فشيئاً اتضح له أنه فى خيمة واسعة وأنه يرقد فوق أغطية لينة من الجلود . ويبدو أن الوقت كان ليلاً ، فقد اقتحم شعاع متحرك من النار عبر شق فى ستار الباب .

فدمدم وهو يحاول النهوض قائلاً : « ياخبر . منذ كم من الوقت وأنا راقد هنا على هذا الحال ؟ »

وطل رأس من خلال ستار الباب وانسحب مرة أخرى ، وقال شخص ما : « أجل ، يبدو أنه قد استيقظ » .

ثم سُحب ستار الباب جانبا ، ودخل صبي فى العاشرة من عمره تقريبا . وكان نصف جسده الأعلى عارياً ، ولم يكن هناك سوى رداء أحمر أرجوانى يتدلى من حول كتفيه حتى الأرص ، وعلى ما يبدو كان من نسيج شعر الجاموس . وشعره الطويل الأزرق اللون بسواد كان مربوطا خلف رأسه بأشرطة جلدية مكوّناً خصلة من الشعر . وعلى جلد جبهته ووجنتيه ذى اللون الأخضر الزيتونى كانت بعض الزخارف البسيطة مرسومة بلون أبيض وعيناه الداكنتان تبرقان ناظرة إلى الشخص الدخيل ، وخلاف ذلك فلم يكن هناك أى انفعال ملحوظ على قسماته .

وتساءل قائلاً : « ماذا تريد منى ، أيها الغريب ؟ لماذا أتيت إلى خيمتى ؟ ولماذا أخذت منى صيدى ؟ فلو أننى اليوم كنت قتلت الجاموس الكبير - وكان السهم فعلاً على الوتر ، عندما صاح أحدهم على - ، لأصبحت غدا صيادا . والآن لا بد لى أن أنتظر عاما كاملاً . لماذا ؟ » .

فحملق فيه السيتاور العجوز مأخوذاً .

وأخيراً تساءل قائلاً : « أيعنى ذلك ، أن أتربو هذا هو أنت ؟ » .

– « أجل ، أيها الغريب » .

– « أليس من المحتمل أن يكون هناك شخص آخر ، رجل يافع ، صياد خبير لهذا الاسم ؟ » .

– « لا ، أنا أتريو ، وليس شخصاً آخر » .

وهوى كايرون العجوز فوق المخدع وقال لاهتا : « طفل . صبي صغير . حقا ، إن قرارات الإمبراطورة الطفولية يصعب فهمها » .
وصمت أتريو وانتظر بدون أن يتحرك .

وقال كايرون الذى لم يستطع ضبط انفعاله إلا بجهد : « اعذرنى يا أتريو ، لم يكن قصدى إهانتك ، ولكن الأمر أتى مفاجئاً لى فقط . وبأمانة فأنا غير متمالك لنفسى ولم أعد أدرى ما ينبغى التفكير فيه . فأنا أتساءل جديدا إذا كانت الإمبراطورة الطفولية تدرى فعلاً ماذا فعلت عندما اختارت طفلاً مثلك . إن هذا جنون بين ! وإن كانت قد فعلته بنية كاملة ، إذن . . إذن » . . وهز رأسه بعنف وصاح قائلاً : « لا ، لا ، لو كنت أعرف إلى من هى ترسلنى لرفضت ببساطة ، أن أبلغك أمر تكليفها . كنت رفضت » .

فسأل أتريو : « أى أمر تكليف ؟ » .

فصاح كايرون الذى تملكه الغضب حينئذ : « إنه لأمر فظيع . إن تنفيذ أمر تكليفها ربما يكون ضرباً من المستحيل حتى بالنسبة لأعظم الأبطال وأكثرهم خبرة ، ولكن بالنسبة لك . . إنها ترسلك للبحث عن المجهول ، عن شىء لا يعرفه أحد . لا أحد يستطيع مساعدتك ، لا أحد يستطيع نصيحتك . لا أحد يستطيع أن يعرف ما سوف يواجهك . وبالرغم من ذلك يجب عليك أن تقرر فوراً ، الآن حالا ، وعلى التو ، إذا كنت تقبل أمر التكليف أم لا . فلا ينبغى تضييع أى لحظة أخرى . لقد عدوت عشرة أيام وليال دون راحة تقريباً لكى أصل إليك . ولكن الآن – الآن أكاد أتمنى لو أننى لم أجيء إلى هنا أبداً . فأنا عجوز جداً ، وفى نهاية قواى . إعطنى جرعة ماء ، من فضلك ! » .

وأحضر أتريو إناء به ماء آبار منعشة . وشرب السيتاتور على دفعات طويلة ،

ثم مسح لحيته وقال بهدوء أكثر قليلا : « آه ، شكرا ، انه لمنعش . والآن أشعر بتحسن ، اسمع ، يا أتريو أنت لست مضطراً لقبول هذه المهمة . إن الإمبراطورة الطفولية تترك الأمر لك . وهى لا تأمر بك بشيء . وسوف أشرح لها وهى سوف تعثر على شخص آخر . فلا يمكن أن تكون قد عرفت أنك صبي صغير . لقد خلطت بينك وبين شخص آخر ، إن هذا هو التفسير الوحيد » .

وقال أتريو وهو يريد أن يعرف : « فى أى شىء تتمثل المهمة ؟ » .

فأجاب السييتاور العجوز : « أن تعثر على دواء للإمبراطورة الطفولية وتنقذ فانتازين » .

فتساءل أتريو متعجبا : « هل هى مريضة ؟ » .

وأخذ كايرون يحكى عن حالة الإمبراطورة الطفولية وما أخبر به الرسل من جميع أجزاء فانتازين . واستمر أتريو يطرح مزيدا من الأسئلة ، والسييتاور يعط معلومات على قدر استطاعته . وأصبح حديثا ليليا طويلا . وكلما ازداد إدراك أتريو للمدى الكامل للمصير الذى اجتاحت فانتازين فجأة ، ازداد وضوح الدهشة الظاهرة التى ارتسمت على وجهه الذى كان جامد التعبير فى بادئ الأمر .

وأخيرا تتم بشفتين شاحبتين قائلاً : « وكل هذا لم أكن أعرفه » .

ونظر كايرون من تحت حاجبيه ذات الشعر الكث الأبيض نظرة جادة وحزينة ، وقال : « والآن أنت تعرف مجرى الأمور ، وربما تدرك الآن لماذا لم أتمالك نفسى عندما رأيتك . ولكن الإمبراطورة الطفولية ذكرت اسمك وقالت لى : اذهب وزر أتريو ، وقالت : إننى أضع كل ثقى به . وقالت : اسأله إذا كان يريد أن يأخذ على عاتقه مهمة البحث الكبرى من أجلى ومن أجل فانتازين ، ولست أدرى لماذا وقع اختيارها عليك . ربما لا يستطيع القيام بهذه المهمة المستحيلة إلا صبي صغير مثلك . لست أدرى ولا أستطيع تقديم المشورة إليك » . وجلس أتريو مطرق الرأس صامتا . لقد أدرك أنه وُضع هنا فى اختبار أكبر بكثير جدا من صيده . وحتى بالنسبة لأعظم الصيادين وأحسن مقترف للأثر يكاد لا يمكن اجتيازه ، وكان بالنسبة له أصعب من اللازم

وقال السييتاور العجوز مستفهما : « والآن ، هل تريد ؟ » .

ورفع أتريو رأسه ونظر إليه .

وقال بثبات : « أنا أريد » .

وهز كايرون رأسه ببطء ، ثم أخذ السلسلة بالحجاب الذهبي من رقبتة ووضعها حول رقبة أتريو . وقال بتأثر مهيب : « أورين يمنحك قوة كبيرة ، ولكن لا يجوز لك استعمالها . لأن حتى الإمبراطورة الطفولية لا تستعمل سلطتها أبدا . أورين سوف يحميك ويقودك ، ولكن غير مسموح لك أن تتدخل أبدا ، مهما رأيت لأن رأيك الخاص لن يُعمل له حساب ابتداء من هذه اللحظة . ولذلك يجب عليك أن ترحل بدون سلاح . لا بد أن تترك ما يحدث يحدث . وكل شيء يجب أن يكون بالنسبة لك متساويا ، الشر والخير ، الجميل والقيبح ، الأبله والحكيم ، كما هو متساو أمام الإمبراطورة الطفولية . ليس لك إلا البحث والسؤال ، ولكن ليس لك أن تحكم تبعا لحكمك الخاص . لا تنس هذا أبدا ، يا أتريو » .

وقال أتريو بإجلال مكررا : « أورين ! إني أنوى أن أثبت جدراقي بالجوهرة . متى ينبغي على بداية الرحلة ؟ » فأجاب كايرون : « الآن ، حالا . لا أحد يعرف كم من الوقت ستستغرق مهمتك الكبرى في البحث . ومن المحتمل أنه من الآن سيُعمل حساب لكل ساعة . هيا ، ودّع والديك وإخوتك » .

فرد أتريو : « ليس لدى أحد . والداي قتلها الجاموس بعد وقت قصير من ولادتي » .

— « ومن رباك ؟ » .

— « جميع النساء وجميع الرجال مشتركون . ولذلك أطلقوا على أتريو ، وهذا يعني بكلمات اللغة العظمى : ابن الجميع .

لا أحد كان يستطيع أن يفهم ذلك أفضل من باستيان . بالرغم من أن والده ما زال فعلا على قيد الحياة . وأتريو لم يكن لديه أب ولا أم . ولكن في مقابل ذلك قام بتربيته جميع الرجال والنساء مشتركين وكان « ابن الجميع » ، بينما هو ، أى باستيان لم يكن لديه أحد على الإطلاق — أجل أنه كان « ابن لا أحد » . وبالرغم من ذلك فقد كان باستيان سعيدا أن يكون لديه بهذا الشكل شيئا مشتركا مع أتريو ،

حيث إنه خلاف ذلك لم يكن لديه للأسف شبه كبير معه ، لا فيما يتعلق بشجاعته وعزيمته ، ولا فيما يتعلق بهيئته . ولكنه هو أيضا ؛ أى باستيان ، كان في مهمة بحث كبرى لا يدري عنها إلى أين ستؤدى به ؟ وكيف ستتهى ؟

وقال الستاور العجوز : « اذن ، من الأفضل أن تنصرف دون توديع . سوف أبقى وأشرح لهم كل شيء »

وأصبح وجه أتريو أكث نحولا وصلابة .

وسأل قائلا : « أين أبدأ ؟ » .

فأجاب كايرون « في كل مكان ، وفي لا مكان . من الآن فصاعدا أنت وحيد ولا احد يستطيع أن يشير عليك . وسوف يكون الأمر على هذه الحال إلى نهاية مهمة البحث الكبرى - مهما كانت نهايتها » .

رطأطأ أتريو رأسه قائلا : « وداعا ، يا كايرون ! » .

- « وداعا يا أتريو . و - حظا سعيدا ! » .

والتفت الصبي وهو يريد أن يخرج من الخيمة . عندئذ نادى عليه السيستاور مرة أخرى وعندما وقفا أمام بعضهما الآخر وضع العجوز كلتا يديه على كتفيه ونظر في عينيه بابتسامة كلها احترام وقال ببطء :

« أعتقد ، أننى بدأت أفهم سبب وقوع اختيار الإمبراطورة الطفولية عليك ،

يا أتريو » .

وأخفض الصبي جبينه قليلاً ثم خرج مسرعا .

وفي الخارج أمام الخيمة كان يقف أرتاكس ، حصانه ، وقد كان أرقطاً وصغيراً كحصان برى ، وكانت أرجله قوية وقصيرة ، وبالرغم من ذلك فقد كان أكثر العدائين سرعة ومثابرة على المدى البعيد . وقد كان ما زال مسرجا وملجما مثلما كان عندما عاد مع أتريو من الصيد .

وهمس أتريو في أذنه وربت على رقبته قائلا : « أرتاكس ، يجب أن نشد الرحال

يجب أن نذهب بعيدا ، بعيدا جدا . لا أحد يعرف إذا كنا سنعود أو متى سنعود » .

وهز الحصان الصغير رأسه ونفخ بصوت خافت .

وأجاب قائلا : « أجل ، يا سيدى ، وماذا عن أمر صيدك ؟ » .

فرد أتريو وهو يمتطى سهوته قائلا : « إننا ذاهبون إلى صيد أكبر بكثير » .

فنفخ الحصان الصغير قائلا : « قف ، سيدى ، لقد نسيت أسلحتك . أتريد أن ترحل بدون السهم والقوس ؟ » .

فأجاب أتريو : « أجل يا أرتاكس ، لأننى أحمل « البريق » ولا بد أن أكون أعزلا » .

فصاح الحصان الصغير قائلا : « هُو ! وإلى أين المسير ؟ » .

ورد أتريو قائلا : « إلى حيث تريد . يا أرتاكس ، فمئذ هذه اللحظة نحن في مهمة البحث الكبرى » .

وبذلك انصرفا مسرعين ، واحتوتهم ظلمة الليل .

وفى نفس الوقت حدث فى موضع آخر من فانتازين شىء لم يلاحظه أحد ، ولم يكن لدى أتريو ولا أرتاكس ولا حتى كايرون أدنى فكرة عنه .

ففى أحد المروج الليلية البعيدة جدا تجمّع الظلام مكوّنا شكلا شديدا الضخامة كالشبح . وتكثف الظلام إلى أن ظهر حتى فى الليل الدامس لتلك المراعى كجسم هائل من السواد وكانت معالنه ما زالت غير واضحة . ولكنه كان يقف على أربعة مخالب وتوهجت نار خضراء فى عيون رأسه الأشعث الهائل . حيثذ رفع منخاره عاليا فى الهواء وراح يقتفى الأثر عن طريق الشم . ووقف على هذا الحال لفترة طويلة . وفجأة بدا أنه عثر على الرائحة التى يبحث عنها . لأن جلجلة عميقة تدل على فرحة الانتصار إندفعت خارج حنجرته .

وبدأ يجرى . وأسرع مخلوق الظلام فى قفزات طويلة صامته خلال الليل البهيم .

ودقت ساعة البرج الحادية عشرة . وبدأت حيثذ الفسحة الكبيرة . ووصل إلى أعلى صراخ الأطفال من الممرات والذين كانوا يجرون إلى أسفل إلى فناء المدرسة .

وباستيان الذى كان لا يزال يجلس مريعا رجلية على دواسات الجمباز ، كانت رجلاه قد خدرت . فهو لم يكن واحدا من الهنود الحمر . فنهض واقفا وأحضر طعام الفسحة وتفاحة من حقيبته وراح يسير قليلا جيئة وذهابا فى المخزن . ونملت أقدامه ثم عادت إلى طبيعتها مرة أخرى ببطء . ثم تسلق حصان الجمباز وجلس فوقه جلسة الفرسان ، وتجمل نفسه أتريوراكبا على أرتاكس مسرعا خلال الليل . ووقد فوق رقبة حصانه الصغير . وصاح قائلا : « هيا ، هيا ، اجريا أرتاكس ، هيا ، هيا » .

ثم أصابه الفزع . فقد كان من الرعونة التامة الصراخ بهذا الصوت العال . فماذا إذن إذا ما كان شخص ما قد سمعه الآن ؟ وانتظر برهة وأرهف سمعه . ولكن لم يصل إليه بأعلى سوى الصراخ متعدد الأصوات من فناء المدرسة .

ونزل مرة أخرى من حصان الجمباز إلى أسفل وقد أصابه قليل من الخجل . حقا ، لقد تصرف مثل طفل صغير ! .

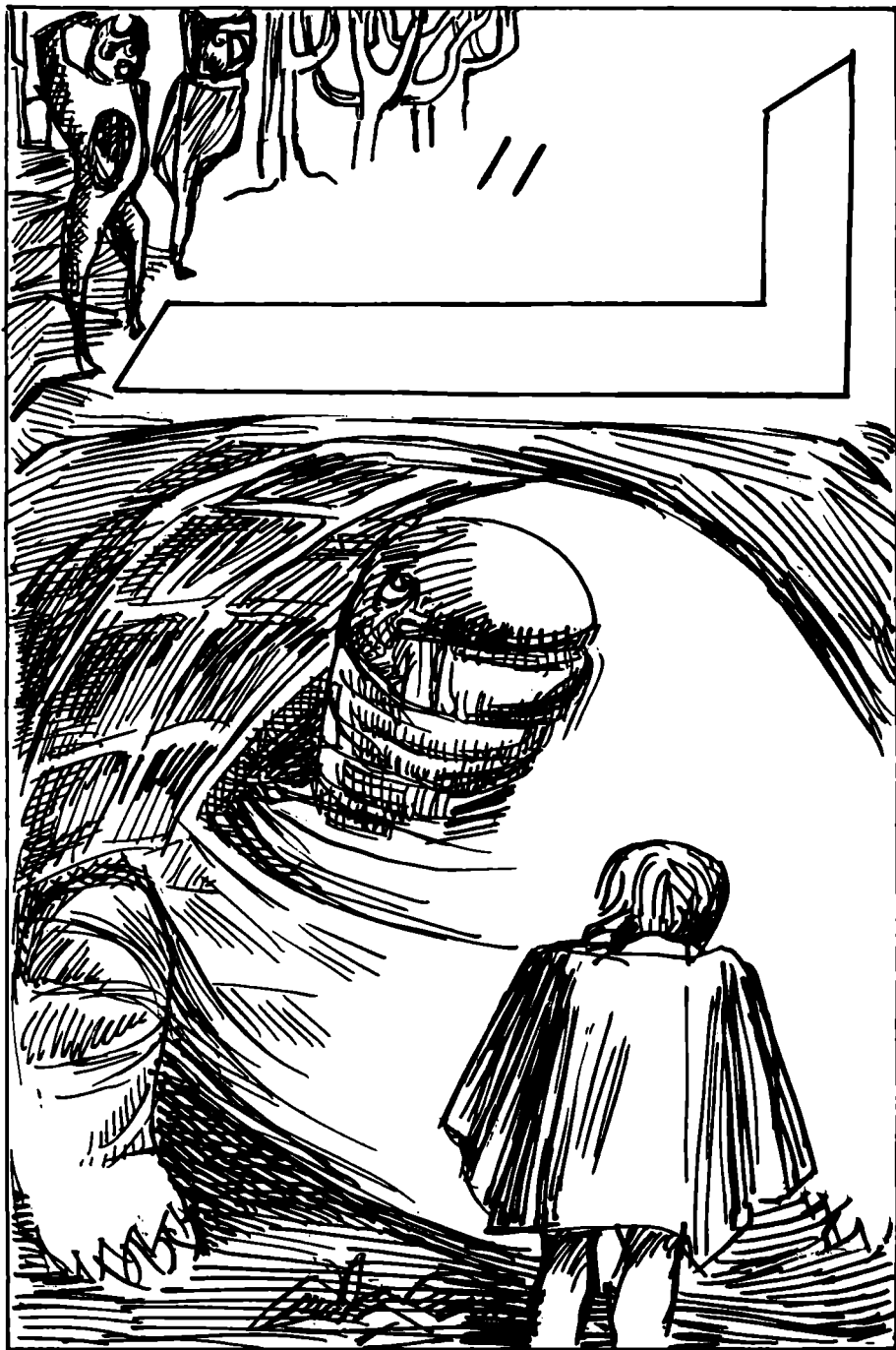
وأخرج طعام الفسحة من لفافته ودعك التفاحة فى سرواله إلى أن لمعت . ولكن قبل أن يُعْمِل أسنانه فيها ، توقف . وقال لنفسه بصوت عال : « لا ، يجب أن أقسم مؤونتي بعناية . من يدري كم من الوقت سأضطر للاكتفاء بهذا » .

ووضع الطعام وهو مهموم فى لفافته مرة أخرى وأدخله مع التفاحة فى الحقيبة ثانية . ثم استقر متنهدا فوق دواسات الجمباز ومد يديه مرة أخرى إلى الكتاب .

مكتبة
t.me/t_pdf

٢

مورلا.. العجوز السمطاء



تعب وإرهاق استنفذ قوى كايرون ، السينتاور - الأسود العجوز ، فهوى على مخدعه المكون من الجلود اللينة عندما سمع رنين حوافر حصان أتريو . والسيدات اللاتي وجدنه في اليوم التالي في خيمة أتريو ، خفن على حياته . وكذلك عندما عاد الصيادون بعد ذلك بعدة أيام ، لم تكن حالته قد تحسنت تحسنا يذكر ، ولكنه بالرغم من ذلك كان في استطاعته أن يشرح لهم لماذا ركب أتريو حصانه منصرفا وأنه لن يعود عما قريب . ولأن الجميع كانوا يحبون الصبي فقد ذهبت عنهم روح المرح منذ ذلك الحين وتفكروا فيه بانشغال كبير . ولكنهم في نفس الوقت كانوا فخورين أيضا ، الإمبراطورة الطفولية قد كلفته هو بالذات بمهمة البحث الكبرى - بالرغم من أن لا أحد كان يفهم ذلك فهما تماما .

وبالمناسبة فإن كايرون العجوز لم يعد مطلقا إلى برج العاج . ولكنه لم يمت أيضا وكذلك لم يبق لدى أصحاب الجلود الخضراء في بحر الأعشاب . فقدره سوف يقوده إلى طريق آخر تماما وغير متوقع بالمرّة . ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تحكى في مناسبة أخرى .

واستمر أتريو راكبا حصانه في نفس الليلة حتى سفح جبال الفضة وعندما توقف للراحة كان الصباح قد اقترب . وأكل أرتاكس قليلا من الحشائش وشرب ماء من جدولٍ جبلي رائق . والتف أتريو في معطفه الأحمر ونام بضع ساعات . ولكن عندما أشرقت الشمس ، استأنفا رحلتها مرة أخرى .

وفي اليوم الأول اجتازا جبال الفضة . وهناك كان كل ممر وكل طريق معروف لديها وقد سارا متقدمين بسرعة إلى الأمام . وعندما شعر بالجوع أكل الصبي قطعة

من لحم الجاموس ورغيفين صغيرين صنعا من جبوب الأعشاب ، والتي كان يحتفظ بها في كيس على السرج - في الحقيقة من أجل الصيد .

فقال باستيان : « ألم أقل لك لا بد للإنسان أن يأكل شيئا بين الوقت والآخر » وأحضر طعام الفسحة من الحقيبة وفك لفافته ، وكسره بحذر إلى قطعتين ، ولف احدهما مرة أخرى ووضعها بالداخل . والأخرى أكلها وانتهت الفسحة ، وفكر باستيان ماذا سيأتي في الفصل بعدئذ . آه ، صحيح ، جغرافيا لدى السيدة كارجه . وكان يجب على الإنسان أن يذكر أسماء وفروع أنهار ، ومدنا وأعداد سكان ، والثروات المعدنية والصناعات . وهزباستيان كتفيه وواصل قراءته .

وعند غروب الشمس كانت جبال الفضة من ورائهما ، فتوقفا للراحة مرة أخرى . وفي هذه الليلة حلم أتريو بالجواميس الأرجوانية ورآها وهي تسير من خلال بحر الاعشاب ، وحاول أن يقترب منها وهو على حصانه . ولكن دون جدوى . فقد ظلت دائما على نفس البعد ، مهما حفز حصانه على الإسراع .

وفي اليوم الثاني أتيا عبر بلاد الأشجار المغردة . وكان لكل منها شكل مختلف ، وأوراق مختلفة ولحاء مختلف ، ولكن سبب تسمية هذه البلاد بهذا الاسم هو أن الإنسان كان يستطيع أن يسمعها وهي تنمو كموسيقى ناعمة تصدح من قريب ومن بعيد ثم تتحد في كيان شامل أخاذ لا يمكن مقارنته في الجمال بأي شيء آخر في فانتازين . ولم يكن السير عبر هذه المنطقة خال من الخطورة تماما ، حيث إن بعضهم ظل جالسا كالمسحور وقد نسي كل شيء . وأحس أتريو بقوة هذه النغمات الرائعة ولكنه لم يترك نفسه لإغراء التوقف .

وفي الليلة التالية حلم مرة أخرى بالجواميس الأرجوانية وفي هذه المرة كان سائرا على الأقدام . وهي تمر أمامه في قطيع كبير ، ولكنها كانت خارج مدى قوسه ، وعندما أراد أن يتسلل للاقتراب منها ، لاحظ كما لو كانت قدماه ملتصقة بالأرض ولا يمكن تحريكها . وقد استيقظ على مجهوده في انتزاعهما ، وكان الوقت مازال قبل شروق الشمس ، ولكنه شد الرحال على الفور .

وفي اليوم الثالث شاهد الأبراج الزجاجية لمنطقة إريبو حيث يلتقط سكان هذه الناحية ضوء النجوم ويجمعه ويصنعون منه أشياء مزخرفة زخرفة رائعة ، والتي لم يكن أحد في فانتازين غيرهم أنفسهم يعرف غرض استعمالها فعلا .

ولقد قابل بعض هؤلاء الناس ، وكانوا ذوى أحجام صغيرة ، وهم أنفسهم كانوا يبدون كما لو كانوا من الزجاج المصنوع بالنفخ . وقد زودوه بحفاوة كبيرة بالطعام والشراب ، ولكن عندما سأل عمّن يمكنه أن يعلم شيئا عن مرض الإمبراطورة الطفولية غرقوا في صمت حزين حائر .

وفي الليلة التالية حلم أتريو مرة أخرى أن قطع الجاموس الأرجواني قد مر من أمامه ورأى كيف ينفصل أحد الحيوانات ، وكان فحلا هائلا ، ضخما جداً ، عن مجموعته الآخرين ، ويتجه إليه ببطء وبدون خوف أو غضب . ومثل جميع الصيادين الحقيقيين ، فقد كانت لدى أتريو أيضا موهبة أن يرى على الفور في كل مخلوق الموضع الذي يجب أن يصيبه لكي يرديه قتيلًا . وفوق ذلك فقد أوقف الجاموس الأرجواني نفسه بحيث يجعلها هدفاً محققاً له . ووضع أتريو السهم وشد القوس المتين بكل قواه - ولكنه لم يستطع الرماية . فقد كانت أصابعه كما لو كانت ملتصقة بوتر القوس ولم تتركه .

وعلى هذا المنوال أو ما شابه ذلك كان مجرى أحلامه في جميع الليالي التالية . فقد كان يريد قتله ، وقد عرفه من بقعة بيضاء على جبهته - ولكنه لأى سبب من الأسباب لم يستطع أن يرسل السهم المميت .

وواصل سيره بالحصان أياما باستمرار إلى أبعد - دون أن يدرى ودون أن يجد أحداً يمكنه أن يشير عليه . وكان الحجاب الذهبي الذي يحمله ، يلاقي الاحترام من جميع الكائنات التي قابلته ، ولكن لا أحد منهم عرف الإجابة على سؤاله .

ذات مرة لمح من بعيد شوارع اللهب لمدينة بروش حيث تسكن المخلوقات التي تتكون أجسامها من النار ، ولكنه فضل عدم القيام بزيارة إلى هناك . واجتاز السهول المرتفعة الواسعة ، أرض السّافرة الذين يولدون كبارا ، ويموتون عندما يصبحون أطفالاً رُضع . وأتى إلى معبد أدغال موامات ، حيث يتعلق عامود كبير من

حجر القمر حرا في الهواء ، وتحدث مع الكهان الذين يعيشون هناك . وحتى هناك اضطر إلى مواصلة الرحيل دون معلومات .

وكان قد سار حينئذ هائما فيما يقرب من أسبوع عندما شاهد في اليوم السابع وفي الليلة التي تلتها شيئين مختلفين تمام الاختلاف ، واللذان غيرا من وضعه الداخلي والخارجي تغييرا أساسيا .

صحيح أن حكاية كايرون العجوز عن الاحداث المرعبة التي حصلت في جميع أجزاء فاننازيرين قد أثرت فيه ، ولكن كان كل هذا حتى ذلك الوقت مجرد خبر بالنسبة له . وفي اليوم السابع كان عليه أن يشاهدها بعيني رأسه .

وكان وقت الظهيرة عندما سار راكبا خلال غابة كثيفة مظلمة تتكون من أشجار عملاقة جدا وكثيرة الأغصان . لقد كانت تلك غابة هاوليثالدا التي التقى فيها قبل ذلك بوقت قليل الأربعة رسل . وفي هذه المنطقة كانت توجد عفاريت من جن لحى الأشجار ، وكان أتريو يعرف ذلك . وقد كانوا ، كما قيل له ، آدميون وآدميات ، كان منظرهم مثل جذوع الشجر ذات الأغصان . وعندما كانوا يقفون كعادتهم بلا حراك فمن الممكن أن يظن المرء أنهم فعلا أشجار ويمر بهم دون أن يدرى . فقط عندما يتحركون يرى المرء أن لديهم أذرا كهيئة الأغصان وأرجلا ملتوية كهيئة الجذوع . وصحيح أنهم كانوا أقوىاء جدا ، ولكنهم لم يكونوا خطيرين - على أقصى تقدير كان يحلو لهم بين الحين والآخر أن يداعبوا التائهين من الجوالين .

وكان أتريو قد اكتشف مرجا في الغابة ينساب من خلاله جدول ماء صغير ، وترجل لكى يترك أرتاكس يشرب ويأكل العشب ، عندما سمع فجأة قعقة وصعصعة من خلفه في الغابة والتفت وراءه . واتجهت ناحيته ثلاثة عفاريت من جن لحى الأشجار من داخل الغابة ، وعندما شاهدهم سرت قشعريرة باردة فوق ظهره . الأول منهم كانت تنقصه الأرجل ونصفه الأسفل لدرجة أنه اضطر للمشى على يديه . والثاني كان لديه ثقب هائل في صدره يستطيع المرء أن ينظر من خلاله . والثاني كان يقفز على رجله الوحيدة اليمنى - لأن نصفه الأيسر كله كان ناقصا ، كما لو كان مقطوعا من الوسط إلى جزئين .

و-دما رأوا الحجاب على صدر أتريو ، هزوا رؤ وسهم لبعض ثم أتوا مقتربين
بيطاء . وقال الذى يسير على يديه بصوت كقططة إحدى الأشجار : « لا تفرع ،
صحيح أن منظرنا ليس على قدر من الجمال ، ولكن لا يوجد أحد فى هذا الجزء من
غابة هاوليقالد غيرنا يمكنه أن يحدرك . لذلك جئنا . »

فسال أتريو : « تحذرونى ! مم ؟ »

وقال ذلك ذو الصدر المثقوب بصوت كالأنين : « لقد سمعنا عنك ، وحكى
لنا عن سبب سفرك . ولا يجوز لك أن تواصل رحلتك هنا ، وإلا فأنت مفقود . »
فتهد المفلوق قائلا : « وإلا يحدث لك نفس ما حدث لنا ، أنظر إلينا . هل تود
ذلك ؟ »

فقال أتريو مستفسرا : « ماذا حدث لكم ؟ » فتأوه الأول قائلا : « الدمار
ينتشر ، ينمو وينمو ويزداد يوما بعد يوم - إذا ما جاز للمرء أن يقول عن اللا شىء إنه
يزداد . الآخرون كلهم هربوا فى الوقت المناسب من غابة هاوليقالد ، ولكننا لم نرد
مغادرة وطننا . ففاجأنا ونحن نيام ، وفعل بنا ما تراه أمامك الآن . »

فسأل أتريو : « أتشعرون بألم شديد ؟ »

فأجاب عفريت جن لحي الأشجار الثانى ذو الثقب فى صدره : « لا ، فالمرء
لا يحس شيئا ولكن ينقص المرء شىء ما فقط ، وكل يوم يزداد النقص لدى المرء
عندما يصاب به مرة . وسرعان ما سنكون غير موجودين بالمرّة . »

وقال أتريو راغبا المعرفة : « وأين الموضع فى الغابة الذى بدأ منه ؟ »

« أتريد أن تراه » سأل ذلك العفريت الذى كان نصفًا فقط ، ونظر إلى رفقائه فى
الألم متسائلا ، وعندما هزوا رؤ وسهم بالإيجاب ، استمر قائلا :

« سوف نقودك إلى حيث يمكنك مشاهدته ، ولكن يجب أن تعدّ بعدم زيادة
الاقتراب وإلا سيجذبك بشكل لا يمكن مقاومته . »

فقال أتريو : « حسنٌ ، أعدكم ذلك . »

والتفت الثلاثة وتحركوا ناحية طرف الغابة . وشد أتريو أرتاكس من اللجام وتبعهم . ومشوا برهة صغيرة بلا هدف بين الأشجار العملاقة ، ثم توقفوا أمام جذع سميك جدا ، ومحيطه ربما لا يستطيع تطويقه خمسة من الرجال اليافعين .

فقال العفريت عديم الأرجل : « تسلق إلى أعلى ما يمكنك ، ثم انظر إلى مشرق الشمس وهناك سوف تراه - أو بالأحرى لن ترى شيئا . »

وتسلق أتريو على الأغصان البارزة ومنحنيات الجذع إلى أعلى . ثم وصل إلى الفروع السفلى ، فتحرك إلى أعلى إلى الفروع التالية ، وسلك طريقه بقوة إلى أعلى ، وأعلى ، إلى أن فقد الرؤية إلى أسفل . واستمر في التسلق ، وازداد نحول الجذع ، وتزايد عدد الفروع الجانبية بحيث إنه تقدم بسهولة مضطربة . وعندما جلس أخيرا على أعلى فنن ، وجه نظره إلى مشرق الشمس . وعندئذ رآه :

إن قمم الأشجار الأخرى القريبة جدا كانت خضراء ، ولكن أوراق الأشجار الواقعة خلفها بدت فاقدة لكل لون ، فقد كانت رمادية اللون . وأبعد من ذلك بقليل بدت وقد أصبحت شفافة بشكل غريب ، كالضباب أو بمعنى أفضل غير واقعية بشكل متزايد . ووراء ذلك لم يكن هناك شيء ، مجرد لا شيء . ولم تكن منطقة قاحلة ، لا ظلام ، ولا ضياء أيضا ، لقد كان شيئا لا تتحمله العيون ويعطى المرء شعورا بأنه أصبح أعمى - لأنه لا تستطيع أية عين أن تتحمل النظر في العدم التام . ووضع أتريو يده أمام وجهه وكاد يسقط من الفرع الواقف عليه فتشبث ونزل مرة أخرى بأسرع ما يستطيع . لقد رأى ما فيه الكفاية . والآن فقد أدرك تماما الرعب الذي انتشر في فانتازين .

وعندما وصل مرة أخرى عند سفح جذع الشجرة العملاقة كان الثلاثة عفاريت من جن لحى الأشجار قد اختفوا . وامتنى أتريو صهوة حصانه ، وأسرع في ركض طويل في اتجاه يؤدي بعيدا عن هذا العدم الذي ينتشر ببطء ولكن دون توقف . فقط عندما عم الظلام وخلف وراءه غابة هاويليثالذ بفترة طويلة توقف للراحة .

وفي هذه الليلة كانت تنتظره الحادثة الثانية والتي ستعطي مهمة بحثه الكبرى
انجاسها جديدا . فقد رأى في المنام - بشكل أوضح بكثير عن ذي قبل - الجاموس
الأرجواني الضخم الذي كان يريد أن يصرعه . وفي هذه المرة أمامه دون قوس
وسهام . وشعر بأنه صغير ضئيل وقد ملأ وجه الحيوان السماء كلها . وسمعه
يتحدث إليه ، ولم يستطع أن يفهم كل شيء ، ولكنه قال ما يلي تقريبا :

« لو كنت قتلتني ، لكنت الآن صيادا . ولكنك تغاضيت عن هذا ، ولذلك
أستطيع الآن مساعدتك يا أتريو . اسمع ! هناك كائن في فاننازين أكبر سنا من جميع
الكائنات الأخرى . بعيدا ، بعيدا عن هناك في الشمال تقع مستنقعات الحزن . وفي
وسط هذه المستنقعات يرتفع الجبل العظمى . وهناك تسكن مورلا العجوز
الشمطاء . ابحث عن مورلا العجوز الشمطاء . »

وبعد ذلك استيقظ أتريو .

ودقت الساعة اثنتي عشرة مرة . وسرعان ما نزل زملاء باستيان بالفصل حينئذ
إلى قاعة الجمباز للحصة الأخيرة . وربما سيلعبون اليوم الكرة الشعبية ، أو سيلعبون
بالكرة الطبية الثقيلة ، والتي أبدى فيها باستيان دائما عدم مهارة تامة - ولذلك لم يكن
يرغب فيه أي فريق وأحيانا كان عليهم أن يلعبوا بكرة مضرب صغيرة وصلبة كالحجر
كانت تؤلم بفضاعة إذا أصابت شخصا ما . وكانت تصيب باستيان دائما بكل قوة لأنه
كان هدفا سهلا . وربما يجيء الدور اليوم على حبال التسلق - وهو تمرين كان باستيان
يكرهه بشكل خاص . فبينما كان معظم الآخرين في أعلى تماما ، كان هو يتأرجح
عادة مثل جوال الدقيق برأس في حمرة عرف الديك الرومي عند الطرف الأخير للحبل
ولا يستطيع أن يصعد نصف متر إلى أعلى ، وهو ما كان مدعاة للسُرور المكتوم
للفصل كله . ومدّرّس التربية الرياضية ، السيد مينجه لم يكن يقتصد من تهكمه على
حساب باستيان .

إن باستيان كان مستعدا - أن يدفع الكثير ليصبح مثل أتريو . حينئذ يريهم
كلهم . وتنهذ بعمق .

وسار أتريو بحصانه ناحية الشمال ، دائما ناحية الشمال . ولم يُجد على نفسه وعلى حصانه إلا بأشد ضروريات الراحة للنوم والطعام . وسار ليلا ونهارا ، في وهج الشمس والمطر في العواصف والأنواء . ولم يعد يضع شيئا في الاعتبار ولم يعد يسأل أحداً .

وكلما استمر في اتجاهه نحو الشمال ازداد الظلام . وملاّت أيام النهار دغشة رمادية كالرصاص ظلت ثابتة على الدوام . وفي الليالي كانت تتلاعب أنوار كالشفق الشمالي في السماء .

وفي صباح ما ، حيث بدا الزمان كله قد توقف في ضوء أغبش عتم ، رأى من فوق إحدى الهضاب مستنقعات الحزن . أفواج من الضباب كانت تسرى فوقها ، وهناك كانت تبرز غابات صغيرة من أشجار جذوعها تنقسم إلى أسفل إلى أربعة أو خمسة أو أكثر من العيدان المقوسة لدرجة أنها بدت كسرطانات الماء الضخمة التي تقف بأرجل متعددة في الماء الأسود . ومن فروعها المورقة ذات اللون البني كانت تتدلى في كل مكان جذوع للتهوية متجهة إلى أسفل والتي كانت تشبه أذرع الاخطبوط الساكنة . وكان من شبه المستحيل معرفة في أيّ المواضع كانت الأرض صلبة من بين البرك الموحلة ، وفي أيّ المواضع تتكون فقط من طبقة من النباتات العائمة .

ونفخ أرتاكس بصوت خافت من الفزع . وقال : « هل ينبغي أن ندخل هناك ، يا سيدى ؟ » فأجاب أتريو : « نعم ، يجب أن نعثر على الجبل العظمى الذى يقع في وسط هذه المستنقعات . »

وحدث أرتاكس على التّقدم . فأطاع الحصان الصغير . وكان يختبر صلابة الأرض بحوافره خطوة خطوة ، ولذا لم يتقدما إلى الأمام إلا ببطء شديد . وأخيرا ترجل أتريو ، وشد أرتاكس من اللجام خلفه . وقد انغرس الحصان عدة مرات ، ولكنه كان ينجح دائما في تخليص نفسه . ولكن كلما تعمقوا داخل مستنقعات الحزن ، ازدادت حركته ثقاقلا ، وأطرق برأسه ولم يتقدم إلى الأمام إلا بجهد جهيد . فقال أتريو : « أرتاكس ، ماذا بك ؟ »

فرد الحيوان قائلا : « لست أدري يا سيدى ، من رأى أن علينا الرجوع . فكل شيء ليس له فائدة إننا نجرى وراء شيء لم تره إلا فى الحلم . ولكننا لن نعثر على شيء . وربما كان الأوان أيضا قد فات فعلا . وربما تكون الامبراطورة الطفولية قد ماتت فعلا ، وأن كل ما فعله ليس له مغزى . دعنا نرجع يا سيدى . »

فقال أتريو مندهشا : « إنك لم تتحدث مطلقا على هذا النحو يا أرتاكس . ماذا بك ؟ هل أنت مريض ؟ » .

فأجاب أرتاكس : « ربما ، فمع كل خطوة نخطوها يزداد الحزن فى قلبى . ولم يعد لدى أى أمل . وأشعر بأننى ثقيل جدا . وأعتقد أننى لا أستطيع مواصلة السير . » .

فصاح أتريو : « ولكن يجب علينا أن نستمر ، هيا يا أرتاكس ! »

وشد اللجام ولكن أرتاكس ظل واقفا ، وكان قد انغرس حتى بطنه . ولم يعد يفعل أى شيء ليخلص نفسه .

وصرخ أتريو قائلا : « أرتاكس ، لا يجوز لك أن تتراخى الآن ! هيا ، اخرج ، وإلا غرقت ! »

فرد الحصان الصغير قائلا : « دعنى يا سيدى ! لن أفلح . أكمل السير وحدك ! ولا تهتم بأمرى ! فأنا لم أعد أستطيع تحمل هذا الحزن . أريد أن أموت . »

وجذب أتريو اللجام يائسا ، ولكن الحصان الصغير استمر يفرق إلى أعماق . ولم يستطع أن يفعل شيئا تجاه ذلك . وأخيرا عندما لم يبرز سوى رأس الحيوان من المياه السوداء أخذه فى أحضانه . وهمس قائلا : « سأمسك بك يا أرتاكس ، لن أتركك تفرق . »

وصهل الحصان الصغير مرة أخرى بصوت منخفض وقال :

« إنك لن تستطيع أن تساعدنى ، لقد انتهى أمرى . نحن الاثنين لم نكن ندرى ماذا ينتظرنا هنا . والآن نحن نعرف لماذا تحمل المستنقعات هذا الاسم ؟ إنه الحزن هو الذى أثقلنى لدرجة إجبارى على الغرق . لا مفر . »

فقال أتريو : ولكننى أيضا هنا ، ولا أشعر بشيء .
فأجاب أرتاكس : «أنت تحمل « البريق » يا سيدى ، فأنت مُصان»
فصاح أتريو : «اذن أريد أن ألفت العلامة حول رقبتك . فربما تحميك أنت
أيضا»
وهمّ أن يخلع السلسلة من رقبته .

فنفخ الحصان قائلا : «لا ، لا يجوز لك ، ياسيدى . لقد مُنح لك البانتا كل
وليس لديك التصريح بمواصلة إعطائه كما يحلوك . لا بد أن تواصل البحث بدونى»
وضغط أتريو وجهه على وجنة الحصان . وهمس بصوت مختق :
«أرتاكس . . . آه ، يا عزيزى أرتاكس !»

وسأل الحيوان قائلا : «أتريد أن تحقق لى رغبة أخيرة ياسيدى ؟»
وهز أتريو رأسه بالإيجاب صامتا .

- «أرجوك أن تنصرف . لا أودّك أن ترانى عندما يصل بى الأمر الآن إلى المنتهى .
أتريد أن تصنع لى هذا المعروف ؟»
فنهض أتريو ببطء . وكان رأس الحصان الصغير حينئذ واقع إلى نصفه فى المياه
السوداء .

وقال : «وداعا أتريو ، ياسيدى !— وشكرا !»

وزم أتريو شفّيته ولم يستطع أن يقول شيئا .
وحيا أرتاكس برأسه مرة أخرى . ثم أشاح بوجهه وانصرف .

وأجهش باستيان بالبكاء فهو لم يستطع كتمانها . وامتلات عيناه بالدموع ، ولم
يتمكن من مواصلة القراءة . وكان عليه أن يخرج منديله أولا ثم ينفض أنفه قبل أن
يستطيع الاستمرار .

ولم يدر أتريو كم من الوقت استمر فى خوضه . لقد كان كالأعمى والأطرش .

وازداد الضباب كثافة ، وتملك أتريو شعور بأنه يدور هائما في حلقة منذ ساعات . ولم يعد يهتم إلى أين تطأ قدمه ، وبالرغم من ذلك فلم ينغرس أبدا إلى أعماق من ركبته . فلقد كانت علامة الإمبراطورة الطفولية تقوده إلى الطريق الصحيح بشكل لم يكن يدركه .

وفجأة وقف أمام منحني جبل عال وعرنوعا ، وصعد إلى أعلى الصخرة المشققة ، وتسلق القمة القُببية المستديرة . وفي البداية لم يلاحظ من أى شيء تتكوّن هذه الصخور ولكنه عندما وصل إلى أعلى تماما وألقى نظرة شاملة على الجبل ، فرأى أنها ألواح عظيمة هائلة تتكاثر من بين شقوقها وفلوقها الطحالب .

لقد عثر إذن على الجبل العظمى .

ولكنه لم يشعر بالرضى لهذا الاكتشاف . فنهاية حصانه الصغير الوفي جعلته يتقبل هذه الحقيقة دون اكتراث تقريبا . وكان عليه الآن أن يكتشف أين ومن هي مورلا العجوز الشمطاء التي تسكن هناك . وأثناء ما هو لم يزل في تفكيره ، شعر فجأة بهزة خفيفة تسرى من خلال الجبل ، ثم تراءى إلى سمعه زفير هائل ومصمصة وصوت يبدو وكأنه يأتي من أعماق أحشاء الأرض يقول :

« اسمعى ، أيتها العجوز ، هناك شيء يدب فوقنا . »

وأسرع أتريو ناحية طرف ظهر الجبل من حيث أتت الأصوات . وعند ذلك ترحلق فوق وسادة من الطالحب واندفع في الانزلاق . ولم ينجح في التماسك واستمر ينزلق في سرعة متزايدة وأخيرا سقط إلى أسفل . ولحسن حظه وقع في أحد الأشجار القائمة بأسفل وقد تلقفته أغصانها .

ورأى أتريو أمامه كهفا عملاقا في الجبل حيث كانت تتحرك وتتخبط فيه المياه السوداء ، فهناك بالداخل تحرك شيء ما وأتى إلى الخارج ببطء . وكان يبدو ككتلة صخرية في حجم أحد البيوت . فقط عندما ظهر للنظر تماما ، عرف أتريو أنه رأس يقبع فوق رقبة طويلة مجمدة . رأس سلحفاة . وكانت عيناها في حجم البرك السوداء . وكان فمها يقطر أوحالا وطحالبا وكان هذا الجبل العظمى كله - وهذا

ما أدركه أتريو الآن فجأة - حيوان واحد هائل ، سلحفاة مستنقعات ضخمة :
مورلا العجوز الشمطاء !

ثم سُمع مرة أخرى هذا الصوت الزافر والمشابه للفرغرة وهو يقول :
«أيها الصغير ، ماذا تفعل هناك؟»

ومد أتريو يده إلى الحجاب على صدره ، وأمسك به بحيث لا بد أن تراه عينها
الكبيرة في حجم البركة ، وقال : «هل تعرفي هذا يامورلا؟»

واستغرقت برهة قبل أن تجيب قائلة :

« انظري أيتها العجوز - آورين - اننا لم نره منذ وقت طويل ، علامة
الامبراطورة الطفولية - منذ فترة طويلة . »

فرد أتريو قائلاً : «الإمبراطورة الطفولية مريضة ، هل علمت بذلك؟»
فأجابت مورلا : «الأمر بالنسبة لنا سيان ، أليس كذلك أيتها العجوز؟»

ويبدو أنها كانت تتحدث مع نفسها بهذه الطريقة الخاصة ، ربما لأنه لم يكن لديها
مشارك آخر في الحديث ومن يدرى منذ أى مقدار من الزمن .

وأضاف أتريو بالحاح شديد قائلاً : «إذا لم نلقها ، فسوف تموت . »
فأجابت مورلا : «لا يهم أيضا . »

فصاح أتريو : «ولكن معها ستهلك فانتازين . إن الدمار ينتشر فعلا في كل
مكان . لقد رأيته بنفسى . »

وحملت في مورلا بعينها الضخمة الزائغة . وغرغرت بصوتها قائلة : «ليس لنا
اعتراض على هذا . أليس كذلك أيتها العجوز؟»

فصرخ أتريو : «اذن سوف نهلك جميعا ، نحن جميعا !»

فردت مورلا : «انظر أيها الصغير . وماذا يعيننا هذا ؟ فكل شىء لم يعد له
أهمية لنا . كل شىء سيان ، كل شىء سيان . »

فصرخ أتريو غاضبا : «وأنت أيضا يامورلا سوف تهلكين ، وأنت أيضا . أم

ترين أنك سوف تعيشين بعد فانتازين لأنك على هذا القدر من الكبر؟»

فغرغرت مورلا بصوتها قائلة : «انظر ، نحن عجائز ، أيها الصغير ، عجائز جدا جدا وقد عشنا بما فيه الكفاية . وشاهدنا الكثير جدا . ومن يعرف الكثير مثلنا ، لا يكون لشيء آخر أهمية عنده . فكل شيء يعيد نفسه إلى الأبد ، النهار والليل ، الصيف والشتاء ، والدنيا فارغة وبدون شمس . وكل شيء يدور في حلقة . وما ينشأ لا بد أن ينقضى مرة أخرى ، وما يولد لا بد أن يموت . وكل شيء يُبطل الآخر ، الخير والشر الغباء والحكمة ، الجمال والقبح . كل شيء خاوٍ . لا شيء حقيقي . لا شيء مهم .»

ولم يعرف أتريو بماذا يجيب . فنظرة العجوز الشمطاء مورلا الهائلة المعتمة الغائبة قد شلت جميع أفكاره . وبعد برهة سمعها تتكلم مرة أخرى قائلة :

«أيها الصغير ، أنت صغير السن . ونحن عجائز . ولو كنت عجوزا مثلنا لعلمت أنه لا يوجد شيء سوى الحزن . انظر . لماذا لا ينبغي لنا أن نموت ، أنت ، أنا ، الإمبراطورة الطفولية ، الجميع ، الجميع ؟ إن كل شيء ليس إلا خداع . ليس إلا لعب في اللا شيء . كل شيء سيان تماما . دعنا في سلام ، أيها الصغير ، اذهب بعيدا .»

وشد أتريو كل عزيمته لكي يقاوم الشلل الذي كان يخرج من نظرها .

وقال : «إذا كنت تعرفين الكثير هكذا ، فأنت تعرفين أيضا في أي شيء يكمن مرض الإمبراطورة الطفولية وإذا كان هناك دواء لها؟»

فلهثت مورلا قائلة : «نحن نعلم ، أليس كذلك أيتها العجوز ، نحن نعلم . ولكنه سيان إذا أنقذت أم لا . فلماذا إذن ينبغي أن نقول؟»

فألح عليها أتريو قائلا : «إذا كان الأمر فعلا سيان عندك تماما ، فيمكنك أن تذكره لي بنفس القدر؟»

فقالت مورلا بصوت كالشخير : «يمكننا أيضا ، أليس كذلك أيتها العجوز؟ ولكن ليست لدينا الرغبة في ذلك .»

فصاح أتريو : «إذن فالأمر عندك ليس فعلا سيان . إذن فأنت نفسك لا تؤمنين بما تقولين .» واستمرت فترة صمت طويلة ، ثم سمع صوت غرغرة وتجشؤ عميق . لا بد وأنه كان نوعا من الضحك ، هذا إذا ما كانت مورلا العجوز الشمطاء تعرف الضحك على الإطلاق . وعلى كل حال فقد قالت : «أنت ماكر ، أيها الصغير . انظر . أنت ماكر . لم نمزح منذ وقت طويل : أليس كذلك أيتها العجوز ؟ انظر . إننا نستطيع فعلا أن نقوله لك بنفس القدر ليس هناك فرق . أنقول له ، أيتها العجوز ؟»

وساد صمت طويل . وانتظر أتريو إجابة مورلا بشوق ، دون أن يقطع حبل أفكارها البطيئة البائسة بالأسئلة . وأخيرا أكملت حديثها قائلة :

«أنت تحيا لوقت قصير ، أيها الصغير . نحن نحيا وقتا طويلاً ، فعلا وقتا طويلاً جدا . ولكننا نحيا في الزمن . أنت لفترة قصيرة . ونحن نحيا طويلا . الإمبراطورة الطفولية كانت قبلي . ولكنها ليست عجوزا . إنها دائما شابه . انظر . إن وجودها لا يقاس بحقبة زمنية ، ولكن بالاسم . إنها تحتاج إلى اسم جديد ، بين الحين والآخر اسم جديد . أتعرف اسمها ، أيها الصغير ؟»

فقال أتريو معترفا : «كلا ، لم أسمع به أبدا من قبل» . فأجابت مورلا : «أنت أيضا لا تستطيع ذلك ، ولا حتى نحن نستطيع تذكره . وبالرغم من ذلك فقد كان عندها من الأسماء الكثير ، ولكنها نسيت جميعا ، فقد انقضى كل شيء . ولكنها لا تستطيع أن تحيا بدون اسم . وهي ، الإمبراطورة الطفولية ، لا تحتاج إلا لاسم جديد ، فتصبح معافية ، ولكن ليس هناك أهمية لأن تصبح»

وأغلقت عينيها ذات حجم البحيرة وبدأت في سحب رأسها ببطء .

فصاح أتريو : «انتظري . من أين ستحصل على الاسم ؟ من سيمنحها الاسم ؟ أين أجد الاسم ؟» وسمع مورلا وهي تفرغر بصوتها قائلة : «لا أحد منا . لا كائن في فانتازين يستطيع أن يمنحها اسما جديدا . ولذلك فكل شيء بلا جدوى . لا تبالي أيها الصغير فكل شيء غير هام .»

وصرخ أتريو غير متمالك نفسه : « من إذن ؟ من يستطيع أن يمنحها الاسم وينقذها وينقذنا جميعا ؟ »

فقالت مورلا : « لا تفعل مثل هذا الضجيج . دعنا في سلام وانصرف . ونحن لا نعرف أيضا من يستطيع ذلك . »

فصرخ أتريو بصوت متزايد الارتفاع : « إذا لم تكوني تعرفينه ، فمن يعرفه إذن ؟ » وفتحت عينها مرة أخرى .

وزفرت قائلة : « لو لم تكن تحمل « البريق » لالتهمناك ، فقط لكى يحل الهدوء مرة أخرى . انظر »

فقال أتريو بعناد : « من ؟ قولى لى من يعرف ، وأنا أتركك دائما وإلى الأبد فى سلام ! »

فأجابت : « الأمر سيان تماما . ربما أبولالا فى أرض التنبؤات الجنوبية . ربما تعرف هى . فما شأننا بذلك . »

- « وكيف أجيء إلى هناك »

- « أنت لا تستطيع أن تأتى إلى هناك على الإطلاق . أيها الصغير . انظر . ولا بعد رحلة عشرة آلاف يوم . فحياتك قصيرة جدا . ولسوف تموت قبلها . إنها بعيدة جدا ، فى الجنوب ، بعيدة أكثر من اللازم . لذلك فكل شىء لا جدوى له . لقد قلنا هذا منذ البداية ، أليس كذلك ، أيتها العجوز ؟ دع الأمر وأعرض عنه ، أيها الصغير . وقبل كل شىء ، دعنا فى سلام ! »

وبذلك أغلقت عينيهما الزائغتين نهائيا وسحبت رأسها إلى الوراء فى الكهف . وعلم أتريو أنه لن يعرف منها المزيد .

وفى نفس الساعة عثر كائن الظلال الذى تكوّن من ظلام أحد المروج الليلية ، على أثر أتريو ، وكان فى طريقه إلى مستنقعات الحزن . ولن يستطيع أى شىء ولا أحد فى فانتازين أن يبعده عن هذا الأثر مرة أخرى .

وأسند باستيان رأسه على يده وحملق أمامه مفكرا . وقال بصوت عال :
«غريب أن ولاكائن في فانتازين يستطيع أن يعطى الإمبراطورة الطفولية اسما
جديداً .» إذا كان الأمر يتعلق فقط باختلاق اسم ، لاستطاع باستيان بسهولة أن
يقدم المساعدة . فقد كان عظيما في هذا الشأن . ولكن للأسف لم يكن في فانتازين
حيث يمكن استخدام قدراته ، وربما أكسبته التعاطف أو التكريم . ومن ناحية
أخرى كان في تمام السعادة أيضا أنه غير موجود هناك ، لأنه لن يجروء على الدخول في
منطقة مثل مستنقعات الحزن بأى حال من الأحوال . أضف إلى ذلك كائن الظلال
المخيف هذا ، والذي كان يتعقب أتريو دون أن يدري . وكان باستيان يود أن
يجذره . ولكن لم يكن ذلك ممكنا . ولم يعد هناك شيء آخر سوى الأمل ومواصلة
القراءة .

٤ إجرامها المتعددة



ثمة جوع وعطش بدأ يؤلمان أتريو . فمئذ يومين كان قد خلف وراءه مستنقعات الحزن ، ومنذ ذلك الوقت هام على وجهه من خلال صحراء صخرية لا يوجد فيها أى شىء حى . والقليل الذى كان معه من الزّاد ، كان قد غرق مع أرتاكس فى المياه السوداء . وحفر أتريو بيديه بلا جدوى بين الصخور ليعثر على جذر على الأقل ، ولكن لم يكن ينمو هناك أى شىء ، ولا حتى الطحالب أو الأعشاب .

وفى بادىء الأمر كان سعيدا على الأقل بشعوره بأن الأرض صلبة تحت أقدامه ، ولكنه شيئا فشيئا اضطر بأن يعترف بأن موقفه أصبح بالأحرى أكثر سوءا . لقد ضل الطريق ولم يستطع حتى أن يحدد الجهة الأصلية التى كان يتحرك فيها ، لأن غبش الضوء كان متساويا فى جميع الجهات ولم يتح له نقطة لتحديد موقفه . وهبت ريح باردة لا تنقطع من حول الصخور الإبرية التى كانت تتراكم من حوله من كل جانب .

وتسلق متون جبال ومرتفعات صخور ، وصعد عاليا ، ثم نزل مرة أخرى ، ولكن لم يبد له مطلقا منظر آخر غير منظر جبال متزايدة فى بعدها ، ومن ورائها سلاسل مرة أخرى وهكذا إلى الأفق من جميع الجهات ، ولا شىء حى ، ولا خنفس صغير ولا غملة ولا حتى النسور التى من عادتها أن تتعقب التائه بصبر إلى أن ينهار .

ولم يعد هناك شك : فالبلد التى ضل فيها الطريق كانت الجبال الموات . قليلون فقط رأوها مرة ، ولم يعد واحد منهم تقريبا . ولكن الحكايات التى كانت تحكى بين قوم أتريو ، كانت تتحدث عنهم . وتذكّر مقطعا من أغنية قديمة :

من الأفضل لكل صياد
أن يموت فى المستنقعات

لأنه في الجبال الموت
توجد تلك الهوة السحيقة
حيث تسكن إجرامول ، المتعددة ،
أكثر الرعب ذعرا . . .

حتى وإن كان أتريو يعرف في أى اتجاه عليه أن يسير لكي يعود ، فإن ذلك لم يكن ممكنا . فكان ند تقدم إلى بعيد جدا . ولم يكن في استطاعته إلا مواصلة السير . وإن كان الأمر يخصه هو وحده ، لربما جلس في أحد الكهوف الصخرية . وانتظر الموت هناك دون أن يبالي ، كما تعود الصيادون من قومه أن يفعلوا في مثل هذه الحالات . ولكنه كان في مهمة البحث الكبرى . فالأمر يتعلق بحياة الإمبراطورة الطفولية وفانتازين كلها . ولم يكن مسموحاً له أن يفقد الأمل .

وهكذا استمر يصعد إلى أعلى الجبال وأسفلها ، وأحيانا كان يدرك أنه كان يسير وقتا طويلا كشخص نائم ، بينما كان فكره يقيم في أراض أخرى ولا يعود منها إلا كارها .

واهتز باستيان فرعا . ودقت ساعة البرج الواحدة . فقد انتهت الدراسة لليوم واستمع باستيان إلى ضجيج وصياح الأطفال المندفعين بأسفل من الفصول وخلال الممرات وسمع ديبب أقدام عديدة على السلام . ثم ترمى إليه بأعلى صوت نداءات مختلفة من الشارع لفترة قصيرة . وأخيرا إنتشر السكون في مبنى المدرسة .

وقبع هذا السكون على وجدان باستيان كغطاء مقبض ثقيل ، يهدده بالاختناق فمن الآن سيكون وحيدا تماما في مبنى المدرسة الكبير - اليوم بطوله ، واللييلة التالية ، ومن يدري إلى أى مدى . فمن الآن أصبح الأمر جادا .

والآخرون ذهبوا حيثند إلى المنزل ليتناولوا طعام الغذاء . وأيضا باستيان كان جوعانا ، ويشعر بالبرد برغم الأغطية العسكرية الملفوفة حول كتفيه . وفجأة فقد كل شجاعته ، وبدت له خطته كلها مجنونة تماما وبلا مغزى . وأراد أن يذهب إلى البيت الآن حالا ، وعلى الفور . فقد كان الوقت حينذاك مازال ملائما . وحتى ذلك الوقت

لم يكن الأب قد استطاع أن يلاحظ شيئا . وباستيان لم يكن بحاجة حتى أن يقول له إنه هرب اليوم من المدرسة . وبالطبع سوف يتضح الأمر في وقت ما ، ولكن سوف تنقضى فترة من الزمن إلى ذلك الحين . وماذا عن أمر الكتاب المسروق ؟ أجل ، وهذا أيضا سوف يضطر للاعتراف به في وقت ما . وسوف يتقبل الوالد الأمر ، كما تقبل خيبات الأمل التي سببها له باستيان . ولم يكن هناك سبب للخوف منه . فمن المحتمل أنه سيذهب في صمت تام إلى السيد كورياندر ويضع كل شيء في موضعه السليم .

ومد باستيان يده إلى الكتاب ذى اللون النحاسى لكي يضعه في الحقيبة ، ولكنه توقف بعدئذ . وفجأة قال بصوت عالٍ مخترقا سكون المخزن : « لا ، لو كان أتريو مكانى لما فقد الأمل بهذه السرعة لمجرد أن الأمر صعب قليلا . وما بدأت لابد أن أنهيه . فلقد سرت الآن إلى مدى أبعد من أن أعود فيه ، ليس في إمكانى إلا مواصلة المسيرة مهما نتج عن ذلك .

وشعر بوحشة شديدة ، ولكن في نفس الوقت كان يشوب هذا الشعور شيء يشبه الفخر ، الفخر بأنه ظل قويا ولم يستسلم للإغواء .
لقد كان ليديه جزء يسير من التشابه مع أتريو !

وجاءت اللحظة التي لم يستطع فيها أتريو حقا مواصلة السير . فقد اتسعت أمامه الهوة السحيقة . إن روعة الفزع للمنظر لا يمكن وصفه بكلمات . فبعرض بلد الجبال الموات انفتحت الأرض في شق يحتمل أن يكون عرضه نصف ميل تقريبا . ولم يكن ممكنا معرفة عمقه .

ورقد أتريو على الحافة على بروز صخرى وحلق إلى أسفل في الظلام ، الذى بدا أنه يصل إلى باطن الأرض . وتناول صخرة في حجم الرأس كانت على مدى يده ، وقذف بها إلى هناك بأبعد ما يستطيع . الصخرة سقطت وسقطت وسقطت إلى أن ابتلعها الظلام . وتصنت أتريو ، ولكن لم يصل إلى مسامعه أى صوت للارتطام ، مع أنه انتظر وقتا طويلا .

ثم فعل الشيء الوحيد الذى بقى له أن يفعله . فقد بدأ يتجول بطول حافة الهوة السحيقة . وفى نفس الوقت كان مستعدا فى كل لحظة لمواجهة أكثر الرعب ذعر هذا الذى تحكى عنه الأغنية القديمة . ولم يكن يعرف أى نوع من المخلوقات يمكن أن يكون فلم يكن يعرف إلا أن اسمه إجرامول .

وكانت الهوة السحيقة تسير فى خط متعرج من خلال الصحراء الجبلية . ولم يكن هناك بالطبع طريق عند طرفها ، ولكن ارتفعت أبراج صخرية هناك أيضا كان عليه أن يتسلقها والتي كانت تهتز أحيانا من تحته بشكل خطير ، أو كانت تقبع كتل صخرية هائلة فى طريقه والتي اضطر أن يتفادها بجهد . أو كانت تهوى منحدرات من كسر الصخور إلى ناحية الشق الأرضى ، والتي كانت تتحرك فور أن يعبر عليها . وأكثر من مرة لم يمنعه من السقوط إلا عرض قدم واحد .

ولو كان يعرف أن هناك متعباً لأثره يزداد اقترابا منه ساعة بعد ساعة ، لربما اندفع إلى أى سلوك بلا تفكير يمكن أن يدفع ثمنه غالبا وهو فى طريقه الوعر . لقد كان ذلك هو كائن الظلام الذى كان يتعبه منذ أن بدأ رحلته . وفى تلك الأثناء كان قد تكثف شكله لدرجة استطاعة المرء أن يتعرف على خطوط ملامحة بوضوح . لقد كان ذئبا ، فى سواد القار وفى حجم الثور . وكان يركض وأنفه على الأرض دائما مقتفيا أثر أتريو من خلال الصحراء الصخرية للجبال الموات . وكان لسانه يتدلى من فمه إلى بعيد وقد شد مشافره إلى أعلى لدرجة أن المرء كان يستطيع أن يرى أسنانه المرعبة . وحدائة الأثر المشموم قالت له إن بضعة أميال فقط هى التى تفصله عن ضحيته وكانت المسافة تتضاءل بلا هوادة .

ولكن أتريو لم يكن يدر شيئا عن متعبه وكان يبحث عن طريقه بحذر وببطء . وفى اللحظة التى دخل فيها كهفا ضيقا ، سمع فجأة ضجيجا لم يستطع أن يفسره لنفسه ، لأنه لم يكن له شبه بأى ضجيج آخر سمعه من قبل . لقد كان هديرا وزئيرا وصلبلا ، وفى نفس الوقت شعر أتريو كيف كانت الصخرة كلها التى كان بداخلها تهتز ، وسمع صوت قعقة كتل الأحجار التى سقطت فى جلبة من جدران الجبل وانتظر برهة وهو يتساءل اذا كان الزلزال - أو ما هو محتمل أن يكون - سوف

ينتهى ، وعندما توقف ، استمر في زحفه ، ووصل أخيرا إلى المخرج ومد رأسه بحذر إلى الخارج .

وحيثذ رأى : فوق ظلام الهوة السحيقة كانت تتدلى شبكة عنكبوت هائلة مشدودة من الطرف إلى الآخر . وفي الخيوط اللزجة لهذه الشبكة ، والتي كانت في سمك الحبال ، كان يتلوى تنين حظ أبيض كبير ، وكان يضرب بذيله ومخالبه من حوله ، وهذا لا يزيد إلا من تشابهه بشكل لا يمكن إنقاذه .

وحیوانات تنين الحظ تنتمي إلى أكثر الحيوانات ندرة في فانتازين . وليس لديها شبه بحيوانات التنين العادية أو تنين الثعبان التي كانت تسكن في كهوف أرضية عميقة مثل الثعابين العملاقة المقززة ، والتي تنشر الرائحة الكريهة وتقوم بحراسة أنواع من الكنوز الحقيقية أو الوهمية . ومخلوقات نتاج الفوضى هذه طباعها غالبا ما تكون شريرة متدمرة ، ولها أجنحة جلدية مثل أجنحة الخفاش تستطيع بواسطتها أن ترتفع إلى الهواء بضجيج وبلا مهارة ، وهي تنفث من أفواهها نارا ودخانا . أما حيوانات تنين الحظ فهي مخلوقات الهواء والدفء ، ومخلوقات السرور الزائد ، وبرغم حجم جسمها الهائل خفيفة الوزن كسحابة الصيف .

ولذلك فهي لا تحتاج إلى أجنحة للطيران ، فهي تسبح في أجواء السماء كالسمك في الماء . وعند مشاهدتها من الأرض فهي تشبه البرق البطيء . وأروع ما بها غناؤها وصوتها يصدح كالرنين الذهبي لجرس كبير ، وعندما تتكلم يكون وقعها كما لو كان الإنسان يسمع رنين الأجراس هذا من بعيد . ومن يتسنى له مرة الاستماع لمثل هذا الغناء ، فلن ينساه طيلة عمره ، وسيحكى عنه لأحفاده أيضا .

ولكن تنين الحظ هذا الذي رآه أتريو حينئذ لم يكن في الحقيقة في موقف يستطيع أن يشعر فيه بميل إلى الغناء . فجسمه الطويل المرن ، الذي كانت قشورة الصدفة تلمع بلون وردي وأبيض ، كان يتعلق مقوسا ومقيدا في شبكة العنكبوت الهائلة . وكانت شعور الذقن الطويلة عند فم الحيوان وشعر عُرْفه الكث وخصلات شعر ذيله والتي على أعضاء جسمه كانت متشابكة في الحبال اللزجة لدرجة أنه لم يكن يستطيع الحركة تقريبا . وكانت كرتا عينيه في رأسه ذى شكل الأسد هي فقط التي تلمع بلون حمرة الياقوت وتبين أنه مازال حيا .

وكان الحيوان الرائع ينزف من جروح متعددة ، حيث كان هناك شيء آخر ، شيء هائل ، كان ينقض باستمرار وبسرعة البرق على جسم التنين الأبيض كسحابة داكنة تغير من شكلها بشكل متواصل . فتارة كانت تشبه عنكبوتا عملاقا بأرجل طويلة وعيون متوهجة كثيرة وجسم بدين يغطيه شعر كثيف أسود متلبد ، ثم تصيح يدا واحدة كبيرة ذات مخالب طويلة تحاول أن تعصر تنين الحظ ، وفي اللحظة التالية تتحول إلى عقرب عملاق أسود يضرب بشوكته السامة ناحية ضحيته التعسة .

وكان الصراع بين كلا الكائنين الهائلين مريعا . وكان تنين الحظ مازال يدافع عن نفسه بأن ينفث نارا زرقاء كانت تحرق الشعر الخشن للمخلوق ذي شكل السحابة . وتساعد الدخان ودار في سحابات من خلال الشق الصخري . والرائحة الكريهة جعلت تنفس أتريو شبه مستحيلا . وقد نجح تنين الحظ فوق ذلك مرة في أن ينزع بأسنانه أحد أرجل خصمه الطويلة . ولكن العضو المنزوع لم يسقط في عمق الهوة ، ولكنه تحرك في الهواء وحده للحظة ، ثم عاد مرة أخرى إلى مكانه الأول وأُخذ ثانية مع الجسم السحابي الداكن . وهكذا تكررت الأحداث ، وبدا التنين وكأنه يعرض في الفراغ بمجرد أن يتمكن من الإمساك بأحد الأعضاء بأسنانه .

وحيثذ فقط لاحظ أتريو ما فات عنه حتى ذلك الوقت : إن هذا المخلوق الفظيع كله لم يكن مطلقا من جسد واحد صلب ، ولكن من حشرات صغيرة لا تحصى ذات لون في زرقاة الصلب ، كانت تحدث أزيزا كالزنابير الغاضبة ، وتتخذ وهي في سرب كثيف أشكالا جديدة دائما .

لقد كانت إجرامول ، وحيثذ عرف أتريو أيضا لماذا كانت تدعى «المتعددة» وقفز خارجا من محبته ، ومد يده إلى الجوهرة من على صدره وصرخ بأعلى ما في استطاعته قائلا : «قفى ! باسم الإمبراطورة الطفولية . قفى !» .

ولكن صوته ضاع في زئير وفحيح المخلوقين المتصارعين . هو نفسه لم يسمعه تقريبا . وبدون أن يتردد جرى فوق الحبال اللزجة للشباك ناحية المتصارعين . واهتزت الشبكة تحت أقدامه ، وفقد توازنه ، وسقط بين الشفرات ، وتعلق بيديه فقط فوق العمق المظلم ، وجذب نفسه إلى أعلى ثانية والتصق ، وناضل غلصا نفسه مرة أخرى واستمر مسرعا .

وشعرت إجرامول فجأة ان شيئاً يقترب منها . ودارت في سرعة البرق وكان منظرها مرعباً : وحينئذ لم تكن سوى وجه هائل في لون زرق الصلب بعين واحدة فوق بداية الأنف ، والتي كانت تَحْمَلُ في أتريو بحدقة متسلطة ملؤها شر لا يمكن تخيله .

وأطلق باستيان صرخة فزع خافته .

ورنت صرخة الفزع من خلال الوادي العميق وترامى صداها هنا وهناك . وأدارت إجرامول عينها ناحية الشمال وناحية اليمين لكي ترى إذا كان قد أتى وارد جديد ، حيث إنه لم يكن ممكناً أنه هو الصبي الذي وقف أمامها كالمشلول من الرعب ، ولكن لم يكن هناك أحد .

وفكر باستيان وهو في غاية الإضطراب : «أمن الممكن أن تكون هي صرختي التي سمعتها ؟ ولكن هذا غير ممكن على الإطلاق»

وحينئذ سمع أتريو صوت إجرامول عالياً جداً ومبحوحاً قليلاً ، لا يريد أن يتناسب مطلقاً مع وجهها العملاق . وهي لم تكن تحرك فمها عند الكلام أيضاً فقد كان ذلك أزيز سرب هائل من الزنابير أخذ شكل الكلمات :

وسمع أتريو : «فرد من ذوى الرجلين ! بعد هذا الوقت الطويل ، الطويل من الجوع قطعتان شهيتان مرة واحدة ! يا له من يوم سعيد لإجرامول !»

وكان على أتريو أن يجمع كل قواه . ووضع «البريق» أمام العين الوحيدة للوحش الهائل ، وسأل قائلاً : «أتعرفون هذه العلامة؟»

وأحدثت المجموعة المتعددة الأصوات أزيزاً يقول : «اقترب ، ياذا الرجلين ! ، إجرامول لا ترى جيداً» .

وتقدم أتريو خطوة أخرى ناحية الوجه . وحينئذ فتح فمه . وبدلا من اللسان كان له قرون استشعار متألثة وبعده لا يحصى ، وكماشات وقباضات وأحدث السرب أزيماً يقول : «أكثر اقترابا !»

ومرة أخرى تقدم خطوة ، ووقف بعدئذ بالقرب من الوجه لدرجة أنه استطاع أن يرى بوضوح الكائنات الفردية الزرقاء بلون الصلب والتي لا تحصى عددا ، والتي كانت تدور بشدة في فوضى . وبالرغم من ذلك فقد ظل الوجه المرعب بلا حراك .

فقال : «أنا أتريو ، وأنا في مهمة للإمبراطورة الطفولية .»

فرد الأزيز الغاضب قائلا بعد برهة : «أنت تأتي في وقت غير مناسب . ماذا تريد من إجرامول ؟ إنها مشغولة جدا ، كما ترى»

فأجاب أتريو : «إنني أريد تنين الحظ هذا ، اعطني إياه !»

- «لأى غرض تحتاجه ، يا أتريو يا ذا الرجلين ؟»

- «لقد فقدت حصاني في مستنقعات الحزن . ولا بد لي أن أذهب إلى أرض التنبؤات الجنوبية ، لأن أبولالا فقط هي التي تستطيع أن تقول لي من يقدر أن يمنح الإمبراطورة الطفولية اسما جديدا . فإذا لم تحصل عليه فلا بد لها أن تموت ومعها فانتازين كلها حتى أنتم ، يا إجرامول المسماة بالمتعددة» .

ورن صوت ممدود من الوجه قائلا اليه : «آه ! هل هذا هو سبب تلك المواضع التي لم يعد فيها شيء ؟»

فرد أتريو قائلا : «أجل ، أنتم تعرفونه إذن أيضا ، يا إجرامول . ولكن أرض التنبؤات الجنوبية تقع أبعد من أن أستطيع الوصول إليها في الزمن الذي من الممكن أن تستغرقه حياتي . ولذلك فاني أطلب منكم تنين الحظ هذا . فإذا ما حملني عبر الهواء ، فربما يمكنني الوصول إلى الهدف» .

وسمع من السرب الحائم الذي يشكل الوجه ، شيئا يمكن أن يكون فهقهة متعددة الأصوات . - «أنت مخطيء يا أتريو يا ذا الرجلين . إننا لا نعلم شيئا عن

أرض التنبؤات الجنوبية ولا عن أيولالا ، ولكننا نعلم أن التنين لن يعد يستطيع أن يملك . وحتى إن كان غير مصاب ، فإن رحلتكم ستستغرق وقتا طويلا لدرجة أن الإمبراطورة الطفولية تكون في ذلك الوقت قد ماتت بسبب مرضها . فيجب عليك يا أتريو ألا تقيس مهمة بحثك بحياتك يا أتريو ياذا الرجلين ، بل طبقا لحياتها هي . »

وكانت النظرة النابعة من العين ذات الحدقة المتسلطة يكاد لا يمكن احتمالها ، وأطرق أتريو برأسه .

وقال بصوت خافت : « هذا حقيقي » .

واستمر الوجه قائلا بدون حراك : « وخلاف ذلك فإن سُم إجرامول في جسد التنين ، وسيبقى له من العمر على أقصى تقدير ساعة قصيرة من الزمن . »

فقدمم أتريو قائلا : « إذن لم يعد هناك رجاء ، لا له ولا لي ، ولا حتى لكم ، يا إجرامول . »

فقال أزيز الصوت : « ولكن ، إجرامول ستكون قد أكلت مرة أخرى على الأقل . ولكن لم يُقل بعدُ إنها فعلا آخر وجبة لإجرامول . ولكنها ربما تعرف وسيلة أخرى لنقلك في لمح البصر إلى أرض التنبؤات الجنوبية . والسؤال فقط هو ، إذا كانت تعجبك ، يا أتريويا ذا الرجلين . »

— « عم تتحد ثون ؟ »

— « إنه سر إجرامول . حتى مخلوقات الهوة لهم أسرارهم ، يا أتريويا ذا الرجلين . وإجرامول لم تصرح به أبداً من قبل . وأنت أيضا يجب أن تقسم بأنك لن تبوح به أبدا . لأنه سيكون تلفا على إجرامول ، آه ، تلفا كبيرا على إجرامول ، إذا ما عرف . »

— « أقسم بذنتك تكتم . »

وانحنى الوجه الهائل الأزرق بلون الصلب قليلا إلى الأمام وأحدث أزيزا يكاد يكون غير مسموع قائلا :

« لا بد أن تترك إجرامول تعضك » .

واهتز أتريو فزعا .

واستمر الصوت قائلا : إنَّ سُمَّ إجرامول يقتل بعد ساعة ، ولكنه يمنح من يحمله في نفس الوقت القوة في أن ينتقل إلى كل مكان يتمناه من فانتازين . فكر فقط فيما لو عُرف هذا ! جميع الضحايا ستفلت من إجرامول ! »

فصاح أتريو : « ساعة واحدة ؟ ولكن ماذا يمكنني تحقيقه في بحر ساعة واحدة ؟ »

وأحدث السرب أزيزا يقول : « ولو ، إنه بالرغم من ذلك أكثر من كل الساعات التي ما زالت باقية أمامك هنا . قرر أنت ! » .

وتصارع أتريو مع نفسه .

وأخيرا سأل قائلا : « هل ستحررون تنين الحظ إذا ما رجوتكم هذا باسم الإمبراطورة الطفولية ؟ »

فأجاب الوجه قائلا : « لا ، ليس لك الحق أن ترجو إجرامول من أجل ذلك ، حتى وإن كنت تحمل آورين « البريق » . فإن الإمبراطورة الطفولية تعترف بنا على ما نحن عليه . ولذلك تطيع أيضا إجرامول علامتها . وأنت تعرف هذا كله جيدا . »

وكان أتريو مازال واقفاً مطرق الرأس . فان ما قالته إجرامول كان حقيقة . إذأ فلم يستطع انقاذ تنين الحظ الأبيض . ولم يكن لرغبته الخاصة حساب .

ونفض قائلا : « افعل ، ما اقترحتيه ! »

وفي سرعة البرق انقضت عليه السحابة الزرقاء بلون الصلب وحوطته من كل جانب .

وأحس بألم شديد في كتفه الأيسر ، ولم يفكر إلا في : إلى أرض التنبؤات الجنوبية ! ثم اسودت الدنيا أمام عينيه .

وعندما وصل الذئب بعد ذلك بوقت قصير إلى المكان ، رأى شبكة العنكبوت الهائلة - ولكنه لم يشاهد أحداً آخر . فقد انقطع فجأة الأثر الذي كان يتعقبه حتى ذلك المكان ، ولم يستطع العثور عليه مرة أخرى رغم كل المساعي .

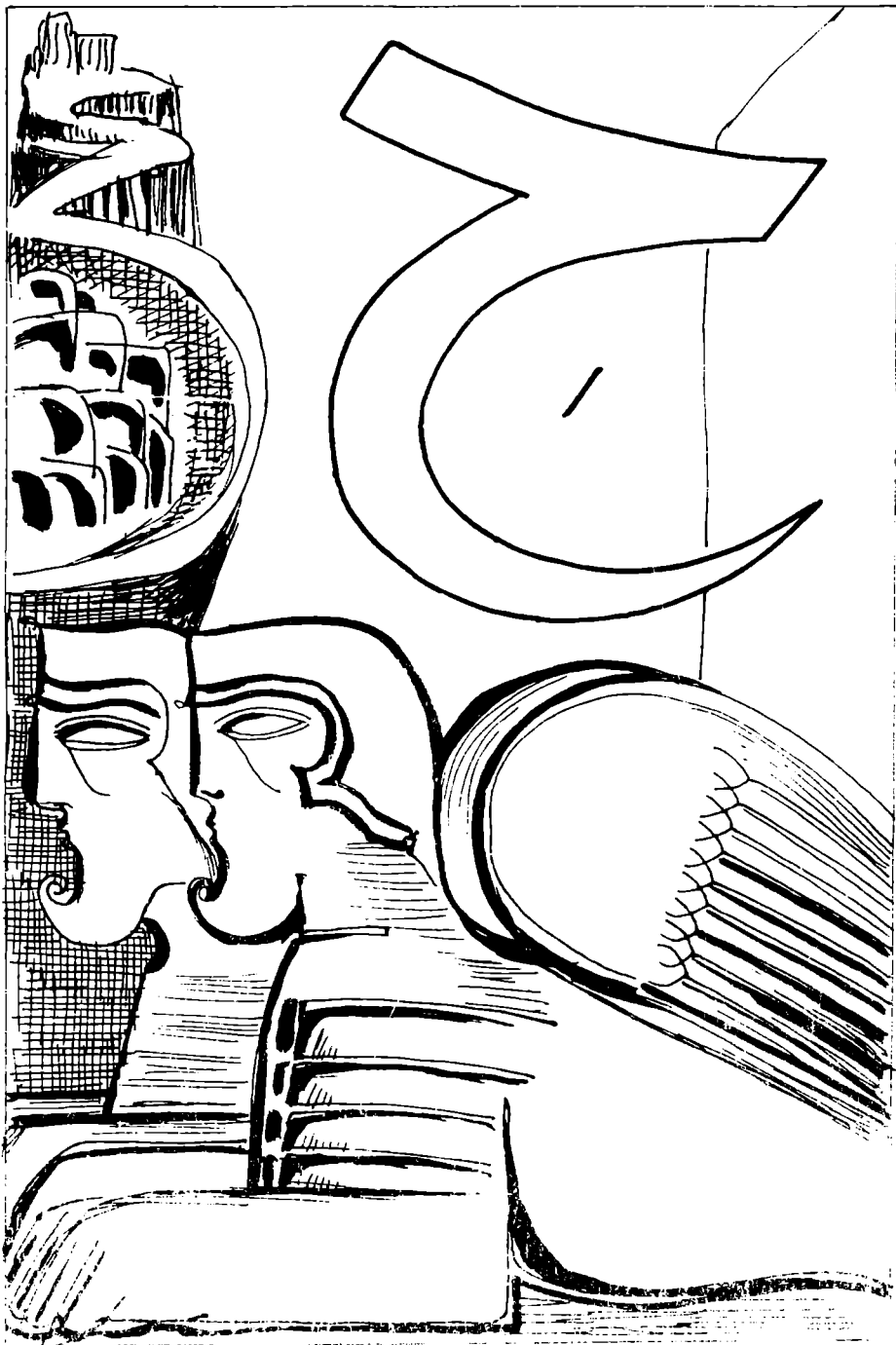
وتوقف باستيان . وشعر بتوعك ، كما لو كان بجسمه هو نفسه سم إجرامول . وقال بصوت خافت محدثاً نفسه : « الحمد لله ، أنى لست في فانتازين . فمثل هذه الوحوش الهائلة ليس لها وجود لحسن الحظ في الواقع . فكل هذا ما هو إلا قصة . »
ولكن هل كانت فعلاً مجرد قصة ؟ كيف كان اذن ممكناً ، أن إجرامول وربما أيضاً أتريو قد سمع صرخة باستيان الفزعنة ؟ .

إن هذا الكتاب قد بدأ ببطء يصبح مخيفاً له .

مكتبة
t.me/t_pdf

٥

الجامعة الإسلامية



جَئِمَ^(٩) الشك على أتريو للحظة مرعبة في أن تكون إجرامول قد خدعته ، لأنه عندما عاد إلى رشده ، وجد نفسه مازال في الصحراء الصخرية .

ونفض بصعوبة ، وحينئذ رأى أنه وإن كان في صحراء جبلية قاحلة ، ولكنها كانت مختلفة تماما . وبدت الأرض كلها كما لو كانت تتكون خالصة من ألواح صخرية كبيرة بلون مُحمر الصدأ ، مرصوفة فوق بعضها ومزحزحة عن بعضها ، وتكوّن بذلك مختلف أشكال الأبراج والأهرامات الغربية ، وفيما بينها غطت الأرض شجيرات منخفضة وحشائش . وقد سادت الجو حرارة حارقة . وكانت الأرض مغموسة في ضوء شمس مُشع ، بل وساطع يخطف الأبصار .

وظلل أتريو وجهه بيده ولمح على بعد ميل تقريبا بوابة صخرية ذات شكل غير منتظم ، وقوسها يتكون من ألواح حجرية موضوعة في وضع أفقى ، وربما يصل ارتفاعها إلى مائة قدم .

أ يكون هذا هو مدخل أرض التنبؤات الجنوبية ؟ وعلى مدى إمكانية بصره لم يكن خلف البوابة شيء سوى سهل خال لا نهائى ، لا مبنى ولا معبد ولا مرج - لا شيء يشبه موضع أرضٍ للتنبؤات .

وبينما هو يفكر فيما ينبغى أن يفعله ، سمع فجأة صوتا برونزيا عميقا يقول :

« أتريو » ثم مرة أخرى « أتريو . »

(٩) في الأصل الألمانى = Zweifel befiel Atreju بمعنى انتاب أتريو شعور بالشك . وقد لجأ المترجم إلى لفظ « جئِم » ليراعى الترتيب الهجائى للغة العربية باختياره تلك الكلمة البائدة بحرف « ج » .

فالتفت ورأى تنين الحظ الأبيض يأتي من خلف أحد الأبراج الصخرية الحمراء بلون الصدا وكانت الدماء تسيل من جروحه ، وكان خائر القوى لدرجة أنه لم يستطع أن يجبر نفسه إليه إلا بصعوبة . وبالرغم من ذلك غمز مرحا بإحدى عينيه الحمراوين في حمرة الياقوت ، وقال :

« لا تعجب كثيرا لأنني أيضا هنا ، يا أتريو . صحيح أنني كنت كالمشلول عندما كنت عالقا في شباك العنكبوت ، ولكنني سمعت كل شيء قالته لك إجرامول . وحينئذ فكرت ، أنني علي كل معضوض منها ، فلماذا لا أستخدم أيضا السر الذي أباحته لك ؟ وهكذا فلت منها . »

وفرح أتريو .

وقال : « لقد صعب علي أن أتركك لإجرامول ، ولكن ماذا كان في استطاعتي ؟ »

فرد تنين الحظ قائلا : « لا شيء . ولكنك بالرغم من ذلك أنقذت حياتي - وإن لم يكن ذلك بدون اشتراكى فى المساعدة . »

ومرة ثانية غمز بعينه ، وهذه المرة بعينه الأخرى :

فقال أتريو مكررا : « أنقذت حياتك - لمدة ساعة ، لأنه لم يعد لنا نحن الاثنين أكثر من ذلك . فإننى أشعر بسم إجرامول يزداد شدة مع كل لحظة . »

فرد التنين الأبيض قائلا : « لكل سم ، سم مضاد ، سوف ترى أن كل شيء سيسير على خير . »

فقال أتريو : « لست أدري كيف »

فرد التنين : « ولا أنا أيضا ، ولكن هذا عينه هو الشيء الجميل . وحتى عندما كنت متعلقا بالشباك لم أفقد الأمل - وكما ترى ، بحق . »

وابتسم أتريو . وقال : « قل لى ، لماذا نقلت نفسك إلى هنا - وليس إلى مكان آخر أفضل حيث ربما تجد شفاءك ؟ »

فقال التين : « إنَّ حياتي مُلْكٌ لك ، إذا أردت أن تقبلها . وقد فكرت أنك ستحتاج إلى حيوان للركوب في مهمة البحث الكبرى . وسوف ترى ، أنه أمر مختلف تماما أن يدب المرء على قدميه عبر المنطقة ، وحتى أن يركض مُمتطيا فرسا جيدا ، أو أن يمرق عبر أجواء السماء على ظهر تينٍ حظ . اتفقنا ؟ »

فأجاب أتريو : « إتفقنا » .

فأردف التين قائلا : « بالمناسبة ، أنا اسمي فُخور . »

فقال أتريو : حسنا ، يا فُخور ، ولكن بينما نحن نتكلم ، يمر الوقت القليل الباقى لنا . لا بد أن أفعل شيئا . ولكن ماذا ؟ »

فأجاب فُخور « أن يكون عندك حظ ، وإلا فماذا ؟ »

ولكن أتريو لم يكن قد سمعه . فقد سقط ، ووقد بلا حراك ملفوفا في المنحنيات لينة لجسم التين .

فقد سرى مفعول سُم إجراءمول .

وعندما فتح أتريو عينيه مرة أخرى - ومن يدرى بعد ذلك بأى وقت - لم يرفى بادىء الأمر سوى وجه غاية في الغرابة مائلا فوق وجهه . لقد كان أكثر وجه تجعيدا وكرمشة رآه ، ولكنه كان تقريبا في حجم قبضة يده . لقد كان لونه بنى غامق كتفاحة مشوية ، وكانت عيناه تلمع كالنجوم . وفوق الرأس غطاء من أوراق الشجر الذابلة .

ثم شعر أتريو أن وعاء صغيرا للشرب قد وضع على شفثيه .

ودمدت الشفتان الصغيرتان المجددتان في الوجه الصغير المكرمش قائلة :

« دواء جميل ، دواء جيد ! اشرب فقط ، يا ولدى ، اشرب . إنه منعش . » .

فرشف أتريو قليلا . وكان مذاقه فريدا ، حلوا قليلا ، ولكنه لاذع . وقال بصعوبة « وماذا من أمر التين الأبيض ؟ »

فأجاب الصوت الهامس قائلا : « على ما يرام . لا تشغل بالك ، يا ولدى

الصغير . سيعود للشفاء . سيعود كلاكما للشفاء . فلقد انتهيتم من أسوأ الأشياء

اشرب فقط ، اشرب . »

وأخذ أتريو جرعة أخرى ، وراح في النوم مرة ثانية . ولكن هذه المرة كان نوم المعافاة العميق المنعش .

ودقت ساعة البرج الثانية .

ولم يستطع باستيان أن يطيل حبسها : كان لابد أن يذهب بسرعة إلى دورة المياه . وكان عليه أن يذهب منذ فترة من الزمن ، ولكنه لم يستطع أن يتوقف عن القراءة . وخلاف ذلك فند خاف قليلا أن ينزل إلى مبنى المدرسة . وقال لنفسه ، إنه لا يوجد داع لذلك ، فقد كان خاليا ولن يراه أحد . وبالرغم من ذلك كان خائفا ، كما لو كان مبنى المدرسة كائنا سوف يراقبه .

ولكن لم تكن هناك فائدة لكل شيء ، فلقد كان مضطرا !

ووضع الكتاب بالصفحات المفتوحة على دواصة التربية الرياضية ، ونهض ومشى إلى باب المخزن . وتصنت فترة وقلبه يخفق . وسحب المزلاج ، وأدار المفتاح الكبير ببطء في القفل . وعندما ضغط على مقبض الباب ، انفتح بقرعة عالية .

وأسرع إلى الخارج ماشيا على جواربه ، وترك الباب وراءه مفتوحا ، لكيلا يحدث ضجيجا لا لزوم له مرة أخرى . ثم تسلل السلم إلى أسفل إلى الطابق الأول . وامتد أمامه الممر الطويل ذو الأبواب المدهونة بلون خضرة السبانخ والمؤدي إلى الفصول المدرسية . وكانت دورة مياه التلاميذ عند الطرف الآخر . وكان الأمر في غاية العجلة ، وجرى باستيان بأسرع ما يمكنه . ووصل إلى المكان المنقذ على آخر لحظة بمعنى الكلمة .

وبينما كان جالسا في دورة المياه فكر في سبب عدم مجابهة الأبطال في مثل هذه القصص فعلا لمثل هذه المشاكل أبدا . مرة - عندما كان أصغر من ذلك بكثير - سأل حتى في حصة الدين إذا كان السيد عيسى يضطره الأمر أيضا مثل الإنسان العادي ، لأنه كان أيضا يأكل ويشرب مثل الإنسان العادي . وضح الفصل من الضحك ، وكتب له مدرس الدين لفت نظر في دفتر الفصل بسبب « السلوك غير اللائق » . ولم

يتلق باستيان إجابة على سؤاله . بينما هو لم يكن فعلا يريد أن يسلك مسلكا غير لائق .

وقال باستيان لنفسه جينثذ : « ربما أن هذه الأمور جانبية وغير هامة لدرجة أنه لا داعى أن تُذكر في مثل هذه القصص . »

بالرغم من أنها من الممكن أن تكون أحيانا ذات أهمية تدعو إلى اليأس والحُجل .

وكان قد فرغ من مهمته ، وشد السلسلة وهم بالخروج ، عندما سمع فجأة وقع خطوات بالخارج في الطريقة . وفتح باب كل فصل بعد الآخر وأغلق مرة أخرى ، وزادت الخطوات اقترابا . وعلت ضربات قلب باستيان حتى رقبتة . أين يجئى ؟ وظل واقفا حيث كان كالمشلول . وفتح باب دورة المياه ولحسن الحظ بالكاد على قدير يخفى باستيان . ودخل مُدبّر شئون المدرسة . وبالتسلسل ألقى نظرة في الكباثن كُل على حدة ، وعندما جاء إلى تلك التى كان الماء لا يزال يجرى فيها والسلسلة تتأرجح ، توقف لحظة مشدوها . ودمدم متبرما بشيء من الكلام ، ولكنه عندما لاحظ أن الماء قد توقف جريه ، هز كتفيه ومشى إلى الخارج . ورن صوت خطواته على السلم .

ولم يجرؤ باستيان طيلة الوقت على التنفس ، وبعدئذ استنشق بعمق . وعندما أراد الخروج ، لاحظ أن ركبتيه ترتعشان .

وبحذر وبأسرع ما يستطيع مرق بطول الممرذى الأبواب المدهونة بلون خضرة السبانخ ، وإلى أعلى السلم ، عائدا إلى المخزن . وعندما أغلق الباب بالقفل والمزلاج مرة أخرى زال عنه التوتر .

واستقر على مخذعه المكون من دوسات الجمباز مرة ثانية وأطلق تهيدة عميقة ، وتدثر في الأغطية العسكرية ، ومديده إلى الكتاب .

وعندما استيقظ أتريو مرة أخرى شعر بأنه منتعش تماما وقوى . ونهض ، وكان الوقت ليلا والقمر يسطع منيرا ، ورأى أتريو أنه في نفس المكان الذى انهار فيه إلى

جوار التين الأبيض . وأيضا فخور كان لا يزال راقدا هناك ، ولكنه كان يتنفس بهدوء وعمق وبدا غارقا في النوم ، وكانت جميع جروحه مضمدة .

ولاحظ أتريو أن كتفه هو أيضا قد أحيط بنفس الرعاية ، ولكن ليس بالقماش ولكن بالأعشاب والألياف النباتية .

وعلى بعد خطوات قليلة كان هناك كهف في الصخر يسقط من مدخله شعاع ضوء خافت . ونهض أتريو بحذر ، دون أن يحرك ذراعه الأيسر ، ومشى إلى مدخل الكهف المنخفض . رانحنى إلى أسفل وشاهد في الداخل غرفة بدت كمطبخ الكيميائيين بمقياس مصغر . وفي الخلفية كانت جذوة مرحة من النار تطلق في مدفأة مكشوفة . وفي كل مكان انتشرت بلا نظام بوائق طويلة وأفران وزجاجات ذات شكل غريب . وكانت حزم من النباتات الجافة مختلفة النوع مرصوفة فوق أحد الرفوف . والمنضدة الواقعة في الوسط وقطع الأثاث الأخرى كانت تبدو مركبة من عيدان الجذور . وبوجه عام فقد كان المسكن يعطى انطبعا غاية في الراحة .

ولم يلاحظ أتريو أن آدميا صغيرا على كرسى ذى مساند أمام المدفأة ، إلا عندما سمع صوت نحنة . وكان يحمل على رأسه كهيئة القبعة مصنوعة من خشب الجذور ، والذي كان يبدو كرأس غليون معكوس . ووجهه كان أيضا بلون بني غامق ومُجعد مثل ذلك الوجه الذى رآه منحنيا فوقه عندما استيقظ أول مرة . ولكن كانت تقبع فوق أنفه نظارة كبيرة ، ولكن ملامحه تعطى انطبعا أكثر حدة وأكثر هُما . وكان الأدمى الصغير يقرأ في كتاب كبير على حجره .

ثم دخل شخص صغير ثانٍ مترنحا من غرفة أخرى تقع في الخلف ، وقد عرف أتريو فيه على الفور ذلك الكائن الذى تناوله بالرعاية من قبل . وحينئذ فقط رأى أنه عبارة عن أنثى . وكانت ترتدى خلاف الكاب المصنوع من أوراق الشجر - وتماما مثل الرجل الصغير على كرسى المدفأة - كهيئة عباءة الرهبان ، كانت تبدو كذلك مصنوعة من ورق الشجر الذابل . وكانت تغنى مسرورة بصوت خافت ، وفركت يديها ، وانشغلت بعدئذ بقدر معلق فوق النار . وكان كلا الشخصين لا يكادان يصلان أعلى من رجل أتريو من النعل إلى الركبة . وعلى ما يبدو أن كلا هذين كانا

عبارة عن أعضاء من عائلة العفاريت القزمية كثيرة التشعب ، وإن كانا غير عاديين جدا .

وقال الرجل الصغير متبرماً : « يا امرأة ، ابعدي عن الضوء . أنت تزعجيني في دراستي »

« فردت المرأة الصغيرة : « لهوة عليك وعلى دراستك ، من تهمة هذه . المهم الآن هو أن يجهز إكسير الشفاء الخاص بي . فكلا الاثنين بالخارج يحتاجان إليه » .

فرد الرجل الصغير بعصبية : « إن كلا الاثنين بالخارج سيحتاجان أكثر إلى نصيحتي ومعونتي » .

فأجابت المرأة الصغيرة قائلة : « ليكن ، لكن ليس قبل أن يتعافيا . افسح المكان ، أيها العجوز » .

وتزحزح الرجل الصغير بكرسيه قليلا عن النار متبرما .
وتنحج أتريو لكى يلفت النظر إليه ، والتفت زوج العفاريت القزمية إليه .

وقال الرجل الصغير : « لقد أصبح معافىً ، والآن الدور علىّ » .
فتهدت المرأة الصغيرة بصوت عال قائلة : « ليس هاهنا ، أنا التى تقرر إذا كان

صحيحا . الدور عليك عندما أقول أنا أن عليك الدور ! »
ثم اتجهت إلى أتريو قائلة :

« كان يسرنا أن ندعوك للدخول . ولكن ربما يكون المكان ضيقا جدا عليك . لحظة . سأخرج إليك حالا » .

وصحنت شيئا ما فى هاون صغير وأبقت به بعدئذ فى القدر . ثم غسلت يديها وجففتها فى عباءتها وهى تقول للرجل الصغير :

« أنت تظل جالسا هاهنا ، يا إنجيثرك حتى أناديك ، مفهوم ؟ »
فدمدم الرجل الصغير قائلا : « حسنٌ ، يا أورا جل » .

وأنت عفريته الأقزام الصغيرة من لكهف إلى الخلاء . وتطلعت إلى أتريو من أسفل متفحصه له بعينين مزومتين ، وقالت : « هيه ؟ يبدو أن صحتنا جيدة تماما ،

أليس كذلك ؟ »
وهز أتريو رأسه بالإيجاب .

وتسلقت المرأة الصغيرة بروزا صخرية على ارتفاع مماثل لوجه أتريو ،
وجلست .

وسألت لكى تعرف قائلة : « ألم تعد هناك آلام ؟ »

فأجاب أتريو : « شىء لا يستحق الذكر » .

فصاحت به المرأة الصغيرة بنبرة أمرة وعينين متلاثلتين : « ماذا إذن ؟ هل
تشعر بألم أم لا ؟ »

فقال أتريو موضحاً : « مازال هناك ألم ، ولكن الأمر لا يهمنى .. »

فنفخت أورها قائلة : « ولكن يهمنى أنا ؟ وشىء يبعث على السرور عندما
يقول المرضى للطبيب عما يهمنى . ماذا تفهم أنت فى ذلك ، يا عديم الخبرة . لا بد من
وجود الألم عند التماثل للشفاء ، فلولم يكن هناك ألم ، لكان ذراعك قد مات » .

فقال أتريو الذى شعر وكأنه طفل أصابه اللوم : « معذرة ، لقد أردت فقط أن
أقول .. أى ، إننى أردت تقديم شكرى » .

فقاطعته أورها بغلظة قائلة : « دع هذا . ما أنا إلا طيبة . ولم أقم إلا بواجب
المهنة . وقد رأى إنجيڤوك ، زوجى ، البتاكل عالقا حول رقبتك . فلم يعد هناك
سؤال بالنسبة لنا » .

فسأل أتريو : « وفُخور ؟ كيف حاله ؟ »

— « من هذا ؟ »

— « تنين الحظ الأبيض » .

— « آه ! لا أعرف بعد . لقد أصابه ضرر أكثر منك . ولكنه يتحمل أيضا أكثر

قليلا . لا بد وأنه سيمر بسلام . أنا متأكدة تقريبا أنه سيعافى مرة أخرى . إنه يحتاج
إلى الراحة قليلا من الوقت . من أين أصابكم هذا السم ، هيه ، هيه ؟ ومن أين
تأتون هكذا على غرة ؟ وإلى أين تريدون ؟ ومن أنتم »

وكان إنجيڤوك حينئذ قد أتى أيضا إلى مدخل الكهف وسمع كيف يجيب أتريو
على أسئلة أورها العجوز . ثم تقدم وصاح قائلا :

« اقفلى فمك يا امرأة ، الآن الدور على » .

ثم اتجه إلى أتريو وخلع القبعة ذات شكل رأس الغليون وهرش رأسه الصغيرة الصلحاء وقال : « لا تأخذ نبرة كلامها على محمل سيء . إن أورجل العجوز غالبا ما تكون فظة ، ولكنها لا تقصد ذلك . أنا اسمي إنجيثوك . ونحن نسعى أيضا الناسكان . هل سمعت عنا من قبل ؟ »

فقال أتريو معترفا : « لا » .

وبدا إنجيثوك قد أحس بقليل من الإهانة .

وقال : « حسنٌ . إنك لا تتعامل مع الدوائر العلمية ، وإلا لكان أحدهم قال لك بالتأكيد إنك لن تستطيع أن تعثر على ناصح أفضل مني إذا أردت الذهاب إلى أيولالا في أرض التنبوءات الجنوبية . لقد أتيت إلى العنوان الصحيح ، يا بني » .

فصاحت أورجل العجوز مقاطعة : « لا يكن سلوكك على هذا النحو » .
ثم تسلقت من مكان جلوسها إلى أسفل واختفت في الكهف وهي تزوم .
وتغافل إنجيثوك عن ملاحظتها متعمدا .

وواصل كلامه قائلا « أستطيع أن أفسر لك كل شيء . فقد درست الأمر بدقة تامة ضيلة حياتي وأقمت مرصدي خصيصا لذلك . وقريبا سوف أنشر بحثا علميا كبيرا عن أرض التنبوءات . والعنوان : لغز أيولالا ، مفسراً بواسطة البروفسور إنجيثوك . وقعه ليس رديئا على السمع ، أليس كذلك ؟ ولكن ينقصني للأسف بعض النقاط الصغيرة . ويمكنك أن تساعدني في ذلك ، يا بني » .

فتساءل أتريو قائلا : « مرصد ؟ » حيث لم تكن الكلمة معروفة لديه . فهزأ إنجيثوك رأسه بعيون تلمع من الفخر . وحث أتريو بحركة بيده أن يتبعه .

ومن بين الألواح الصخرية الهائلة كان يسير ممر صغير كثير التعاريج إلى أعلى دائما . وفي بعض المواضع التي كانت ترتفع بانحدار شديد ، حُفرت درجات صغيرة كانت بالطبع صغيرة جدا على أقدام أتريو . وقد صعدها بخطوة واحدة فقط . وبالرغم من ذلك فقد لاقى كل الجهد في أن يلحق بالعفريت القزم الذي كان يتدحرج أمامه بخفة .

وسمع إنجيثوك وهو يقول : « ليلة مقمرة منيرة اليوم ، ستستطيع رؤيتها » .
فقال أتريو راغبا في المعرفة « من ؟ أيولالا ؟ »
ولكن إنجيثوك أشاح بيده غاضبا وواصل سيره مترنحا .

وأخيرا وصلا إلى قمة البرج الصخرى . وكانت الأرض مسطحة ، ومن جانب واحد فقط ارتفع شيء كالساتر الطبيعي ، درابزين من لوح صخرى وفي وسط هذا اللوح ثقب يبدو أنه قُطع بالأدوات . وأمام الثقب منظر مقرب صغير على حامل مصنوع من خشب الجذور .

ونظر إنجيثوك من خلاله ، وضبطه قليلا بأن لف بضعة صواميل ، ثم هز رأسه بارتياح وطالب أتريو أن يلقي بدوره نظرة أيضا . وقام هذا بتنفيذ الأمر ، ولكنه اضطر إلى أن يقبع على الأرض لكي ينظر من خلال المنظار وهو معتمد على مرفقيه

وكان موجهًا إلى البوابة الصخرية الكبيرة بحيث يكون الجزء الأسفل من العמוד الأيمن في الصورة . وحينئذ رأى أتريو أنه إلى جانب هذا العמוד كان يجلس أبو هور ضخم في مكان عال في سكون تام في ضوء القمر . وكانت المخالب الأمامية التي يتكئ عليها ، مخالب أسد ، والجزء الخلفي لجسمه كان جسم ثور ، وكان يحل على ظهره جناحي نسر هائلين ، ووجهه وجه انسان — على الأقل من ناحية الشكل ، لأن التعبير لم يكن تعبيرا بشريا . وكان من الصعب تحديد ما إذا كان هذا الوجه يتسم أو أنه يعكس حزنا لا حد له أو حتى عدم مبالاة تامة . وبعد أن شاهده أتريو لفترة من الزمن ، بدا له مملوءا بشر سحيق وقسوة ، ولكن بعد ذلك بقليل كان عليه أن يصحح انطباعه مرة ثانية ، فلم يجد فيه سوى بشاشة صافية .

وسمع صوت العفريت القزم عند أذنه يقول : « هذا يكفي . لن تصل إلى حل اللغز . وهكذا بالنسبة لكل شخص وبالنسبة لي أيضا . لقد راقبته طيلة عمري ولم أفهمه . والآن إلى الآخر » .

وأدار أحد الصواميل ، ومرت الصورة أمام فتحة قوس البوابة التي لم يكن يمتد من ورائها سوى سهل واسع خال ، ثم أتى العמוד الأيسر للبوابة إلى مجال نظر

أتريو ، وهناك كان يجلس أبو هول ثان بنفس الوضع . وكان جسده القوي ينمغ في ضوء القمر بلون شاحب غريب كالفضة السائلة . وكان يبدو أنه يحملق في أبي الهول الأول دون أن يجيد عنه النظر ، مثلما كان ينظر الأول بلا حركة في اتجاهه .

وسأل أتريو بصوت خافت دون أن يستطيع إبعاد نظره عنها : « هل هما تماثلان ؟ »

فأجاب إنجيثوك وهو يقهقه ضاحكا : « إطلاقا ، إنها آباء هول حقيقه ، حية - وكم هي حية ! لقد شاهدت ما فيه الكفاية مؤقتا . هيا ، فلنذهب إلى أسفل مرة أخرى . سوف أشرح لك كل شيء » .

ووضع يده أمام المنظار المقرب بحيث لم يعد أتريو يرى شيئا . ومشيا طريقهما عائدين بصمت .

٦

البوابات السرية الثلاثة



حينما عاد إنجيثوك مع أتريو إلى كهف العفاريت القزمية ، كان فُخور ما زال يغط في سبات عميق . وفي تلك الأثناء كانت أورجل العجوز قد أخرجت المنضدة الصغيرة إلى الخلاء وأعدتها بمختلف أنواع الحلوى والعصائر المطبوخة من الفراولة والنباتات .

وإلى جانب ذلك كانت هناك أقداح صغيرة للشرب وإبريق صغير مملوء بمشروب أعشاب ساخن عطر الرائحة . واكتمل المشهد بفانوسين صغيرين بزجاجتين يغذيها الزيت .

وقالت أنثى العفاريت القزمية آمرة : « جلوس . أتريو يجب أولاً أن يأكل ويشرب شيئاً لكى يعود إلى قواه . فالدواء وحده لا يكفي . »
فقال أتريو : « شكراً ، أنا أشعر بأن صحتي جيدة جداً » .
فنفخت أورجل قائلة : « ممنوع المعارضة ! فطالما أنت هنا ، تفعل ما يقال لك ، مفهوم إن السم في جسدك قد فقد فعاليته . فلا داعي إذن للعجلة ، يابني . فلديك وقت كما تريد ، فلتتمهل إذن » .

فقال أتريو معترضاً : « إن الأمر لا يتعلق بي أنا وحدي ، إن الإمبراطورة الطفولية تحتضر . ربما يتوقف الأمر الآن على كل ساعة » .

فقالت العجوز متبرمة : « كلام فارغ . بالتسرع لا يحقق المرء شيئاً مطلقاً . جلس . كل . اشرب . هيا ، هل ستسرع ؟ » .

وهمس إنجيثوك قائلاً : « من الأفضل أن يسلم المرء . فلديّ خبرت مع هذه

المرأة . إذا أرادت شيئاً ، فلا شيء يجدى . وخلاف ذلك فعلينا أن نناقش الكثير ، نحن الاثنين » .

وجلس أتريو وأرجله منثية أمام المنضدة الصغيرة جداً ، ومد يده . ومع كل جرعة ومع كل لقمة كان يشعر فعلاً كما لو كانت تسرى في عروقه وعضلاته حياة ذهبية دافئة . وحينئذ فقط لاحظ كم كان خائر القوى .

وسال لعاب باستيان في فمه . وشعر فجأة كما لو كان يشم رائحة عطر وجبة العفاريت الأقزام . وشمشم في الهواء من حوله ، ولكنه بالطبع كان مجرد تخيل .

وزمجرت بطنه بصوت مسموع من الجوع . ولم يعد يستطيع الاحتمال . فأخرج بقية طعام الفسحة والتفاحة من خفيته وأكل كليهما . وبعدها شعر بقليل من التحسن ، بالرغم من أنه لم يكن قد شبع إلى حد بعيد .

ثم اتضح له أن هذه هي وجبته الأخيرة . وأفزعته الكلمة . وحاول ألا يفكر في ذلك فيما بعد .

وقال أتريو لأورجل : « من أين أتيت بكل هذه الأطايب ؟ » .

فقالت : « أجل ، يا بني ، لا بد أن يسير المرء إلى بعيد ، إلى بعيد لكي يعثر على الأعشاب والنباتات الصحيحة . ولكن إنجيثوك العنيد هذا يريد أن يسكن هنا بالذات - من أجل دراساته الهامة . وهو لا يهتم بكيفية إحضار الطعام إلى المائدة » .

فأجاب إنجيثوك بوقار : « يا امرأة ، ماذا تفهمين أنت فيما يهم وفيما لا يهم . تحركي بعيداً ودعينا نتحدث » .

واختفت أورجل متدمرة في الكهف الصغير حيث أحدثت ضجيجاً بمختلف أنواع الأواني .

وهمس إنجيثوك قائلاً : « دعها ، إنها عجوز طيبة ولكن يجب عليها حين والآخر أن تتساقط بشيء ما . اسمع يا أتريو . سوف أشرح لك الآن بعض الشيء عن أرض التنبؤات الجنوبية وهو ما يجب عليك معرفته . وليس من السهل تماماً

التقدم إلى أيولالا . بل من الصعب جداً . ولكني لا أود أن ألقى عليك محاضرة علمية . ومن الأفضل أن تطرح أنت أسئلة . فإنني من السهل أن أتوه قليلا في التفاصيل . أسأل إذن . »

فقال أتريو : « حسن ، مَنْ أو ما هي أيولالا ؟ »

فدمدم إنجيثوك ورمقه بعينين بارقتين غضباً وقال : « اللعنة . إنك تسأل بشكل مباشر مثل زوجتي . ألا تستطيع أن تبدأ بشيء آخر ؟ » .

ففكر أتريو ثم سأل قائلاً : « هذه البوابة الصخرية الكبيرة ذات أبي الهول التي أريتها لي هل هذا هو المدخل ؟ » .

فأجاب إنجيثوك : « هذا أفضل . فهكذا نتقدم إلى الأمام . إن البوابة الصخرية هي المدخل ، ولكن بعدها تأتي بوابتان أخريان ، ثم بعد البوابة الثالثة تسكن أيولالا — إذا استطاع المرء إطلاقاً أن يقول إنها تسكن . »

— « هل كنت بنفسك مرة عندها ؟ »

فأجاب إنجيثوك وهو منحرف المزاج قليلاً مرة أخرى : « إلى أين تتجه أفكارك ! إنني لا اشتغل إلا بطريقة علمية . ولقد جمعت كل تقارير الذين كانوا هناك . طالما أنهم عادوا ، طبعاً . وهذا عمل هام . وأنا لا أستطيع أن أسمع لنفسى بالمخاطرة الشخصية . فمن المؤكد أن يؤثر هذا على عملي . »

فقال أتريو : « فهمت . إذن ما أهمية هذه البوابات الثلاث ؟ »

فقام إنجيثوك ، وشبك ذراعيه خلف ظهره وراح يمشى جيئة وذهاباً بينما هو يقول ما يلي :

« الأولى تدعى بوابة اللغز الكبير والثانية تدعى بوابة المرأة السحرية ، والثالثة تدعى بوابة بلا مفتاح . . . »

فقاطعه أتريو قائلاً : « غريب ، فعلى قدر ما رأيت ، لم يكن خلف البوابة الصخرية شيء سوى سهل خال . فأين تلك البوابات الأخرى إذن ؟ »

فصاح به إنجيثوك متسلطا : « هدوء ! لا يستطيع المرء الشرح إذا داومت على المقاطعة . فكل شيء صعب جدا . فالأمر على النحو التالى : لا تكون البوابة الثانية هناك إلا عندما يمر المرء من البوابة الأولى . والثالثة هناك عندما يخلف المرء البوابة الثانية من ورائه وأيولالا فقط عندما يمر المرء عبر البوابة الثالثة . وقبل ذلك لا يوجد أى شيء من كل هذا . لا شيء هناك ؛ ببساطة ، هل فهمت ؟ »

وهز أتريورأسه بالإيجاب ، ولكنه فضل الصمت لكيلا يغضب العفريت القزم من جديد .

— « لقد رأيت البوابة الأولى ، بوابة اللغز الكبير من خلال منظارى المقرب . وكذلك أبوا الهول الاثنين . وهذه البوابة مفتوحة دائما — بالطبع . ليس لها ضلف على الإطلاق . ولكن بالرغم من ذلك لا يستطيع أحد المرور ، إلا — » وهنا مد إنجيثوك سبابته الصغيرة جدا إلى فوق وهو يقول : « إلا عندما يغلق آباء الهول عيونهم . أتدرى لماذا ؟ إن نظرة واحدة من أبى الهول تختلف اختلافا تاما عن نظرة أى كائن آخر . فكلانا ، وجميع الآخرين ، نلتقط بنظرنا شيئا . ونرى العالم . ولكن أبوا الهول لا يرى شيئا ، فهو أعمى بشكل ما . وفى مقابل ذلك ترسل عيونها شيئا ما . وما هو هذا الشيء الذى يرسله نظرهم ؟ جميع ألغاز الدنيا . ولذلك ينظر كلا أبوى الهول الاثنين إلى الآخر دون انقطاع . لأنه ليس سوى أبى الهول يستطيع أن يتحمل نظرة أبى هول آخر . والآن تخيل ما يمكن أن يحدث لشخص يجرؤ على السير فى مجال تبادل نظر كلا الاثنين هذين ! إنه يتصلب على الفور لا يستطيع التحرك مرة أخرى دون أن يكون من قبل قد حل جميع ألغاز الدنيا . إنك ستجد آثار مثل هؤلاء المساكين عندما تصل الى هناك . »

فقال أتريو معقبا : « ولكن ، ألم تقل أنهم أحيانا يغلقون عيونهم ؟ ألا يجب عليهم أحيانا أن يناموا ؟ »

فاهتز إنجيثوك من الضحك قائلا : « ينامون ؟ يا للعجب ، أبوا الهول ينام . كلا ، حقيقة لا . إنك فعلا فتى خالى الذهن . ولكن سؤالك ليس خاطئا بالرغم من ذلك . وهو بعينه النقطة التى أكرس لها بحثى . إن آباء الهول تغلق عيونها لدى

بعض الزائرين وتدعهم يرون . ولكن السؤال الذى لم يفسره أحد حتى اليوم هو : لماذا ذلك الشخص بعينه وليس شخصا آخر ؟ فهما لا يدعان بأى حال من الأحوال مثلا الحكماء والشجعان والخيرين ، ويبعدون الأغبياء والجنباء أو الأشرار . أجل ، يا للغرابة . لقد شاهدت بعينى رأسى أنهم سمحوا بالدخول لشخص أرعن ضعيف العقل ، أو لشخص محتال وضعيع بينما انتظر أفضل الناس استقامة ورجاحة فى العقل شهورا فى أغلب الأحيان ، وفى آخر الأمر انسحبوا بلا توفيق . ويبدو أنه ليس هناك أهمية إذا كان أحدهم يريد الوصول إلى أرض التنبؤات بسبب الضيق أو الحاجة ، إذن انه يحاول لمجرد المزاح .

وسأل أتريو قائلا : « وأبحاثك ، ألم تعط أية دلائل ؟ »

وفورا استعاد إنجيثوك نظرتة الغاضبة ذات البريق وقال :

« هل تنصت أم لا ؟ لقد قلت منذ قليل أن لا أحد حتى اليوم قد فسر هذا السؤال . ولقد أعددت بالطبع بعض النظريات مع مرور السنين . وفى بادئ الأمر ظننت أن النقطة الفاصلة التى يحكم آباء الهول طبقا لها هى ربما خصائص جسمانية معينة - الحجم ، الجمال ، القوة أو ما شابه ذلك . ولكننى اضطررت سريعا إلى إلغاؤها . ثم حاولت تحديد علاقات رقمية معينة ، مثل استبعاد ثلاثة من خمسة دائما ، أو أن فقط ذوى الأعداد الأولية التى تقبل القسمة على واحد وعلى نفسها هم الذين يحصلون على التصريح بالدخول . وقد سار ذلك أيضا سيرا حسنا جدا فيما يتعلق بالماضى ، ولكنها لم تفلح مطلقا عند التنبؤ فقط ، وفى تلك الأثناء اتخذت الرأى القائل بأن قرار آباء الهول عفوى تماما وليس له مغزى على الإطلاق . ولكن امرأتى تدعى بأن هذا رأى فاسق وغير فانتازى فوق ذلك ، وأنه ليس له أية علاقة بالعلم . »

وسمعت صوت أنثى العفاريت القزمية وهى تسب من الكهف قائلة : « هل عُدت ثانية إلى هرائك ؟ إستح ! أنت ترى أن فى استطاعتك إنكار مثل هذه الأسرار العظام ببساطة ، ليس إلا لأن الجزء الضئيل من المخ فى رأسك قد أصابه الجفاف ، أيها الغبى العجوز ! »

فقال إنجيثوك متهدا : « ها أنت تسمع . والأمر الفظيع هو أن معها حق . »
وسأل أتريو قائلا : « وماذا عن حجاب الإمبراطورة الطفولية ، أتعقد أنهم لن
يحترمونه ؟ فإنهم أيضا من مخلوقات فانتازين . »

فقال إنجيثوك وهز رأسه ذات حجم التفاحة يمينه ويسرة : « نعم ، ولكنهم
عند ذلك يجب أن يروه . وهم لا يرون شيئا . ولكن نظرهم سيصيبك . وكذلك
لست متأكدا من أن آباء الهول يطيعون الإمبراطورة الطفولية . ربما هم أعظم منها .
لست أدري ، لست أدري . وعلى كل حال فالأمر يدعو للشك والريبة جدا . »
فقال أتريو هو يريد المعرفة : « وبم تنصحنى إذن ؟ »

فأجاب العفريت القزمي : « ستضطر أن تفعل ما يضطر الجميع أن يفعلوه .
أن تنتظر كيف سيقروون - دون أن تعرف السبب . »
وهز أتريو رأسه مفكرا .

وجاءت أورا جل الصغيرة من الكهف وكانت تحمل بعناء دلوا صغيرا به سائل
يتصاعد منه البخار ، وتحت ذراعها حزم من النباتات المجففة . ومشت وهي تتمتم
لنفسها إلى تنين الحظ الذي كان لم يزل نائما بلا حراك . وبدأت تتسلق عليه وتغير
الضماجات على جروحه . وتهد مريضها العملاق مرة واحدة فقط بارتياح وتمطى ،
وخلاف ذلك بدا أنه لا يلاحظ شيئا تقريبا من العلاج .

وقالت إلى إنجيثوك عندما سارت مرة أخرى عائدة إلى المطبخ : « أليس من
الأفضل أن تستطيع أن تجعل من نفسك شخصا مفيدا قليلا ، بدلا من أن تقبع هنا
وتثرثر بكلام فارغ . »

فصاح زوجها من خلفها قائلا : « إنني أجعل من نفسي مفيدا جدا ، ربما أفيد
منك ، ولكنك لن تدركي هذا أبدا ، أيتها المرأة البلهاء ! »

وتحول إلى أتريو واستمر في حديثه وهو يقول : « إنها لا تستطيع أن تفكر إلا في
الشيء العملي . وهي ببساطة لا تدرك الأمور الكلية العظيمة . »

وإذا كان ذلك محتملا على الإطلاق ، فإن الأب يكون قد لاحظ حينئذ على أقصى تقدير أن باستيان لم يأت إلى المنزل . فهل يا ترى انشغل باله ؟ ربما سينطلق ويبحث عنه . وربما يكون قد أخبر الشرطة فعلا . وفي النهاية تنقل أخبار البحث عنه في الإذاعة . وأحس باستيان بوخزة في تجويف معدته .

ولو كان الأمر كذلك ، فأين سيبحثون عنه ؟ في المدرسة ؟ ربما أيضا هنا في المخزن ؟ هل كان قد أغلق الباب بالمرة عندما عاد من دورة المياه ؟ إنه لم يعد يستطيع التذكر ، ووقف لكي يتفقد الأمر . أجل ، لقد كان الباب محكم الغلق .

وفي الخارج بدأت الدنيا تصبح نصف مظلمة . والضوء الذي كان يدخل عبر كوة السقف ازداد ضعفا دون أن يلاحظ ذلك أحد .

ولكى يتخلص باستيان من قلقه سار قليلا جيئة وذهابا في المخزن . وأثناء ذلك اكتشف كمية من الأشياء التي ليس لها في الواقع أية علاقة بالمتعلقات المدرسية التي كانت هناك علاوة على ذلك . فعلى سبيل المثال جراموفون قديم منبعج ذوبوق — من يدري ، متى ومن أحضره إلى هناك ؟ وفي أحد الأركان كانت هناك عدة لوحات في إطارات ذهبية مزينة بزخارف متعرجة لم يعد شيء يُرى منها تقريبا ، سوى وجه شاحب هنا وهناك ذو نظرة صارمة . يظهر بلمعة منطفئة من الخلفية الداكنة . وكان هناك أيضا شمعدان ذو سبعة أذرع متآكلة من الصدأ ، والذي كانت ما تزال عالقة به بقايا شموع سميكة كونت من قطراتها خيوطاً طويلة كالذقون .

ثم فزع باستيان حيث تحرك شكل ما في أحد الزوايا المظلمة . وعند النظرة الثانية فقط أدرك أن هناك مرآة كبيرة نصف معتمة حيث رأى فيها نفسه بشكل غير واضح . وسار مقتربا منها وتأمل نفسه فترة . إنه لم يكن جميلا ، بجسمه السمين وأرجله المنحنية إلى الخارج ووجهه الشاحب هذا . وهز رأسه ببطء وقال بصوت عال « لا »

ثم عاد الى مخدعه المكوّن من الدواسات . واضطر وقتذاك أن يضع الكتاب بالقرب من عينيه لكي يستطيع مواصلة القراءة .

وسأل إنجيثوك : « أين كنا واقفين ؟ »

فقال أتريو مُذْكَراً له : « عند بوابة اللغز الكبير »

– « صحيح ! فلنفترض أنك وُقِّفْتَ في المرور . وحينئذ – وحينئذ فقط – ستواجه لك البوابة الثانية ، بوابة المرأة السحرية . وكما قلت ، لا أستطيع أن أقول لك شيئاً من ملاحظتي الشخصية ، ولكن فقط ما جمعته من التقارير . وتلك البوابة الثانية مفتوحة ومغلقة في نفس الوقت . إن لهذا وقعا مجنوناً ، أليس كذلك ؟ ربما من الأفضل أن نقول أنها لا مغلقة ولا مفتوحة ، بالرغم من أن الوقع لن يصبح بذلك أقل جنوناً . باختصار إنها عبارة عن مرآة كبيرة أو ما شابه ذلك بالرغم من أن الشيء غير مصنوع من زجاج ولا من معدن . ولم يستطع أحد أن يقول لي من أى شيء هي مصنوعة . وعلى كل حال ، عندما يقف المرء أمامها ، فإنه يرى نفسه – ولكن طبعاً ، ليس كما هو الحال في مرآة عادية . فالمرء لا يرى شكله الخارجى ، ولكن المرء يرى كيانه الداخلى الحقيقى كما هو مطبوع عليه في الحقيقة . ومن يريد المرور فعليه – هكذا أريد التعبير عن الأمر – أن يسير الى داخل نفسه . »

فقال أتريو : « على كل حال ، يبدو لي أن بوابة المرأة السحرية هذه أسهل المرور من خلالها من البوابة الأولى . »

فصاح إنجيثوك ، وبدأ يسير مرة أخرى جيئة وذهاباً : « خطأ ! خطأ فاحش تماماً ، يا صديقى ! لقد شاهدت أن خصوصاً هؤلاء الزوار الذين يعتبرون أنفسهم لا غبار عليهم بالمرّة ، يفرون صارخين من الوحش الذى يواجههم في المرأة في ضحك ساخر . وقد اضطررنا نحن أن نعالج بعضهم حتى طيلة أسابيع ، قبل أن يتمكنوا بالمرّة من بداية رحلة عودتهم للوطن . »

فقالت أو رجل متبرمة ، والتي كانت تمر حينها بدلو صغير جديد : « نحن ! إننى أسمع دائماً كلمة نحن . من قمت أنت بعلاجه ؟ »

وأشاح إنجيثوك فقط بيده .

واستمر في محاضرتة قائلاً : « وهناك آخرون على ما يبدو أنهم شاهدوا أموراً أكثر فظاعة ، ولكن كانت لديهم بالرغم من ذلك الشجاعة على المرور وكان الأمر بالنسبة للبعض أقل رعباً ، ولكن الأمر كلّف كل شخص قهراً للذات ولا يمكن

التصريح بذلك الشيء الذى كان له اعتبار لدى الجميع . فهو يختلف لدى كل شخص .

فقال أترىو : « حسن ، ولكن المرء يستطيع المرور من خلال المرآة السحرية ؟ »

فقال العفريت القزمى مؤيدا : « يستطيع ، بالطبع يستطيع المرء ، وإلا لما كانت بوابة ، منطقى ، أليس كذلك ؟ . »

فقال أترىو : « ويستطيع المرء أن يلف من الخارج أيضا ، أم لا ؟ »

فقال إنجيثفوك مكررا : « يستطيع تماما . فقط لن يكون هناك بعدئذ شيئا وراء ذلك . فالبوابة الثالثة تكون هناك فقط عندما يمر الإنسان من خلال البوابة الثانية . كم مرة يجب أن يقال لك هذا ؟ »

— « وما هى أهمية هذه البوابة الثالثة ؟ »

— « هنا فحسب سيصبح الأمر صعبا بجدا ! فإن البوابة بلا مفتاح مغلقة . ببساطة ، مغلقة ، وانتهى الأمر ! فلا توجد هناك أكرة ولا مقبض ، ولا ثقب مفتاح ، ولا شيء . وطبقا لنظريتي فإن ضلفة الباب الوحيدة التى تقفل باحكام ، تتكون من سيلينيوم فانتازى . وربما تعلم أنه لا يوجد شيء يمكن به تحطيم أو ثنى أو حل السيلينيوم الفانتازى . فهو غير قابل للتحطيم على الاطلاق . »

— « إذن لا يمكن العبور من خلال هذه البوابة أبدا ؟ »

— « مهلا ، مهلا ، يا بنى . لقد دخل أناس وتحدثوا مع أبولالا ، أليس

كذلك ؟ فيمكن إذن فتح الباب . »

— « ولكن كيف ؟ »

« اسمع : إن السيلينيوم الفانتازى يعطى رد فعل على إرادتنا . فإرادتنا هى التى تجعله هكذا لا يلين . وكلما زادت رغبة الفرد فى الدخول ، ازداد غلق الباب إحكاما . ولكن إذا استطاع الفرد أن ينسى كل غرض ولا تكن لديه رغبة فى شيء على الاطلاق — فإن الباب يفتح أمام هذا الشخص من تلقاء نفسه تماما . »

وأخفض أترىو بصره وقال بصوت خافت : « إذا كان هذا حقا — فكيف أتمكن من الدخول ؟ كيف سيمكننى عدم الرغبة ؟ »

فهز إنجيثوك رأسه متهددا وقال : « لقد قلت : إن البوابة بلا مفتاح هي صعبها . »

واستمر أتريو قائلا : « وإذا ما نجحتُ بالرغم من ذلك ، فهل سأكون بعدئذ في أرض التنبؤات الجنوبية ؟ »

فقال العفريت القزمي : « نعم . »

– « وسأتمكن من التحدث مع أيولالا ؟ »

فقال العفريت القزمي : « نعم . »

– « ومن وما هي أيولالا ؟ »

فقال العفريت القزمي وعيناه تلمعان بالغضب : « ليس عندي أية فكرة . لا أحد ممن كانوا عندي أراد أن ييوح لي بذلك . فكيف يُنهي شخص عمله العلمي إذا كان الجميع يحيطون أنفسهم بصمت غامض ، هه ؟ إنه لأمر يدعو لنزع الشعر من الغضب - إذا كان المرء لديه شعر . إذا ما تقدمت إلى عندها ، يأتريو ، فهل سوف تقول لي أخيرا ؟ هل ستفعل ؟ إنني سأهلك من الرغبة في المعرفة ولا أحد ، لا أحد يريد مساعدتي . أرجوك أن تعدني أنك سوف تقول لي ! . »

ونفض أتريو ونظر إلى بوابة اللغز الكبير الواقعة في ضوء القمر المنير . وقال بصوت منخفض : « لا أستطيع أن أعدك بهذا يا إنجيثوك ، بالرغم من أنني أودُ سرور أن أعبر لك عن امتناني . ولكن إذا كان لأحد قد تحدث عن كنه وماهية أيولالا ، فلا بد من وجود سبب لذلك . وقبل أن أعرفه لا أستطيع أن أقرر إذا كان مسموح معرفة هذا لشخصٍ لم يقف بنفسه أمامها . »

فصرخ فيه العفريت القزمي وكاد الشرر يتطاير من عينيه : « إذن هيا عَجَلْ بالانصراف ! فلا شيء يجنيه المرء سوى الجحود ! فيبذل المرء جهده طيلة حياته من أجل بحث سرٍّ ذي أهمية عامة . ولكن لا يتلقى عونا . كان ينبغي ألا أهتم بك على الإطلاق ! »

وبذلك جرى إلى داخل الكهف الصغير حيث سُمع بداخله الصفع الشديد لغلِق باب صغير ومرت أُرْجُل بأتريو وقالت وهي تكرر من الضحك : « إنه

لا يقصد ، صاحب الرأس الضامرة هذا . لقد خاب أمله فقط مرة أخرى بصورة شديدة بسبب أبحاثه المضحكة . فإنه يود جدا أن يكون ذلك الشخص الذى يحمل اللغز الكبير ، أن يكون العفريت القزمى الشهير إنجيثوك . لا تأخذ هذا منه على محمل سىء . »

فقال أتريو : « كلا ، من فضلك قولى له إننى أشكره من كل قلبى على كل شىء فعله من أجلى . وأشكرك أنت أيضا . وإذا كان مسموحا لى ، فسوف أقول له السر - إذا رجعت . »

فسألت أورجل العجوز قائلة : « أتريد أن تتركنا ؟ »

فأجاب أتريو : « يجب علىّ ، فغير مسموح لى أن أضيع الوقت . وسوف أذهب الآن إلى أرض التنبؤات . وداعا ! وحافظى على فُخور ، تتين الحظ أثناء ذلك من أجلى . » ثم استدار وانصرف متجها إلى بوابة اللغز الكبير . ورأت أورجل قوامه المعتدل ومعطفه الهفهاف وهو يختفى بين الصخور . فجرت وراءه وصاحت قائلة : « حظا سعيدا يا أتريو . » ولكنها لم تعرف إذا كان قد سمعها . وبينما هى تعود مترنحة إلى كهفها الصغير ، دمدمت قائلة : « إنه سيحتاج إليه - حقا ، سيحتاج إلى كثير من الحظ . »

وكان أتريو قد اقترب من البوابة الصخرية إلى حوالى خمسين خطوة . وكانت عملاقة وأكبر بكثير مما كان يتخيلها من البعد . ومن خلفها كان سهل قاحل تماما لا يتيح نقطة واحدة تساعد على الاستدلال ، لدرجة أن النظر كان يهوى فى مكان كالفراغ . وأمام البوابة وبين كلا العمودين رأى أتريو حينئذ عددا لا يحصى من جماجم الموتى والهياكل العظمية - بقايا عظام مختلف أنواع سكان فانتازين الذين حاولوا تخطى البوابة والذين تجمدوا إلى الأبد بسبب نظرة آباء الهول .

ولكن هذا لم يكن هو الذى دعا أتريو إلى التوقف . إن الذى جعله يقف كان منظر آباء الهول .

لقد شاهد أتريو الكثير فى مهمة بحثه الكبرى ، رأى الشىء الرائع والشىء المخيف ، ولكن مالم يكن يعرفه حتى تلك الساعة أن كلا الاثنين موجودان فى شىء

واحد ، وأن الجمال يمكن أن يكون مرعباً .

وغمر ضوء القمر كلا الكائنين الهائلين ، وبينما هو يتجه إليهما ببطء ، بدأ كأنما يرتفعان إلى مالا نهاية . وشعر كما لو كانا يصلان برؤوسهما إلى القمر . وبدأ التعبير الذي كانا ينظران به إلى بعضهما ، يتغير مع كل خطوة يزداد بها اقتراباً . ومن خلال الجسدين الممتدين في العلو ، وخاصة من خلال الوجهين الذين يشبهان الإنسان سرت واهتزت تيارات من قوة مخيفة مجهولة - كما لو كانا غير موجودين كوجود حجر المرمر ، ولكن كما لو كانا يتأهبان كل لحظة للاختفاء ، وفي نفس الوقت يخلقان أنفسهما من جديد . وكانا كما لو أنهما لهذا السبب عينه أكثر واقعية من كل صخرة .
وشعر أتريو بالخوف .

ولم يكن ذلك إلى حد كبير خوفاً من خطر يتهده ، لقد كان خوفاً يتخطاه هو نفسه . فلم يكن يفكر تقريباً ، أنه - إذا ما أصابته نظرة آباء الهول - لا بد وأن يظل واقفاً جامداً مسحوراً ومتصلباً إلى الأبد . كلا ، لقد كان الخوف من الشيء الغامض ، من الشيء الرائع فوق كل الحدود ، من حقيقة القوة العليا ، التي كانت تزيد من ثقل خطواته على الدوام ، إلى أن شعر كما لو كان من الرصاص البارد الرمادي .

وبالرغم من ذلك استمر في السير . ولم يعد ينظر إلى على . وظل خافضاً رأسه ومشى ببطء ، مقدماً قدماً على الأخرى ، متجهاً إلى البوابة الصخرية . وتزايد باستمرار هَوْل ثقل الخوف الذي كان يريد أن يضغته إلى الأرض . ولكنه استمر يمشى . ولم يعرف إذا كانت آباء الهول قد أغلقت عينيها أم لا . فلم يكن لديه وقت يضيّعه . وكان عليه أن يترك الأمر يدور حول حصوله على الإذن بالدخول أو أن تكون هذه هي نهاية مهمة بحثه الكبرى .

وفي نفس اللحظة التي اعتقد فيها أن جميع قوى إرادته لم تعد تكفي لتحمله خطوة واحدة فقط إلى الأمام ، سمع صدى هذه الخطوة في داخل القوس الصخري . وفي نفس الوقت سقط عنه كل الخوف ، كلبية ويلا أثر لدرجة أنه أحس أنه لن يشعر بالخوف أبداً مرة أخرى مهما حدث .

ورفع رأسه ورأى أن بوابة اللغز الكبير من ورائه ، لقد سمح له آباء الهول بالمرور . ومن أمامه ، وعلى بعد عشرين خطوة فقط كانت هناك بعدئذ بوابة المرأة السحرية حيث لم يكن هناك من قبل سوى السهل الخالي اللانهائي . وقد كانت ضخمة ومستديرة كقرص ثان للقمر (حيث كان القرص الصحيح مازال يحوم عاليا في السماء) وتتألأ كالفضة اللامعة . وكان من الصعب الاعتقاد بإمكانية المرور من خلال هذه المساحة المعدنية بالذات ، ولكن أتريو لم يتردد لحظة . وكان يتوقع ، كما وصف له إنجيثوك ، أن تنعكس له صورة لنفسه في هذه المرأة تبعث على الفزع ، ولكنها بدت له حينئذ - لأنه ترك كل الخوف - أنها تكاد لا تستحق الاعتبار .

وفي تلك الأثناء ، وبدلا من الصورة المفزعة رأى شيئا لم يكن يتوقعه على الإطلاق ، ولم يستطع كذلك أن يدركه . لقد رأى صبيا سمينا بوجه شاحب - تقريبا في عمره هو نفسه - كان يجلس على مخدع من الدواسات مربعا رجليه ، ويقرأ في كتاب . وكان ملفوفا في أغطية رمادية ممزقة . ومن خلفه أمكن تبين بعض الحيوانات الساكنة في دغشة الضوء ، نسر ، وبومة وثعلب ، وأبعد من ذلك قليلا كان يلمع شهء يبدو كهيكل عظمى أبيض . ولم يكن من الممكن تبينه بدقة .

وانتفض باستيان عندما فهم ما قرأه حالا . لقد كان ذلك هو ! فالوصف كان صحيحا في جميع تفاصيله . وبدأ الكتاب يرتعش في يديه . لقد راح الأمر حينئذ إلى بعيد جدا بشكل حاسم . فلم يكن ممكنا على الإطلاق أن يكون هناك شيئا في كتاب مطبوع لا ينطبق إلا عليه وفي هذه اللحظة لا غيرها فكل شخص آخر كان سيقراً نفس الشيء في هذا الموضوع . إن الأمر لا يمكن أن يكون شيئا آخر سوى صدفة مجنونة . وعلى الرغم من أنها بدون شك كانت صدفة غاية في الغرابة .

وقال لنفسه بصوت عال : « باستيان ، إنك فعلا تخرف . من فضلك تمالك نفسك ! » لقد حاول أن يقوها بصوت صارم بقدر الإمكان ، ولكن صوته ارتعش قليلا ، لأنه لم يكن مقتنعا تماما أن الأمر كان مجرد صدفة .

وفكر قائلا : « تصور ، إذا كانوا في فانتازين يعرفون شيئا عنك ، لكان ذلك رائعا . » ولكنه لم يجرو أن يقوها بصوت مرتفع .

وكانت ابتسامه مندهشة فقط على شفتى أتريو عندما دخل في الصورة المنعكسة - وكان متعجبا قليلا أن ينجح بهذه السهولة فيما بدا للآخرين صعبا لا يمكن التغلب عليه . ولكن بينما هو يمر أحس بقشعريرة غريبة . ولم يكن يدري ماذا حدث له في الحقيقة : فعندما وقف على الجانب الآخر من بوابة المرأة السحرية ، نسى كل ذاكرة في نفسه هو ، وفي حياته السابقة وفي أهدافه وأغراضه . ولم يعد يدري شيئا عن مهمة البحث الكبرى التي قادتته إلى هناك ، ولم يعد حتى يعرف اسمه الخاص . لقد كان كطفل ولد من جديد .

ورأى على بعد خطوات قليلة أمامه ، بوابة بلا مفتاح ، ولكن أتريو لم يتذكر هذه التسمية ولا أنه كان ينوى المرور منها لكي يأتي إلى أرض التنبؤات الجنوبية . إنه لم يكن يعرف على الإطلاق ماذا يريد أو ينبغي عليه فعله ولا سبب وجوده هناك . لقد كان يشعر أنه خفيف ومرح جدا ، وكان يضحك بلا سبب ، فقط من السرور .

والبوابة التي رآها أمامه كانت صغيرة ومنخفضة كبوابة عادية ، موجودة منفردة تماما - وبدون أسوار محيطة بها - في مساحة قاحلة . وكانت ضلفة هذه البوابة مغلقة .

وتأملها أتريو برهة . وبدت كأنها مصنوعة من مادة تلمع بلون الفحاس . لقد كانت جميلة ، ولكن أتريو فقد الاهتمام بها بعد قليل من الوقت . ومشى حول البوابة وتأملها من الناحية الخلفية ، ولكن المنظر لم يختلف عن الناحية الأمامية . وكذلك لم تكن هناك أكرة ولا مقبض للباب ولا ثقب لمفتاح . وعلى ما يبدو لم يكن ممكناً فتح الباب ، ولأى غرض كذلك ، حيث إنه لم يكن يؤدي إلى أى مكان ، فقط كان موجودا هناك . حيث لم يكن خلف البوابة سوى سهل واسع وخال تماما .

وكانت لدى أتريو الرغبة في الانصراف . فالتفت عائدا ، ومتجها إلى بوابة المرأة السحرية المستديرة وتأمل ناحيتها الخلفية لبعض الوقت دون أن يدرك معنى ذلك . وقرر أن ينصرف .

فقال باستيان بصوت عال : « لا ، كلا ، لا تنصرف ! ارجع يا أتريو . لا بد أن تمر من خلال البوابة بلا مفتاح ! »

ولكنه عاد متجها بعد ذلك إلى البوابة بلا مفتاح . وأراد أن يتأمل البريق النحاسى مرة أخرى . فوقف مرة أخرى أمام البوابة وانحنى إلى اليسار وإلى اليمين مبتهجا . وتلمس برقة المادة الغريبة . فقد كانت تعطى إحساسا بالدفء والحيوية أيضا . وانفتح الباب لشق واحد .

وأدخل أتريورأسه من خلاله ، وحينئذ رأى شيئا لم يكن رآه من قبل على الجانب الآخر ، عندما مشى حول البوابة . وسحب رأسه مرة أخرى ، ومر بنظره على البوابة : لم يكن هناك شيء سوى السهل الخالى . فنظر مرة أخرى من خلال شق الباب ورأى عمرا طويلا تكونه أعمدة هائلة لا تحصى عددا . وخلف ذلك درجات وأعمدة أخرى وشرفات ودرجات مرة أخرى وغابة كاملة من الأعمدة . ولكن لم يكن واحد من هذه الأعمدة يحمل سقفا . فقد كانت سماء الليل تُرى من فوقها .

ودخل أتريو من خلال البوابة ونظر حوله وهو ممتلىء بالدهشة . ومن خلفه هوى الباب مغلقا .

ودقت ساعة البرج الرابعة .

ضوء النهار المعتم الذى كان يسقط من خلال كوة السقف ، إختفى شيئا فشيئا . لقد كانت الدنيا مظلمة بحيث لا يمكن مواصلة القراءة . فحتى الضفحة الأخيرة لم يستطع باستيان تفسيرها إلا بعناء . فوضع الكتاب جانبا .

ماذا عليه أن يفعل الآن ؟

من المؤكد أن هناك نوراً كهربائياً فى هذا المخزن . وتحسس باستيان طريقه إلى الباب فيما يشبه الظلام ، وتلمس الحائط ولم يستطع العثور على مفتاح للنور . وكذلك لم يكن هناك واحد على الجانب الآخر .

وأخرج باستيان علبة ثقاب من جيب سرواله (لقد كان دائما معه شيء منها لأنه كان يجب أن يشعل نارا صغيرة) ، ولكنها كانت مبتلة ، ورابعها فقط هو الذى اشتعل . وبحث على الضوء الضعيف للشعلة الصغيرة عن مفتاح للنور . ولكن لم يكن هناك واحد منها .

إنه لم يضع ذلك في حسبانته . وعندما تصور أنه سيجلس هناك المساء كله ،
والليلة كلها في ظلام تام ، شعر ببرودة من الفزع . إنه لم يعد طفلاً صغيراً ، وفي
المنزل أو في أى مكان آخر مألوف لم يكن يخاف مطلقاً من الظلام ، ولكن الأمر كان
مختلفاً تماماً هناك فوق في هذا المخزن الضخم مع كل هذه الأشياء الغريبة .

وحرق عود الثقاب أصبعه فرماه بعيداً . ووقف برهة هناك وتصنت وكان المطر
قد خفت حدته وكان يدق فقط بصوت خافت فوق السقف الصاجي الكبير .

ثم خطر بباله الشمعدان الصديء ذو السبعة أذرع الذى اكتشفه من بين الأمتعة
المهملة وتحسس طريقه إلى المكان ، وعثر عليه وجره إلى ناحيته إلى دواسات الألعاب
الرياضية . وأشعل فتيل الجذوع الشمعية المتبقية السميقة - السبعة كلها - وانتشر
على الفور ضوء ذهبى وطققت شعل النار بصوت خافت واهتزت أحياناً في تيار
الهواء إلى هنا وهناك .

وتنفس باستيان الصعداء ومد يده مرة أخرى إلى الكتاب .

صوت الحرف



خيالات سوداء في الضوء المنير للقمر كانت تُلقى بها غابة الأعمدة حيث دخل أتريو متجولاً فيها سعيداً مبتسماً^(١٠) . وأحاطه صمت عميق ، وكاد لا يسمع وقع أقدامه المجردة . ولم يعد يعرف من هو وما اسمه وكيف أتى إلى هناك وماذا يبحث عنه هناك . وكان ممتلئاً بالدهشة ، ولكنه خال من الهموم تماماً .

كانت الأرض في كل مكان مغطاه بالفسيساء الذي كان يشكل زخارف متشابكة محيرة أو مشاهداً وصوراً غامضة . ومشى أتريو إلى هناك وصعد سلام عريضة ، ووصل إلى شرفات واسعة ثم نزل سلام مرة أخرى وسار من خلال طريق طويل بين أعمدة حجرية . وتأملها واحداً بعد الآخر ، وأسعده أن كل واحد مزخرف بشكل آخر ، ومغطى بعلامات أخرى . وهكذا تحرك مستمراً في الابتعاد عن البوابة بلا مفتاح .

وبعد أن استمر يمشى على هذا النحو ، من يدرى كم الزمن ، وصل إلى مسامعه أخيراً رنين هائم من بعيد ، وظل واقفاً يستمع . واقترب الرنين ، لقد كان صوتاً شادياً جميلاً جداً ، وفي نقاء الأجراس ، وعالياً كرنين صوت طفل ، ولكنه كان حزيناً إلى غير منتهى ، أجل ، أحياناً كان يبدو أنه ينتحب . هذه الأنشودة الشاكية سرت بين الأعمدة بسرعة النسمة ، ثم ظلت باقية عند أحد الأمكنة ، وحامت إلى أعلى وإلى أسفل ، واقتربت مرة أخرى ، وبدت أنها تدور حول أتريو في قوس واسع .

(١٠) هناك بعض التصرف في الترتيب اللفظي للترجمة اضطر إليه المترجم ليأتى بكلمة تبدأ بالحرف التالي من الأبجدة العربية .

فلم يتحرك وانتظر .

وازدادت الدوائر التي كان يكوّنها الصوت حول أتريو ضيقا شيئا فشيئا ،
وعندئذ استطاع أن يفهم الكلمات التي كان ينشدها :

« اه ، كل شيء لا يحدث إلا مرة واحدة
ولكن مرة لا بد أن يحدث كل شيء
وفوق الجبل والوادي ، فوق الحقل والمرج
سوف أنقضى ، وأختفى »

واستدار أتريو ناحية الصوت الذي كان يحوم بلا هواده بين الأعمدة هنا
وهناك ، ولكنه لم يستطع أن يرى هناك أحدا .

فصاح قائلا : « من أنت ؟ »

وعاد الصوت كرجع الصدى قائلا : « من أنت ؟ »
وتفكر أتريو .

وتمتم قائلا : « من أنا ؟ لا أستطيع أن أقول . يبدو لي كما لو كنت أعرف ذلك
في وقت ما ، ولكن هل لذلك أهمية ؟ »

وأجاب الصوت الشادي :

« إذا أردت أن تسألني سراً
فبالشعر ، بالقافية معي تكلم
لأن الحديث في غير الأبيات
لا أدركه فهماً - لا أدركه فهماً . . . »

ولم يكن أتريو متمرنا جدا في صياغة الأبيات والقوافي ، وبداله أن الحديث ربما
سيدور بصعوبة نوعا ، اذا ما لم يفهم الصوت غير ما هو مسجوع . وكان عليه أن
يشحذ فكره برهنة قبل أن يُبدع قائلا :

« إذا كان السؤال لي مسموح
فأود منك عن شخصك تبوح »

فرد الصوت على الفور قائلاً :

« الآن إنى أسمعك »

وهكذا بوضوح أفهمك . »

ثم أنشد من اتجاه آخر قائلاً :

« حيث إن إرادتك حسنة ، فإنى أشكرك ، أيها الصديق .

ومرحبا بك ضيفا عندى تكون ،

أناأيولالا ، صوت السكون

في قصر السر العميق . »

واسترعى انتباه أتريو أن الصوت يرن أحيانا أكثر ارتفاعا وأحيانا أكثر انخفاضا ، ولكنه لم يصمت تماما أبدا . وحتى عندما لاينشد كلاما أو عندما يتحدث هو إليه ، كان هناك صوت يحوم دون انقطاع حوله ويستمر .

ولأن الرنين ابتعد عنه ببطء ، جرى وراءه وسأل قائلاً :

« قولى ، أيولالا ، أما زلت تسمعينى ؟

إننى لاأستطيع ، وأود أن أراك بعينى . »

ولفح الصوت مارا بأذنه قائلاً :

« لم يحدث أبداً

أن رأتى أحداً

أنت لاتستطيع رؤيتى

برغم وجودى وكنيتى . »

فسأل قائلاً : « إذن فأنت غير مرئية ؟ » ولكن عندما لم تأت إجابة ، تذكر أنه يجب

أن يسأل فى صيغة شعرية ، فقال :

« أنت غير مرئية ببساطة

أم أنك بلا جسد البتة ؟ »

وسمع رنيننا خافتا من الممكن أن يكون ضحكا أو نحيباً ، ثم أنشد الصوت يقول :

« نعم ولا ، وكلاهما ليسا

كما تقصد أنت
إنني لا أظهر في الضياء
مثلياً أنت تظهر .
لأن جسدي صدح ورنين
فهو مسموع ليس أكثر
والصوت هذا نفسه
هو كياني كله . »

وتعجب أتريو واستمر في سيره خلف الرنين بلا هدف خلال غابة الأعمدة . بعد
برهة كان لديه سؤال جاهز :

« هل أنا فهمتك حقاً ؟
هل يكون شخصك ليس إلا هذا الرنين ؟
ولكن عندما عن الإنشاد تبطلين فعلاً ،
فهل عن الوجود تنعدمين ؟ »

ثم سمع الإجابة ، قريبة جداً منه :

« اذا ما أتى للنهاية النشيد ،
فسوف يحدث لي
ماليس للكائنات عنه محيد
عندما أجسادهم تنذوى
وهكذا مجرى الأمور
أنا أحيا ، طالما يصدر رنيني
ولكن لن يبق هناك الكثير لاستمرار كياني . »

ثم سمع النحيب مرة أخرى ، وأتريو الذي لم يكن يفهم لماذا تبكى أيولالا ، أسرع
في التساؤل :

« لم أنت حزنية ، قولي لي بسرعة !
فأنت مازلت صغيرة . ورنين صوتك كالطفلة . »

وعاد صوت الرنين كرجع الصدى مرة أخرى :

« قريبا ستدورنى الرياح
فما أنا إلا أنشودة الشكوى
ولكن اسمع ، الزمن رواح
لهذا السبب اسأل ، اسأل !
ماذا تريد منى قولا ؟ »

وكان الصوت قد تلاشى فى مكان ما بين الأعمدة ، وأتريو الذى لم يعد يستطيع
سماعه ، أدار رأسه متصتتا إلى جميع الجهات . وعم صمت لفترة قصيرة ، ثم عاد
النشيد مقتربا من بعيد بسرعة . وكاد رنينه يكون نافذ الصبر :

« أيولالا هى الإجابة . عليك أن تسألها !
لن تستطيع أن تقول شيئا ، إذا أنت لم تسألها ! »

فصاح أتريو فى اتجاهها :

« أيولالا ، أود أن أفهم ، ساعدينا :
لماذا عليك أن تختفى قريبا وتركينا ؟ »

وأنشد الصوت يقول :

« ستقضى نجبها ببطء الإمبراطورة الطفولية
ومعها المملكة الفانتازية .
حيثما أكون فسيتلع العدم المكان
وسيحده لى هذا سريعا فى التّوالآن
وسنختفى فى الأبد واللامكان
كما لو لم نكن منذ الأزل
اسم جديد يلزمها من الأسماء
بغير هذا هى لن تستطيع الشفاء »

وأجاب أتريو :

« أيولالا ، قولى من سينقذ حياتها
اسما جديدا من سيستطيع منحها ؟ »

واستمر الصوت قائلا :

« اسمع ، اسمع كلامى أنا ،
قبل الانصراف من هنا .
وان لم تفهمه الآن ، فعميقا بذاكرتك احفره
ثم فى الساعة الأفضل ، بلا نقصان
إلى وضح النهار ارفعه
من قاع بحر الذاكرة
مثلما يرن الآن
فى الساعة الحاضرة
فكل شىء يرتبط بما تأتية من عمل
نجاحا كان أم فشل . »

وسمع صوت شاك فقط دون كلمات فترة من الزمن ، وفجأة رن قريبا من أتريو ،
كما لو كان أحدهم يتحدث إليه فى أذنه :

« اسما جديدا للإمبراطورة الطفولية
من يقدر على منحه إياها ؟
لأنت ولاعفرية ولاجنى ولأنا على إعطاها
لأحد يفك عنا اللعنة
ولأحد يزيل عن صحتها العلة
لسنا سوى شخصيات فى كتاب
نفعل ما ابتدعنا من أجله
لسنا إلا صورا وأحلاماً فى قصة ،
كما نحن ، فعلينا أن نكون

لاحكيم ولاملك ولاطفلة

يقدر على استحداث بدعة .

ولكن على الجانب الآخر من فانتازين ، هناك مملكة

اسمها الدنيا الخارجة ،

والذين يسكنون هناك - حقا إنهم أغنياء

فحياتهم مختلفة .

بنو آدم ، هكذا يُسمون

من على الأرض بحق يسكنون ،

وبنات حواء ، ذلك الجنس البشرى

اشقاء في الدماء للكلمة الحقة .

موهبة منح الأسماء

لديهم من الابتداء

فقد جلبوا في جميع الأوقات

للامبراطورة الطفولية بالحياة .

وأسماء جديدة منحوها لها رائعة

ولكن وقت طويل انقضى

منذ وفد إلينا في فانتازين آدمي وأتى ،

إنهم لم يعودوا يعرفون السبيل

ونسوا في الحقيقة كيف نكون

ولم يعودوا في ذلك يعتقدون .

آخ ، لو يأت طفل واحد آدمي ،

لتم فعل كل شيء !

آخ لو واحد فقط للإعتقاد استعد

و فقط للنداء استمع !

بالنسبة لهم إنها قريبة ، وبالنسبة لنا فهي بعيدة

أبعد من أن نأتى إليهم .

فعلى الجانب الآخر لفانتازين يقع عالمهم

وللذهاب اليهم ليس لدنيا من وسيلة -
ولكن هل ستحفظ ما تقوله أيولالا
يا بطلى اليافع أم لا ؟»

فقال أترىو مضطربا : « نعم ، نعم » وبذل كل الجهد فى أن يطبع فى ذاكرته
ماسمعه ، ولكنه لم يكن يعرف الغرض من ذلك ، ولهذا لم يدرك ما قاله الصوت .
ولكنه أحس فقط بأنه أمر هام جدا جدا ، ولكن الإنشاد والإجهد من سماع قول كل
شئ فى قواف ، أصابه بالنعاس . وتمتم قائلا :

« إننى أريد أن أتذكرُ
ولكن قولى لى ، ماذا بذلك أفعل ؟»
وأجاب الصوت : « عليك أن تقرر أنت نفسك
فالخبر الآن عندك
وقد دقت ساعة الفراق
بينى وبينك . »

فسأل أترىو وهو نصف نائم :
« هل ستصرفين ؟
إلى أى مكان تنوين ؟ »

وحيثذ عاد مرة أخرى هذا النحيب فى الصوت ، الذى استمر يتزايد فى الابتعاد
أثناء إنشاده :

« العدم جاء يقتربُ
وصممت النبوءة
ولن يُسمع بعد الآنُ
رنين يعلو وينخفضُ
فمن كل الذين إلى أتوا
فى غابة أعمدة الصخور
والى صوق استمعوا
ستكون أنت الأخير .

ربما سيكون النجاح حليفك
فيما لم يوفق فيه أحد قبلك .
ولكن من أجل تحقيق ذلك
احفظ ما أنشدته لك ! »

ثم سمع أتريو من مكان دائم الابتعاد ، تلك الكلمات :

« فوق الجبل والوادي ، فوق الحقل والمرج

سوف أنقضى . وأختفى . -

آه . كل شيء لا يحدث إلا مرة واحدة

ولكن مرة لا بد أن يحدث كل شيء . . . »

وكان هذا هو آخر شيء سمعه أتريو .

وجلس عند أحد الأعمدة ، وركن عليه ظهره ، ونظر عاليا إلى سماء الليل
وحاول أن يفهم ما سمعه . وحط الصمت من حوله كرداء ناعم ثقيل ، وراح في
النوم . وعندما استيقظ أحاط به شفق صباح بارد . وردد على ظهره ونظر إلى
السماء . وشحب ضوء آخر النجوم . وفي نفس الوقت تذكر مرة أخرى كل شيء
عايشه من قبل ، وهدف مهمة بحثه الكبرى . وحينئذ عرف أخيرا ما كان يجب أن
يفعله . ليس غير طفل من البشر من الدنيا الواقعة على الجانب الآخر من حدود
فانتازين ، هو الذى يستطيع أن يمنح الإمبراطورة الطفولية اسما جديدا . عليه أن
يعثر على طفل من البشر ويحضره إليها .

وبحركة واحدة هب واقفا .

وفكر باستيان : « آخ ، كم أود أن أساعدها - هو، وأتريو أيضا . ولسوف أبتدع
اسما جميلا جدا . لو أعرف فقط كيف يمكنني الذهاب إلى أتريو . لذهبت إليه على
الفور كم سيندهش عندما أكون فجأة هناك . ولكن للأسف هذا لا يمكن ، أو ؟ »

ثم قال بصوت خافت : « اذا كان هناك أى طريق للمجيء إليكم ، فقولوا لي
عنه . فسوف آتي ، بالتأكيد يا أتريو ولسوف ترى . »

وعندما نظر أتريو حوله ، رأى أن غابة الأعمدة وسلالمها وشرافاتها قد اختفت ولم يكن من حوله إلا ذلك السهل الخالي تماما الذى رآه خلف كل بوابة من البوابات السحرية الثلاث قبل أن يمر من خلالها . ولكن لم يعد هناك بعدئذ لابوابة بلا مفتاح ولابوابة المرآة السحرية .

ونفض وألقى نظرات فاحصة فى كل الاتجاهات . وعندئذ اكتشف أن موضعا مثل الذى أتى إلى ناظره مرة من قبل فى غابة هاووليئالدا ، قد تكوّن . ولكنه كان فى هذه المرة أكثر اقترابا منه . فانصرف عنه وراح يجرى بأسرع ما يستطيع فى الاتجاه المعاكس . فقط بعد هروب طويل اكتشف أتريو بعيدا فى الأفق مرتفعا صغيرا من المحتمل أن يكون ذلك المرتفع الذى يشكل تلك الطبيعة الجميلة المتكونة من الألواح الصخرية الحمراء فى حمرة الصدا ، التى كانت فيها بوابة للغز الكبير .

وجرى فى اتجاهها ، ولكن كان عليه أن يجرى طويلا قبل أن يقترب منها اقترابا كافيا ، ليستطيع أن يتبين التفاصيل . صحيح قد كان هناك ما يشبه تلك الطبيعة ذات الألواح الصخرية ، ولكنه لم يستطع اكتشاف أحد الأبواب . ولم تعد الألواح الحجرية حمراء ، ولكن رمادية وعديمة اللون .

وفقط عندما جرى مرة أخرى وقتا طويلا تجاهها ، اتضح له ، أن هناك بالفعل قطع بين الصخور يشبه الجزء الأسفل من البوابة ، ولكن لم تعد هناك قبة تتقوس من فوقه ، فماذا حدث ؟

ولم يجد الإجابة إلا بعد ساعات طوال فيما بعد ، عندما وصل أخيرا إلى المكان . إن القوس الحجرى الهائل قد سقط – وانصرفت آباء الهول .

وبحث أتريو لنفسه عن مسلك من بين الأطلال ، ثم تسلق فوق هرم من الصخور ، وبحث ببصره عن الموضع الذى من المؤكد أن الناسكين وتنين الحظ كانوا فيه . أو أنهم قد هربوا هم أيضاً فى تلك الأثناء من العدم ؟

ثم رأى كيف أن أحداً كان يلوح بعلم صغير من مرصد إنجيثوك . ولوح أتريو بكلتا ذراعيه وصاح وهو يضع يديه عند فمه :

« هيه ! هل ما زلتم هناك ؟ »

وما كاد رنين صوته ينخفض ، حتى ارتفع من الوادي السحيق الذي كان به كهف الناسكين ، تنين حظ أبيض يلمع بلون الأصداف : فُخور .

وطار عبر الهواء هناك في حركات ملتوية رائعة بطيئة ، بينما استلقى على ظهره عدة مرات في سعادة غامرة ، وقام بحركات لولبية في سرعة البرق لدرجة انه بدا كشعلة نيران بيضاء مرتفعة الألسنة ، ثم هبط أمام الهرم الصخري الذي كان يقف عليه أتريو . وارتكن بكلا مخلييه الأماميين ، وغدا ضخماً بحيث تدلت رأسه من رقبته المنحنية عالياً إلى أتريو وأدار كريتاً عينيه الحمراءين بحمرة الياقوت ، وأخرج من السرور لسانه من حلقة المفتوح على اتساع وهدر بصوت برونزي قائلاً :
« أتريو ، صديقي وسيدى . كم هو طيب أنك عدت أخيراً . لقد كدنا نفقد الأمل — هذا يعنى الناسكين ، ليس أنا . »

فرد أتريو : « وأنا أيضاً مسرور لرؤيتك مرة أخرى . ولكن ماذا حدث في هذه الليلة الوحيدة ؟ »

فصاح فُخور : « ليلة وحيدة ؟ أتظن أنها كانت ليلة واحدة فقط ؟ سوف تتعجب . اصعد سوف أحملك . »

وامتطى أتريو صهوة الحيوان الهائل . لقد كانت أول مرة يركب فيها على تنين حظ . وبالرغم من أنه كان قد درّب أحصنة برية على الركوب ، ولم يكن خوفاً حقاً ، كاد يذهب عنه السمع والرؤية في اللحظة الأولى لهذا الركوب لفترة قصيرة عبر الهواء . وتشبث في عرف فُخور الهفهاف ، إلى أن ضحك هذا بصوت هادر وصاح :

« يجب أن تعتاد على هذا من الآن ، يا أتريو ! »

فرد أتريو صائحا وهو يلهث : « على كل حال ، يبدو لي أنك عدت سليم الصحة تماما . »

فأجاب التنين : « تقريبا ، وليس تماما بعد . »

ثم هبط أما كهف مسكن الناسكين وكان إنجيثوك وأورجل يقفان إلى جوار بعض أمام المدخل وينظرانها .

واندفع إنجيثوك على الفور مبرطما : « ماذا شاهدت ؟ يجب أن تحكى لى كل شيء . كيف كان السلوك مع البوابات ؟ هل نظرياتى صحيحة ؟ من وما هى أيولالا ؟ »

فقاطعته أورجل العجوز بخشونة قائلة : « صه ! الآن عليه أن يأكل ويشرب أولا . فانا لم أطفه وأحمر للاشياء . وسيبقى وقت كاف لفضولك عديم الفائدة ! » وكان أتريو قد نزل من على ظهر التين وحيًا زوج العفارىت القزمية . ثم استقر الثلاثة جميعا على المنضدة الصغيرة التى كانت مرة أخرى مجهزة بمختلف أنواع الأشياء اللذيذة وقنينة صغيرة بمشروب أعشاب يتصاعد منه البخار .

ودقت ساعة البرج الخامسة . وفكر باستيان بحزن فى لوحى شيكولاته بالمكسرات حفظهما بالمنزل فى صوان حجرة نومه الصغير - فى حالة أن يتتابه الجوع ليلا . لو كان يدرى ، أنه لن يعود إلى هناك أبدا ، لاستطاع أن يأخذها معه كمؤونة للطوارىء ، ولكن لم يكن فى الإمكان تغيير شيء من ذلك . من الأفضل عدم التفكير فى ذلك !

وتعدد فخور فى الوادى الصخرى الصغير بحيث كانت رأسه الهائلة إلى جانب أتريو ويستطيع سماع كل شيء .

وصاح قائلا : « تصوروا صديقى وسيدى يعتقد أنه غاب ليلة واحدة فقط ! » فسأل أتريو : « أليس الأمر كذلك ؟ » وقال فخور : « لقد كانت سبعة أيام وسبع ليال ! انظر ، لقد شفيت جميع جروحي تقريبا ! »

والآن فقط لاحظ أتريو أن جروحه هو أيضا قد شفيت . وسقطت عنه ضمادة الأعشاب .

وتعجب قائلا : « كيف يمكن هذا ؟ لقد سرتُ عبر الثلاث بوابات السحرية ، وتحدثت مع أيولالا ، ثم رحت فى النوم - ولكن ليس من الممكن أننى نمت لهذا الوقت الطويل . »

فقال إنجيثوك : « إن الزمان والمكان لا بد وأن يكونا مختلفين تماما هناك . وبالرغم من ذلك ، فلم يبق أحد من قبلك في أرض التنبؤات لهذه المدة مثلك . ماذا حدث ؟ تكلم أخيرا . »
فرد أتريو : « أود أولا أن أعرف ماذا حدث هنا ؟ »

فقال إنجيثوك : « إنك ترى بنفسك . إن جميع الألوان تختفى ، وكل شيء تزداد عدم واقعيته ، وبوابة اللغز الكبير لم تعد هناك . ويبدو كما لو أن العدم قد بدأ أيضا هنا . »

فقال أتريو مستعلما : « وآباء الهول ، أين ذهبوا ؟ هل طارا ؟ هل رأيتموهما ؟ »

فقال إنجيثوك متبرما : « لم نر شيئا . كنت آمل أنك ستستطيع أن تقول لنا شيئا عن ذلك . القبة الصخرية سقطت فجأة ، ولكن لا أحد منا سمع أو رأى شيئا . وفوق ذلك فقد ذهبنا إلى هناك وفحصنا الأطلال . أتدرى ماذا اتضح ؟ إن أماكن الكسر عتيقة القدم وقد نمت فوقها أعشاب رمادية ، كما لو كانت هناك منذ مائة عام ، ومثل الآن ، كما لو لم تكن هناك بوابة اللغز الكبير على الإطلاق . »

فقال أتريو بصوت خافت : « ولكنها كانت موجودة هناك . لأنني سرت من خلالها ، وكذلك من خلال بوابة المرأة السحرية وأخيراً من خلال بوابة بلا مفتاح . »

وقصّ أتريو بعد ذلك ، كل ما لاقاه . وكان يتذكر كل التفاصيل الفردية بلا عناء .

إنجيثوك الذي كان في البداية يطالب بوصف أكثر دقة عن طريق طرح أسئلة بينية ، أصبح أثناء سرد الحديث بالتدرج أكثر صمتاً . وعندما كرر أتريو في النهاية ما أفصحت له أيولالا حرفياً تقريباً ، صمت تماماً . واتخذ وجهه الصغير المجعد تعبير الحزن العميق . وختم أتريو تقريره قائلاً : « إنك تعرف السر الآن . لقد كنت تريد أن تعرفه حتماً ، اليس كذلك ؟ أيولالا كائن يتكون من صوت فقط . وشخصيتها يمكن سماعها فقط . فهي هناك أينما يصدر رنينها . »

وصمت إنجيثوك برهة ، ثم صرخ قائلاً بصوت مبحوح : « أتريد أن تقول إنها كانت هناك . »

فأجاب أتريو : « نعم ، فطبقاً لكلامها هي ، أنا آخر شخص تكلمت معه »

وجرت دمعتان صغيرتان على وجنتي إنجيثوك المجدتين . وصاح بصوت متحسرج : « بلا جدوى . عملى طيلة حياتي كلها ، أبحاثي ، ملاحظاتي التي استغرقت سنوات - كل شيء بلا جدوى . أخيراً يجلب أحدهم لى آخر لبنة من بنائى العلمى ، وكان يمكننى إنهاؤه أخيراً ، وكنت أستطيع أن أكتب الفصل الأخير - والآن بالذات لم تعد تفيد ليست لها قيمة بالمرة ، لا تعين أحداً بشيء ، لم تعد تساوى خردلة ، لم تعد تهم ولا ذيل خنزير ، لأن الأمر الذى يدور حوله ، لم يعد له وجود . خلّص وانتهى ، وليتكم سعيدة ! »

وهزه نحيب كان وقعه على السمع كنوبة من نوبات السعال . ونظرت إليه أورجل العجوز مشفقة ومسحت بيدها على رأسه الصغيرة الصلعاء ودمدمت قائلة : « مسكين إنجيثوك العجوز . مسكين إنجيثوك العجوز . لا تشعر بخيبة الأمل هكذا . ستعثر على شيء آخر . »

فعنفها إنجيثوك قائلاً بعينين براقتين : « يا امرأة ، إن من تريه أمامك ليس انجيثوك المسكين العجوز ، ولكن شخصاً مأساوياً . »

ومثلما حدث مرة من قبل فقد جرى إلى الكهف ، وسمع صوت باب صغير يغلق بشدة . وهزت أورجل رأسها متتهدة ، وتمتمت قائلة : « إنه لا يقصد ذلك ، إنه إنسان طيب عجوز ، فقط مجنون تماماً للأسف . »

وعندما انتهت وجبة الطعام ، نهضت أورجل وقالت : « سوف أحزم أمتعتنا الآن ، إن ما نستطيع أن نأخذه معنا ليس بالكثير ، ولكن هذا يجتمع مع ذلك . أجل ، لا بد أن يتم فعل ذلك الآن . »

فسأل أتريو : « أتريدان أن تنصرفا من هنا ؟ »

فهزت أورجل رأسها بحزن بالإيجاب قائلة : « لم يعد لنا غير هذا . فحيثما ينتشر الدمار ، لا ينمو شيء بعد . وبالنسبة لزوجي العجوز لم يعد هناك الآن سبب للبقاء . لا بد أن نرى كيف ستسير الأمور . بشكّل ما سوف تسير . وأنتما ؟ ماذا تنويان ؟ »

فأجاب أتريو : « يجب أن أفعل ما قالته أيولالا لا بد أن أحاول العثور على طفل بشرى وإحضاره إلى الإمبراطورة الطفولية لكي تحصل على اسم جديد . »

وسألت أورجل : « وأين تريد البحث عن ذلك الطفل البشري ؟ »

فقال أتريو : « أنا نفسي لا أدري . على الجانب الآخر من حدود فانتازين كما قيل . » ثم أمكن سماع الصوت الجرسى لفُخُور يقول : « سوف ننجز الأمر . سوف أحملك ، وسترى أن عندنا حظ . »

فدمدت أورجل قائلة : « إذن ، هيا ، انصرفا . »

فقال أتريو مقترحاً : « ربما أمكننا أن نأخذكما معنا جزءاً من الطريق ؟ »

فردت أورجل : « هذا ما كان ينقصنا أيضاً ؟ إنني لن أسبح أبداً في حياتي في الهواء ، فالعفاريت القزمية الجيدة يبقون على الأرض الصلبة . وخلاف ذلك لا ينبغي لكما أن تقيما معنا ، فلديكما الآن أمر أهم ، أنتما الاثنان - من أجلنا جميعاً . »

فقال أتريو : « ولكنني أود بسرور أن أعرب لكما عن امتنانى . »

فبرطمت أورجل قائلة : « إنك تفعل ذلك بلا تضييع وقتاً أكثر بهرائك عديم الفائدة ، بل انطلق على الفور . »

فقال فُخُور : « معك حق ، هيا ، أتريو ! »

وامتطى أتريو صهوة تنين الحظ . ثم استدار مرة أخرى إلى أورجل الصغيرة العجوز

وصاح : « إلى اللقاء ! »

ولكنها كانت فعلاً في الكهف تحزم أمتعتها .

وعندما خرجت بعد ذلك بعدة ساعات مع أنجيفوك إلى الخلاء ، كان كل منهما يحمل على ظهره سلة مشحونة تماماً ، وكلاهما كان متحمساً مرة أخرى للنزاع . وهكذا سارا يهتان على أرجلهما الصغيرة المقوسة ، دون أن يلتفتا مرة أخرى إلى الورا .

وبالمناسبة ، فإن إنجيفوك أصبح فيما بعد مشهوراً جداً ، أشهر عفريت قزمى في عائلته فوق ذلك ، ولكن ليس بسبب أبحاثه العلمية . ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تُحكى في مناسبة أخرى .

وفي نفس وقت رحيل الناسكين ، كان أتريويهدر فوق ظهر فُخور بعيداً ، بعيداً جداً عبر أجواء سماء فانتازين .

ونظر باستيان بدون قصد إلى كُوة السقف بأعلى ، وتخيل كيف يكون الأمر ، إذا رأى هناك فجأة إلى فوق في السماء ، التي كادت أن تكون مظلمة تماماً ، تنين الحظ كشعلة بيضاء ترتفع ألسنتها وهو يقترب - لو حضر كلاهما ليأخذه معها !
فتنهذ قائلاً : « آخ ، لكان هذا أمراً ! »

لاستطاع أن يساعدهم - ويساعده . لكان ذلك إنقاذاً للجميع

مكتبة

t.me/t_pdf

فَلْيُؤَدِّ الْعِرْفَانَ
فَلْيُؤَدِّ الْعِرْفَانَ

A



دَخَلَ أتريو ممتطيا التنين^(١٠) عبر الأجواء العليا . وتطايير معطفه الأحمر بحركات قوية من ورائه . وهفهفت مع الرياح خصلة من شعره الأزرق اللون بسواد ، والتي كانت مربوطة إلى أعلى بشرائط من الجلد . وانساب فُخور ، تنين الحظ الأبيض في حركات متموجة منتظمة وبطيئة من خلال الضباب وتُنف السحاب بالسما .

إلى أعلى وإلى أسفل ، إلى أعلى وإلى أسفل ، إلى أعلى وإلى أسفل .
كم من الوقت كانوا في طريقهم ؟ أياما وليالي ، وأياما أخرى – ولم يعد أتريو يعرف كم من الوقت . وكان التنين يستطيع الطيران أيضا وهو نائم ، مستمرا ، ودائم الاستمرار ، وأحيانا كان أتريو يغلبه النعاس وهو متشبث بالعرف الأبيض للتنين . ولكنه لم يكن سوى نوما خفيفا ومضطربا . ولذلك أصبحت يقظته أيضا شيئا فشيئا حلما لم يعد به أى شيء واضح .

وفي العمق بأسفل كانت تمر كالظلال سلاسل جبال وبلاد وبحار وجزر وأنهار . ولم يعد أتريو يهتم بذلك ولا يبحث مطيته ، كما كان يفعل في بادئ الأمر عندما أقلعا من أرض التنبؤات الجنوبية . ففي البداية كان نافذ الصبر ، لأنه اعتقد أنه فوق ظهر تنين حظ لا يمكن أن يكون صعبا للغاية الوصول إلى حدود فانتازين – وإلى المملكة الخارجية وراء الحدود ، حيث يحى أبناء البشر .

ولم يكن يعرف كم حجم فانتازين .

والآن كان يصارع الإجهاد الصخري الذي كان يريد التغلب عليه . وعيناه الداكنتان اللتان كانتا حادة كعيني نسرفتي ، لم تعد ترى البعد . وبين الحين والآخر

(١٠) أنظر الهوامش بالفصل السابق .

كان يستجمع إرادته كلها ويشب إلى أعلى وهو جالس ، وينظر مستطلعا من حوله ، ولكنه سرعان ما كان يهوى بنفسه إلى أسفل مرة ثانية ويحملك فقط أمامه في جسد التنين الطويل المرن الذي كانت قشوره الصدفية اللون تلمع بلون وردي وأبيض . وكان فُخور أيضا منها . وحتى قواه التي كانت تبدو هائلة ، وصلت شيئا فشيئا إلى نهايتها .

ولأكثر من مرة شاهدا في رحلة طيرانها الطويلة هذه تلك الأماكن من الطبيعة بأسفلهم حيث انتشر العدم ، والتي لا يستطيع الإنسان النظر إليها دون أن يشعر بأنه أصيب بالعمى . كثير من هذه الأماكن بدت من مثل هذا الارتفاع صغيرة نوعا ، ولكن كانت هناك أيضا أماكن أخرى كبيرة كحجم بلاد كاملة وممتدة في الأفق البعيد . وتملك الفرع تين الحظ وفارسه ، وغيرا طريقتها وواصلتا طيرانهما في اتجاه آخر لكيلا يضطرا إلى مشاهدة هذا الشيء الفظيع . ولكنها حقيقة غريبة أن الشيء الفظيع يفقد فظاعته عندما يتكرر باستمرار . ونظراً لأن أماكن الدمار لم تكن تقل بل تزداد باستمرار ، فقد تعود عليها فُخور وأتريو شيئا فشيئا – أو زيادة على ذلك قد اتتاها نوع من اللامبالاة .

فأصبحتا يكادان لا يعيرا ذلك اهتماما .

وكانا لم يتحدثتا مع بعضهما منذ فترة طويلة ، عندما أسمع فُخور فجأة صوته البرونزي يقول : « أتريو ، ياسيدي الصغير ، هل أنت نائم ؟ » فقال أتريو : « كلا » بالرغم أنه في الحقيقة كان أسير حلم مخيف : « ماذا هناك يا فُخور ؟ »

- « إنني أتساءل إذا كان من الأرجح أن نعود . »

- « نعود ؟ إلى أين ؟ »

- « إلى برج العاج . إلى الإمبراطورة الطفولية . »

- « تقصد أننا ينبغي أن نذهب إليها خائبين ؟ »

- « كلا ، إنني لن أصف الأمر على هذا النحو ، يا أتريو . ماذا كان نص

مهمتك ؟ »

- « على أن أبحث عن أصل المرض الذي تحتضر بسببه الامبراطورة الطفولية ، وماهو الدواء الشافي له . »

فرد فُخور قائلا : « ولكن لم تكن مهمتك إحضار ذلك الدواء الشافي بنفسك . »

- « ماذا تقصد ؟ »

- « ربما إننا نرتكب خطأ جسيما بمحاولتنا تخطى حدود فانتازين للبحث عن طفل بشرى . »

- « أنا لا أفهم ما تهدف إليه ، يافُخور . إشرح لى ذلك بشكل أكثر دقة . »

فقال التنين : « إن الإمبراطورة الطفولية مريضة مرض الموت لأنها تحتاج إلى اسم جديد ، وقد أباحت لك بذلك مورلا العجوز الشمطاء . ولكن مُنح هذا الاسم لا يستطيعه إلا الأطفال البشريين من الدنيا الخارجية . ذلك ما صرحت له به أيولالا . وبهذا تكون قد نفذت مهمتك ، ويبدو لى أنه ينبغي عليك أن تخبر الإمبراطورة الطفولية بكل ذلك فى وقت قريب . »

فصاح أتريو : « ولكن بم يساعدها إذا ما أخبرتها بكل ذلك فقط ولم أحضر معى فى نفس الوقت طفلا بشريا يستطيع إنفاذها ؟ »

فأجاب فُخور : « ليس فى مقدورك معرفة ذلك وهى تقدر على أكثر منى ومنك بكثير جدا . ربما من السهل عليها استدعاء طفل بشرى إليها . ربما لديها الوسائل والطرق غير المعروفة لك ولى ولجميع كائنات فانتازين . ولكنها هذا يجب أن تعرف ما تعرفه أنت الآن . لتفترض أن الأمر هكذا . إذن لكان الأمر ليس فقط لا مغزى له بالمرّة ، أن نحاول بالاعتماد على أنفسنا العثور على طفل بشرى وإحضاره لها ، بل ومن الممكن أيضا أنها تموت فى تلك الأثناء بينما نحن نواصل البحث باستمرار ، وكان فى استطاعتنا إنفاذها ، إذا ما رجعنا فقط فى الوقت المناسب . »

وصمت أتريو ، فما قاله التنين كان صحيحا بلاشك . فمن الجائز أن يكون الأمر هكذا ومن الجائز أيضا أن يكون الأمر مختلفا تماما . وقد كان من الممكن جدا أنها ستقول له إذا ما رجع الآن إلى الوطن برسالته : « بم يساعدنى هذا كله ؟ فلو أنك

أحضرت معك المنقذ لأصبحت سليمة الصحة . ولكن الآن فات الأوان بالنسبة لي لإرسالك مرة أخرى . »

إنه لم يعرف ماذا ينبغي عليه عمله . وكان متعبا ، أتعب بكثير من أن يتخذ أى قرار . وقال بصوت خافت ولكن التين سمعه جيدا : « أتعرف يا فخور ، ربما معك حق وربما أيضا ليس معك حق . دعنا نواصل الطيران لمسافة صغيرة أخرى . فإذا لم تكن بعدئذ عند أية حدود ، فلنعد . »

فسأل التين : « ماذا تسميه مسافة صغيرة ؟ »

فتمتم أتريو قائلا : « بضع ساعات - أقل لك ، ساعة واحدة من الآن . »
ولكن هذه الساعة الواحدة كانت أكثر من اللازم بساعة واحدة .

ولم ينتبه كلاهما إلى أن السماء في الشمال قد اسودت بالسحاب . وفي الغرب حيث كانت الشمس ، كانت متوهجة وقد تدلت خيوط منذرة بالشر كأعشاب بحرية دامية إلى الأفق بأسفل . وفي الشرق ارتفعت أنواء كغطاء من الرصاص الرمادى ، وأمامها تفت من السحاب الممزق مثل حبر قد بهت لونه الأزرق . ومن الجنوب زنتف بحر أصفر بلون الكبريت وفيه كان يسرى البرق ويلمع .

وقال فخور : « يبدو أننا سنأتى إلى طقس ردىء . »

ونظر أتريو حوله فى جميع الاتجاهات .

وقال : « نعم ، يبدو أنه خطير . ولكن علينا مواصلة الطيران . »

فرد فخور : « من الأرجح أن نبحث لنا عن مأوى . فإذا كان الأمر هو ما أتوقع ، فهو ليس بمزاح . »

وسأل أتريو : « وماذا تتوقع ؟ »

فقال فخور مفسرا : « إن هؤلاء هم عمالقة الرياح الأربعة الذين يريدون حسم إحدى معاركهم مرة أخرى . وهم فى صراع دائم تقريبا حول إثبات من فيهم الأقوى ومن سيسود الآخرين . والأمر بالنسبة لهم نوع من اللعب لأنه لا تحدث لهم أنفسهم شيئا أثناء ذلك . ولكن ويل لمن يدخل فى منازعاتهم . فغالبا لا يبق منه الكثير . »

فسأل أتريو : « ألا تستطيع أن تطير إلى أعلى من ذلك ؟ »

— « أتقصد إلى خارج مداهم ؟ لا ، لا أستطيع الوصول إلى هذا الارتفاع .
وأسفنا لا يوجد على قدر ما أرى ، غير ماء ، بحر ما من البحار الهائلة . إنني
لا أرى شيئا نستطيع الاختباء فيه . »

فقال أتريو مقررًا : « إذن لا يبق لنا إلا أن ننتظرهم فأننا على كل حال أود أن
أسألمهم شيئًا . »

فصاح التنين وقد قفز قفزة من الفزع : « ماذا تريد ؟ »

فقال أتريو موضحًا : « إذا كانوا هم عمالقة الرياح الأربعة ، فسيعرفون جميع
الجهات الأصلية لفانتازين . لا أحد سيستطيع أن يقول بشكل أفضل منهم أين
الحدود ؟ »

فصرخ التنين قائلاً : « يا للسما . أعتقد أن الإنسان يستطيع أن يتسامر معهم
براحة تامة ؟ »

وقال أتريو وهو يريد المعرفة : « ماهي أسماؤهم ؟ »

فأجاب فُخور : « الذى من الشمال يدعى لير ، والذى من الشرق باوريو ،
والذى من الجنوب شيرك والذى من الغرب ما يستريل . ولكن يا أتريو ، من أنت فى
الحقيقة ؟ أنت صبي صغير أم أنك قطعة من حديد لاتعرف الخوف ؟ »

فرد أتريو : « عندما مشيت عبر بوابة آباء الهول ضاع عنى كل الخوف . وإلى
جانب ذلك فأنا أحمل علامة الإمبراطورة الطفولية . وجميع مخلوقات فانتازين
يحترمونها . ولماذا لن يفعل هذا عمالقة الرياح ؟ »

فصاح فخور قائلاً : « أوه ، سيفعلونه ! ولكنهم أغبياء ، وأنت لن تستطيع
إيقافهم عن الصراع مع بعضهم . سوف ترى ماذا يعنى ذلك ؟ »

وفى تلك الأثناء كانت سحب الأنواء قد تجمعت من جميع الجهات لدرجة أن
أتريو رأى من حوله شيئًا يشبه قمعا ذا أبعاد هائلة ، فوهة بركان بدأت حوائطه تدور

في سرعة متزايدة ، لدرجة أن اللون الأصفر الكبريتي والرمادي كالرصاص ، والأحمر كالدّم والأسود الغطيس اختلطت مع بعضها في تداخل . وهو نفسه اندفع كذلك في دوامة دائرية وهو على تينيه الأبيض ، كعود ثقاب في دوامة هائلة . وحينئذ شاهد عمالقة العاصفة .

وفي الواقع كانوا عبارة عن وجوه فقط ، حيث إن أجزاء جسمهم كانت متغيرة ومتعددة - تارة طويلة وتارة قصيرة ، تارة بالمئات ، وتارة لاشيء بالمرّة ، تارة واضحة وتارة أخرى مبهمة - وكانوا فوق ذلك متشابكين مع بعضهم في تراقص دائري أوتصارع مهول لدرجة أنه كان مستحيلا تماما التعرف على شكلهم الحقيقي . وحتى وجوههم كانت تتغير باستمرار ، تصبح بدينة ومنفخة ، ثم تعود ممطوطة إلى أعلى أو بالعرض ، ولكنها ظلت على الدوام وجوها يمكن تفريقها عن بعضها . وكانوا يفتحون أفواههم ويصرخون ويجارون ، ويولولون ويضحكون لبعضهم الآخر . وبدا أنهم لم يشعروا حتى بوجود التنين وراكبه ، لأنه كان بالمقارنة بهم ضئيلا كالبعوضة .

وشب أتريو إلى أعلى . ومد يده اليمنى إلى الحجاب الذهبي على صدره وصاح بأعلى ما يستطيع :

« باسم الامبراطورة الطفولية اسكتوا واسمعوا لي » .
وحدث ما لا يمكن تصديقه .

وسكتوا كما لو ابتلاهم خرس مفاجيء . وانفقلت أفواههم ، وتركزت ثمان عيون جاحظة على أورئين . وحتى الدوامة توقفت . وفجأة عم صمت الأموات

وصاح أتريو : « أجيوني . أين حدود فاننازين ؟ أعرف هذا يا لير ؟ »

فأجاب وجه السحاب الأسود « ليس في الشمال »

- « وأنت يا باوريو ؟ »

فرد وجه السحاب الرمادي بلون الرصاص : « وليس في الشرق أيضا . »

- « تكلم أنت يا شيرك »

فقال وجه السحاب الأصفر بلون الكبريت « لا توجد حدود في الجنوب . »

- « أتعرف أنت ياما يستريل ؟ »

فرد وجه السحاب الأحمر بلون النار « لاتوجد حدود في الغرب . »

ثم قال الأربعة جميعهم كما لو كانوا يتكلمون بفم واحد :

« من أنت ، يامن تحمل علامة الإمبراطورة الطفولية ولا تعلم أن فانتازين لاحدود لها ؟ » وصمت أتريو . وشعر كما لو ضربه أحدهم على مقدمة رأسه وهو مشدوه . فهو لم يفكر في الحقيقة أنه لاتوجد حدود على الإطلاق . وبعدئذ كان كل شيء لاجدوى له .

وكاد لايشعر أن عمالقة الرياح قد بدأوا لعبة تصارعهم من جديد . وكذلك كان سيان عنده ما سيحدث بعد ذلك . وتشبث بعرف التنين عندما قذفته دوامة الى أعلى فجأة . واندفعا في دوران يحيط بهما وميض البرق . ثم كادا يغرقان في أمطار هادرة تنهمر في اتجاه أفقى . وفجأة انجذبا إلى لفحة هواء متوهجة كادا يحترقان فيها ، ولكنها اندفعا إلى برد لايتكون من حبيبات ولكن من أقماع ثلجية في طول الرماح دفعت بهما إلى العمق . ثم سُحبا مرة أخرى إلى أعلى ، ثم ألقى بهما وقُذفا إلى هنا وهناك - فقد كان عمالقة الرياح يتصارعون مع بعضهم من أجل السيادة .

وصرخ فخور عندما ماألقت به دفعة من الرياح على ظهره : « امسك نفسك ! » ولكن كان الوقت قد فات . وفقد أتريو توازنه وسقط في العمق . سقط ، وسقط ثانية ثم لم يعرف شيئا بعد ذلك .

وعندما عاد إلى رشده ، كان يرقد على رمل ناعم . وسمع هدير أمواج ، وعندما رفع رأسه ، رأى أنه قُذف به إلى شاطئ أحد البحور . وكان يوما مغيبا ومليئا بالضباب ولكنه ساكن الرياح . وكان البحر هادئا ولم يكن هناك شيء يشير إلى أن صراع عمالقة الرياح كان يعصف هناك منذ قليل . أم من الجائز أنه أتى إلى مكان مختلف تماما وبعيد ؟ وكان الشاطئ مسطحا ، ولم تكن ترى صخور أو هضاب في أى مكان ، ليس الا بضعة أشجار مائلة منحنية تقف في الضباب كأيد كبيرة ذات مخالب .

وجلس أتريو . وعلى بعد خطوات قليلة رأى رداءه الأحمر المصنوع من شعر

الجاموس ، فزحف إلى هناك ووضعه حول كتفيه . ولدهشته لاحظ أن الرداء لم يعد مبللا تقريبا إذن ربما كان يرقد هناك منذ وقت طويل .

كيف أتى إلى هنا ؟ ولماذا لم يفرق ؟

وظفت إليه ذكرى ما غير واضحة لأذرع حملته وأصوات غريبة تغنى قائلة :

« ولد مسكين ولد جميل ! امكسوه . لا تدعوه يفرق ! » .

ربما لم يكن ذلك إلا هدير الأمواج .

أم كانت عرائس وعرسان البحر ؟ على ما يبدو أنهم رأوا البتساكل ولذلك أنقذوه .

ومد يده بلا قصد إلى الحجاب - إنه لم يعد هناك ! لقد ضاعت السلسلة من حول رقبته . فقفز واقفا وجرى هنا وهناك وصاح في كل الاتجاهات : « فُخور فُخور أين أنت ؟ »

لا إجابة . لاشيء غير الهدير البطيء للأمواج المتلاطمة على الشاطئ .

من يدرى ، إلى أين نفخ عمالقة الرياح التنين الأبيض ؟ ربما كان فُخور يبحث عن سيده الصغير في مكان ما مختلف تماما بعيد جدا عن هنا . ربما أيضا لم يعد على قيد الحياة والآن لم يعد أتريو فارسا على تنين ، ولا رسولا للإمبراطورة الطفولية - ليس إلا صبيا صغيرا ووحيدا تماما .

ودقت ساعة البرج السادسة .

الآن عم الظلام بالخارج . وانقطع المطر . وكان هناك سكون تام . وحملق باستيان في لهب الشموع . ثم انتفض فرعا لأن ألواح الأرضية طقطقت . وبداله كما لو كان يسمع شخصا يتنفس . فكتم أنفاسه وتصنت . وكان المخزن العملاق يعمه الآن الظلام ماعدا دائرة الضوء الصغيرة التي تنشرها الشموع . ألم تتعثر هناك خطوات بصوت خافت على السلم ؟ ألم تتحرك في التوأكرة باب المخزن ببطء تام ؟

وطقطقت ألواح الأرضية مرة أخرى .

ما العمل إذا كانت هناك عفاريت في المخزن . . . ؟

فقال باستيان بصوت نصف مرتفع : « كلا ، لا توجد أشباح . هذا ما يقوله الجميع . »

ولكن لماذا توجد إذن مثل هذه القصص الكثيرة حولها ؟

ربما كان كل الذين يقولون إنه لا توجد أشباح مجرد خائفين من الاعتراف بذلك .

ولف أتريو نفسه جيدا في معطفه الأحمر لأنه كان يشعر بالبرد ، واتخذ طريقه إلى داخل البلد . ولم تتغير طبيعة الأرض تقريبا ، على قدر ما استطاع أن يرى منها بسبب الضباب . فقد كانت مسطحة ومتساوية الشكل ، غير أنه أتت من بين الأشجار المنحنية بالتدرج وبتزايد مستمر أحراش وشجيرات كانت تبدو كالمصنوعة من الصاج الصديء وتكاد تكون في صلابته أيضا . وكان من الممكن أن تصيب الإنسان بجراح إذا لم ينتبه .

وبعد حوالي ساعة وصل أتريو إلى شارع مرصوف بكسر صخور حدباء ذات أشكال غير منتظمة . وقرر أتريو أن يتبع اتجاه الشارع الذي ولا بد أن يؤدي إلى مكان ما ، ولكنه وجد أنه من الأريح أن يسير إلى جانب الشارع في التراب من أن يسير على الأسفلت غير المستوى . وكان يمتد في تعريجات ملتوية ، وينحني إلى اليسار وإلى اليمين دون أن يستطيع الإنسان أن يرى لذلك سببا . لأنه لم تكن هناك أيضا لا هضبة ولا نهر . وبدا كل شيء منحنيا في هذه المنطقة .

ولم يكن أتريو قد مشى متجولا لمدة طويلة عندما سمع من بعيد صوت دبيب غريب يمجىء مقتربا . وكان كهدير مكتوم لطبلة كبيرة ، ومن خلال ذلك سمع صفيرا حادا كما لو كان صادرا من صفافير صغيرة ورنين الأجراس . واختبأ خلف أحد الأحراش على حافة الشارع وانتظر .

واقتربت الموسيقى الغريبة ، وأخيرا تصاعدت من الضباب أوائل الشخصيات . على ما يبدو كانوا يرقصون ولكنه لم يكن رقصا مبهجا أو جذابا ، ولكنهم كانوا يقفزون بحركات غاية في الغرابة ، ويتمرغون على الأرض ، ويزحفون

على أربع ويتصبون إلى أعلى ويتصرفون كالمجانين . ولكن الشيء الوحيد المسموع أثناء ذلك كانت ضربات الطبول المكتومة الوثيدة والصفير الحاد والنشيج والنهيج الصادر من حناجر عديدة .

وتكاثر باستمرار ، وكان موكبا يبدو كأنه لا ينتهى ، وشاهد أتريو وجوه الراقصين فكانت رمادية اللون كالرماد وغارقة في العرق ، ولكن عيونهم جميعا كانت تتوهج ببريق وحشى محموم . وكان بعضهم يضرب نفسه بالسياط . وظن أتريو أنهم مجانين ، وسرت رعدة باردة فوق ظهره .

وبالمناسبة ، لقد استطاع أن يتأكد أن الجزء الأكبر من هذا الموكب كان يتكوّن من أشباح الليل والعفاريت والأشباح . وكذلك كان من بينهم فامبيرات مصاصو الدماء وعدد كبير من الساحرات ، وعجائز ذوات أسنمة كبيرة ولحى على الذقن كلحية الماعز ، ولكن أيضا صغارا في السن بيدين حسناوات وشريرات . على ما يبدو كان أتريو قد أتى هنا إلى أحد بلاد فانتازين التى تسكنها مخلوقات الظلام . ولو كان أورين ما زال معه ، لتقدم إليهم وواجههم دون تردد ليسألهم عما يحدث هنا . ولكنه فضل أن ينتظر فى مخبئه إلى أن مر الموكب المجنون واختفى آخر من فى الموكب وهو يعرج ويحجل فى الضباب .

وحينئذ فقط تجاسر أن يخرج إلى الشارع ويتابع بنظره موكب الأشباح . أكان عليه أن يتبعه أم لا ؟ ولم يستطع اتخاذ القرار . وفى الحقيقة لم يعد يعرف على الإطلاق إذا كان مازال عليه أو فى إمكانه أن يفعل أى شىء فى ذلك الوقت .

ولأول مرة شعر بوضوح إلى أى مدى يفترق حجاب الإمبراطورة الطفولية وكم هو بلا حيلة . ولم تكن الحماية التى كان يضمناها له ، هى الشىء الفاصل - فكل المتاعب وفقدان الضروريات ، وكل المخاوف والشعور بالوحدة كان عليه أن يتخطاها بقواه الذاتية بالرغم من ذلك - ولكنه طالما كان يحمل العلامة لم يكن أبدا فى حالة من عدم التأكد من الذى يجب عليه أن يفعله . فقد كان يقود إرادته وقراراته الى الاتجاه الصحيح مثل بوصلة مليئة بالأسرار . ولكن الآن كان الأمر مختلفا ، الآن لم تعد هناك قوة خفية تقوده .

فقط من أجل ألا يظل واقفا كالمشلول . فقد أمر نفسه باتباع موكب الأشباح الذي كان إيقاع طبوله المكتوم مازال يُسمع من بعيد .

وبينما هو يسرع بلا صوت خلال الضباب - وكان حريصا دائما أن يحافظ على مسافة كافية بعيدا عن آخر أفراد الموكب - ، حاول أن يتبين حالته .

لماذا ، آخ ، لماذا لم يستمع إلى فُخور ، عندما نصحه بالطيران فورا إلى الامبراطورة الطفولية ؟ كان سيبلغها رسالة أيولالا ويُعيد إليها « البريق » وبدون آورين وبدون فُخور لم يعد يستطيع الوصول إلى الامبراطورة الطفولية . إنها سوف تنتظره حتى آخر لحظة من حياتها ، وتأمل في حضوره ، وتعتقد أنه سيحضر النجدة لها ولفانتازين - ولكن هيهات !

وكان هذا سىء بما فيه الكفاية ، ولكن الأسوأ من ذلك كان ما عرفه عن طريق عمالقة الرياح : بأنه لا توجد حدود . فإذا كان مستحيلا الخروج من فانتازين ، فإنه من المستحيل أيضا نداء طفل بشرى من الجانب الآخر للحدود لتقديم العون ، ولأن فانتازين كانت لا نهائية ، فكان من غير الممكن منع نهايتها !

وبينما كان يواصل سيره متعثرا فوق الأسفلت غير المستوى من خلال سحابات الضباب سمع في ذاكرته صوت أيولالا الناعم مرة أخرى . وتوهجت شرارة أمل صغيرة في قلبه. فيسما مضى كان كثيرا ما يأتي بشر إلى فانتازين ، لكى يمنحوا الإمبراطورة الطفولية دائما أسماء جديدة رائعة - هكذا أنشدت . إذن فقد كان هناك طريقا من عالم إلى الآخر .

« بالنسبة لهم إنها قريبة ، وبالنسبة لنا فهي بعيدة

أبعد من أن نأتى إليهم . »

أجل هكذا كلمات أيولالا . لاشىء إلا أن أطفال البشر قد نسوا هذا الطريق ألم يكن ممكنا ، أن فردا ، فردا واحدا يتذكره مرة أخرى ؟

وكان حزن أتريو قليلا على أنه هو نفسه لم يعد له أمل . ولكن الشىء الهام هو أن يسمع طفل بشرى نداء فانتازين ويأتى - كما كان يحدث في جميع الأوقات . وربما ، ربما بدأ أحدهم فعلا رحلته وهو في الطريق !

وصاح باستيان : « نعم ، نعم ! » وفزع من صوته الخاص ، وأضاف قائلاً
صوت منخفض : « سوف أت لمساعدتكم ، لو فقط عرفت كيف ! أنا لا أعرف
الطريق يا أتريو . أنا لا أعرفه حقاً . »

وكان رنين الطبول المكتوم والصفير الحاد قد سكت ، وبدون أن يلاحظ ، كان
أتريو قد اقترب من الموكب لدرجة أنه كاد أن يلحق في سيره بآخر الشخصيات .
ونظراً لأنه كان حافي القدمين فلم تحدث خطواته صوتاً — ولكن لم يكن هذا هو الذي
جعل هؤلاء الناس لا يلاحظونه على الإطلاق . وكان يمكنه أن يذب بأحذية طويلة
ذات رقبة ومدقوق في نعلها الحديد ، وأن يصيح عالياً ، فلا أحد كان سيهتم
بذلك — ولم يعودوا يقفون بعد ذلك في موكب ، ولكن متفرقين على بُعد فوق حقل
من الحشائش الرمادية والطين . بعضهم كان يترنح قليلاً هنا وهناك ، وآخرون
يقفون أو يجلسون القرفصاء بلا حراك ، ولكن عيونهم جميعاً التي كان بها بريق أعمى
محموم ، كانت تنظر في نفس الاتجاه .

والآن رأى أتريو أيضاً ، في أي شيء يحملون كما لو كانوا مأخوذين في رعب :
فعلى الجانب الآخر من الحقل كان العدم .

لقد كان كما شاهده أتريو من قبل من قمة الشجرة عند عفاريت جن لحي
الأشجار أو في السهل الذي كانت به البوابات السحرية الثلاثة لأرض التنبؤات
الجنوبية ، أو من على ظهر فخور ، من ارتفاع كبير — ولكنه حتى ذلك الوقت لم يكن
قد رآه دائماً إلا من البعد . ولكنه الآن وقف دون استعداد في مواجهته مقرباً منه
تماماً ، وقد كان يسرى من خلال المنطقة كلها ، وكان هائلاً ، يقترب بطيئاً ،
بطيئاً ، ولكن دون توقف .

ورأى أتريو أن الأشباح في الحقل بدأت ترتعد أمامه ، لدرجة أن أعضائها
التفتت كما لو أصابتها التقلصات ، وقد فتحو أفواههم كما لو كانوا يريدون الصراخ
أو الضحك ، ولكن ساد صمت الأموات . ثم — كما لو كانوا أوراق شجر ذابلة
تملكتهم نفخة رياح — اندفعوا جميعاً في نفس الوقت إلى ناحية العدم ، وسقطوا ،
وتدحرجوا وقفزوا إلى داخله .

وما كاد يخفى آخر هذه المجموعة الشبحية بلا صوت ولا أثر ، حتى لاحظ أتريو بفزع كيف أن جسده هو أيضا بدأ يتحرك تجاه العدم في خطوات كالدفعات . وأرادت أن تمتلك منه رغبة جامحة في الاندفاع أيضاً إلى هناك . وشد أتريو كل إرادته ودافع عن نفسه ضدها . وأجبر نفسه على التوقف . وبيطء ، وبيطء تام نجاح في الدوران والتصارع والتقدم خطوة خطوة كما لو كان يواجه تيار ماء هائل غير مرئي . وضعفت قوة الجذب ، وجرى أتريو وجرى بأسرع ما يستطيع عائداً إلى أسفل الشارع المنبعج . وتزحلق وسقط ، واستجمع قواه ، وواصل الجرى دون أن يفكر إلى أين سيقوده هذا الشارع في الضباب ؟

وتابع وهو يجرى انحناءاته عديمة المغزى ، ولم يتوقف إلا عندما بزغ أمامه من الضباب سور مدينة عال في سواد القار . ومن ورائه كانت ترتفع بضعة أبراج مائلة إلى السماء المغيمة . وكانت الضلف الخشبية السميقة لبوابة المدينة هشة ونخرة ، ومتدلية بميل بمفصلاتها الصدئة .

ومشى أتريو إلى الداخل .

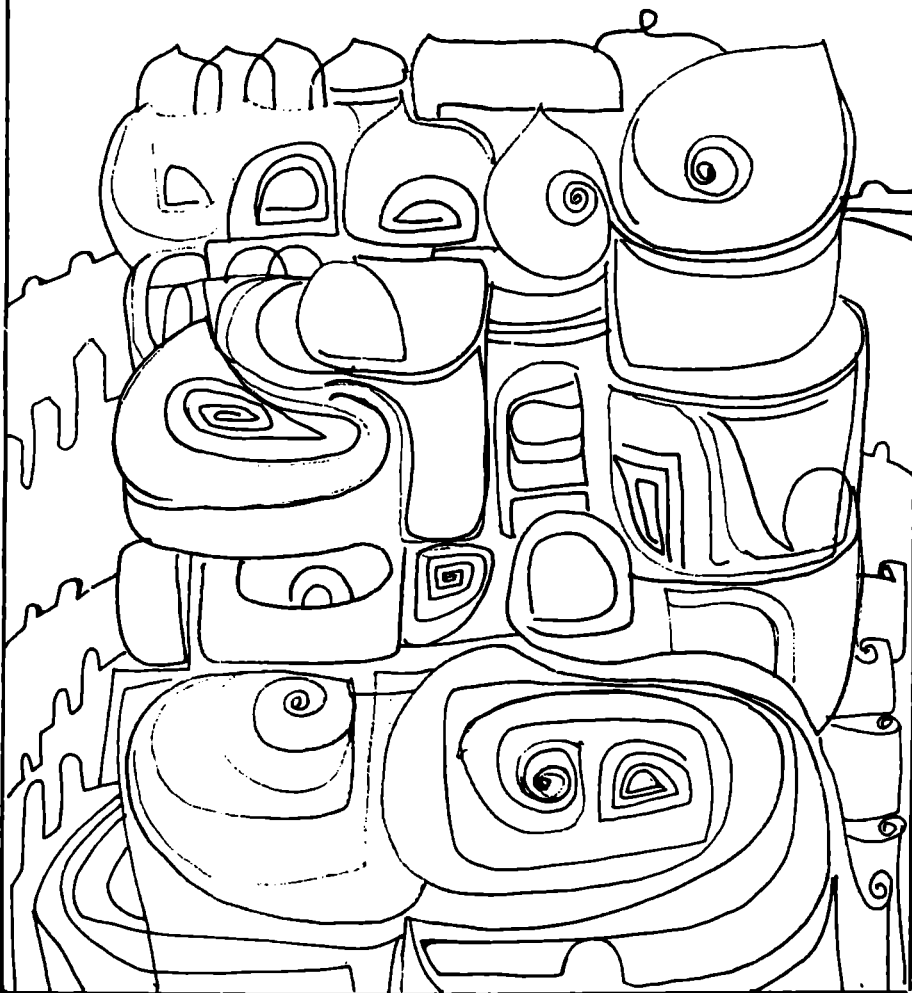
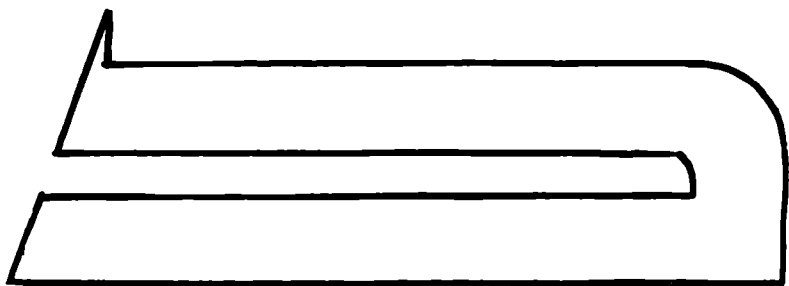
وازدادت البرودة باستمرار بالمخزن . وبدأ باستيان يحس بالقشعريرة لدرجة الارتعاش . وما العمل إذا مرض – وماذا سيكون مصيره ؟ فكان من الممكن أن يصاب مثلاً بالتهاب رئوي مثل فيللي ، الصّبي الذي يفصله ، إذن سيضطر أن يموت هنا في المخزن وحيدا تماما . ولن يكون هناك أحد لمساعدته .

إنه سيكون سعيدا جدا إذا عثر عليه الوالد وينقذه .

ولكن أذهب إلى المنزل – كلا ، لم يستطع ذلك . الموت أفضل !

وأحضر لنفسه الأغطية العسكرية – الباقية والتفّ بها من جميع الجهات . وبيطء ازداد شعوره بالدفع .

مَدِينَةُ الْأَسْبَاحِ ٩



ذا أمواج هادرة كان البحر^(١٠) ، حيث تردد صوت فُخور من مكان ما فيه ، وكان قويا كرنين جرس برونزى .

— « أترىو ! أين أنت ؟ أترىو ! »

وكان عمالقة الرياح قد أنهوا مباراة صراعهم منذ وقت طويل ، وتفرقوا عن بعضهم عاصفين ولسوف يتقابلون من جديد في ذلك المكان أو في مكان آخر لكي يحسموا نزاعهم مرة أخرى ، كما كانوا يفعلون منذ الماضى البعيد . ولقد نسوا ما حدث منذ قليل لأنهم لا يحفظون شيئا في ذكراتهم ولا يعرفون سوى قوتهم الذاتية الهائلة . وهكذا اختفى التنين الأبيض أيضا وفارسه الصغير من ذكراتهم منذ فترة طويلة .

وعندما سقط أترىو إلى العمق ، حاول فُخور بكل قواه في بادىء الأمر الإسراع ورائه لكي يلتقطه أثناء السقوط . ولكن دوامة عاصفة شدت التنين إلى أعلى وحملته بعيدا بعيدا . وعندما عاد كان عمالقة الرياح هائجين فوق مكان آخر من البحر . وسعى فُخور يائسا في العثور على المكان ثانية حيث رجح بالتأكيد أن يكون أترىو قد سقط فيه ولكن حتى بالنسبة لتنين حظ أبيض فهو ضرب من المستحيل اكتشاف النقطة الضئيلة لجسم منساب في الزبد الراغى لبحر هائج - أو حتى غريق في القاع . وبالرغم من ذلك لم يُرد فُخور أن يفقد الأمل . فصعد عاليا في الأجواء لكي تكون لديه نظرة شاملة أفضل ، ثم عاد فكان فوق الأمواج ملاصقا لها ، أو طار في حلقات ، حلقات مستمرة في الاتساع . وأثناء ذلك لم يتوقف عن النداء على أترىو ، على أمل أن يرصده في مكان ما في المياه المُزْبِدة .

لقد كان تنين حظ ، ولم يكن شيء يستطيع أن يززع عقيدته في أن كل شيء سينتهى نهاية طيبة . ومهما حدث فإن فخور لن يفقد الأمل أبداً .

وتجول أتريو خلال الشوارع الساكنة كسكون الموتى لمدينة مهجورة . وكان المنظر مقبضا وخيفا . ولم يبد أن هناك مبنى لا يعطى حتى لمجرد مظهره الخارجى انطبعا مهدداً ومشحونا باللعنات ، كما لو كانت المدينة كلها تتكون فقط من قصور عفاريت وبيوت أشباح ، وفوق الشوارع والأزقة التي كانت منحنية ومائلة ككل شيء في هذه البلدة ، كانت تتدلى أنسجة هائلة للعنكبوت ، وتتصاعد رائحة كريهة من ثقوب الأقبية والآبار الفارغة .

وبعد أن كان أتريو في البداية يسرع في سكون من ركن حائط إلى آخر لكيلا يكتشفه أحد ، فسرعان ما لم يعد يبذل جهدا في اخفاء نفسه . فقد كانت الميادين والشوارع خالية أمامه ، وكذلك لم تكن هناك حركة في المباني . ودخل في بعضها ولكنه لم يجد إلا قطع أثاث مبعثرة وستائر ممزقة وزجاج وأوان محطمة - جميع دلائل الخراب . ولكن ولا ساكن . وعلى إحدى الموائد كانت هناك وجبة بُدئ في تناولها ، بعض الأطباق وبها حساء أسود اللون ، وبعض الكسرات اللزجة التي ربما كانت خبزا ، وأكل من كليهما . وكان مذاقهما مقرزا ، ولكنه كان جوعان جدا . وبداله وصوله إلى هناك بالذات صحيحا تماما في معنى من المعاني . فكل ذلك كان يناسب شخصا لم يبق له أمل .

وشعر باستيان بالضعف التام من الجوع .

السبب في علم السماء في أنه خطر بباله في تلك اللحظة بعينها وبشكل غير مناسب فطيرة التفاح التي تصنعها الانسة أنا . لقد كانت أفضل فطيرة تفاح في العالم .

وكانت الانسة أنا تأتى ثلاث مرات في الأسبوع وتنجز أعمالا كتابية للوالد وتنظم ميزانية البيت . وغالبا ما كانت تطهى أو تحبز شيئا أيضا . لقد كانت إنسانة قوية تتكلم وتضحك دون هموم بصوت عال وكان الوالد مؤدبا معها ، ولكن فيما

عدا ذلك بدا أنه يكاد لا يدرك وجودها . ونادرا جدا ما استطاعت أن تجعل ابتسامته تتسلل إلى وجهه المهموم . وعندما تكون بالبیت كان الضوء يزداد قليلا .

وكان للآنسة أنا ابنة صغيرة ، بالرغم من أنها لم تكن متزوجة . وكانت الفتاة تدعى كريستا وكانت أصغر من باستيان بثلاث سنوات ، وكان لها شعر أشقر رائع الجمال . وفيما مضى كانت الآنسة أنا تحضر معها ابنتها الصغيرة دائما تقريبا . وكانت كريستا خجولة جدا . وعندما كان يحكى لها باستيان حكاياته لساعات طويلة . كانت تجلس ساكنة تماما وتستمع إليه بعينين مشدوهتين وكانت معجبة بابستيان وهو كان يحبها جدا .

ولكن من عام أودعت الآنسة أنا ابنتها الصغيرة في مدرسة داخلية بالريف . ومنذ ذلك الحين لم يعودا يريا بعضهما الآخر تقريبا .

وقد استاء باستيان جدا من الآنسة أنا ، ولم تقنعه جميع تفسيراتها للسؤال كيف أن ذلك كان أفضل لكريستا .

ولكنه بالرغم من ذلك لم يستطع أن يقاوم أبدا فطيرة تفاحها .

وتساءل بانشغال ، كم من الوقت يستطيع الإنسان أن يصمد بلا طعام . ثلاثة أيام ؟ يومين ؟ ربما تنتاب الانسان تخيلات وهمية بعد أربع وعشرين ساعة ؟ وعدّ باستيان على أصابعه كم من الوقت وهو موجود هناك فعلا . لقد كانت عشر ساعات أو حتى أكثر قليلا . لو أنه فقط كان معه طعام الفسحة ، أو على الأقل احتفظ بالتفاحة ! وعلى ضوء الشموع المتراقص كادت العيون الزجاجية للشعلب والبومة ونسر الصخور العملاق تبدو حية . وقد ارتفعت ظلالها ضخمة على جدار المخزن . ودقت ساعة البرج سبع مرات .

وخرج أتريو مرة أخرى إلى الشارع وتجوّل في المدينة بلا هدف . وكانت تبدو كبيرة جدا . وأتى إلى حى كل المنازل فيه صغيرة ومنخفضة لدرجة أنه استطاع وهو واقف أن يلمس ميزاب الأسطح ، وأتى خلال أحياء أخرى حيث كانت قصور

متعددة الطوابق ذات واجهات تزينها التماثيل . ولكن كل هذه التماثيل كانت تمثل هياكل الموتى أو أشكالا شيطانية كانت تحملق إلى أسفل على المتجول الوحيد بوجوه منفرة .

وبعدئذ وقف فجأة كالمتسمر بلا حراك .

ففى مكان ما على مقربة تامة منه رنَّ عويل خشن مبسوح له وقع يائس حزين لدرجة أنه قطع قلب أتريو . وكانت كل وحشة وكل لعنة مخلوقات الظلام تكمن فى هذا الصوت الشاكى الذى لم يكن يريد أن ينتهى ، والذى كانت جدران المبنى المتزايدة التباعد تعيد قذفه على شكل صدى ، حتى أن رنينه أخيرا كان كعواء قطع منتشر إلى بعيد من الذئب الضخمة .

وسار أتريو خلف الصوت الذى تزايد انخفاضه باستمرار وأخيرا خمد فى نحيب خشن وكان عليه أن يبحث لبعض الوقت . وسار من خلال أحد المداخل ، وأتى إلى فناء ضيق عديم الضوء ، ومشى عبر قوس بوابة ووصل أخيرا إلى فناء خلفى رطب وقذر . وهناك كان يرقد أمام ثقب فى الجدار ذئب ممسوخ^(١١) عملاق مقيد بالسلاسل وكاد الجوع أن يقضى عليه . وكان فى الإمكان عدُّ كل ضلع من ضلوعه على حدة من أسفل جلده الأجرب ، وعقد عموده الفقرى كانت تبرز للأمام كأسنان المنشار ، وقد تدلى لسانه طويلا من حلقه النصف مفتوح .

واقترب أتريو فى سكون . وعندما لاحظته الذئب الممسوخ ، رفع رأسه الهائل بحركة واحدة . وتوهج فى عينيه ضوء أخضر .

وتفرس الاثنان فى بعضهما فترة من الوقت دون كلمة ودون صوت . وأخيرا سُمع طنين الذئب الممسوخ خافتا ومهددا للغاية :

« اذهب بعيدا ! دعنى أموت فى هدوء ! »

« وتمتم قائلا : « ولماذا ، لماذا لم يفروا ؟ »

(١١) Werwolf اسم تطلقه المعتقدات الشعبية الألمانية على إنسان مسخ على شكل ذئب لأعماله

ولم يتحرك أتريو . وأجاب بصوت خافت كذلك :

« لقد سمعت نداءك ولذلك أتيت . »

وهوى رأس الذئب المسوخ إلى الورا . وقال متذمرا : « إننى لم أناد على أحد ، لقد كان ذلك نوحى الخاص على موتى . »

وتساءل أتريو وهو يقترب خطوة أكثر : « من أنت ؟ »

— « أنا جمورك ، الذئب المسوخ . »

— « لماذا ترقد هنا مُقيداً بالسلاسل ؟ »

— « لقد نسوتى عندما انصرفوا ؟ »

— « من - هم ؟ »

— « هؤلاء الذين قيدونى بهذه السلسلة . »

— « وإلى أين ذهبوا ؟ »

ولم يجب جمورك . ونظر إلى أتريو بعينين نصف مغلقتين متربصتين . وبعد فترة سكون طويلة نوعاً سأل قائلاً :

« ليس مكانك هنا ، أيها الغريب الصغير ، ليس فى هذه المدينة ، ليس هذا البلد . عما تبحث هنا ؟ »

وأطرق أتريو برأسه وقال : « لست أدرى كيف أتيت إلى هنا . ما اسم هذه المدينة ؟ »

فقال جمورك : « إنها عاصمة أشهر بلد فى كل فانتازين . ولا توجد بلد أخرى ولا مدينة أخرى لها مثل حكاياتها الكثيرة . وأنت أيضا أكيد سمعت عن مدينة الأشباح فى بلد الغوغاء ، أليس كذلك ؟ »
وهز أتريو رأسه بالإيجاب ببطء .

ولم يحول جمورك عينيه عن الصبى . فقد أدهشه أن هذا الصبى أخضر البشرة ينظر إليه بعينيه السوداوين الكبيرتين بهذا الهدوء ودون أن يُظهر أى خوف

وسأل قائلا : « وأنت - من تكون ؟ »

وفكر أتريو برهة قبل أن يجيب قائلا : « أنا لا أحد . »

— « وما معنى هذا ؟ »

— « هذا يعنى أنه كان لى اسم ذات مرة . وهو لا يصح أن يذكر بعد ذلك .

ولذلك فانا لا أحد . »

وجذب الذئب المسموخ أشفاره قليلا إلى أعلى وأظهر أسنانه المخيفة ، وربما كان هذا إشارة إلى الابتسام . وكان يفهم جميع أنواع ظلمة النفس ، وشعر أن أمامه شريكا متساويا معه بأى شكل من الأشكال .

وقال بصوت متحشرج : « إذا كان الأمر كذلك ، فإن لا أحدا سمعنى ،

ولا أحد أتى إلى ، ولا أحد يتحدث معى فى ساعتى الأخيرة . »

وهز أتريو رأسه بالإيجاب مرة أخرى . ثم سأل قائلا :

— « أيستطيع لا أحد أن يفك قيدك ؟ »

وتراقص الضوء الأخضر فى عيني الذئب المسموخ . وبدأ يتهكم ويلحس

أشفاره .

واندفع صوته يقول : « هل سوف تفعل ذلك حقا ؟ ستطلق سراح ذئب

مسموخ جائع ؟ ألا تعرف معنى ذلك ؟ لا أحد سيكون فى مأمن منى . »

فقال أتريو : « أجل ، وأنا لا أحد . لماذا سأخاف منك ؟ »

وأراد أن يقترب من جمورك ، ولكن هذا أطلق ذلك الدوى العميق المرعب مرة

أخرى . وتراجع الصبى .

وسأل قائلا : « ألا تريد أن أطلق سراحك ؟ »

وبدا الذئب المسموخ منهكا جدا مرة واحدة : « لن تقدر على ذلك . ولكن إذا

اقتربت إلى متناول يدي فلا بد أن أقطعك إربا ، يابنى . وسوف يؤجل ذلك نهايتى

قليلا فقط ، لمدة ساعة أو ساعتين . إذا ابتعد عنى ، ودعنى أنفق فى هدوء . »

وفكر أتريو .

وأخيراً قال : « ربما أعثر على شيء لتأكله . ففي استطاعتي أن أذهب للبحث في المدينة . » وفتح جمورك عينيه ببطء مرة أخرى ونظر إلى الصبي . وكانت النيران الخضراء في نظرتة قد انطفأت .

— « اذهب إلى الجحيم ، أيها الأحمق الصغير . أتريد أن تحافظ على حياتي إلى أن يكون العدم هنا ؟ »

فتلعثم أتريو قائلاً : « كنت أعتقد إذا ما أحضرت لك طعاماً وشبعت ، فربما سيمكنني الاقتراب منك لكي أنزع عنك القيد . . . »

وجز جمورك على أسنانه . وقال : « لو كان قيداً عادياً الذي يربطني هنا ، أعتقد أنني لم أكن قضتته بنفسى منذ وقت طويل ؟ »

وكما لو كان يريد برهنة ذلك التقف السلسلة وتخبضت أسنانه محدثة ضجيجاً . . . وجذب فيها ثم تركها .

— « إنها سلسلة سحرية . لا أحد يستطيع فكها إلا نفس الشخص الذى قيدها بها . ولكنه لن يعود أبداً . »

— « ومن قيدها بها ؟ »

وبدأ جمورك في النحيب ككلب مضروب . فقط بعد برهة من الزمن كان قد هدأ بحيث استطاع أن يجيب قائلاً :

— « لقد كانت جابا ، الأميرة العبوس . »

— « والى أين ذهبت ؟ »

« لقد ألفت بنفسها في العدم - مثل كل الآخرين هنا . »

وفكر أتريو في الراقصين المجانين الذين شاهدتهم بالخارج أمام المدينة في الضباب .

وتمتم قائلاً : « ولماذا ، لماذا لم يفروا ؟ »

— « لم يكن لديهم أمل . وهذا يضعف أمثالكم . فالعدم يجذبكم بقوة ، ولن يقاومه واحد منكم لوقت طويل . »

وبينا هو يقول ذلك ، أطلق جمورك ضحكة عميقة شريرة .

وواصل أتريو تساؤله : « وأنت ، إنك تتحدث كما لو لم تكن تنتمى إلينا . »

وعاد جمورك ينظر إليه بهذه النظرة المتربصة .

— « إننى لا أنتمى إليكم . »

— « من أين تأتى إذن ؟ »

— « ألا تعرف ما هو الذئب المسوخ ؟ »

وهز أتريو رأسه بالنفى صامتا .

فقال جمورك : « أنت لا تعرف غير فانتازين . وهناك عوالم أخرى ، على سبيل

المثال أولاد البشر . ولكن هناك كائنات ليس لهم عالم خاص . ولكنهم يستطيعون أن

يدخلوا ويخرجوا فى كثير من العوالم . وأنا أنتمى إلى هؤلاء . ففى عالم البشر أظهر

كإنسان ، ولكننى لست بشرا . وفى فانتازين اتخذ الهيئة الفانتازية - وأنا لست واحدا

منكم » وجلس أتريو القرفصاء ببطء على الأرض ، ونظر إلى الذئب المسوخ

المحتضر بعينين مشدوهتين داكنتين .

— « هل كنت فى دنيا أولاد البشر ؟ »

— « كثيرا ما ترددت بين عالمهم وعالمكم . »

فقال أتريو متلعثما ولم يستطع أن يمنع ارتعاش شفثيه : « جمورك ، أيمكنك أن

تبوح لى بالطريق إلى عالم أولاد البشر ؟ »

وبرقت ومضة خضراء فى عيني جمورك ، وكان كما لو أنه يضحك داخلها .

— « الطريق إلى هناك سهل جدا بالنسبة لك ولأمثالك . ولكن بالأمر مشكلة

خافية عنكم ، وهو أنكم لن تستطيعوا العودة مرة ثانية أبدا . وعليكم أن تبقوا هناك

إلى الأبد . أتريد ذلك ؟ »

فسأل أتريو بعزم : « ماذا يجب على أن أفعله ؟ »

— « ما فعله جميع الآخرين هنا من قبلك ، يابني . ليس عليك إلا أن تقفز في العدم . ولكن لا داعي للعجلة لأنك سوف تفعل ذلك إن أجلا أو عاجلا على شتى الأحوال عندما تحتفى آخر أجزاء فانتازين . »
ونفض أتريو .

ولاحظ جمورك أن الصبي يرتعش بكل جسده . ولأنه لم يكن يعرف السبب الحقيقي لذلك ، قال مهدئا : « يجب ألا تخاف ، فهو لا يؤلم . »

فرد أتريو قائلا : « لست خائفا ، إنني لم أفكر أبدا في أني سأستعيد كل الأمل هنا بالذات وعن طريقك أنت . »

وتوهجت عينا جمورك كقمرين أخضرين ضيقين .

— « ليس لديك داع للأمل يابني - مهما كنت تنوى فعله . فعندما نظهر في عالم البشر ، لن تكون ما أنت عليه هنا . وهذا هو السر الذي لا يستطيع أحد معرفته في فانتازين . »

ووقف أتريو وذراعه متدليتين وسأل قائلا : « ماذا سأكون هناك ؟ قل لي السر ! » جمورك صمت وقتاً طويلا ولم يتحرك . وخشى أتريو ألا يتلقى إجابة بعد ، ولكن أخيرا ارتفع صدر الذئب المسوخ بنفس ثقيل ، وبدأ يتحدث بصوت متحرج قائلا :

« ماذا تعبرني ، يابني ؟ صديقك ؟ احترس ، إنني أقضى الوقت معك فقط . والآن أنت لا تستطيع حتى الانصراف . إنني أمسك بك عن طريق أملك . ولكن أثناء حديثي يحيط العدم بمدينة الأشباح من جميع الأنحاء وسرعان ما لن يكون هناك مخرج حينئذ تكون أنت مفقود . فإذا سمعت لي ، تكون قد اتخذت القرار . ولكن ما زلت تستطيع الفرار . »

وازدادات شدة الملامح القاسية حول فم جمورك . وتردد أتريو للحظة قليلة ، ثم همس قائلا : « قل لي السر . ماذا سأكون هناك ؟ »

ومرة أخرى لم يجب جمورك لفترة طويلة . وسار تنفسه الآن متحشرجا ومتدافعا . ولكنه على حين غرة تامة نهض بحيث إنه انصب حينئذ متكئا على مخالفه الأمامية ، واضطر أتريو أن يرفع نظره إليه . والآن فقط شوهد حجمه الهائل تماما وفضاعته .

وعندما عاد يواصل الحديث مرة أخرى كان صوته متحشرجا :

— « هل رأيت العدم يابني ؟ »

— « نعم ، مرات كثيرة . »

— « كيف يبدو ؟ »

— « كما لو كان المرء أعمى . »

« حسن ، وعندما تدخلون فيه ، فانه يعلق بكم ، أى العدم فتكونون كالمرض المعدى الذى عن طريقه يصبح البشر عميانا بحيث لا يستطيعون أن يفرقوا بين الخيال والحقيقة . أتعرف كيف يُطلق عليكم هناك ؟ »

وهمس أتريو قائلا : كلا .

فنبج جمورك قائلا : « الأكاذيب ! »

وهز أتريو رأسه يمينا ويسارا . وقد هربت كل الدماء من نفثيه .

— « كيف يمكن هذا ؟ »

وكان جمورك يتسرى بفزع أتريو . وكانت المحادثة تنعشه بشكل ملحوظ .

وبعد برهة قصيرة استكمل حديثه قائلا :

— « أتسألنى عما ستكونه هناك ؟ ولكن ماذا تكون أنت هنا ؟ وماذا تكونون أنتم يا كائنات فانتازين ؟ إنكم صور أحلام ، مُتَحَلِّقَاتُ فى مملكة الشعر . شخصيات فى قصة لا تنتهى ! أعتبر نفسك حقيقة واقعة يابني ؟ حسن ، أنت ذلك هنا فى عالمك . ولكن عندما تسير عمر العدم ، فلن تكون ذلك فيما بعد . حينئذ لن يمكن التعرف عليك . حينئذ ستكون فى عالم آخر وهناك لن يكون لديكم شبه مع أنفسكم . وسوف تحملون الوهم والتضليل إلى عالم الشر . وعليك أن تحم

يابنى ، ما هو مصير جميع سكان مدينة الأشباح الذين قفزوا في العدم ؟ »

وقال أتريو متلعثما : « لست أدرى . »

— « سيصبحون أفكارا وهمية في رؤوس البشر ، تخيلات خوف حيث لا يوجد في الواقع شيء يُخشى منه ، رغبات إلى أشياء تجعلهم مرضى ، تخيلات يأس حيث لا يوجد سبب لليأس . »

وسأل أتريو فزعا : « هل سنصبح جميعا هكذا ؟ »

فرد جمورك : « كلا ، هناك أنواع كثيرة من الوهم والخيال ، وحسبها تكونون هنا ، من جمال أو قبح ، غباء أو ذكاء ، فستصبحون هناك أكاذيب جميلة أو قبيحة ، غيبة أو ذكية . »

وقال أتريو راغبا في المعرفة : « وأنا ، ماذا سأكون ؟ »

وابتسم جمورك ساخرا .

— « لن أقول لك ذلك ، يابنى . سوف تراه أنت . أو بالأحرى لن تراه ، لأن أنت لن تكون أنت . »

وصمت أتريو ونظر إلى الذئب الممسوخ بعينين مشدوهتين .

وأكمل جمورك كلامه قائلا :

« ولذلك يكره ويخشى البشر فانتازين وكل شيء يأتي من هنا . إنهم يريدون تدميرها وهم لا يعرفون أنهم بذلك يزيدون من طوفان الأكاذيب الذى ينصب بلا انقطاع في عالم البشر - ذلك التيار من كائنات فانتازين الذى لم يعد في الإمكان التعرف عليهم . والذين يضطرون إلى أن يتخذوا كيانا وهميا من الجثث الحية . إنهم لا يعرفون . أليس هذا مضحكا ؟ »

وسأل أتريو بصوت منخفض : « ألم يعد هناك واحد لا يكرهنا ويخشانا ؟ »

فقال جمورك : « على كل حال أنا لا أعرف أحدا . وهذا أيضا لا يدعوك لمزيد من الدهشة ، لأنكم أنتم ستضطرون هناك أن تتسببوا في جعل الناس يعتقدون أنه

لا وجود لفانتازين . »

فقال أترىو مكررا وهو مأخوذ : « أنه لا وجود لفانتازين ؟ »

وأجاب جمورك : « مؤكد ، يابنى . وهذا بعينه هو أهم شىء . ألا تستطيع أن تتخيل ذلك فقط عندما يعتقدون أنه لا وجود لفانتازين ، فلن يفكروا فى زيارتكم ، وبذلك يرتبط كل شىء ، لأنه فقط إذا لم يعرفوكم بشكلكم الحقيقى ، فيمكن أن يفعل بهم كل شىء . »

– « ماذا - يفعل بهم ؟ »

– « كل ما يريده المرء . سيكون للمرء سلطان عليهم . ولا توجد سلطة على البشر أقوى من الكذب . لأن البشر يابنى ، يعيشون على الخيالات ، وهذه يمكن قيادتها . وهذه السلطة هى الوحيدة التى يعتد بها . ولذلك وقفت أنا إلى جانب السلطة وخدمتها لكى أشارك فيها - وإن كان هذا بشكل مختلف عنك وعن أمثالك . »

واندفع أترىو قائلا : « أنا لا أريد أن أشارك فيها . »

فدمدم الذئب المسوخ قائلا : « بهدوء ، أيها الأحمق الصغير ، فعندما يأتى الدور عليك لتقفز إلى العدم ، ستصبح أنت أيضا خادما للسلطة عديم الإرادة مشوها . من يدري فى أى شىء ستنتفعها ؟ ربما بمساعدتك سيجعلون البشر يشترىون مالا يحتاجون ، أو يكرهون مالا يعرفون ، أو يعتقدون فيما يخضعهم أو يشكون فيما يمكن أن ينقذهم . وبكم ، أيها الفانتازى الصغير ، ستعقد صفقات كبيرة فى عالم البشر وتنشب حروب ، وتقام الممالك العالمية . . . »

ونظر جمورك إلى الصبى فترة بعينين نصف مغلقتين ، ثم أضاف قائلا :

« ويوجد أيضا عدد كبير من أصحاب العقول الضعيفة المساكين - الذين يعتبرون أنفسهم بالطبع أذكياء جدا ، ويعتقدون أنهم يخدمون الحقيقة - والذين لا يفعلون شيئا بحماس أكثر من إنكارهم حتى لأولاد فانتازين . ربما ستكون أنت بالذات نافعا لهم . »

ووقف أتريو مطرقاً رأسه .

لقد عرف الآن لماذا لم يعد يأتي بشر إلى فانتازين ، ولماذا لن يأتوا أبداً لكي يمنحوا الإمبراطورة الطفولية أسماء جديدة . وكلها تملك الدمار من فانتازين ، ازاداد حجم طوفان الأكاذيب في عالم البشر ، وبسبب ذلك كانت إمكانية حضور طفل بشري تتلاشى أكثر مع كل لحظة . لقد كانت حلقة مفرغة ولا يوجد مفر منها . لقد عرف أتريو ذلك الآن .

وهناك شخص آخر عرف الأمر الآن : باستيان بلتازار بوكس .

لقد فهم الآن أنه ليست فانتازين فقط هي المريضة ولكن أيضاً عالم البشر . فأحدهما متعلق بالآخر . وفي الواقع أنه كان يشعر بذلك دائماً دون أن يستطيع أن يفسر لماذا الأمر على هذا النحو . إنه لم يكن يريد أن يرضى أبداً أن تكون الحياة بهذه الكآبة واللامبالاة ، هكذا دون أسرار ومعجزات ، مثلما يزعم كل الناس الذين يقولون دائماً :

« هكذا الحياة . »

ولكنه أيضاً عرف الآن أن المرء يجب أن يذهب إلى فانتازين لكي يعيد الصحة إلى كلا العالمين .

وكون أن لا أحد من البشر لم يعد يعرف الطريق إلى هناك ، كان يرجع إلى الأكاذيب والتخيلات الخاطئة التي أتت إلى العالم وجعلت الإنسان أعمى بسبب تدمير فانتازين . وفكر باستيان بالفرع والخجل في أكاذيبه الخاصة . والقصاص المُختلقة التي كان يحكيها لم يحسبها من ضمنها . لقد كان ذلك شيئاً آخر . ولكنه كذب عدة مرات عن قصد وتعمد تام - أحياناً من الخوف ، وأحياناً لكي يحصل على شيء ما يريد تملكه حتماً ، وأحياناً أيضاً لكي يتفاخر بنفسه فقط . تُرى أية مخلوقات من فانتازين دمرها وشوهها وأساء استغلالها ، وحاول أن يتخيل شكلهم الحقيقي الذي يحتمل أنهم كانوا عليه من قبل - ولكنه لم يستطع . وربما لأنه كان يكذب .

وعلى كل حال فقد ثبت شيء واحد : وهو أنه ساهم في وصول حال فانتازين إلى هذا السوء . وكان يريد أن يفعل شيئا لكى يصلح الأمور مرة أخرى . وكان مدانا بذلك لأتريو الذى كان مستعدا لكل شيء فقط من أجل أن يحضره . إنه لم يكن يستطيع ولا يريد أن يجيب أمل أتريو . يجب أن يعثر على الطريق .
ودقت ساعة البرج الثامنة .

وكان الذئب المسوخ ينظر إلى أتريو بإمعان .

وقال : « والآن أنت تعرف كيف يمكنك المجيء إلى عالم البشر ، أما زلت تريد ذلك يابنى ؟ »

وهز أتريو رأسه بالنفى .

وتمتم قائلا : « إننى لا أريد أن أصبح أكلوبة . »

فرد جورك فيما يشبه السعادة : « ولكنك ستصبح هكذا ، أردت أم لم تُرد . »

وقال أتريو متسائلا : « وأنت ؟ لماذا أنت هنا ؟ »

فقال جورك رعم إرأنته « كان لدى مهمة . »

— « أنت أيضا ؟ »

ونظر أتريو إلى الذئب المسوخ بانتباه يكاد يتعاطف معه وقال : « وهل أديتها ؟ » فدمدم جورك قائلا : « كلا ، وإلا لما كنت مقيدا بهذه السلسلة بالتأكيد . بالرغم أن الأمور كانت تسير سيرا غير بطال بالمرّة في بادئ الأمر ، إنى أن أتيت إلى هذه المدينة . وقد هيأت لى الأميرة العبوس التى كانت تحكم هنا ، استقبالا بكل التكريم . ودعتنى إلى قصرها ، وقامت على إطعامى وسقيى بوفرة زائدة وتحدثت معى ، وتصرفت فى كل الأمور كما لو كانت تنتمى إلى فصيلتى . بالطبع كانت الكائنات فى بلد الغوغاء محببة إلى نفسى جدا نسبيا ، كنت أشعر كما لو كانت فى بيتى . وكانت الأميرة العبوس جميلة جدا بطريقتها . على كل حال بالنسبة لذوقى . وكانت تملس على وتعبث بشعرى ، وقد سمحت بذلك لأنه كان ممتعا جدا . فلم

يَلْسَ علىّ أحد ويداعب شعري على هذا النحو من قبل . باختصار ، لقد فقدت عقلى وانسقت إلى الشرثرة ، وكانت تتصرف كما لو كانت معجبة بي ، من يدري كيف ذلك ، وأخيرا قصصت عليها مهمتى . لا بد وأنها قد نومتنى ، لأننى عادة أنام نوما خفيفا . وعندما استيقظت ، كنت مقيدا بهذه السلسلة وكانت الأميرة العبوس تقف أمامى وتقول : « لقد نسيت يا جمورك أننى أيضا انتمى إلى مخلوقات فانتازين . وإذا حاربت ضد فانتازين ، فأنت تحارب أيضا ضدى . فأنت إذن عدوى ، ولقد تغلبت عليك بالحيلة . وهذه السلسلة لا يمكن فكها ثانية إلا بواسطة ولكننى الآن ذاهبة مع خدمى وخادماتى إلى العدم ولن أعود أبدا مرة ثانية » واستدارت وانصرفت . ولكن ليس الكلل حذى حذوها . فقط عندما أتى العدم فى اقتراب متزايد على الدوام ، انجذب من سكان المدينة المزيد والمزيد بقوة لدرجة أنهم لم يعودوا يستطيعون المقاومة . نعم ، لقد وقعت فى الفخ ، يابنى ، لقد سمعت لهذه المرأة لوقت أطول من اللزوم . ولكنك يابنى . ذهبت أيضا إلى نفس الفخ الآن ، واستمعت إلى لوقت أطول من اللزوم . فى هذه اللحظة أحاط العدم بالمدينة كالحلقة ، فأنت محبوس ولن تستطيع الفرار من بعد . »

فقال أتريو : « إذن سوف نقضى نجبنا سويا . »

فرد جمورك . « من المحتمل ، ولكن بطريقة مختلفة تماما ، أيها الأحقر الصغير . لأننى سوف أمرت قبل أن يكون العدم هنا . ولكنه سيبتلعك أنت . وهذا فارق كبير . لأن من يموت قبل ذلك تنتهى قصته ، ولكن قصتك ستستمر بلا نهاية كأكذوبة . »

فسأل أتريو قائلا : « لماذا أنت شرير هكذا ؟ »

فأجاب جمورك بغموض : « إن لديكم عالما ، وأنا لا . »

— « ماذا كانت مهمتك ؟ »

جمورك الذى كان حتى ذلك الوقت مازال جالسا فى اعتدال ، انزلق إلى الأرض وقد خارت قواه بشكل ملحوظ . ولم يعد يُسمع صوته الخشن إلا كالهات : « إن

الذين أعمل في خدمتهم ، والذين قرروا تدمير فانتازين ، رأوا خطورة على
خطتهم . - فلقد نما إلى علمهم أن الإمبراطورة الطفولية قد بعثت رسولا ، بطلا
عظيما - ، وبدا الأمر وكأنه سوف ينجح في استدعاء طفل بشرى إلى فانتازين . وكان
من الضروري جدا ، قتله في الوقت المناسب . - ولهذا أرسلوني لأننى كثيراً
ما سافرت في أرجاء فانتازين . - ولقد عثرت على أثره في الحال - وتبعته ليلا ونهاراً -
ولحقت به ببطء - عبر بلد السسافرة - عبر معبد أدغال موامات - عبر غابات هاو ليثالند
- مستنقعات الحزن - الجبال الموات - ولكن بعدئذ عند الهاوية السحيقة عند شبك
إجرامول - فقدت أثره - كما لو تحلل في الهواء - فواصلت البحث ، ففى مكان مالا يبد
أن يكون - ولكننى لم أعثر على أثره بعد ذلك - وهكذا أتيت أخيراً إلى هنا . - إننى لم
أوفق ولكن هو أيضا ، لأن فانتازين ستتهى ! لقد كان اسمه بالمناسبة أتريو . »

ورفع جمورك رأسه . وتراجع الصبى خطوة إلى الوراء ، ونهض أتريو إلى
أعلى . وقال « إننى هو ، أنا أتريو . »

وسرت رعشة خلال الجسد النحيل للذئب الممسوخ . وتكررت وازدادت شدة
على شدة . ثم صدر من حنجرتة صوت يشبه سعالا لاهئا وازداد ارتفاعا وحشرجة ،
وتصاعد إلى زئير رجع صداه من جميع جدران البيوت . لقد كان الذئب الممسوخ
يضحك !

لقد كان أفضع صوت سمعه أتريو من قبل ، ولم يسمعه أبدا مرة أخرى ، أو
ما يشبهه .

ثم انتهى فجأة .

لقد مات جمورك .

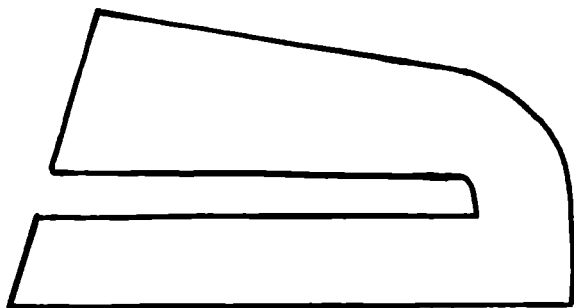
ووقف أتريو لفترة طويلة بلا حراك . وأخيرا اقترب من الذئب الممسوخ - وهو
نفسه لم يعرف لماذا . وانحنى فوق رأسه ولمس بيده الفرو الأسود خشن الشعر . وفى
نفس اللحظة ، وبأسرع من أية فكرة ، أطبقت أسنان جمورك وظلت ثابتة قاضمة في
رجل أتريو لقد كان الشر مازال قويا به حتى فيما بعد الموت .

وحاول أتريو يائسا أن يفتح فك الأسنان . دون جدوى . فلقد رسخت
الأسنان الهائلة في لحمه كما لو كانت مثبتة بصواميل من الصلب . وانهار أتريو إلى
جوار جثة الذئب المسوخ على الأرض القذرة .

واقترح عدم خطوة خطوة ، دون توقف وبلا صوت من جميع الأنحاء من
خلال السور الأسود العالى الذى يحيط بالمدينة .

١٠

الطيران إلى برج العاج



رُزق تين الحظ الأبيض اكتشافا غاية في الغرابة في تلك اللحظة التي دخل فيها أتريو عبر الباب المظلم لمدينة الأشباح ، وبدأ جولته من خلال الأزقة الملتوية التي انتهت بعدئذ بشكل مصيرى إلى ذلك الفناء الخلفى القدر .

وفى بحث دائب بلا كلل عن سيِّده وصديقه الصغير صعد عاليا جدا إلى السحب وتُنف الضباب بالسماء ونظر إلى جميع النواحي . وامتد البحر إلى جميع الجهات ، والذي هداً ببطء فقط بعد العاصفة الهائلة التي كانت تمخر فيه حتى القاع . وفجأة رأى فُخور على مسافة بعيدة شيئا لم يستطع تبينه . لقد كان كشعاع ضوء ذهبي يلمع على فترات متماثلة وينطفئ مرة أخرى ، يلمع وينطفئ مرة أخرى . وبدا شعاع الضوء هذا موجّه إليه هو ، فُخور ، بالضبط .

واقترِب بأسرع ما يستطيع من المكان ، وعندما حام أخيرا فوقه ، وجب عليه أن يتأكد أن علامة الوميض هذه تأتي من أعماق الماء ، وربما كذلك من قاع البحر .

إن حيوانات تين الحظ - وقد قيل ذلك فيما سبق - مخلوقات من الهواء والنار . وعنصر البلبل ليس فقط غريبا بالنسبة لها ، بل إنه خطير جدا كذلك . فمن الممكن أن ينطفئوا بالتمام تقريبا كشعلة من النار - هذا إذا لم يخنقوا قبلها ، لأنهم يتنفسون بلا انقطاع هواء بكل جسدهم عن طريق قشورهم المائة ألف في عددها وكالصدف في لونها . وهم يتغذون في نفس الوقت من الهواء والحرارة ، ولا يلزمهم غذاء آخر ، ولكنهم بدون هواء وحرارة لا يستطيعون الحياة إلا لوقت قصير جدا .

ولم يعرف فُخور ماذا عليه أن يفعل ؟ ولم يكن يعرف حتى ما هو هذا اللمعان الغريب هناك إلى أسفل في أعماق البحر ؟ وعمّا إذا كان له علاقة بأتريو على

الإطلاق . ولكنه لم يفكر طويلا . فانطلق عاليا في الهواء ثم استدار برأسه إلى أسفل ، ووضع مخالبه ملاصقة لجسده الذى جعله متصلبا ومستقيما كالعصاه ، ثم هوى بنفسه إلى العمق . وغطس في البحر بارتظام هائل جعل الماء يتناثر بشكل نافورة عملاقة . وكاد أن يفقد الوعي من الاصطدام في بادئ الأمر ، ولكنه أجبر نفسه بعد ذلك على فتح عينيه الحمراء بلون الياقوت . وحينئذ رأى اللمعان قريبا أمامه ، على بعد عدة أطوال من جسده فقط في العمق . وانساب الماء من حول جسده وبدأ يكوّن فقاعات هواء لؤلؤية كما في وعاء قبل أن يبدأ في الغليان . وفي نفس الوقت أحس كيف فقد حرارته وازداد ضعفه باستمرار . وبآخر القوى المتبقية لديه أرغم نفسه على الغوص أكثر عمقا - وحينئذ رأى منبع الضوء قريبا جدا - لقد كان أورين ، البريق ! ولحسن الحظ كان الحجاب قد ظل عالقا بسلسلته على فرع من الشعب المرجانية الذى كان يبرز من جدار وادٍ صخرى عميق - وإلا لكانت الجوهرة قد غطست إلى عمق عديم القرار .

ومد فخور مخلبه إليه ، وخلّصه ولفّ السلسلة حول رقبتة لكيلا يفقده - لأنه أحس أنه سيفقد الوعي عما قريب .

وعندما عاد إلى رشده ، كاد لا يستطيع معرفة المكان في بادئ الأمر ، لأنه لدهشته البالغة كان يطير حينئذ فوق البحر مرة ثانية عبر الأجواء . وكان يطير بسرعة كبيرة في اتجاه محدد تماما ، أسرع بكثير مما تسمح به قواه المنهكة . وحاول أن يطير أبطأ قليلا ، ولكن كان عليه أن يلاحظ أنّ جسده لم يعد يطيعه . إن إرادة أخرى أقوى بكثير جدا قد تملكّت من جسده وكانت توجهه الآن . وهذه الإرادة نبعت من أورين الذى كان يحمله بالسلسلة حول رقبتة .

وكان النهار قد مال وأقبل المساء ، عندما شاهد فخور أخيرا شاطئ بحر من بعيد . لم يكن يرى كثيرا من الأرض خلفه ، ويبدو أنها كانت تقع داخل الضباب . ولكنه عندما اقترب أكثر ، اكتشف أنّ معظم الأرض قد ابتعله ذلك العدم الذى كان يؤلم العيون لأنه كان يعطى شعورا بالعمى

ولو كان في استطاعة فخور أن يقرر بإرادته الخاصة ، لربما كان قد عاد من هنا

ولكن القوة الغامضة للجوهرة أجبرته على مواصلة الطيران إلى الأمام . وسرعان ما عرف لماذا ، لأنه اكتشف وسط هذا العدم اللانهائي فجأة جزيرة صغيرة لا تزال صامدة ، جزيرة تتكون من منازل ذات أسقف هرمية مدببة وأبراج مائلة . وانتاب فُخور إحساس بمن سيعثر عليه هناك ، والآن لم تعد الإرادة القوية فقط التي كانت تنبع من الحجاب وتؤثر فيه ، ولكنها أيضا إرادته الخاصة التي جعلته يطير متجها إلى هذا الهدف .

في الفناء الخلفي عديم الضوء ، الذى كان يرقد فيه أتريو إلى جوار الذئب المسوخ الميت ، كان الظلام قد عمّ تقريبا . وكان الغسق المعتم الذى يتقاطر إلى أسفل إلى البئر الضيق العميق المتكون من الفراغ بين البيوت ، يكاد لا يكفى ليميز بين الجسد الفاتح اللون للصبى والفروة السوداء للوحش . وكلما ازداد الظلام ازداد ظهورهما كما لو كانا شيئا واحدا .

وكان أتريو قد كف منذ وقت طويل عن جميع المحاولات لتحرير نفسه من منجلة الحديد الصلب لفك الذئب . وكان فى حالة تشبه فقدان الوعي ، حيث رأى مرة أخرى الجاموس الأرجوانى أمامه فى بحر الأعشاب ، والذى لم يصرعه . وأحيانا كان ينادى على الأطفال الآخرين ، رفقاء الصيد ، الذين يجتمل أن يكونوا الآن جميعا صيادين بالمعنى الصحيح ولكن لأحد كان يرد عليه . لاشيء غير الجاموس العملاق الساكن كان يقف وينظر إليه . ونادى أتريو على أرتاكس ، حصانه الصغير . ولكنه لم يأت ، وكذلك لم يسمع صهيله الحاد فى أى مكان . ونادى على الامبراطورة الطفولية ، ولكن بلا جدوى . ولم يستطع أن يشرح لها شيئا . إنه لم يصبح صيادا ، ولم يعد رسولا ، لقد كان لأحد . واستسلم أتريو .

ولكنه شعر بعد ذلك بشيء آخر : بالعدم . لابد وأنه كان الآن قريبا جدا وعاد أتريو يشعر بقوة الجذب المفزعة هذه التى كانت تعطى إحساسا بالدوار . واعتدل وجذب رجله وهو يتأوه . ولكن الأسنان لم تتركه .

وفى هذه الحالة كان حظه السعيد . لأنه لو لم توقعه أسنان جمورك لكان فُخور قد

أني بعد فوات الأوان بالرغم من كل شيء .

ولكن هكذا سمع أتريو فجأة الصوت البرونزي لتنين الحظ فوقه في السماء .
« أتريو هل أنت هنا ؟ أتريو ! »

فصاح أتريو : « فخور ! » ثم وضع كلتا يديه كالمخروط أمام فمه وصرخ إلى أعلى :

« أنا هنا . فُخور ! فُخور ! ساعدني ! أنا هنا ! » واستمر في إعادة صراخه هذا . ثم رأى جسد فخور الأبيض اللولبي وهو يسرى كالبرق الحى عبر القطعة الصغيرة المتلاشية من السماء ، في بادئ الأمر بعيدا جدا ، عاليا جدا إلى فوق ، ثم مرة أخرى أكثر اقترابا . وصرخ أتريو ، وصرخ ، ورد تنين الحظ بصوته الجرسى . وأخيرا رصد ذلك الذى فوق هذا الذى بأسفل هناك ، صغيرا كجعران مسكين في جُحر مظلم

وحاول فُخور الهبوط ولكن الفناء الخلفى كان ضيقا ، وكان الوقت ليلا تقريبا ، وحطم التنين أثناء هبوطه أحد اسقف المنازل الهرميّة المدببة . وهوت الأعمدة الخشبية للسقف محدثة دويا كالرعد . وأحس فُخور بألم قاطع . فقد شُجَّ جسده بُجرح شديد عند الحافة العليا الحادة للسقف . وأصبح هبوطا على غير ما اعتاد من هبوط رشيق ، وسقط إلى أسفل في الفناء مرتطبا بشدة إلى جوار أتريو وجمورك الميت فوق الأرض المبللة القذرة .

ونفض نفسه وعطس مثل كلب يخرج من الماء وقال : « أخيرا ! أنت اذن قابع هنا ! هاأنا قد أتيت في الوقت المناسب بالكاد . »

ولم يقل أتريو شيئا . ولفّ ذراعيه حول رقبة فُخور وأخفى وجهه في عرفه الفضى الأبيض .

وطلب إليه فُخور قائلا : « هيا . إجلس فوق ظهري ! ليس لدينا وقت نضيعه . » وهز أتريو رأسه فقط . وعندئذ فقط رأى فُخور أن رجل أتريو داخلته في حلق الذئب الممسوخ . فقال وهو يدير كريتا عينيه الحمرأوين كالياقوت : « سننجز هذا حالا ، لا تشغل بالك ! » وقبض بكلا مخلبيه وحاول فتح فك أسنان جمورك

ولكن الأسنان لم تتزحزح ملليمترا واحدا عن بعضها

ولهت فخور ونفخ من الإجهاد ، ولكن هذا لم يُفد . ومن المؤكد أنه لم يكن سينجح في تخليص صديقه الصغير لو لم يسعفه الحظ السعيد . ولكن حيوانات تنين الحظ لديها حظ سعيد ومعها أيضا هؤلاء الذين يحسنون إليهم .

فعندما توقف فُخور منهكا وانحنى فوق رأس جمورك لكي يرى في الظلام بشكل أفضل ما يمكن عمله ، حدث أن حط حجاب الامبراطورة الطفولية الذى كان عالقا بالسلسلة حول رقبة فُخور ، على جبهة الذئب المسوخ الميت . وفي نفس اللحظة انفتح فك الأسنان وترك رجل أتريو .

وصاح فُخور : « مرحى ! هل رأيت هذا ؟ »

لم يجب أتريو .

وسأل فُخور : « ماذا حدث ؟ أين أنت يا أتريو ؟ »

وتخبط في الظلام باحثا عن صديقه . ولكنه لم يعد موجودا هناك . وبينما هو يحاول أن يخرق ظلام الليل بعينه المتوهجتين الحسراوين ، بدأ هو نفسه يشعر بما انتزع أتريو بعيدا عنه بمجرد أن أصبح حرا : إنه العدم الذى كان يزداد اقترابه باستمرار . ولكن أورين كان يحميه من قوة الجذب .

ودافع أتريو عن نفسه بلا جدوى . لقد كان أقوى من إرادته الخاصة الصغيرة . وضرب حواليه وتصارع ورفس برجليه ، ولكن أعضائه لم تطعه ، بل انصاعت لذلك الجذب الذى لا يقاوم . ولم يعد يفصله عن الدمار النهائى سوى خطوات قليلة .

وفي هذه اللحظة سرى فُخور كبرق أبيض متحرك فوقه وأمسكه من خصلة شعره الطويلة ذات اللون الأزرق بسواد ، وانتزعه إلى أعلى وارتفع به إلى السماء فى سواد الليل .

ودقت ساعة البرج التاسعة

ولم يستطع واحد منها ، لا فُخور ولا أترىو ، أن يقول فيما بعد كم من الوقت استغرق هذا الطيران عبر الظلام الدامس ، وعمّا إذا كان ليلة واحدة فقط . ربما توقف أيضاً الزمان كله بالنسبة لهما ، وعلقا بلا حراك في الظلام اللانهائى . ولم تكن هذه هى أطول ليلة عايشها أترىو من قبل ولكن أيضاً بالنسبة لفُخور الذى كان أكبر سناً بكثير جداً .

ولكن حتى أطول وأحلك ليلة ستنتضى في وقت ما . فعندما ظهر شفق الصباح الضعيف ، شاهد كلاهما برج العاج بعيداً في الأفق .

ربما من الضرورى جداً أن نتوقف هنا لحظة لكى نشرح خاصية من خواص الجغرافيا الفانتازية ، الأراضى والبحار ، الجبال ومجارى الأنهار لا تقع هناك ثابتة بنفس الطريقة في عالم البشر . ولذلك فمن المستحيل تماماً رسم خريطة لفانتازين مثلاً . ولا يمكن هناك أبداً معرفة مسبقة مؤكدة لأى بلد ستقع على حدود أى بلد آخر . وحتى الجهات الأصلية تتغير حسب المنطقة التى يتواجد بها المرء لحظتها . الصيف والشتاء والنهار والليل يتبعان في كل منطقة قوانين أخرى . فيمكن للمرء الخروج من صحراء متوهجة الشمس ، ويأتى مباشرة إلى جوارها إلى حقول ثلجية قطبية . وفي هذا العالم لا توجد مسافات ظاهرية يمكن قياسها ، ولذلك فإن كلمة « قريب » أو « بعيد » لها معنى مختلف . وكل هذه الأشياء ترتبط بالحالة النفسية وإرادة ذلك الشخص الذى يقطع طريقاً معيناً . ولأن فانتازين بلا حدود ، فيمكن أن يكون مركزها في كل مكان قريب أو بعيد بشكل متساوٍ . والأمري ترتبط ارتباطاً تاماً بذلك الذى يريد المجيء إلى المركز . والقلب الداخلى لمركز فانتازين هذا ، هو برج العاج .

ولدهشته وجد أترىو نفسه جالساً فوق ظهر تنين الحظ دون أن يستطيع أن يتذكر كيف وصل إلى هناك ؟ ولم يكن يعرف إلا أن فخور قد انتزعه إلى أعلى من خصلة شعره . وعندما جذب معطفه حوله ، الذى كان يهفهف خلفه ، وهو يرتعد من البرد ، لاحظ أنه فقد كل لونه وأصبح رمادياً . وكذلك الحال بالنسبة لجلده وشعره . وحسبند رأى في ضوء الصباح المتزايد أن الأمر لا يختلف أيضاً بالنسبة

لفخور . ولم يعد التنين يشبه إلا شريط ضباب رمادي ، وكاد أن يكون غير واقعي كذلك . لقد اقترب كلاهما من العدم أكثر من اللازم .

وسمع التنين وهو يقول بصوت منخفض : « سيدى الصغير أتريو ، هل جرحك يؤلمك جدا ؟ »

لا ، يا فخور ، لا أظن . لماذا تسأل ؟ »

فأجاب التنين : « لقد شعرت أنك ترتعش ، ماذا فى العالم يمكن أن يجعل أتريو يرتعش الآن ؟ »

وصمت أتريو برهة قبل أن يجيب قائلاً : « إننا سنصل عما قريب . وحينئذ لا بد أن أقول للإمبراطورة الطفولية أنه ليس هناك من إنقاذ . إن هذا هو أصعب ما وجب على عمله من أشياء »

فقال فخور بصوت أقل انخفاضاً : « أجل ، هذا حق » .

واستمر يطيران فى صمت ، فى اتجاه برج العاج دائماً .

وبدأ التنين بعد برهة يقول من جديد : « هل رأيتها من قبل يا أتريو ؟ »

— « من ؟ »

— « الإمبراطورة الطفولية — أو بالأحرى سيدة الأمان ذات العيون الذهبية . فعليك أن تخاطبها هكذا عندما تقف أمامها » .

— « لا ، إننى لم أرها أبداً » .

— « ولكننى رأيتها . منذ وقت طويل جدا . ولا بد أن جدك الأول كان فى ذلك الوقت طفلاً صغيراً . وأنا أيضاً كنت لا أزال نطاط سحاب صغير ليس فى رأسه شئ سوى السفاهة . فقد حاولت فى أحد الليالى إحضار القمر من السماء ، حيث كان ينير مستديراً وكبيراً بأعلى . وكما قلت ، لم يكن لدى أية فكرة . وعندما هويت بنفسى عائداً إلى الأرض خائباً فى آخر الأمر ، اقتربت جدا من برج العاج . وكان كشك زهرة المانوليا قد فتح باتساع بين أوراق زهرته ، ورأيت الإمبراطورة الطفولية جالسة فى وسطها . وألقت إلى بنظرة ، نظرة واحدة قصيرة فقط . ولكن — لا أعرف كيف أقول لك — ابتداء من هذه الليلة أصبحت شخصاً آخر » .

— « كيف يبدو منظرها؟ »

— « مثل فتاة صغيرة . ولكنها أكبر بكثير جدا من أكبر مخلوقات فانتازين سنأ .

وكان الأفضل أن أقول : « إنها بلا عمر » .

فقال أتريو : « ولكنها مريضة مرض الموت . أينبغي أن أعدّها نفسيا بحذر
لنهاية كل أمل ؟ » .

وهز فخور رأسه قائلا : « كلا ، إنها ستفهم كل محاولة لتخفيف الأمر . يجب
عليك أن تقول لها الحقيقة » .

وسأل أتريو : « حتى وإن ماتت بسببه؟ »

وقال فخور : « لا أظن أن الأمر سيأتي هكذا » .

ورد أتريو : « أنا أعرف أنك تنين حظ » .

وبعد ذلك استمررا يطيران مرة أخرى لفترة طويلة صامتين .

وأخيرا تحدثا مع بعضهما للمرة الثالثة . وكان أتريو هو الذى قطع الصمت هذه

المرة :

— « هناك شيء آخر أود أن أسألك عنه يا فخور » .

— « اسأل »

— « من هي ؟ »

— « ماذا تقصد بهذا؟ »

— « إن آورين له سلطة على جميع كائنات فانتازين ، سواء كانوا مخلوقات النور

أو الظلام . وله سلطة أيضا عليك وعلى . ولكن الإمبراطورة الطفولية لا تمارس أبدا

سلطتها . إنه كما لو لم تكن موجودة ، ولكنها موجودة في كل شيء . هل هي مثلنا؟ »

فقال فُخور : « لا ، إنها غير ما نحن عليه . إنها ليست من مخلوقات

فانتازين . إننا جميعا موجودين بوجودها . ولكنها من نوع آخر » .

وتردد أتريو في النطق بسؤاله : « هل هي إذن — هل هي شيء مثل طفل

البشر ؟ » .

فقال فخور : « كلا ، إنها غير ما عليه أولاد البشر » .

فقال أتريو مكررا : « إذن من تكون؟ »

ولم يجب فُخور إلا بعد برهة : « لا أحد في فانتازين يعرف ، لا أحد يستطيع أن يعرف . إنه أعمق سر لعالمنا . لقد سمعت مرة حكيمًا يقول إن من يستطيع أن يفهمها تماما ، سوف يمحو بذلك وجوده ذاته . ولست أدري ما كان يقصده . ولا أستطيع أن أقول لك المزيد » .

فقال أتريو : « والآن سوف يُمحي وجودها ووجودنا جميعا دون أن نكون قد فهمنا سرها » .

وصمت فُخور هذه المرة . ولكن كانت تتلاعب ابتسامة حول فمه الذي يشبه فم الأسد ، كما لو كان يريد أن يقول : « إن هذا لن يحدث » .

ولم يتحدثا ابتداء من ذلك الوقت .

وبعد ذلك بوقت قصير طارا فوق الطرف الخارجي « لحديقة التيه » ذلك السهل الذي يتكون من أحواض الزهور ، والشجيرات والطرق المتعرجة المحيطة ببرج العاج على شكل دائرة واسعة . ولفزعهم تحتم عليهم أن يكتشفوا أن العدم قد قام بفعله هنا أيضا .

صحيح أنها كانت مواضع صغيرة في بادئ الأمر تختلط « بحديقة التيه » ، ولكنها كانت في كل مكان . وكانت أحواض الزهور ذات الألوان البهيجة والأحراش اليبانة التي كانت بين تلك المواضع قد أصبحت رمادية اللون وبابسة ومدّت الأشجار الصغيرة الرقيقة أفرعا جرداء منحنية إلى أعلى تجاه التنين وفارسة كما لو كانت تريد أن تتوسل إليهم أن يساعدهم، والمروج التي كانت فيما سبق خضراء ومتعددة الألوان أصبحت الآن شاحبة ، وتصاعدت رائحة خفيفة من العفونة والتحلل إلى الشخصين القادمين . والألوان الوحيدة التي كانت لا تزال موجودة ، كانت ألوان نباتات عش الغراب عملاقة مرتفعة ، وتكوينات زهور تبدو سامة ومشوهة وألوان صارخة متعددة ، والتي تعطي انطباعا أكثر كما لو كانت نتاج الجنون والمجون . وكان القلب الأخير لحياة فانتازين ما يزال يدافع عن نفسه يائسا وخائرا ضد الدمار النهائي الذي يحاصره وينهشه من جميع الجهات .

وكان برج العاج في الوسط لا يزال يلمع بلون أبيض ساحر خلّاب ، طبيعي ، وبلا شائبة .

ولم يهبط فخور بأتريو على تلك الشرفة السفلى التي كانت معدة للرسل الذين يصلون طائرين . وشعر أنه لا هو ولا أتريو ستكون لديه القوة على صعود الشارع الرئيسي الطويل الحزوني من هناك ، والذي كان يؤدي إلى قمة البرج بأعلى . وبدا له أيضا أن الموقف كله يسمح تماما بتخطي جميع التعليمات ومسائل الإتيكيت . وقرر الهبوط هبوطا اضطراريا . وانطلق فوق المشربيات العاجية والجسور ، وتعاريج الدرابزين ووجد في آخر لحظة أعلى جزء من الشارع الرئيسي ، وهناك حيث كان ينتهي أمام المنطقة الفعلية للقصر ، هوى بنفسه وانزلت إلى أعلى الشارع بينما هو يدور حول نفسه عدة مرات ، وتوقف أخيرا بذيله إلى الأمام .

أتريو الذي كان ماسكا بكلا ذراعية برقبة فخور ، اعتدل ونظر حوله في جميع الجهات . لقد كان يتوقع نوعا من الاستقبال ، أو على الأقل مجموعة من حراس القصر يسألون من هو ، وماذا يريد هنا - ولكن لم يكن هناك أحد يُرى على البعد . وبدت المباني البيضاء الناصعة من حوله كما لو كانت خالية من الحياة .

وفجأة طرأ على ذهنه : « لقد فروا جميعا ! لقد تركوا الإمبراطورة الطفولية وحدها . أم أنها فعلا قد . . . »

فهمس فخور : « أتريو ، يجب أن تعيد إليها الجوهرة » .
وأسلت السلسلة الذهبية عن رقبتة فانزلت إلى الأرض .

وقفز أتريو من ظهر فُخور - ووقع . فلم يكن قد فكر في جرحه . ومد يده وهو راقد إلى البانتاكل ووضع حوله رقبتة . ثم انتصب بعد جهد بينما هو يرتكن على التنين .

وقال : « فُخور ، إلى أين يجب أن أذهب ؟ »

ولكن تنين الحظ لم يعد يعطى جوابا . ووقد هناك كالميت .

وانتهى الشارع الرئيسي عند سور دائري عال أبيض أمام بوابة كبيرة منحوتة نحنا رائعا وكانت ضلفتها مفتوحتين .

وسار أتريو وهو يعرج ناحيتها ، واستند على البوابة ، ووجد خلفها سلما خارجيا عريضا أبيض اللون لامعا ، وقد بدا له أنه يصل إلى السماء . وبدأ يصعد الدرجات . وأحيانا كان يتوقف لكي يستجمع قوى جديدة . وبقي أثر لقطرات دماء فوق السلم الأبيض .

ووصل أخيرا إلى أعلى ورأى أمامه طرقة طويلة . واستمر في سيره المترنح وهو يتماسك بالأعمدة . ثم أتى عبر فناء مليء بناפורات وألعاب مائية أخرى ، ولكنه لم يكن يستطيع تقريبا أن يفرق بين ما يراه . وكان يكافح متقدما للأمام كما لو كان في حلم . ووجد بوابة أخرى أصغر ، وبعدها كان عليه أن يتسلق سلما عاليا جدا ، ولكنه هذه المرة ضيقا ، وأتى إلى حديقة كان كل شيء فيها منحوتا من العاج : الأشجار والزهور والحيوانات ، ثم زحف على أربع فوق عدة جسور مقوسة بدون داربزين أدت إلى بوابة ثالثة وكانت أصغر الجميع ، واستمر يجذب نفسه وهو راقد على بطنه ، ثم رفع بصره ببطء ورأى مخروط جبل عاجي لامع كالمرآة ، وعلى قمته كشك زهرة المانوليا الأبيض البراق . ولم يكن هناك طريق يؤدي إليه ، ولا سلم .

وأخفض أتريو رأسه على ذراعيه .

لا أحد وصل هناك من قبل أو سيصل فيما بعد ، يستطيع أن يقول كيف يُقطع الجزء الأخير من الطريق . لا بد أن يمنح هبةً للمرء .

وفجأة وقف أتريو أمام البوابة المؤدية إلى الكشك . ودخل - ورأى نفسه بعدئذ وجها لوجه أمام سيدة الأمان ذات العيون الذهبية .

وكانت تجلس متكئة على وسائل كثيرة ، على حشية طرية مستديرة في وسط قبة الزهرة وهي تنظر إليه . وكانت تعطي انطبعا لا نهائيا في رفته وقيمته . واستطاع أتريو أن يرى مدى مرضها من شحوب وجهها الذي كاد يبدو شفافا . وعيناها ذات شكل اللوزتين كانتا بلون الذهب الداكن . ولم تظهر أي نوع من الهم أو القلق . وابتسمت وكان قوامها الصغير الرشيق ملفوفا في زداء حريري واسع أبيض مضيء لدرجة أن أوراق المانوليا نفسها بدت غامقة بالنسبة له . وكانت تبدو كفتاة صغيرة لا يوصف حسننها وعمرها عشر سنوات على الأكثر ، ولكن شعرها الطويل المشط

في نعومة والذي ينسدل على كتفيها وظهرها فوق حشية الجلوس ، كان أبيض اللون كالثلج .

وفزع باستيان .

ففي هذه اللحظة حدث له شيء لم يعايشه أبدا من قبل .

لقد كان يستطيع حتى الآن أن يتخيل بوضوح تام كل شيء حكى في قصة بلا نهاية . لقد حدثت بعض الأمور الغربية أثناء قراءة هذا الكتاب ، هذا أمر لا يمكن إنكاره ، ولكن من المؤكد كان يمكن تفسيرها . لقد تخيل على قدر المستطاع من الوضوح أتريو وهو يركب فوق تنين الحظ ، وحديقة التيه وبرج العاج . ولكن حتى هذه اللحظة لم تكن سوى مجرد تخيلاته الخاصة .

ولكنه عندما أتى إلى الموضوع الذي كان الحديث فيه عن الإمبراطورة الطفولية ، رأى وجهها أمامه لجزء من الثانية – ليس إلا لفترة ما يستغرقه وميض البرق . وهذا ليس فقط في أفكاره ، ولكن أيضا بعينه . أنه لم يكن تخيلا ، لقد كان باستيان متأكدا من ذلك تماما . لقد شاهد حتى تفاصيلاً لم تأت في الوصف مطلقا ، مثل حواجبها التي كانت تنحني مثل قوسين دقيقين كما لو كانا مرسومين بالحبر الصيني – أو أنه كان لها شحمتا أذنين ممطوطتين بشكل غريب – أو الميل الخاص لرأسها فوق رقبتها الرقيقة . وكان باستيان يعرف بالتأكيد أنه لم يرف في حياته من قبل شيئا أجمل من هذا الوجه .

وفي نفس اللحظة عرف أيضا ما اسمها : طفلة الأقمار . لم يكن هناك على الإطلاق أدنى شك أن هذا هو اسمها .

وظفلة الأقمار نظرت إليه – هو ، باستيان بلتازا بوكس . نظرت إليه بتعبير لم يعرف تفسيره . هل فوجئت هي أيضا ؟ هل كان بنظرها رجاء ؟ أم اشتياق ؟ أم – أجل ، ماذا إذن ؟

وحاول أن يستعيد في ذاكرته عيون طفلة الأقمار ، ولكنه لم يوفق بعد ذلك .

ولكنه كان يعرف شيئاً واحداً بالتأكيد : هذه النظرة قد أصابته من خلال عينيه هو ، ورقبته إلى أسفل في صميم قلبه إنه مازال يشعر الآن بالأثر المتوهج الذي خلفته في طريقها هذا . وشعر أن هذه النظرة موجودة الآن في قلبه وأنها تضيء مثل كنز مليء بالأسرار . وكان هذا يؤلمه بشكل غريب ورائع في نفس الوقت .

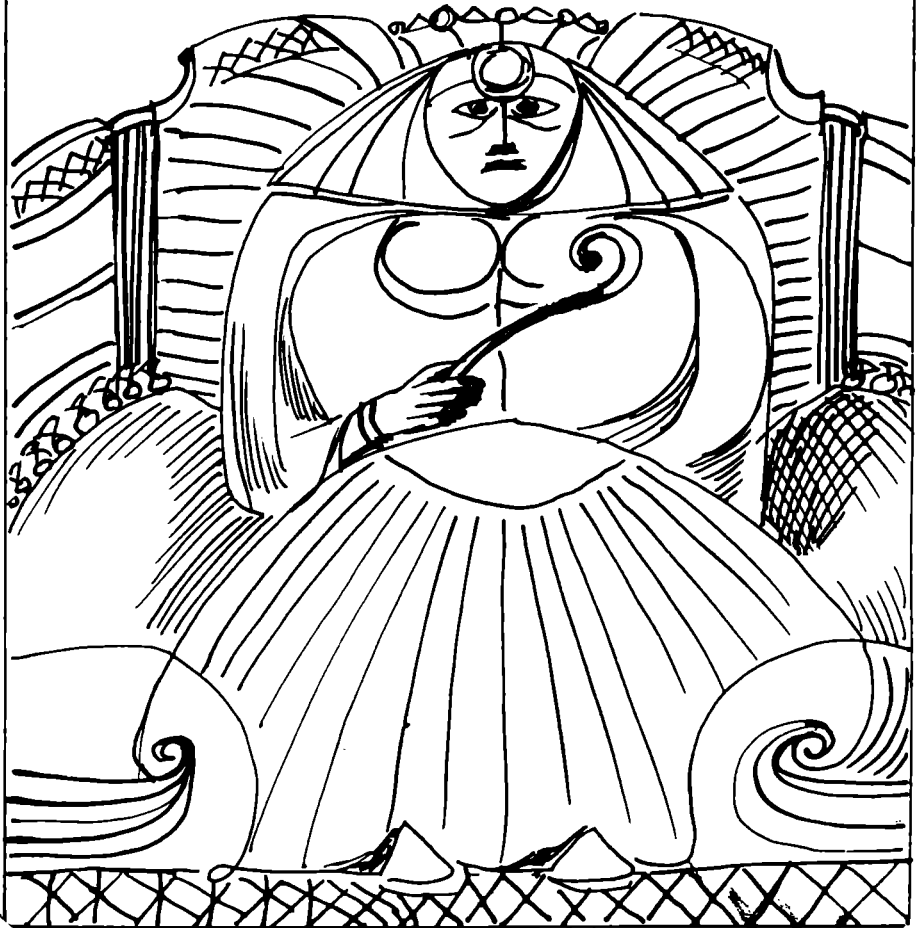
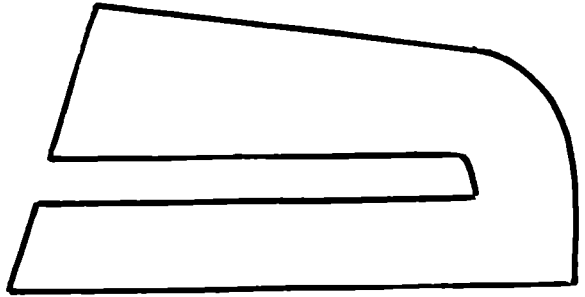
حتى وإن لم يكن باستيان يريد ، فإنه لم يكن يستطيع أن يدافع عن نفسه ضد ما حدث معه . ولكنه لم يكن يريد ، كلا . بالعكس ، فهو لم يكن ليعيد هذا الكنز مرة أخرى في مقابل أى شىء في العالم . ولم يكن يريد إلا شيئاً واحداً . وهو مواصلة القراءة لكي يكون مرة أخرى لدى طفلة الأقمار ، لكي يراها مرة أخرى .

ولم يكن يدري أنه بذلك سيقحم نفسه من الآن بشكل لا يمكن الرجوع عنه في أغرب وربما أيضاً أخطر مغامرة . ولكن حتى وإن كان يدري – فإنه لم يكن بالتأكيد سبباً بالنسبة له لكي يغلق الكتاب ويضعه جانبا ولا يعود إلى لمسه مرة أخرى أبداً .

وبحث بأصبع مرتعش الموضع الذي انتهى عنده وواصل القراءة . ودقت ساعة
البرج العاشرة

۱۱

الإمبراطورة الطفولية



زالت عن أتريو القدرة على الكلام وهو واقف يتطلع إلى الإمبراطورة الطفولية . ولم يعرف كيف يبدأ ولا كيف يتصرف . كثيرا ما حاول أن يتخيل هذه اللحظة ، وأعد الكلمات ، ولكن كل هذا نحى فجأة من رأسه .

وأخيرا ابتسمت له وقالت بصوت سُمع رقيقا كصوت طائر يفرد وهو نائم :

— « لقد عدت من مهمة البحث الكبرى ، يا أتريو . »

فقال أتريو وقد أطرق برأسه : « نعم »

وأكملت حديثها بعد فترة صمت صغيرة : « لقد أصبح معطفك الجميل رماديا ، وشعرك وجلدك رمادي كالحجر . ولكن كل شيء سيعود كما كان ثانية وأجمل . سوف ترى » وكانت حنجرة أتريو كما لو انغلقت . وهز رأسه فقط بشكل يكاد يكون غير ملحوظ . ثم سمع الصوت الرقيق يقول :

« أنت نفذت مهمتى . . . »

ولم يعرف أتريو اذا كانت هذه الكلمات قُصد بها سؤال . ولم يجرؤ على رفع عينيه لكي يقرأ ذلك من تعبيرات وجهها . ومد يده ببطء الى السلسلة بالحجاب الذهبى وأخذها من رقبته . وأمسك بها بيد مفرودة تجاه الامبراطورة الطفولية وهو لا يزال خافضا بصره باستمرار إلى الأرض . وحاول أن يركع على ركبتيه ، كما كان يفعل الرسل في الحكايات والأغانى التى سمعها فى مخيمات وطنه ، ولكن رجله المجروحة لم تسعفه وسقط أمام أقدام الامبراطورة الطفولية وظل راقدا بوجهه على الأرض .

وانحنى ورفعت آورين ، وبينما هي تجعل السلسلة تنزلق من بين أصابعها البيضاء ، قالت : « لقد قمت بعملك على نحو جيد . أنا راضية جدا عنك . »
واندفع أتريو قائلا فيما يشبه الغضب : « لقد كان كل شيء بلا جدوى . ليس هناك من نجاة . »

وعم صمت طويل . وخبأ أتريو وجهه في منحنى ذراعه وسرت رعشة خلال جسده . وخشى أن يسمع صرخة اليأس من شفيتها ، صوت ألم ، وربما تأنيبا مريرا أو حتى ثورة غضب ولم يكن هو نفسه يعرف ماذا كان يتوقعه — ولكن بالتأكيد التام لم يكن ذلك الذى سمعه حينئذ : لقد ضحكت بصوت منخفض وبسرور . واضطربت أفكار أتريو ، واعتقد للحظة ، أنها أصبحت مجنونة . ولكنها لم تكن ضحكة الجنون . ثم سمع صوتها يقول :
« ولكنك أحضرتة معك . »

ورفع أتريو رأسه .

— « من ؟ »

— « منقذنا . »

ونظر في عينيها متفحفا ، ولم يستطع أن يعثر على شيء فيها غير الصفاء والمرح . وابتسمت مرة ثانية .

— « لقد نفذت مهمتك . إننى أشكرك على كل ما صنعت وما عانيت . »

وهز رأسه . وقال متلعثما وهو يستعمل الآن لأول مرة النداء الرسمى الذى أوصاه به فُخور : « سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية ، أنا . . . كلا فعلا ، أنا لا أفهم ما تقصدين . »

فقالت : « هذا ملاحظ عليك ، ولكن سواء فهمت أم لم تفهم الآن ، فأنت قد أنجزت الأمر . وهذا هو المهم ، أليس كذلك ؟ »

وصمت أتريو ولم يخطر بباله ولا حتى سؤال . وحملق فى الإمبراطورة الطفولية فاغرا فمه . وواصلت كلامها قائلة : « لقد رأيتك ، وهو أيضا تطَّلَع إلى . »
وأراد أتريو أن يعرف فقال : « متى كان هذا ؟ »
— « حالا ، عندما دخلت . لقد أحضرتة معك . »

والتفت أتريو حوله بدون قصد : « أين هو إذن ؟ أنا لا أرى هنا أحدا غيري وغيرك . » فأجابت : « أوه ، هناك أشياء غير مرئية بالنسبة لك . ولكن يمكنك أن تصدقني . فهو ليس في عالمنا بعد . ولكن عوالمنا اقتربت من بعضها لدرجة أننا استطعنا رؤية بعضنا ، لأن الجدار الرقيق الذي فصلنا أصبح شفافا لفترة إستغراق شعاع البرق . وقريبا سيكون عندنا كاملاً ، وينادى علىّ باسمي الحديد الذي يستطيع هو فقط منحى إياه . عندئذ أصبح مُعافية وفانتازين معي . »

وأثناء كلمات الإمبراطورة الطفولية اعتدل أتريو بجهد . ورفع بصره إليها حيث كانت تجلس عالية قليلا على مخدعها ذى الحشايا ، وسُمع صوته مقنعا عندما سأل بعدئذ : « فأنت تعرفين إذن منذ وقت طويل الرسالة التي كنت سأجلبها إليك . وما أباحته لي مورلا العجوز الشمطاء ، في مستنقعات الحزن ، وما استطاع أن يصرح لي به صوت أيولالا الغامض في أرض التنبؤات الجنوبية – كل هذا كنت تعرفينه ؟ »

فقالت : « نعم . وكنت أعرفه قبل أن أرسلك في مهمة البحث الكبرى . »
وابتلع أتريو ريقه عدة مرات .

وأخيرا نطق قائلا : « لماذا أرسلتني إذن ؟ ماذا كنت تتوقعين مني ؟ »
فأجابت : « لا شيء ، يختلف عما فعلت . »

فكرر أتريو ببطء ، وقد تكونت تجعيدة غضب منحدره بين حاجبيه : « ما فعلت . . إذا كان الأمر على نحو ما تقولين ، فقد كان كل شيء غير ضروري . لقد كان لا لزوم له أن تبعثيني في مهمة البحث الكبرى . لقد سمعتهم يقولون أن قراراتك غالبا ما تكون غير مفهومة بالنسبة لفرد مثلنا . هذا جائز . ولكن يصعب علىّ بعد كل ما شاهدته ، أن أتقبل بصبر أنك كنت فقط تمزحين معي . »

وأصبحت عينا الإمبراطورة الطفولية جادة جدا . وقالت :

« إنني لم أسمح لنفسى بالمزاح معك ، يا أتريو . وأنا أعرف جيدا بماذا أنا مدانة لك . إن كل ما اضطرت أن تعانيه كان ضروريا . لقد بعثتك في مهمة البحث الكبرى – ليس من أجل الرسالة التي أردت أن تبلغها لي الآن ، ولكن لأنها كانت الوسيلة الوحيدة لاستدعاء منقذنا . لأنه اشترك في كل ما خابرتة وهو قد أتى معك

بالطريق البعيد . لقد سمعت صرخة فزعه عند الهوة السحيقة عندما كنت تتحدث مع إجرامول ، ولقد رأيت هيئته عندما وقفت أمام بوابة المرآة السحرية . ولقد دخلت في صورته وأخذتها معك ، ولذلك تبعك ، لأنه رأى نفسه بعينيك . وهو الآن يسمع كل كلمة نتكلمها سويا . وهو يعرف أننا نتحدث عنه وننتظره ونأمل فيه . وربما هو يفهم الآن أن كل العناء الضخم الذى أخذته على عاتقك ، يا أتريو ، كان يعنيه هو ، وبأن فانتازين كلها تنادى عليه .

وكان أتريو لا يزال ينظر أمامه عابسا ، ولكن تجعيدة الغضب تلاشت شيئا فشيئا من على جبينه .

وسأل بعد برهة قائلا : « كيف يمكنك معرفة كل هذا ؟ الصرخة عند الهوة السحيقة والصورة فى المرآة السحرية ، - أم أن كل شىء كنت قد حددته من قبل أيضا ؟ »

ورفعت الامبراطورة الطفولية أورين عاليا ، وأجابت بينما هى تضعه حول رقبتها : « ألم تكن تحمل البريق دائما ؟ ألم تكن تعرف أنى دائما معك عن هذا الطريق ؟ » فرد أتريو : « ليس دائما ، فلقد فقدته . »

فقالت : « نعم . لقد كنت حينئذ وحدك فعلا . احك لى ماذا حدث فى هذا الوقت ! » وأخبر أتريو بما شاهده .

فقالت الإمبراطورة الطفولية : « الآن عرفت لماذا أصبحت رمادى اللون . لقد اقتربت من العدم أكثر من اللازم . »

وقال أتريو وهو يريد المعرفة : « ولكن هل هو حقيقى ما قاله جمورك ، الذئب المسوخ ، حول مخلوقات فانتازين المبادء ، وأنها تصبح أكاذيب فى عالم أولاد البشر ؟ » فردت الإمبراطورة الطفولية وقد اغمق لون عينيها الذهبيتين : « نعم ، هذا حقيقى ، إن جميع الأكاذيب كانت يوما ما مخلوقات فانتازين . إنها من نفس المادة - ولكنها أصبحت مشوهة ، وفقدت كيانها الحقيقى . ولكن ما قاله لك جمورك كان نصف الحقيقة فقط ، مثلما لا يتتظر شىء آخر من نصف كائن . هناك طريقان لتخطى الحدود بين فانتازين وعالم البشر ، طريق صحيح وطريق خطأ . فإذا ما جذبت كائنات فانتازين إلى هالك بالقوة بهذا الشكل المفزع ، فإن هذا هو الطريق

الخطأ . ولكن عندما يأتى أولاد البشر إلى عالمنا ، فإن هذا هو الطريق الصحيح ،
 وجميع من كانوا عندنا ، عايشوا شيئا لا يمكنهم معاشته إلا هنا ، وهو الذى جعلهم
 يعودون إلى عالمهم متغيرين . لقد أصبحوا مبصرين لأنهم رأوكم على هيتكم
 الحقيقية . ولذلك استطاعوا بعدئذ أن يروا عالمهم الخاص وأبناء جنسهم أيضا بعيون
 أخرى . فحيثما كانوا لا يجدون سوى أشياء عادية ، اكتشفوا فجأة عجائب
 وأسراراً . ولذلك كانوا يجنون أن يأتوا إلينا فى فانتازين . وكلما ازداد عالمنا بذلك ثراء
 وازدهارا ، قلت الأكاديب فى عالمهم ، وأصبح كذلك أكثر كمالا . وهكذا ، فكيفما
 يدمر كلا عالمينا بعضهما الآخر ، يمكنها أيضا أن يجعلها بعضهما الآخر أصحاء .»

وفكر أتريو برهة ثم سأل قائلا :

« كيف بدأ الأمر؟ »

فأجابت الإمبراطورة الطفولية : « إن الشقاء الذى أتى إلى كلا العالمين له
 كذلك أصل مزدوج . والآن كل شيء معكوس إلى ضده . فإن ما يمكن أن يجعل
 مبصرا ، يصيب بالعمى ، وكل ما يمكن أن يخلق جديدا يصبح دمارا ، والخلاص
 لدى أولاد البشر واحد ، واحد فقط يجب أن يأتى ويمنحنى اسما جديدا . وسوف
 يأتى .» وصمت أتريو .

وسألت الإمبراطورة الطفولية : « أفهمت الآن يا أتريو ، لماذا تحتم على أن
 أكلفك بهذا الشيء الكثير؟ فقط عن طريق قصة طويلة مليئة بالمغامرات والمعجزات
 والمخاطر كان يمكنك أن تقود منقذنا إلى . وهذه كانت قصتك .»

وجلس أتريو غارقا فى تفكير عميق . وأخيرا هز رأسه وقال :

« لقد فهمت الآن ، يا سيدة الأمان ذات العيون الذهبية ، إننى أشكرك على

اختيارك لى . اغفر لى غضبى .»

فردت بحنان : « لم يكن بإمكانك أن تعرف كل هذا ، وهذا كان ضروريا

أيضا .»

وهز أتريو رأسه مرة أخرى . وبعد صمت قليل قال : « ولكننى متعب جدا .»

فردت قائلة : « لقد فعلت ما فيه الكفاية . أتحب أن تستريح؟ »

— « ليس بعد . أولا أريد أن أرى النهاية الحسنة لقصتى . وإذا كان الأمر مثلما

تقولين ، وإذا كنتُ قد نفذتُ مهمتي - فلماذا لا يزال المنقذ غير موجود هنا ؟ ماذا ينتظر؟»

فقالَت الإمبراطورة الطفولية بصوت منخفض : « أجل ، ماذا ينتظر؟»

وشعر باستيان كيف تبللت يدها من الاضطراب .
وقال : « لا أستطيع . أنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعله كذلك ربما يكون الاسم الذى خطر ببالي ليس هو الصحيح على الاطلاق . »

وبدأ أتربو الحديث مرة أخرى قائلاً : « أيجوز لى أن أسألك شيئاً؟ »
وهزت رأسها بالإيجاب مبتسمة .

- « لماذا لا يمكن أن تصبحى معافية إلا إذا حصلت على اسم جديد؟ »
فقالَت : « الاسم الصحيح فقط هو الذى يمنح الكائنات والأشياء حقيقتها .
والإسم الخطأ يجعل كل شىء غير واقعى . وهذا هو ما تفعله الأكذوبة . »
- « ربما لا يعرف المنقذ بعد الاسم الصحيح الذى سيمنحه لك . »
فردت قائلة : « بلى ، إنه يعرفه . »
وجلس الاثنان صامتين مرة أخرى .

فقال باستيان : « نعم ، إني أعرفه ، لقد عرفته على الفور عندما رأيتك .
ولكننى لا أعرف ما يجب أن أفعله . »

ونظر أتربو الى أعلى وقال : « ربما يود أن يحضر ، وهو فقط لا يعرف كيف يفعل ذلك . »

فردت الإمبراطورة الطفولية : « إنه ليس فى حاجة إلى فعل شىء سوى أن ينادينى باسمى الجديد الذى يعرفه هو فقط . سيكون هذا كافياً . »

وبدأ قلب باستيان ينبض بشدة . هل يجرب فقط ؟ وإذا لم يفلح هذا ؟ وإذا كان مخطئاً ؟ وإذا كان الاثنان لا يتحدثان عنه إطلاقاً ، ولكن عن منقذ آخر تماماً ؟ من

أين يريها. أن يعرف إذن إذا كانا يقصد انه هو فعلا ؟

وأخيرا بدأ أتريو من جديد : « إننى أتساءل إذا كان ممكنا أنه ما زال لا يدرك ، أنه هو المقصود وليس شخصا آخر ؟ »
فقالت الإمبراطورة الطفولية : « كلا ، لا يمكنه أن يكون بهذه البلاهة بعد كل هذه العلامات التى تلقاها . »

فقال باستيان : « سوف أجرب » ولكنه لم يأت بالكلمة على شفثيه .
ماذا إذا ما فلتحت فعلا ؟ فسوف يأتى بشكل ما إلى فانتازين . ولكن كيف ؟ ربما وجب عليه أن يتقبل حدوث تغيير فى نفسه . وماذا سيصير إليه مصيره ؟ ربما سيكون الأمر موجعا أو أنه سيغمى عليه ؟ وهل فعلا يريد الذهاب إلى فانتازين بوجه عام ؟ إنه يريد الذهاب الى أتريو وإلى الامبراطورة الطفولية ولكنه لا يريد أبدا الذهاب إلى كل تلك الوحوش التى كانت تعج بهم هناك .

فقال أتريو : « ربما كانت تنقصه الشجاعة ؟ »
فتساءلت الإمبراطورة الطفولية : « شجاعة ؟ هل نطق اسمى يتطلب شجاعة ؟ »

فقال أتريو : « إذن فانى أعرف سببا واحداً فقط يمكن أن يكون هو المانع له . »
— « ما هو ؟ »

وتردد أتريو قبل أن ينطق به : « إنه ببساطة لا يريد ذلك . انه لا يهيمه أمرك ولا أمر فانتازين . إننا لسنا ذات أهمية عنده . »
ونظرت اليه الامبراطورة الطفولية بدهشة .

فصاح باستيان : « لا ، لا ، لا يصح أن تظنوا ذلك ! ليس هذا هو السبب بالتأكيد ! أخ ، أرجوكم ، أرجوكم لا تفكروا هكذا عني ! ألا تسمعوننى ؟ الأمر ليس هكذا ، يا أتريو . »

فقالت الإمبراطورة الطفولية : « لقد وعدنى . فقد قرأت هذا فى عينيه . »

فصاح باستيان : « نعم ، هذا صحيح . وسوف آتى حالا أيضا ، ولكن يجب أن أفكر فى كل شىء مرة أخرى بتعمق . الأمر ليس بهذه السهولة . »

وأطرق أتريو برأسه مرة أخرى ، وانتظر الاثنان صامتين لوقت طويل مرة أخرى . ولكن المنفذ لم يظهر ، ولم تشر أصغر علامة أنه على الأقل يحاول أن يجعلهم يلاحظونه .

وتخيل باستيان كيف سيكون الأمر اذا ما وقف فجأة أمامهم — بكل بدانته ، ورجليه المقوستين إلى الخارج ووجهه الشاحب . لقد استطاع أن يرى بوضوح خيبة الأمل فى وجه الامبراطورة الطفولية عندما ستقول له : « ماذا تريد هنا ، يا أنت ؟ » وربما سيضحك أتريو أيضا .

وعند تخيله هذا اندفعت حمرة الخجل فى وجهه .

إنهم بالطبع ينتظرون بطلا من الأبطال ، أميرا أو ما شابه ذلك . لا يجوز أن يظهر نفسه لهم . لقد كان الأمر مستحيلا تماما . من الأفضل أن ينوى تحمل كل شىء — ولكن ليس هذا الأمر .

وعندما رفعت الإمبراطورة الطفولية نظرها أخيرا كان تعبير وجهها قد تغير . وكاد أتريو أن يفزع من هول وصرامة نظرتها ، وعرف كذلك أين رأى هذا التعبير من قبل : لدى آباء الهول !

وقالت : « ما زالت أمامى وسيلة ، ولكننى لا أحب أن استعملها . أتمنى ألا يجبرنى على ذلك . »

فسأل أتريو هامسا : « أية وسيلة ؟ »

— « سواء عرف أم لا — فهو ينتمى إلى قصة بلا نهاية . وهو الآن لا يستطيع ولا يجوز له أن ينسحب . لقد أعطانى وعدا أن يفى به . ولكننى وحدى لا أستطيع أن أجعله يفعل ذلك . »

فصاح أتريو : « مَنْ في كل فانتازين يستطيع شيئا أنت لا تستطيعينه ؟ »
فأجابت : « واحد فقط ، إذا أراد . إنه عجوز الجبل المتجول . »
ونظر أتريو للإمبراطورة الطفولية بمنتهى الدهشة .

وقال مكررا وهو يؤكد على كل كلمة : « عجوز الجبل المتجول ؟ أتريدين أن
تقولى إنه موجود ؟ »
— « أتشك في ذلك ؟ »

— « ان عجائز مخيماتنا يحكون عنه للأطفال الصغار جدا عندما لا يطيعون أو
يكونون سيئين . إنهم يقولون انه يدون في كتابه كل ما يفعله أو يتركه المرء ، وحتى ما
يفكر فيه أو يحس به ، وأنه يظل مسجلا إلى الأبد كقصة جميلة أو قبيحة حسب
الأمر . وعندما كنت لا أزال صغيرا ، كنت أصدق ذلك ، ولكنني فيما بعد فكرت أن
هذا ليس إلا أسطورة مُختلقة لإفزع الأطفال . »

فقالت مبتسمة : « من يدري ، ما هي أهمية الأساطير المختلقة ؟ »
فقال أتريو وهو يبغي المعرفة : « إذن أنت تعرفينه ، هل رأيته ؟ »
وهزت رأسها بالنفي : « إذا عثرتُ عليه ، فسوف يحدث لأول مرة أن
نتقابل . »

وواصل أتريو كلامه قائلا : « العجائز عندنا يحكون أيضا أنه لا يمكن معرفة أين
يتواجد جبل العجوز في الوقت والساعة ، وأنه يظهر دائما دون أن يتوقع ذلك أحد
تماما ، مرة هنا ، ومرة هناك ، وأنه لا يمكن مقابلته إلا بالصدفة أو بتصاريف
القدر . »

فردت الإمبراطورة الطفولية : « أجل ، لا يمكن البحث عن عجوز الجبل
المتجول . يستطيع المرء فقط العثور عليه . »

وسأل أتريو « حتى أنت ؟ »

فقالت : « حتى أنا . »

— « وإذا لم تعثرى عليه ؟ »

فردت بابتسامة غامضة : « إذا كان موجودا فسوف أعره عليه ، وإذا عثرت
عليه فسوف يكون موجودا . »

ولم يفهم أتريو الإجابة . وسأل مترددا :

— « هل هو — مثلك ؟ »

فأجابت : « إنه مثلى ، لانه عكسى فى كل شىء . »

وأدرك أتريو أنه بهذا الشكل لن يعلم شيئا منها . وإلى جانب ذلك فقد أفلقتة فكرة أخرى : فقال فيما يقرب الشدة :

« أنت مريضة مرض الموت ، يا سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية ، ولن تستطيعى وحدك أن تذهبى إلى بعيد . وعلى قدر ما أرى ، فقد تركك كل خدامك والمقربين إليك . فُخُور وأنا سوف نرافقك بسرور أينما تذهبى ، ولكن — بأمانة — لست أدرى إذا كانت قوى فُخُور ما زالت كافية . وقدمى — لقد رأيت بنفسك أنه لم يعد يحملنى . »

فردت قائلة : « شكراً يا أتريو ، شكرا على عرضك الشجاع والمخلص . ولكننى لا أنوى أخذكما معى . والمرء وحده سيعثر على عجوز الجبل المتجول . وكذلك لم يعد فُخُور هناك حيث تركته . إنه الآن فى مكان تُشفى فيه كل جروحه وتُجدد فيه كل قواه . وأنت أيضا يا أتريو ستكون قريبا فى ذلك المكان . »

وتلاعبت أصابعها بأورين .

— « أى مكان هذا ؟ »

— « لست فى حاجة الآن لمعرفة . سوف تصل إلى هناك وأنت نائم . وسوف يأتى اليوم الذى ستعرف أين كنت . »

وصاح أتريو وقد نسى من همه كل نوع من أنواع مراعاة التعبير : « ولكن كيف أستطيع النوم وأنا أعرف أنك ممكن أن تموت فى كل لحظة ! »

وضحكت الامبراطورة الطفولية مرة أخرى بصوت منخفض .

— « إننى لست وحيدة تماما كما تعتقد . لقد قلت لك أن هناك أشياء غير مرئية بالنسبة لك . إننى عندى السبع قوى من حولى ، والتى تخصنى ، كما تخصك ذاكرتك أو شجاعتك أو أفكارك . وأنت لا تستطيع أن تراها ، ولا تسمعها ، وبالرغم من ذلك فهى كلها عندى فى هذه اللحظة . ثلاثة منهم أنوى تركها لديك ولدى فخور

لكى ترعاكما . وأربعة سأخذها معى وسوف ترافقى . ولكن أنت يا أتريو تستطيع أن تنام هانء البال . وأثناء هذه الكلمات للامباطورية الطفولية نزل على أتريو فجأة كل التعب الذى حل به أثناء مهمة البحث الكبرى ، كستار داكن اللون . ولكنه لم يكن التعب الثقيل كالحجر الناتج عن الإرهاق ، ولكنه كان اشتياق هدوء وسلام إلى النوم . لقد كانت لديه الرغبة أن يسأل سيدة الامانى ذات العيون الذهبية عن الكثير ، ولكنه الآن شعر كما لو كانت بكلامها قد أوقفت جميع رغبات قلبه ، وتركت رغبة واحدة فقط متبقية مُلحة ، وهى الرغبة فى النوم . وغمضت عيناه فجأة ، وتسلسل إلى الظلام وهو جالس دون أن يهوى جانباً .

ودقت ساعة البرج الحادية عشر

وسمع أتريو أن الامباطورة الطفولية قد أصدرت أمراً بصوت منخفض ناعم كما لو كان يأتي من مسافة بعيدة ، ثم شعر بنفسه مرفوعاً إلى أعلى ومحمولاً بحذر بأيد قوية .

وعم الظلام والدفء من حوله لوقت طويل . وبعد ذلك بوقت طويل استيقظ مرة نصف يقظة عندما لمس بلبل للذيد شفثيه الجافتين المشققتين وسرى خلال حلقة . ورأى من حوله بغير وضوح شيئاً مثل مغارة كبيرة بدت جدرانها مصنوعة من الذهب فقط . ورأى تنين الحظ الأبيض راقداً إلى جواره . ثم رأى أو استنتج أكثر أن عين ماء تفور وسط المغارة وحول هذه العين رقد ثعبانان يعض أحدهما فى ذنب الآخر ، ثعبان فاتح اللون وواحد غامق اللون . . .

ثم مسحت يد غير مرئية فوق عينيه ، ومنحه ذلك إحساساً طيباً للغاية ، وغطس أتريو مرة أخرى فى سبات عميق خال من الأحلام .

وفى نفس الوقت غادرت الامباطورة الطفولية برج العاج . وكانت ترقد على وسائل حريرية لينة ومحاطة بها فى هودج من الزجاج يحمله أربعة من خدامها غير المرئيين ، لدرجة أنه بدا كما لو كان الهودج يتحرك فى الهواء بنفسه ببطء .

وتحركوا من خلال حديقة التيه ، أو بالأحرى ما كان متبقيا منها ، وكثيرا ما تحتم عليهم اتخاذ طرق لافة ، لأن كثيرا من الدروب كانت تنتهى إلى العدم .

وعندما وصلوا أخيرا إلى أبعد طرف من السهل ، وغادروا حديقة التيه ، توقف الحمالون غير المرثيين . وبدوا أنهم ينتظرون أمرا .

وانتصبت الإمبراطورة الطفولية فوق وسائدها وألقت نظرة إلى الوراء على برج العاج . وقالت بينما هى تنخفض عائدة الى وسائدها : « استمروا فى السير ! استمروا فى السير - الى أى مكان ! » وسرت دفعة من الهواء فى شعرها الأبيض كالثلج . وهفهم طويلا وثقيلا كالراية من خلف المحفة الزجاجية .

١٢
عجوز الجبل المتجول



سُمعت الانهيارات الجليدية وهي تسقط هادرة فوق حوائط الجبال المشققة وهاجت العواصف الثلجية بين الأبراج الصخرية لحواف قمم الجبال المغطاة بدروع من الجليد ، واختلطت ببعضها وهي تصفر في الكهوف والوديان ، ومرت مسرعة من جديد فوق المساحات الواسعة من التيارات الجليدية . ولم يكن هذا بحال من الأحوال طقسا غير عادى لهذه المنطقة ، لأن جبل القدر - هكذا كان اسمه - كان أكبر وأعلى الجبال في جميع فانتازين ، وأعظم قمة له كانت تصل فعلا إلى عنان السماء .

ولم يكن يجرؤ حتى أشجع متسلقى الجبال على المجيء إلى هذه المنطقة ذات الجليد الأبدى . أو بمعنى أدق : قد مضى وقت طويل جدا لا يمكن تخيله ، على النجاح في تسلقه ، لدرجة أنه لم يعد أحد يعرف به . لأن ذلك كان أحد القوانين غير المفهومة والتي كان يوجد منها الكثير في المملكة الفانتازية : إن جبل القدر لا يمكن أن يقهره أحد أبطال تسلق القمم إلا عندما يُنسى كليةً البطل السابق الذي استطاع ذلك ، ولم تعد هناك أيضا أية شواهد عنه منقوشة في الصخر أو الحديد . وهكذا فقد كان كل من قام بذلك هو الأول دائما .

ولم يكن في استطاعة أى كائن حى أن يتواجد هناك بأعلى فيما عدا بعض عفاريت الجليد العملاقة - إذا ما أردنا أن نحسب هؤلاء ضمن الكائنات الحية بوجه عام ، لأنهم يتحركون ببطء لا يمكن تخيله لدرجة أنهم يحتاجون لسنوات في خطوة واحدة ، ولقرون لتمشية صغيرة . وهكذا كان من الواضح أنهم لا يستطيعون التعامل إلا مع أمثالهم ولم تكن لديهم أدنى فكرة عن وجود العالم الفانتازى الباقي . وكانوا يعتبرون أنفسهم الكائنات الحية الوحيدة بالكون .

وقد ازدادت دهشتهم عندما حلقوا الآن إلى أسفل إلى تلك النقطة الضئيلة التي كانت تقترب من القمة باستمرار على طرق متعرجة ، وعلى نتوءات صخرية يكاد يكون السير عليها مستحيلا ، وعلى حوائط قائمة الزوايا لامعة الجليد ، وعبر حواف حادة كالسكين وعبر وديان وشقوق عميقة .

لقد كان الهودج الزجاجي الذي ترقد فيه الإمبراطورة الطفولية والذي كان يحمله أربع من قواها غير المرئيين . وكان لا يكاد يختلف عن المنطقة المحيطة ، لأن زجاج الهودج كان يشبه قطعة جليد صافية ، والرداء والشعر الأبيض للإمبراطورة الطفولية لم يكن من الممكن تفريقه تقريبا عن الثلج من حولها .

وكانت على الطريق حينئذ منذ وقت طويل ، لأيام وليال كثيرة كانت القوى الأربعة تحمل هودجها مواصلين السير دائما كما أمرتهم ، مواصلين السير دائما إلى أى مكان من خلال الأمطار ووهج الشمس ، وخلال الظلمات وضوء القمر . ولم تجعل هناك فرقا بين ما هو محتمل بالنسبة لها وبين ما هو غير محتمل ، مثلما كانت تعترف بكل شيء في مملكتها بالظلم والمنير ، بالجميل والقيح . وكانت مستعدة أن تتعرض لكل شيء لأن عجوز الجبل المتجول من الممكن أن يكون في كل مكان وفي اللامكان .

وبالرغم من ذلك لم يكن اختيار الطريق الذي سلكته الأربعة غير المرئيين ، اختيارا عفويا تماما . فالعدم الذي كان قد ابتلع حتى ذلك الوقت بلادا بأكملها لم يترك لهم مخرجا بشكل متزايد على الدوام إلا ممرا واحدا . وأحيانا كان جسرا أو كهفا أو بابا استطاعوا بالكاد أن ينزلجوا من خلاله . وأحيانا كانت مجرد أمواج بحيرة أو فرع أحد البحار حيث حملت القوى الهودج بالمريضة مرض الموت ، لأنه بالنسبة لهؤلاء الحمالين لم يكن هناك فرق بين اليابس والسائل .

وهكذا تسلقوا أخيرا إلى أعلى إلى عالم قمة جبل القدر الجليدي المتجمد ، واستمروا في تسلقهم دون توقف ودون كلل . وسوف يستمرون في حملها إلى أعلى ، طالما أن الإمبراطورة الطفولية لم تعطهم أمرا آخر . ولكنها كانت ترقد على وسائدها وأغلقت عينيها ، ولم تتحرك . هكذا كانت ترقد منذ وقت طويل . وآخر كلمة قالتها كانت «إلى أى مكان» تلك الكلمة التي أمرت بها عند وداعها للبرج العاجي

وتحرك الهودج الآن من خلال مجرى ضيق عميق بين الصخور ، شق بين حائطين صخريين يتباعداً عن بعضهما باتساع عرض الهودج بالكاد . وكانت الأرض مغطاة بثلج هشٍ يحتمل أن يكون سمكه متراً ، ولكن الحمالون غير المرثيين لم ينغرسوا فيه ولم يخلفوا أثراً حتى لقدم . وكان الظلام الشديد سائداً في قاع ذلك الشق الصخري ، لأن ضوء النهار لم يكن سوى شريط ضيق على الإرتفاع البعيد . وكان الطريق يمتد بلا انحدار إلى أعلى وكلما ارتفع الهودج ، اقترب شريط ضوء النهار . وفجأة ودون توقع ، تراجع الحوائط الصخرية إلى الجانب كلية ، وسمحت بالنظر إلى مساحة واسعة بيضاء لامعة . وكان هذا هو أعلى مكان . لأن جبل القدر لم يكن ينتهي بقمة مثل أغلب الجبال ، ولكن بذلك السهل العالى ، الذى كان فى اتساع أحد البلدان .

وفى وسط هذه المساحة ارتفع الآن بشكل مفاجئ جبل صغير ذو منظر غريب . لقد كان عالياً وضيقاً نوعاً ، يشبه برج العاج ، ولكنه ذو لون أزرق منير . وكان يتكون من كثير من التواءات ذات الأشكال الغريبة التى ترتفع إلى السماء كأقماع جليدية عملاقة مقلوبة . وفى منتصف ارتفاع هذا الجبل تقريبا كانت هناك بيضة فى حجم البيت فوق ثلاثة من هذه التواءات المدببة .

وفى منتصف الدائرة المحيطة بهذه البيضة ارتفعت من الخلف أقماع زرقاء أكبر حجماً مثل مزامير أورك هائل إلى أعلى ، وكونت القمة الفعلية . وكانت للبيضة فتحة مستديرة بدت كالباب أو النافذة . وفى هذه الفتحة ظهر الآن وجه ينظر ناحية الهودج .

وفتحت الإمبراطورة الطفولية عينيها وبادلتها النظرة كما لو كانت قد أحست بها .

وقالت بصوت منخفض : « قف ! »

وظلت القوى المختفية واقفه .

وانتصبت الإمبراطورة الطفولية .

واستكملت كلامها قائلة : « إنه هو . يجب أن أسير الجزء الأخير من الطريق

إليه وحدى انتظرونى هنا مهما حدث . »

واختفى الوجه من الفتحة المستديرة للجليد . ونزلت الإمبراطورة الطفولية من الهودج واتخذت طريقها عبر المساحة الثلجية الواسعة . لقد كان طريقا مجهدا ، لأنها كانت حافية القدمين . وكان للثلج قشرة جامدة . ومع كل خطوة كانت القشرة الثلجية تنكسر ، والطبقة الثلجية الصلبة كالزجاج كانت تقطع في أقدامها الرقيقة ، والرياح الباردة كالصقيع تجذب شعرها ورداءها .

وأخيرا وصلت إلى الجبل الأزرق ووقفت أمام القمع الأملس كالزجاج ومن الفتحة المستديرة المظلمة للجليد الضخم انزلق سلم طويل ، أطول بكثير جدا من أن يحتمل أن يكون له مكان في البيضة على الإطلاق . وأخيرا وصل إلى أسفل حتى سفح الجبل الأزرق وعندما أمسكته الإمبراطورة الطفولية رأته أنه يتركب كلية من حروف مرصوفة فوق بعضها وأن كل درجة كانت سطرا . وبدأت الإمبراطورة الطفولية الصعود وبينما هي تصعد درجة درجة كانت تقرأ في نفس الوقت الكلمات التالية :

إلى أدراجك انصرفي وعودي

فلا زمان ولا مكان

يسمح لك أن تلقى وجودي

دعي هذا ، لا بد أن أسد طريقتي

عليك أنت فقط بالذات والتخصيص

ارجعي واسمعي نصحي وإرشادي

أنا العجوز عندما تلقاني

سوف يحدث ما ليس في الإمكان

البداية تبحث عن النهاية

فعودي وارجمي لا تصعدي إلى الأعلى

وإلا فإنك لن تنالي

إلا بلبلة ليس لها من مثال

وتوقفت لكي تستجمع قوى جديدة ونظرت إلى أعلى . فما زال يرتفع إلى أعلى جدا . وحتى الآن لم تكن بعد قد قطعت حتى النصف فقالت بصوت مرتفع :

«يا عجوز الجبل المتجول ، إذا كنت لا تريد أن نتقابل ، فما كان من الضروري أن تكتب لي هذا السلم إن حظرك الحضور هو الذى يحضرنى إليك .» وواصلت الصعود :

أنا أصون ما أبدعته
كمؤرخ وما أنت عليه
وكل ما كان حياة يوماً من الأيام
سيصبح حرفاً ميتاً على الدوام
فهل تريدان إلى الصعود الآن
سوف تحدث كارثة الزمان
وها هنا ينتهى ما بدأته
يا طفلة القياصرة لن تصبى أبداً عجوز
مثلك لم أكن أبداً شاباً ، أنا العجوز
السكون سأدخله على ما حركته
فممنوع عليها الحياة
أن تشاهد نفسها فى الأموات

واضطرت مرة أخرى إلى التوقف لكى تستعيد أنفاسها . وقد كانت الآن عالية جداً ، وتأرجح السلم فى العاصفة الثلجية كفرع شجرة . وتشبثت الإمبراطورة الطفولية فى درجات السلم الباردة جداً المكونة من الحروف . وصعدت آخر جزء من السلم إلى أعلى :

إذا أنتِ للتحذير لم تسمعى
ما يقوله السلم بفصاحة
وتكونى للفعلة مستعدة
وهى فى الزمان والمكان غير مباحة
فلا أستطيع إيقافك
لدى العجوز مرحباً بك .

وعندما خلّفت الإمبراطورة الطفولية هذه الدرجات الأخيرة من ورائها ،
أطلقت تهيدة خافتة ونظرت إلى أسفلها . وكان رداءها الأبيض الواسع قد تمزق ،
فقد ظل عالقا بكل الخطوط العرضية ، والخطاطيف الصغيرة والأشواك بسلم
الحروف . ولم يكن جديدا عليها ألا تميل إليها الحروف فقد كان ذلك يتأصل في
شعور متبادل .

ورأت أمامها البيضة والفتحة المستديرة ، التي ينتهي فيها السلم . وصعدت من
خلالها ، وانقفلت الفتحة فورا من ورائها . ووقفت في الظلام دون أن تتحرك
وانتظرت ما سيحدث .

ولكن لم يحدث شيء في بادئ الأمر لوقت طويل .
وأخيراً قالت بصوت خافت في الظلام : « ها أنا هنا . » ورجع صوتها كما لو كانت
في قاعة كبيرة خالية - أم هل كان صوت آخر أعمق بكثير ، ذلك الذي أجابها بنفس
الكلمات ؟

واستطاعت شيئاً فشيئاً أن ترى في الظلام شعاع ضوء ضعيف مائل للحمرة .
وكان يشع من كتاب كان عالقاً في الهواء وهو مفتوح وسط الغرفة البيضاء . وكان
مائلاً حيث إنها استطاعت أن ترى الغلاف . وقد كان مغلقاً بحريز ذي لون
نحاسي ، ومثل الجوهرة التي كانت تحملها الإمبراطورة الطفولية حول رقبتها ، كان
يرى على الكتاب أيضاً ثعبانان يعضان بعضهما في ذيل الآخر ويكوّنان شكلاً
بيضاوياً ، وفي وسط هذا الشكل البيضاوي كان العنوان هو :

قِصَّةٌ بلا نهاية

واضطربت أفكار باسيان . فقد كان ذلك هو الكتاب الذي يقرأ فيه حالياً !
ونظر إليه مرة أخرى . أجل ، بلا شك ، لقد كان هو الكتاب الذي بيده والذي كان
يدور حوله الحديث . ولكن كيف يمكن لهذا الكتاب أن يظهر في داخل نفسه ؟

وكانت الإمبراطورة الطفولية قد تقدمت مقتربة فرأت على الجانب الآخر من الكتاب المعلق في الهواء وجه رجل يشع عليه ضوء مائل للزرقة من أسفل من الصفحات المفتوحة . وهذا الاشعاع كان يخرج من الكتابة في الكتاب والتي كان لونها أخضر بزرقة(*) .

وكان وجه الرجل يبدو كلكاء شجرة عجوز جداً ، فقد كانت التجاعيد غائرة فيه . وكانت لحينه بيضاء وطويلة وكانت عيناه عميقة جداً في تجاويرف داكنة لدرجة أنه لم يكن من الممكن رؤيتها . وكان يرتدى عباءة راهب زرقاء مزودة بقلنسوة على الرأس ، وكان يمسك بيده بقلم يكتب به في الكتاب . ولم يرفع نظره .

ووقفت الإمبراطورة الطفولية صامته فترة طويلة وهي تنظر إليه . ولم يكن ما يفعله كتابةً بالمعنى الصحيح ، ولكن قلمه كان ينزلق ببطء فوق الصفحة الخالية ، والحروف والكلمات كما لو كانت تتشكل من نفسها ، فقد كانت تطفو من الفراغ بشكل ما .

وقرأت الإمبراطورة الطفولية ما هناك ، وقد كان هو بالذات ما يحدث في هذه اللحظة ، وهو : « الإمبراطورة الطفولية قرأت ما هناك . . . »

فقالت : « أنت تكتب كل ما يحدث . »

وكان الرد : « كل ما أكتبه يحدث » . ومرة أخرى كان هذا الصوت العميق الغائر ، الذي كانت تسمعه كصدى لصوتها هي .

والغريب أن عجوز الجبل المتجول لم يكن يفتح فمه . فقد كان يكتب كلماتها وكلماته ، وكانت تسمعها كما لو كانت تذكر فقط ما قاله في لحظتها .

وسألت قائلة : « أنا وأنت وكل فانتازين – كل شيء مكتوب في هذا الكتاب ؟ »

(*) الأصل الألماني مكتوب باللونين الأحمر والأزرق كرمز لعالم الواقع ودنيا الخيال ، ولأسباب فنية ظهرت الطبعة العربية بخط مائل وآخر عادي معتدل .

وكتب وسمعت في نفس الوقت إجابته :

— « ليس هكذا . إن هذا الكتاب هو كل فانتازين وأنت وأنا . »

— « وأين هذا الكتاب ؟ »

— « في الكتاب . » هكذا كانت الإجابة التي كتبها .

وسألت : « إذن فهو ليس إلا الظاهر وانعكاس للظاهر ؟ »

وكتب وسمعته يقول :

— « ماذا تبين المرآة ، التي تنعكس في مرآة ؟ أتعرفين هذا يا سيدة الأمان ذات

العيون الذهبية ؟ »

وصممت الإمبراطورة الطفولية برهة ، وفي نفس الوقت كتب العجوز أنها

صممت .

ثم قالت بصوت منخفض : « إنني أحتاج إلى مساعدتك »

فأجاب وكتب : « أنا أعرف . »

فقلت : « أجل ، فليكن هكذا . أنت ذاكرة فانتازين وأنت تعرف ماذا حدث حتى

هذه اللحظة . ولكن ألا تستطيع أن تقلب الصفحات إلى الأمام في هذا الكتاب

وترى ماذا سيحدث ؟ »

وكانت الإجابة : « صفحات فارغة ! إنني أستطيع فقط أن أعيد النظر إلى

ما حدث . فقد كنت أستطيع قراءتها أثناء كتابتي لها . وأنا أعرفها لأنني قرأتها . وأنا

كتبتها لأنها حدثت . وهكذا تكتب قصة بلا نهاية نفسها بيدي . »

— « إذن أنت لا تعرف ، لماذا أتيت إليك ؟ »

وسمعت صوته العميق أثناء كتابته يقول : « كلا ، ووددت أنك لم تفعل

ذلك . فعن طريقي يصبح كل شيء نهائياً ولا يتغير — حتى أنت يا سيدة الأمان ذات

العيون الذهبية . هذه البيضة هي مقبرتك ونعشك . لقد دخلت إلى ذكرى

فانتازين . فكيف تريدین مغادرة هذا المكان ثانية ؟ »

فأجابت : « إن كل بيضة بداية حياة جديدة . »

فكتب وقال العجوز : « حقاً ، ولكن فقط إذا ما فتحت قشرتها . »

فصاحت الإمبراطورة الطفولية : « أنت تستطيع فتحها . فلقد تركتني أدخل » .

فهز العجوز رأسه وكتب : « تلك كانت قوتك التي تسببت في ذلك . ولكن لأنك الآن هنا ، فأنت لم تعودى تمتلكينها . لقد حُسِّنا على الدوام . حقاً ، ما كان يجوز لك المجيء . هذه هى نهاية قِصَّة بلا نهاية » .

فابتسمت الإمبراطورة الطفولية وبدت غير مضطربة ولا بأقل قدر من الاضطراب .
وقالت : « أنت وأنا لم نعد نستطيع ذلك . ولكن هناك شخص يستطيع ذلك . »
وكتب العجوز : « لا يستطيع أحد أن يبدع بداية جديدة سوى طفل من البشر . »
فردت قائلة : « أجل ، طفل من البشر . »

ورفع عجوز الجبل المتجول بصره ببطء ونظر لأول مرة إلى الإمبراطورة الطفولية . وكان كما لو أن هذه النظرة تأتي من الطرف الآخر للكون . أتى من مثل هذا البعد ومثل هذا الظلام . وردت عليها بعينيها الذهبيتين وثبتت أمامها . لقد كان كصراع صامت بلا حركة . وأخيراً انحنى العجوز على كتابه مرة أخرى وكتب :
فردت قائلة : « إنى أريد ذلك . ولكن الشخص الذى أتحدث عنه وانتظره قد تخطاها منذ وقت طويل . إنه يقرأ فى هذا الكتاب الذى تكتبه ويسمع كل كلمة نقولها . إنه إذن معنا » .

وسمعت صوت العجوز بينما هو يكتب : « حقاً ، هو أيضاً ينتمى بلا رجعة إلى قِصَّة بلا نهاية ، لأنها قصته هو » .

وقالت الإمبراطورة الطفولية آمرة : « قُصَّها علىّ . يا من تكون ذاكرة فانتازين ، قصها علىّ - من البداية وكلمة كلمة كما كتبتها ! » .
وبدأت اليد الكاتبة للعجوز ترتعش : « إذا فعلت ذلك ، فلا بد أن أكتب كل شىء من جديد . وكل ما أكتب سيحدث من جديد » .

فقالَت الإمبراطورة الطفولية : « هكذا يجب أن يكون ! »

وانتاب باستيان شعور غير مريح .

تري ماذا تنوى عليه ؟ شيء ما له علاقة به . ولكن إذا كانت يد عجوز الجبل المتجول نفسه قد بدأت ترتعش . . .

وكتب العجوز وقال :

« إذا كانت قِصَّة بلا نهاية
على نفسها تشمل
فإن العالم في هذا الكتاب
سوف يُدمَّر ! »

وردت الإمبراطورة الطفولية قائلة :

« ولكن إذا إلينا
انضم البطل
فحياة جديدة يمكنها أن تنبت
وعليه الآن أن يقرر ! »

فقال وكتب العجوز : « حقاً ، إنك لفظيعة ، إن هذا يعني النهاية بلا نهاية .
إننا سوف ندخل في دائرة العودة الأزلية . ولن يوجد منها مفر . »

وأجابت وصوتها لم يعد ناعماً ، بل صلباً وواضحاً كالماس : « ليس بالنسبة
لنا . ولكن ليس أيضاً بالنسبة له — إلا إذا أنقذنا جميعاً » .

— « أتريدين حقاً أن تضعي كل شيء في يدي طفل من البشر ؟ »
— « أريد ذلك . »

وأضافت بصوت أكثر انخفاضاً : « أم أنك تعرف رأياً آخر ؟ »

وعم صمت لفترة طويلة قبل أن يقول الصوت العميق للعجوز : « كلا . »
ووقف وهو منحني بشدة فوق الكتاب بينما هو يكتب . وقد غطت القلنسوة وجهه
وأصبح غير مرئي .

— « إذن ، افعَل ما رجوتك من أجله ! »

وخضع عجوز الجبل المتجول لإرادة الإمبراطورة الطفولية وراح يقص عليها قصة بلا نهاية من البداية . وفي هذه اللحظة تغير لون الضوء الذي كان يشع من صفحات الكتاب . وأصبح مائلاً للحمرة مثل العلامات الكتابية التي كانت تتشكل الآن تحت قلم العجوز . وكذلك عباءته الرهبانية والقلنسوة أصبحتا الآن بلون نحاسي . وبينما هو يكتب كان صوته العميق يرن في نفس الوقت .

وكذلك باستيان سمعه بوضوح تام .

ولكن كانت الكلمات الأولى التي قالها العجوز ، غير مفهومة . فقد كانت تسمع مثل « - ع - ميد قلا بتكلا - ع - بتكم : اهباصل : ردنايرونك دارنوك لراك »

وفكر باستيان ، عجيب ، لماذا يتحدث العجوز فجأة بلغة أجنبية ؟ أم أنها من الجائز تعويذة سحرية ؟ واستمر صوت العجوز واضطر باستيان أن يتابعه .

هذه الكتابة كانت موجودة على الباب الزجاجي لكان صغير ، ولكنها بالطبع لم تكن تبدو هكذا إلا عندما كان يُنظر إلى الشارع من خلال اللوح الزجاجي من داخل الغرفة المعتمة .

وفي الخارج كان صباح يوم بارد مغيّم من أيام نوفمبر ، وكان المطر ينهمر مدراراً ، والقطرات تجرى من أعلى الزجاج إلى أسفله مارة بالأحرف المزخرفة وكل ما كان يمكن رؤيته من خلال اللوح الزجاجي ، كان سوراً قد لطخته الامطار على الجانب الآخر من الشارع . «

هذه القصة لا أعرفها على الإطلاق ، هكذا فكر باستيان بشيء من خيبة الأمل ، فهي لا تظهر إطلاقاً في الكتاب الذي قرأته حتى الآن . طيب والآن بتضح أنني كنت مخطئاً طوال الوقت . لقد ظننت فعلاً أن العجوز سوف يبدأ الآن في سرد قصة بلا نهاية من البداية .

وفجأة فُتح الباب بشدة لدرجة أن عنقوداً صغيراً من الأجراس النحاسية الصفراء الصغيرة ، والذي كان متدلياً فوقه ، أخذ يرن رنيناً مضطرباً ، ولم يتمكن من العودة إلى الهدوء لفترة طويلة .

وكان مسبب هذا الضجيج صبي صغير سمين ربما بلغ العاشرة أو الحادية عشرة من العمر . وكان شعره البني الغامق يتدلى مبللاً على وجهه . وقد تخلل المطر معطفه فجعله ليناً يقطر منه الماء ، وكان يحمل حقيبة مدرسية مثبتة على كتفه بسير جلدى . وكان شاحب الوجه قليلاً ومنقطع الأنفاس ، ولكن على العكس تماماً من العجلة التي كان مازال عليها منذ برهة ، فقد وقف حينئذ كالمتمسك بالباب المفتوح . . . »

بينما كان باستيان يقرأ ذلك ويسمع في نفس الوقت الصوت العميق لعجوز الجبل المتجول ، بدأ يسمع طنيناً في أذنيه ويرى بريقاً مرتعشاً أمام عينيه .

ان ما حُكى هنا ، كان قصته هو ! وهي كانت في قصة بلا نهاية . وهو ، أى باستيان ظهر كشخص في الكتاب ، الذى كان يعتبر نفسه حتى الآن قارئاً له ! ومن يدرى ، أى قارئ آخر يقرأه الآن بالذات وهو يعتقد أنه ليس إلا قارئاً - وهكذا دائماً إلى ما لا نهاية !

والآن انتاب باستيان الخوف . وشعر فجأة بضيق أنفاسه . وشعر كما لو كان محبوساً في سجن غير مرئى . وأراد أن يتوقف ، ولم يرد الاستمرار في القراءة .

ولكن الصوت العميق لعجوز الجبل المتجول واصل القصة ،

ولم يستطع باستيان أن يفعل شيئاً معاكساً لذلك . وسد أذنيه ، ولكن ذلك لم يُجِد ، لأن الصوت كان يرن في أعماقه . وبالرغم من أنه كان يعرف منذ وقت طويل أن الأمر لم يكن هكذا ، فقد ظل متشبثاً بالفكرة القائلة بأن هذا التوافق مع قصته هو ربما لم يكن سوى صدفة مجنونة ،

ولكن الصوت العميق استمر يتكلم بلا هوادة .

وسمعه الآن بوضوح تام وهو يقول :

« . . . السلوك الحسن ليس عندك منه ما يساوى خمسة فنكات ، وإلا كنت قدمت نفسك على الأقل في بادئ الأمر . »
فقال الصبي : « اسمى باستيان ، باستيان بلتازار بوكس . »

وفي هذه اللحظة مر باستيان بتجربة هامة : يمكن الاقتناع بتمنى شيئاً - ربما لسنوات طالما المرء يعرف أن الأمنية غير قابلة للتحقيق . ولكن إذا ما وقف الإنسان فجأة أمام إمكانية أن يتحول حلم الأمانى إلى حقيقة ، فالإنسان حينئذ لا يتمنى إلا شيئاً واحداً :

وهو ألا يكون قد تمناه أبداً .

وعلى كل حال فقد كان هذا هو شعور باستيان .

فالآن ، حيث إن الأمر أصبح جاداً لا رجوع عنه ، فقد تمنى الفرار أفضل من أى شىء . فقط لم يعد هناك « فرار » في هذه الحالة . ولذلك فقد فعل ما لم يستطع أن يفعله بشيء على الإطلاق : فقد تظاهر بالموت مثل جعران يرقد على ظهره . وأراد أن يفتعل أنه غير موجود ، أراد أن يقبع ساكناً وصغيراً على قدر الامكان .

وواصل عجوز الجبل المتجول حكايته وفي نفس الوقت يدون من جديد كيف سرق باستيان الكتاب ، وكيف هرب إلى مخزن مبنى المدرسة وبدأ يقرأ هناك . ثم بدأ بحث أتريو من جديد ، وجاء إلى مورلا العجوز الشمطاء وعثر على فُخور في شباك إجرامول عند الهوة السحيقة حيث سمع صيحة فزع باستيان . وتمت مداواته على يد أورجل العجوز من جديد وتعليمه على يد إنجيحوك . وخطا عبر الثلاث بوابات السحرية ودخل على صورة باستيان وتحدث مع أيولالا . ثم جاء عمالقة الرياح ، ومدينة الأشباح وجمورك وإنقاذ أتريو وعودته إلى برج العاج . وفي تلك الأثناء حدث أيضاً كل ما عايشه باستيان ، من إشعال للشموع ، وكيف رأى الإمبراطورة الطفولية ، وكيف انتظرت مجيئه بلا جدوى ، ثم بدأت طريقها مرة أخرى للبحث

عن عجوز الجبل المتجول ، ومرة أخرى صعدت إلى فوق على سلم الحروف ، ودخلت البيضة مرة أخرى ، ودار الحديث كله كلمة كلمة والذي أجراه كلاهما مع بعض ، والذي انتهى بأن بدأ عجوز الجبل المتجول يكتب ويحكى قصة بلا نهاية .

وهنا بدأ كل شيء من الأول من جديد - دون تحول ولا تغيير - ومرة أخرى انتهى كل شيء عند لقاء الامبراطورة الطفولية ، مع عجوز الجبل المتجول ، الذي يكتب ويحكى قصة بلا نهاية مرة أخرى . . .

ولسوف تستمر إلى الأبد ، لأنه كان من المستحيل تماماً التمكن من تغيير شيء في مجرى الأمور . هو فقط ، باستيان كان في استطاعته التدخل . وكان عليه أن يفعل ذلك إذا لم يكن هو نفسه يريد أن يظل محبوساً في هذه الدورة

وكان يشعر كما لو كانت القصة قد تكررت ألف مرة ، كلا ، كما لو لم يكن هناك زمن قبل ذلك ولا بعد ذلك ، بل كما لو كان كل شيء موجوداً في نفس الوقت وعلى الدوام . وأدرك الآن لماذا ارتعشت يد العجوز . وكانت دائرة الرجوع الأزلى هي النهاية بلا نهاية !

ولم يشعر باستيان أن دموعاً تجري على وجهه . وفجأة صرخ بلا شعور تقريباً :

« يا طفلة الأقمار ! إني قادم ! »

وفي نفس اللحظة حدثت عدة أمور في وقت واحد .

قوة هائلة فجرت قشرة البيضة الضخمة إلى أجزاء بينما سُمع دوى رعد عميق . ثم صفرت هناك ريح عاصفة من بعيد .

وخرجت من صفحات الكتاب الذي كان باستيان يضعه على ركبتيه لدرجة أنها بدأت تهفهف بشدة . وأحس باستيان بالعاصفة في شعره ووجهه . وكادت تسلبه أنفاسه ، وتراقص لهب شموع الشمعدان ذى السبعة أذرع واتخذ وضعاً أفقياً ، ثم سرت رياح عاصفة ثانية أشد قوة إلى داخل الكتاب وانطفأت الأنوار .

ودقت ساعة البرج الثانية عشرة .

۱۳

پیریلیج .. غابۃ اللیلۃ



شعر باستيان عندما قال مرة أخرى بصوت خافت في الظلام : «ياطفلة الأقمار ، إني قادم .» بأن قوة مواسية لا يمكن وصف حلاوتها تخرج من هذا الاسم وتملأه تماما . ولذلك قاله في نفس الوقت عدة مرات لنفسه :

«طفلة الأقمار ! إني قادم ياطفلة الأقمار ! أنا هنا فعلا !» ولكن أين كان هو ؟ ولم يستطع أن يرى أقل ضوء ، ولكن ما كان يحيط به لم يعد الظلام البارد للمخزن ، بل كان ظلما مغمليا دافئا شعر فيه بالأمان والسعادة .

وسقط عنه كل الخوف والضييق . ولم يعد يتذكره إلا كشيء مضى منذ وقت طويل وشعر بالبهجة والخفة لدرجة أنه ضحك بصوت خافت .

وسأل قائلا : «طفلة الأقمار ، أين أنا ؟»

ولم يعد يشعر بثقل جسده . وتحسس بيديه من حوله وأدرك أنه يحوم في الفضاء ولم تعد هناك دواسات ولا أرض صلبة .

لقد كان شعورا لم يعرفه أبدا ، إحساس بالتححرر والحرية التي لا حدود لها . لا شيء مما كان يثقل ويضيق عليه من قبل استطاع الوصول إليه الآن .

هل كان يحوم في النهاية في مكان ما من الفضاء الكوني ؟ ولكن بالفضاء الكوني نجوم ، وهو لم يستطع رؤية شيء منها . ولم يكن هناك سوى الظلام المخملي ، وكان يشعر براحة ، براحة لا مثيل لها في حياته من قبل أبدا . هل هوربما قد مات ؟

- «طفلة الأقمار ، أين أنت ؟»

وسمع الآن صوتا رقيقا كصوت الطيور يجيب عليه ، وربما أجابه عدة مرات دون أن يلاحظ . وسمعه قريبا جدا ولم يكن بمقدرته أن يقول من أى اتجاه كان يأتي :

- «ها أنا ذا ، عزيزى باستيان»

- «ياطفلة الأقمار ، هل هذا أنت ؟»

وضحكت بطريقة خاصة مغردة .

- «من سأكون إذن . إنك منحتنى الآن فقط هذا الاسم الجميل . أشكرك على ذلك مرحبا بك . يامنقذى ، وبطلى .»

- «أين نحن ، ياطفلة الأقمار ؟»

- «أنا عندك ، وأنت عندى .»

لقد كان حديثا كما فى الحلم ، ولكن باستيان كان يعرف بالتأكيد التام أنه كان يقظا ولا يحلم . وهمس قائلاً : «طفلة الأقمار ، هل هذه الآن هى النهاية ؟» فأجابت : «كلا ، إنها البداية»

- «أين فانتازين ، ياطفلة الأقمار ؟ وأين الآخرون كلهم ؟ وأين أتريو وفُخور ؟ هل اختفى كل شيء ؟ وعجوز الجبل المتجول وكتابه ؟ ألم يعد لهم وجود ؟»

- «إن فانتازين ستنشأ من جديد من أمنياتك ، ياعزيزى باستيان . وعن طريقى ستصبح حقيقة»

فقال باستيان بدهشة مكررا : «من أمنياتى ؟»

وسمع الصوت الحلو يقول : «أنت تعرف أنهم يطلقون على سيدة الأمانى . ماذا ستمنى لنفسك ؟»

وفكر باستيان ، ثم سأل بحذر :

- «كم أمنية مسموحة لى ؟»

- «على قدر ما تريد - كلما زادت ، كان أفضل ، ياعزيزى باستيان ، وازدادت فانتازين ثراء وتنوعاً .»

وكان باستيان مأخوذاً وقد فوجيء . ولكن لأنه رأى نفسه فجأة أمام لا نهاية من
الإمكانات ، فلم تحظر بباله أية أمنية . وأخيرا قال : « لا أدري شيئا . »
وعم الصمت برهة ، ثم سمع الصوت الرقيق كصوت الطيور :

- « هذا أمر سىء . »

- « لماذا ؟ »

- « لأنه حينئذ لن يكون لفانتازين وجود »

وصمت باستيان وهو مرتبك . فقد أزعجه قليلا شعوره بالحرية المطلقة بأن كل
شياء سيرتبط به .

وسأل قائلا : « لماذا هذا الظلام ، ياطفلة الأقمار ؟ »

- « البداية دائما مظلمة ، ياعزيزى باستيان »

- « أحب أن أراك مرة أخرى ، ياطفلة الأقمار ، أتعرفين ، مثل تلك اللحظة التي
نظرتِ إلىّ فيها »

وسمع مرة أخرى الضحك الخافت المغرد .

- « لماذا تضحكين ؟ »

- « لأننى سعيدة »

- « بأى شىء ؟ »

- « لقد قلت حالا أول أمنية لك »

- « وهل ستحققينها ؟ »

- « نعم ، إفرادك ! »

وفعل ذلك وشعر أنها وضعت شيئا فى كفه . لقد كان ضئيلا ولكنه ثقيل بشكل
غريب وكانت تخرج منه برودة ويعطى إحساسا بأنه صلب وبلا حياة .

- « ما هذا ياطفلة الأقمار ؟ »

فأجابت : « حبة رمل ، إنها كل ما تبقى من مملكتى التي كانت بلا حدود . إننى
أهديها إليك »

فقال باستيان : «شكراً» وفي الحقيقة لم يكن يعرف ما سيفعله بهذه الهدية . لو كانت على الأقل شيئاً حياً !

وبينما هو لا يزال يفكر فيما تنتظر طفلة الأقمار منه ، أحس فجأة بغزوة رقيقة في يده . ونظر بمزيد من الدقة إليها .

وهمس قائلاً : « انظري ، ياطفلة الأقمار ! إنها بدأت تلمع وتتألأ ! وهنا – هل ترين – ترتفع السنة لهب صغير . وكلا ، إنها بذرة . طفلة الأقمار ، إن هذه ليست حبة رمل على الإطلاق ! إنها حُبيرة بذور مضيئة تبدأ في النمو ! »

وسمعها تقول : «أحسنت صنعا ، ياعزيزى باستيان . أترى ، إنه أمر سهل جدا بالنسبة لك »

وخرج من النقطة الصغيرة على كف باستيان الآن شعاع لا يكاد يرى ، ازداد حجمه بسرعة وجعل كلا الوجهين الطفولين المختلفين في نوعيهما اللذين كانا ينحنيان فوق المعجزة ، يضيئان في الظلام المخملي .

وسحب باستيان يده ببطء وظلت النقطة المضيئة عالقة بالهواء بينها كنجم صغير .

ونمت البذرة بسرعة شديدة وكان في الاستطاعة النظر إليها في هذه الأثناء . وأنبت أوراقا وأعوادا ، وأخرجت براعم فتفتحت إلى زهور رائعة تلمع بألوان متعددة وفسفورية . وقد تكونت فعلا ثمار صغيرة وبعد نضوجها مباشرة تتفجر كصواريخ صغيرة وتنتثر من حولها أمطار شرار ملونة من حبيبات بذور جديدة .

ومرة أخرى تنمو نباتات من حبيبات البذور الجديدة ، ولكن لها أشكال مختلفة تشبه أوراق الخنشار أو نخل صغير ، أو كريات الصبار ، أو العيدان الشوكية أو الشجيرات المتشعبة . وكل منها كان يتوهج ويضيء بلون آخر .

سرعان ما امتلأ الظلام المخملي حول باستيان وطفلة الأقمار ، ومن فوقهم وتحتهم ومن جميع الجوانب ، نباتات النور المتفتحة والمتكاثرة . وحامت في الفضاء كرة متوهجة الألوان ، عالم جديد مضيء ، كبر ونما وفي قلب قلبه جلس باستيان وطفلة الأقمار يدا بيد وتطلعا بعيون مندهشة للمشهد البديع .

وبدت النباتات لا تنضب في إخراجها لأشكال وألوان جديدة دائما . وتفتحت على الدوام براعم أزهار أكبر حجما . وتناثرت عناقيد زهور متزايدة الثراء على الدوام . وهذا النماء كله كان يتم في سكون تام .

وبعد فترة من الزمن كان لبعض النباتات ارتفاع زهور عباد الشمس ، بل إن بعضها كان حتى في حجم أشجار الفاكهة . وكانت هناك سعف وعروش من أوراق طويلة خضراء زمردية ، أو زهور كذيل طاووس ملء بدوائر لها ألوان الطيف . ونباتات أخرى كانت تشبه أبراج المعابد الآسيوية المكونة من مظلات حريرية بنفسجية مفتوحة فوق بعضها وكانت بعض الجذوع السميقة متشابكة كهيئة الصفائر . ولأنها كانت منفذة للضوء فقد بدت كما لو كانت من زجاج وردى اللون مضىء من الداخل . وكانت هناك عرائش من الزهور تشبه عناقيد كبيرة من الفوانيس الورقية الزرقاء والصفراء . وفي بعض المواضع كانت تتدلى إلى أسفل عدة آلاف من «الأسطر» ، زهور النجمة كمساقط مائة فضية متلاثة ، أو ستائر ذهبية داكنة من زهور الناقوس ذات كثوس طويلة لحبوب اللقاح كهيئة الأهداب . وكبرت نباتات الليل المضئية هذه في كثافة وثراء متزايد على الدوام ، وتشابكت مع بعضها شيئا فشيئا مكونة جديدة رائعة من الضوء الهادىء .

وهمست طفلة الأقمار قائلة : «يجب أن تمنحه اسما !»

وقال : «بيريلين»^(١٢) ، غابة الليل»

ونظر إلى الإمبراطورة الطفولية في عينيها – وحدث له الآن مرة أخرى ماحدث له عند تبادلها للنظرة الأولى . وجلس كالمسحور وتطلع إليها ، ولم يعد يستطيع أن يحول عينيه عنها . وفي تلك المرة رآها مريضة مرض الموت . ولكنها الآن كانت أجمل بكثير جدا . رداؤها الممزق عاد كالجديد ، وتلاعب انعكاس الضوء الحالم متعدد الألوان فوق البياض النقى للحريير وشعرها الطويل . لقد تحقق حلمه .

(١٢) Perelin يُرجح أن المؤلف يشير باختياره لهذه التسمية إلى كلمة Perle لؤلؤة ، رمز الفاناس المتلاثة اللامعة .

وتلثم باستيان قائلا وفي رأسه دوار : «طفلة الأقمار ، هل عدت الآن في صحة حسنة ؟»

وابتسمت : «ألا تستطيع أن ترى ذلك ياعزيزى باستيان ؟»

فقال : «أود أن الأمر يظل إلى الأبد مثل الآن»

فردت قائلة : «اللحظة أبدية»

وصمت باستيان . ولم يفهم إجابتها . ولكنه لم يكن الآن في حالة تسمح بالتفكير . ولم يكن يريد شيئا سوى أن يجلس أمامها وينظر إليها .

كونت الأحراش الوافرة لنباتات الضوء شبكة كثيفة من حولها شيئا فشيئا ، نسيج متوهج الألوان احتواهما مثل خيمة كبيرة مستديرة من السجاجيد السحرية . وهكذا لم ينتبه باستيان إلى ما حدث بالخارج . ولم يعرف أن بيرلين استمرت في الكبر والنمو وأن النباتات المنفردة قد زادت حجما باستمرار . ومازالت تنزل إلى أسفل في كل مكان أمطار من حبات بذور صغيرة لشرارات الضوء تنبع منها بذور جديدة .

وجلس غارقا في مرأى طفلة الأقمار .

ولم يكن ليستطيع أن يقول إذا كان قد انقضى وقت كثير أو قليل عندما غطت طفلة الأقمار عينيه بيدها .

وسمعها وهي تسأل : «لماذا جعلتني انتظر هذا الوقت الطويل ؟ لماذا أجبرتني على الذهاب إلى عجوز الجبل المتجول ؟ لماذا لم تحضر عندما ناديت ؟»

وابتلع باستيان ريقه .

وقال وهو محرج : «ذلك لأنني – لأنني فكرت – لقد كان كل ما يمكن ، الخوف أيضا – ولكن في الحقيقة أنني كنت خجلان منك ، ياطفلة الأقمار»

وجذبت يدها ونظرت إليه بدهشة : «خجلان ؟ لأى سبب ؟»

وقال باستيان مترددا : «يعنى ، أقصد ، أنك كنت تتوقعين بالتأكيد شخصا

يناسبك»

وسألت : «وأنت ؟ أأنت تناسبني ؟»

وتلعثم باستيان وأحس أن وجهه قد احمر : «هذا يعني ، أردت أن أقول ، شخص يكون شجاعا وقويا وجميلا – أمير أو ما شابه ذلك – وعلى كل حال ليس شخصا مثل .»

وأخفض بصره وسمعها مرة أخرى تضحك بهذه الطريقة الخافتة المغردة .

وقالت : «أترى ، الآن أنت تضحك علىّ أيضا»

وساد الصمت لفترة طويلة ، وعندما استطاع باستيان أخيرا أن يرفع نظره رأى أنها انحنت مقربة منه تماما . وكان وجهها جادا .

وقالت : «أريد أن أريك شيئا ، ياعزيزى باستيان ، انظر في عيني !»

وفعل باستيان ذلك بالرغم من أن قلبه كان يدق وشعر بدوار بسيط .

والآن رأى في مرآة عينيها الذهبية شكلا في بادىء الأمر صغيرا وكما لو كان من مكان بعيد ، والذي ازداد باستمرار حجما ووضوحا شيئا فشيئا . لقد كان صبيا في مثل عمره ، ولكنه كان رشيقا ذا حسن رائع . وكانت وقفته بها فخر واعتدال ووجهه نبिला نحيلًا وبه رجولة . وكان يبدو كأمر من الشرق . وكانت عمامته من الحرير الأزرق وكذلك سترته المطرزة بالفضة والتي كان يرتديها وهي تصل إلى ركبتيه . وكانت رجله داخل حذاء ذي رقبة عالية أحمر اللون من الجلد الرقيق اللين والتي كانت أطرافه الأمامية منحنية إلى أعلى . وعلى ظهره كان يتدلى من كتفيه حتى الأرض معطف فضي لامع له ياقة مرفوعة إلى أعلى . وأجمل ما في هذا الصبي كانت يديه التي كانت تعطى انطبعا بدقة أجزائها ، وبالنبل وفي نفس الوقت بالقوة غير العادية .

ونظر باستيان إلى هذه الصورة بكل إعجاب وهو مأخوذ . وكاد لا يستطيع أن يشبع نظره منها . وكان يريد أن يسأل عمن يكون ابن الملك الشاب الجميل هذا ، في لحظة أن أسرع بخاطره كشعاع برق الإدراك بأنه كان هو نفسه . لقد كانت صورته الخاصة المنعكسة في عيني طفلة الأقمار الذهبية !

من الصعب جدا وصف ما حدث له في هذه اللحظة بكلمات . لقد كان سرورا حمله عن نفسه بعيدا ، كما في حالة الإغماء ، وعندما حط به ثانية وعاد إلى نفسه تماما وجد نفسه مرة أخرى ذلك الصبي الجميل الذي رأى صورته .

ونظر إلى نفسه إلى أسفل وكل شيء كان مثلما هو في عيني طفلة الأعمار ، الحذاء ذو الرقبة الرقيق اللين ، السترة الزرقاء المطرزة بالفضة ، العمامة ، المعطف الطويل اللامع ، وهيئته وكذلك وجهه – على قدر ما استطاع أن يحس به . ونظر إلى يديه بدهشة .

والتفت إلى طفلة الأعمار .

ولم تعد هناك .

وكان وحيدا في المجال المستدير الذي كونه أحراش النباتات المتوهجة .

ونادى في جميع الجهات : «طفلة الأعمار ! طفلة الأعمار !»

ولكنه لم يتلق جوابا .

وجلس وهو حيران . ماذا عليه أن يفعل الآن . لماذا تركته وحيدا ؟ إلى أين يذهب الآن – اذا كان في استطاعته الذهاب إلى مكان ما ، وليس كالمسجون في قفص ؟

بينما هو جالس هكذا ويحاول أن يفهم ماذا دعا طفلة الأعمار أن تتركه دون تفسير ودون كلمة وداع ، داعبت أصابعه حجابا ذهبيا يتدلى بسلسلة حول رقبتة . وتطلع إليه وأطلق صيحة المفاجأة .

لقد كان آورين الجوهرة ، البريق ، علامة الإمبراطورة الطفولية ، الذي يجعل حامله نائبا عنها . لقد تركت له طفلة الأعمار سلطتها فوق كل كائنات وأشياء فانتازين . وطالما هو يحمل هذه العلامة ، فسيكون الأمر كما لو كانت معه .

ونظر باستيان طويلا إلى الشعبانين ، الفاتح اللون والداكن اللون ، اللذين يعضان بعضيهما في الذنب ويكوّنان شكلا بيضاويا . ثم أدار القلادة ولدهشته وجد

على ظهرها كتابة . لقد كانت أربع كلمات قصار في حروف منحنية بشكل فريد :

افعل ما أنت

تريد

ولم يكن الحديث عن هذا من قبل في قصة بلا نهاية أبدا . ألم يلاحظ أتريو هذه الكتابة ؟ ولكن لم يكن هذا مهما الآن . والشئ الهام كان فقط أن الكلمات تعبر عن التصريح ، لا بل المطالبة بعمل كل ما لديه رغبة فيه .

واقرب باستيان من الجدار الذى يتكون من أحراش النباتات المتوهجة الألوان ، لكى يرى إذا كان أو من أين يستطيع المرور ، ولكنه تأكد وهو مسرور أنه يمكن إزاحته جانبا بدون عناء كالستار . وخرج .

النمو الناعم ، ذو القوة الفطرية في نفس الوقت لنباتات الليل استمر في تلك الأثناء في سيره دون توقف وأصبحت بيريلين غابة لم ترعين بشر مثلها قبل باستيان أبدا .

وأصبح لأضخم الجذوع الآن إرتفاع وسماك أبراج الكنائس – وبالرغم من ذلك استمرت في النمو ولم تكف عن النمو . وفي بعض المواضع وقفت تلك الأعمدة العملاقة اللامعة بلون أبيض لبنى ملاصقة لبعضها لدرجة استحالة الانزلاج من بينها . وما زالت تتساقط إلى أسفل باستمرار بذور حبوب جديدة كأمطار من الشرر .

وبينا كان باستيان يتنزّه خلال كاتيدرائية نور هذه الغابة ، بذل جهده كيلا يدوس على إحدى البذور المتوهجة على الأرض ، ولكن سرعان ما اتضح استحالة ذلك . فلم يعد هناك ولا عرض قدم من الأرض حيث لا ينبت شئ . وهكذا فقد واصل سيره أخيرا بلا انشغال بال حيثما سمحت له الجذوع العملاقة بالطريق .

وكان باستيان يتمتع بكونه جميلا . ولم يزعجه أبدا عدم وجود أحد كى يعجب به ، بالعكس فقد كان سعيدا أن يكون هذا السرور له وحده تماما . ولم يكن يهيمه على الإطلاق إعجاب هؤلاء الذين كانوا يسخرون منه من قبل لم يعد ذلك الآن كان تفكيره فيهم يكاد يكون إشفافا عليهم

وفي هذه الغابة التي لم توجد بها فصول سنة ولا حتى اختلاف الليل والنهار ، كانت خبرة الزمن أيضا شيئا مختلفا تماما عما كان يفهم باستيان من قبل . وهكذا لم يعرف منذ كم من الوقت وهو يتتزه . ولكن شيئا فشيئا تحولت فرحته بكونه جميلا ، إلى شيء آخر : لقد أصبح بديبيا بالنسبة له . ليس لأن سعادته لذلك قد قلت ، فقط بدا له كما لو لم يكن يعرف أبدا شيئا آخر .

وكان لهذا سببٌ سيعرفه باستيان فيما بعد بوقت كثير كثير ، والذي لم تكن لديه الآن أدنى فكرة عنه . وبالنسبة للجمال الذي منح له ، فقد نسي شيئا فشيئا أنه في يوم ما كان بدينا وذا أرجل مقوسة إلى الداخل .

حتى وإن لاحظ شيئا من ذلك فمن المؤكد أنه لم يكن سيهتم كثيرا جدا بهذه الذكرى . ولكن النسيان تم دون أن يلاحظ تماما . وعندما انمحت الذاكرة تماما ، تيبأ له كما لو كان الأمر دائما على ما هو الآن . وبسبب ذلك بالضبط فقد سكنت أمنيته في أن يكون جميلا ، لأن الفرد لا يمتنى لنفسه شيئا كان عليه دائما .

وما كاد يصل إلى هذه النقطة ، حتى أنه أحس بعدم القناعة واستيقظت فيه رغبة جديدة . ففي الحقيقة لم يكن جديرا بالاستحسان أن يكون المرء جميلا فقط . لقد أراد أن يكون قويا ، أقوى من الجميع ، أقوى شخص موجود على الإطلاق !

وبينما هو يواصل التنزه عبر غابة الليل بيريلين بدأ يشعر بالجوع . وقطف من هنا وهناك بعض الثمار ذات الأشكال الغريبة والمضيئة ، وجرب بحذر إمكانية أكلها . ولم يكن هذا فحسب هو ما اتضح له وهو مسرور ، ولكن كان مذاقها رائعا جدا أيضا ، بعضها حمضى ، وبعضها حلو ، وبعضها مر قليل ، ولكنها كلها شهية للغاية . وأكل وهو يواصل السير واحدة بعد الأخرى وأحس أثناء ذلك كيف تسرى قوة رائعة في أعضائه .

وفي تلك الأثناء أصبحت الشجيرات المنخفضة المتوهجة للغابة كثيفة من حوله لدرجة أنها حجبت عنه النظر إلى جميع الجهات . وفوق ذلك فقد بدأت نباتات اللبانا المتسلقة والعروق الهوائية تنمو من أعلى إلى أسفل وتتشابك مع الأحراش مكونة أدغالاً لا يمكن اختراقها . وفتح باستيان لنفسه ممرا بضربات بحافة يده ، وتجزأت

الأحراش كما لو أنه استعمل سكيناً من سكاكين قطع الأحراش . والتأمت الشجرة من ورائه مباشرة كاملة كما لو لم تكن أبداً .

وواصل سيره ، ولكن سور من عمالقة الأشجار سد عليه الطريق ، وكانت جذوعها ملاصقة لبعضها دون فراغ بينها . ومد باستيان كلتا يديه — وأمال جذعين عن بعضهما . ومرة أخرى انقل الشق من ورائه بلا صوت .
وأطلق باستيان صيحة تهليل شديدة .

لقد كان سيد الغابة !

وتسلى فترة بفتح ممر له من خلال الأحراش ، مثل فيل سمع النداء العظيم . ولم تهبط قواه ، ولم يضطر للوقوف لحظة ليلتقط أنفاسه ، ولم يكن هناك وخز في جنبه ولا خفقان في قلبه ، ولا حتى عرق .

ولكنه أخيراً سأم العبث ، واعتزته رغبة أن يلقي نظرة شاملة من على بيريلين مملكته ، لكي يرى إلى أى مدى قد توسعت .

ونظر متفحصاً إلى أعلى ، وبصق في يديه وأمسك نباتات الليانا المتسلقة وبدأ يشد نفسه إلى أعلى ، مجرد يد فوق الأخرى ، وبدون أن يستعمل رجله في ذلك مثلما كان يرى لاعبي السيرك . ورأى نفسه للحظة واحدة كصورة باهتة من الذاكرة لأيام مضت منذ وقت طويل ، أثناء حصص التربية البدنية ، حيث كان يتأرجح مثل جوال الدقيق عند الطرف الأسفل لحبل التسلق وهو ما كان مدعاة للسُرور المكتوم للفصل كله . واضطر أن يبتسم . أكيد أنهم سيفتحون أفواههم وأنفوسهم إذا استطاعوا أن يروه الآن . إنهم سيكونون فخورين بمعرفته . ولكنه لم يكن ليعيرهم مجرد الانتباه .

وبدون أن يتوقف مرة واحدة وصل أخيراً إلى الفرع الذى يتدلى منه نبات الليانا المتسلق ، وجلس فوقه جلسة راكب الدابة . وكان الفرع سميكاً كالبرميل ويشع ضوءاً فسفورياً من الداخل إلى الخارج بلون مائل للحمرة . وانتصب باستيان بحذر وحافظ على توازنه متجهاً إلى جذع الشجرة . وهنا أيضاً سدت عليه الطريق أحراش كثيفة من العيدان المتسلقة ولكنه هياً لنفسه طريقاً دون مجهود .

والجذع هناك بأعلى كان لا يزال سميكا لدرجة أن خمسة من الرجال لا يستطيعون تطويقه . ولم يكن في استطاعة باستيان أن يصل من مكانه إلى فرع جانبي آخر ، يبرز من الجذع إلى أعلى بقليل وفي اتجاه آخر . ولذا ألقي بنفسه في قفزة واحدة إلى عرق هوائى بالناحية الأخرى وتأرجح هنا وهناك إلى أن استطاع الإمساك بالفرع الأعلى عن طريق قفزة جريئة كذلك . ومن هناك استطاع أن يشد نفسه إلى فرع آخر أعلى . والآن كان مرتفعا جدا وسط الأغصان ، على الأقل مائة متر ، ولكن الفروع والأوراق المتوهجة لم تسمح بالرؤية إلى أسفل .

فقط عندما وصل إلى ضعف الارتفاع تقريبا كانت توجد هنا وهناك مواضع خالية سمحت بالنظر فيما حولها . ولكن الأمر بدأ حينئذ يصبح صعبا ، وبالذات لأن الأغصان والفروع تناقصت باستمرار . وأخيرا عندما كاد أن يكون بأعلى تماما ، اضطر أن يتوقف لأنه لم يعد يجد شيئا يستطيع أن يتشبث به سوى الجذع العارى الأملس الذى كان له سمك عمود البرق على الأقل .

ونظر باستيان إلى أعلى ورأى أن هذا الجذع أو الساق ينتهى على ارتفاع عشرين متر تقريبا بزهرة هائلة الحجم مضيئة بلون أحمر داكن . ولم يكن واضحا لديه كيف سينزل من هناك إلى أسفل ؟ . ولكن كان عليه الصعود ، لأنه لم يكن يريد البقاء هناك حيث كان وأمسك بالجذع وتسلق العشرين مترا الأخيرة إلى أعلى كلاعب الأكروبات . وتأرجح الجذع هنا وهناك وانحنى مع الرياح كعود الحشائش . وأخيرا تعلق بأسفل الزهرة مباشرة التى كانت تفتح إلى أعلى كزهرة التيلوب . ونجح فى أن يزوج يده بين أوراق الزهرة وهكذا وجد شيئا يستند عليه ، وأزاح الأوراق بعيدا عن بعضها ثم جذب نفسه إلى أعلى وظل راقدا للحظة لأنه الآن كان مقطوع الأنفاس قليلا . ولكنه نهض على الفور ونظر إلى جميع الجهات من فوق حافة الزهرة العملاقة المتوهجة بلون أحمر كما لو كان فى منصة بأعلى عامود الصارية .

وكان المنظر رائعا فوق كل الكلمات .

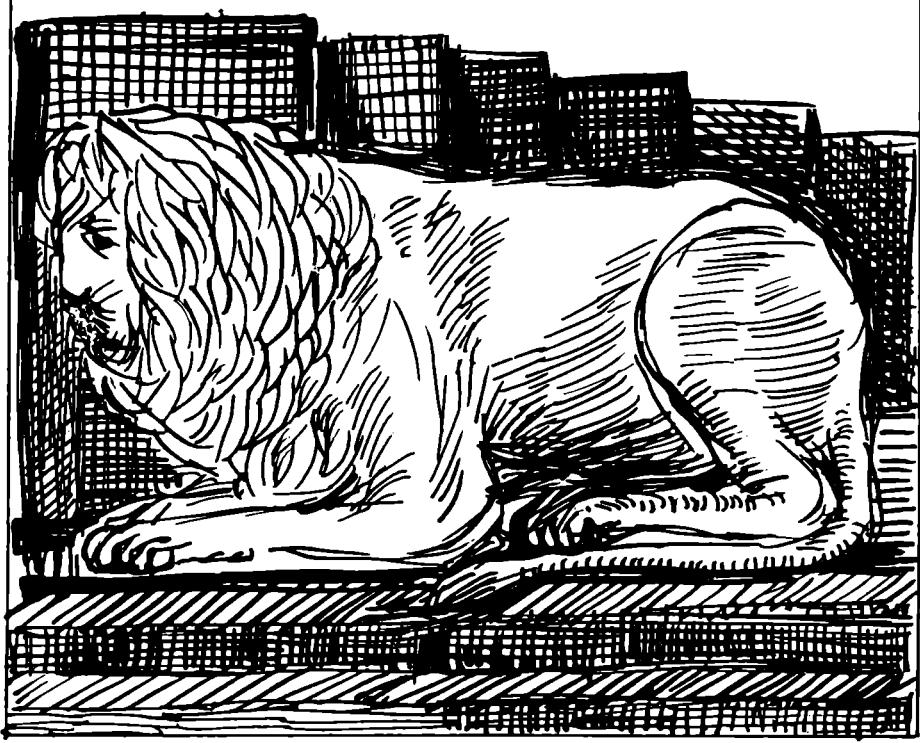
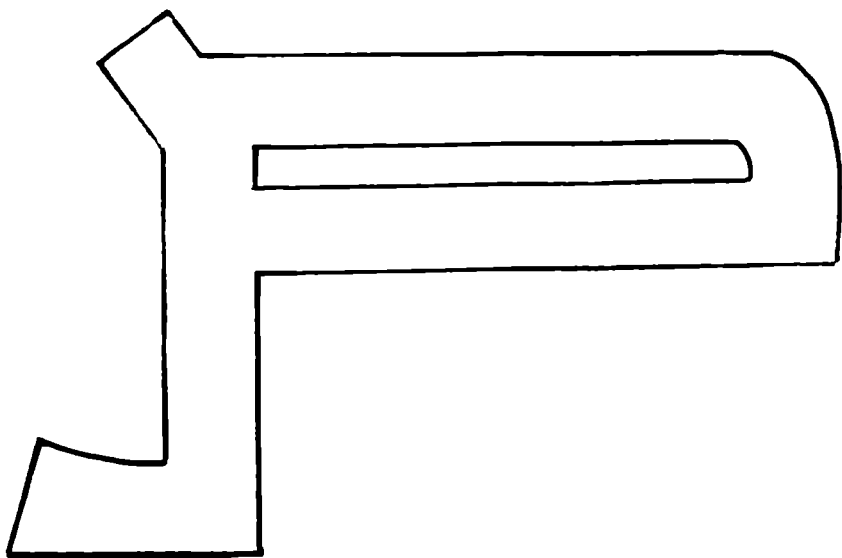
والنبات الذى كان يقف فى زهرته كان أحد أعلى نباتات الأدغال كلها ولذلك وصل نظره إلى بعيد جدا . ومن فتره كان لا يزال الظلام المخملى كسماء ليلة خالية

النجوم ، ولكن من تحته امتدت اللانهاية لقمم أشجار بيريلين في تنوع لوني لدرجة أن عينيه سرعان ما فاضت بالدموع .

ووقف باستيان طويلا ، ورشف الصورة إلى داخله . هذه كانت مملكته ! لقد خلقها ! لقد كان سيد بيريلين .

ومرة أخرى طارت صيحة تهليله الشديدة إلى بعيد فوق الغابة المضيئة ولكن نمو نباتات الليل استمر في صمت ونعومة وبلا توقف .

١٤
جواب طهراء الألوام



صار باستيان يتمطى وقد شعر بسرور بالقوة العظيمة في أعضائه بعد ما نام بعمق ولفترة طويلة في الزهرة العملاقة ذات الوهج الأحمر ، وفتح عينيه فرأى أن سماء الليل المخملية السوداء مازالت تمتد قبتها من فوقه .

ومرة أخرى حدث تغير به دون أن يلاحظ من ذلك شيئا . إن أمنيته بأن يكون قويا قد تحققت . وعندما نهض الآن وتطلع فيها حوله فوق حافة الزهرة العملاقة وجد أن بيريلين على ما يبدو قد توقفت عن النمو شيئا فشيئا . ولم تعد غابة الليل تتغير كثيرا . ولم يعرف باستيان أن هذا أيضا يرتبط بتحقيق أمنيته ، وأن تذكره لضعفه وعدم مهارته قد انمحي في نفس الوقت . لقد كان جميلا وقويا ، ولكن هذا لم يكن يكفيه بشكل ما . وفوق هذا فقد بدا له الآن أن في ذلك قليلا من الطراوة . الجمال والقوة لا يساويان شيئا إلا إذا كان الانسان خشنا ، صلبا وقادرا على التقشف . كأثريو مثلا . ولكن لم تكن هناك فرصة لذلك من بين هذه الزهور المضيئة ، حيث لا يحتاج المرء إلا أن يمد يده إلى الثمار .

وفي الشرق بدأت تتلاعب بوادر درجات اللون الصدفي الناعم للفجر . وكلما ازداد الضوء ، زاد شحوب الوميض الفسفوري لنباتات الليل .

وقال باستيان لنفسه : « جيد ، لقد ظننت أن النهار لن يطلع هنا أبدا . » وجلس على أرضية الزهرة وفكر فيما يريد عمله . أيتسلق عائدا للنزول ويستمر في التنزه ؟ بالتأكيد ، فهو كسيد بيريلين يستطيع أن يشق لنفسه طرقا حيثما يحل له . وكان في استطاعته أن يسير فيها أياما وشهورا ، وربما لسنوات . وكانت الغابة أكبر من أن يعثر على مخرج منها . ومهما كانت نباتات الليل جميلة ، فلم يكن هذا هو

الشيء الصحيح بالنسبة لباستيان على الدوام . شيء آخر مثلا أن يجوب صحراء - أكبر صحراء لفانتازين نعم ، إنه لشيء يمكن التفاخر به حقا !

وفي هذه اللحظة شعر بهزة شديدة تحللت النبات العملاق كله . وانحنى الجذع وسمع صوت طقطقة وخرير . وكان على باستيان أن يمكس نفسه لكيلا يتدحرج خارج الزهرة التي استمرت في الانخفاض ووقفت الآن في وضع أفقى . وكان منظر بيريلين الذى سنح له عن طريق ذلك مفزعا .

وكانت الشمس فى تلك الأثناء قد أشرقت وأضاءت على صورة للدمار . فلم يعد متبقيا من نباتات الليل الهائلة شيء تقريبا . وبأسرع بكثير من نشأتها تحللت الآن فى ضوء الشمس الساطع إلى تراب ورمل ناعم ملون . ولم يظهر بأعلى إلا جذوع متبقية هنا وهناك لبعض عمالقة الأشجار ، وتفتت كأبراج حصون رمال الشواطىء عندما تجف . وبدا أن آخر النباتات التى مازالت صامدة هى تلك التى كان باستيان يجلس فيها . ولكنه عندما حاول الآن أن يتشبث بأوراق الزهرة تناثرت تحت قبضته وطارت كسحابة رمل مع الرياح . والآن حيث لم يعد هناك شيء يحجب النظر إلى أسفل رأى أيضا فى أى ارتفاع يصيب بالدوار كان موجودا . وإذا لم يكن يريد أن يعرض نفسه لخطر السقوط ، فإن عليه أن يحاول بأسرع ما يمكن التسلق إلى أسفل .

ونزل من الزهرة بحذر لكيلا يتسبب فى إحداث اهتزاز غير ضرورى ، وجلس راكبا على الساق الذى انحنى الآن كصنارة الصيد . وما كاد ينتهى من ذلك ، حتى تهاوت الزهرة أيضا من ورائه وتطايرت فى سقوطها إلى سحابة من الرمل الأحمر .

وواصل باستيان تحركه بحرص كبير. البعض كان لن يتحمل النظر إلى العمق المخيف الذى هو مخلوق فوقه ، وكان قد سقط وقد تملكه الرعب ، ولكن باستيان كان خاليا من الدوار تماما واحتفظ بأعصاب من حديد . وكان يعرف أن حركة واحدة متهورة يمكنها أن تتسبب فى كسر النبات . ولم يكن يجوز له أن يدفعه الخطر إلى عدم التروى . واستمر يتقدم ببطء ووصل أخيرا إلى الموضع الذى أصبح الجذع عنده منحدرًا وفى النهاية رأسيا . وتشبث به وانزلق بنفسه سنتيمتر بسنتيمتر . ولأكثر من

مرة انهالت عليه سحابات ضخمة من الأتربة الملونة من أعلى . ولم تعد توجد أغضان جانبية ، وأينما كان هناك جذع متبق بارز ، فقد كان يتفتت على الفور عندما يحاول باستيان أن يستخدمه مسندا له وكان الجذع يزداد سمكا على الدوام إلى أسفل ولم يعد من الممكن التثبيت به ، وكان باستيان لا يزال مرتفعاً عن الأرض بارتفاع البرج . وتوقف لكي يفكر في كيفية التمكن من مواصلة السير .

ولكن هزة جديدة سرت خلال الجذع العملاق نزعت عنه كل تفكير آخر . وما تبقى من الجذع انزلق داخل نفسه وكون جبلا ذا قمع مدبب تدحرج باستيان منه إلى أسفل في دوران شديد بينما هو يتقلب عدة مرات وأخيرا ظل راقدا عند سفح الجبل . وبدأ التراب الملون المنزلق خلفه يردمه . ولكنه كافح مخلصا نفسه ، ورفض الرمل من أذنيه وملابسه وبصق عدة مرات بقوة . ثم نظر حوله .

وكان المشهد الذي رآه خارقا : فقد كان الرمل في كل مكان في حركة بطيئة جارية . وفي دوامات وتيارات غريبة كان يسرى إلى هنا وإلى هناك ويتجمع إلى هضاب وكثبان مختلفة الارتفاع والاتساع . ولكنها دائما ذات لون محدد تماما . فقد كان الرمل الأزرق الفاتح ينساب مع بعضه مكونا كوما أزرق فاتح اللون ، والأخضر إلى أخضر والبنفسجي إلى بنفسجي . لقد تحللت بيريلين وتحولت إلى صحراء ، ولكن أى صحراء .

وتسلق باستيان فوق كُتَيْب من الرمل الأحمر الأرجواني ، ولم ير من حوله شيئا سوى هضاب من وراء هضاب بجميع الألوان الممكن تخيلها ، لأن كل هضبة كانت تظهر درجة من اللون لا تتكرر مع أخرى . وأقرب هضبة كانت زرقاء مثل الكوبالت ، وأخرى صفراء كالزعفران وورائها هضبة بلون أحمر قرمزي ، وبلون أزرق غامق ، وأخضر بلون التفاح ، وأزرق بلون السماء ، وبرتقالي ، ووردي بلون الخوخ ، وبلون البنفسج الفاتح ، والأزرق الفيروزي والبنفسجي بلون الليلك ، وأخضر بلون الطحالب ، وأحمر بلون الياقوت ، وبنى بلون مصفر ، وأصفر هندی ، وأحمر بلون برتقالي وأزرق بلون اللازورد . وهكذا دائما من أفق إلى آخر إلى أن لا تستطيع العين إدراكه . وامتدت جداول من الرمال الذهبية والفضية بين الهضاب وفصلت الألوان عن بعضها .

وقال باستيان بصوت عال : « هذه هي جُواب صحراء الألوان ! »

وارتفعت الشمس إلى أعلى أكثر وأكثر وأصبحت الحرارة قاتلة . وبدأ الهواء يتوهج فوق الكثبان الرملية الملونة وأدرك باستيان أن موقفه الآن قد أصبح صعباً فعلاً . ففي هذه الصحراء لم يكن في إمكانه البقاء ، لقد كان هذا مؤكداً . وإذا لم يفلح في الخروج منها فلا بد أن يقضى نحبه بعد وقت قصير .

ومد يده بلا قصد إلى علامة الإمبراطورة الطفولية على صدره راجياً أن ترشده . ثم اتخذ طريقه وهو رابط الجأش .

وتسلق كُتَيْب بعد الآخر ، وخاض إلى أسفل واحد بعد الآخر ، وكافح متقدماً على هذه الحال دون أن يرى شيئاً غير هضاب من وراء هضاب . والألوان فقط هي التي كانت تختلف باستمرار . ولم تعد قواه الجسدية الخرافية تفيدته . لأن المساحات الشاسعة للصحراء لم يكن من الممكن قهرها بالقوة . وكان الهواء لفحة وهج متأججة من الجحيم لا يكاد يمكن تنفسه . والتصق لسانه في سقف حلقة وسال العرق على وجهه .

وتحولت الشمس إلى دوامة نيران في كبد السماء . وهناك بقيت لوقت طويل وبدأت أنها لم تعد تواصل التحرك . واستمر ذلك النهار الصحراوي لنفس مدة الليل في بيريلين .

واستمر باستيان يواصل المسير . والتهبت عيناه وأحس بلسانه كأنه قطعة من الجلد . ولكنه لم ييأس . وجف جسده وأصبح الدم سميكا في عروقه لدرجة أنه كاد يمتنع عن الجريان . ولكن باستيان واصل المسير على مهل ، خطوة خطوة دون أن يسرع ودون أن يتوقف كما يفعل جميع جوالي الصحراء ذوى الخبرة . ولم يعر اهتماماً لآلام العطش التي كان يعاني منها جسده . فقد استيقظت به عزيمة ذات صلابة حديدية لدرجة أن لا التعب ولا الحرمان استطاع أن يقهره .

وفكر في كيف أنه كان يفقد الشجاعة بسرعة . لقد كان يبدأ مئات الأشياء ويتركها ثانية عند أقل صعوبة . وكان يشغل باله دائماً بالتغذية ويشعر بخوف

مضحك أن يصبح مريضاً أو أن يضطر لاحتمال الآلام . كل هذا خلفه الآن بعيداً من ورائه .

وهذا الطريق خلال صحراء الألوان جُواب الذى قطعه الآن لم يجروُ عليه أحد آخر أبداً من قبل ، ولن يجروُ أبداً أحد آخر من بعده أن يمسيه .

وربما لن يعرف أحد بذلك على الإطلاق .

وهذه الفكرة الأخيرة ملأت باستيان بالأسف ، ولكن لم يكن ممكناً رفضها . وكل شيء كان يؤكّد أن جواب ضخمة بشكل لا يمكن تخيله لدرجة أنه لن يصل أبداً إلى طرف الصحراء ولم يخفه التصور بأنه حتماً سيقضى نجه إن آجلاً أو عاجلاً برغم كل قدرة على التحمل . إنه سيتحمل الموت بهدوء وكرامة كما هي عادة الصيادين من قوم أتريو أن يفعلوا . ولكن لأنه لن يجروُ أحد على القدوم إلى الصحراء ، فلن ينشر أحد أبداً نبأ نهاية باستيان كذلك . لا فى فانتازين ولا فى وطنه . وسوف يعتبر من المفقودين ، وسيكون كما لو لم يأت مطلقاً إلى فانتازين وإلى صحراء جُواب .

وبينما كان يفكر فى ذلك وهو يواصل السير أتت إليه فكرة فجأة . فقال لنفسه : إن كل فانتازين كان يتضمنها الكتاب الذى يكتب فيه عجوز الجبل المتجول . وهذا الكتاب هو قصّة بلا نهاية الذى قرأ فيها بنفسه وهو بالمخزن . وربما يوجد فى هذا الكتاب كل ما عايشه الآن أيضاً . ومن المحتمل جداً أن شخصاً آخر سيقراه فى يوم من الأيام — أو حتى يقرأه فى هذا الحين وفى هذه اللحظة . ولذلك لابد أن يكون من الممكن أيضاً إعطاء ذلك الشخص إشارة .

الكُتيب الرملى الذى كان يقف عليه باستيان فى تلك اللحظة كان أزرق بلون اللازورد . وكان هناك كُتيب رملى أحمر نارى يفصله عنه واد صغير . وذهب باستيان إلى هناك وغرف بكلتا يديه من الرمل الأحمر وحمله إلى الهضبة الزرقاء ثم نثر خطاً طويلاً على المنحدر الجانبى . ورجع عائداً مرة أخرى وأحضر رملاً أحمر جديداً . واستمر يكرر ذلك وبعد فترة كان قد نثر ثلاثة أحرف عملاقة حمراء على الأرضية الزرقاء :

ب ب ب

وتطلع إلى عمله بسرور . فهذه العلامة لن يستطيع أحد من سيقراً قِصَّة بلا نهاية أن يغفلها . ومهما سيصير إليه مصيره الآن ، فسوف يُعرف أين كان موجودا .

وجلس على قمة الجبل الأحمر الناري واستراح قليلا . وأضاءت الثلاثة أحرف بوضوح في شمس الصحراء الساطعة . ومرة أخرى انمحي جزء من ذاكرته عن باستيان عالم البشر . ولم يعد يعرف شيئا من أنه كان يوما ما فيما مضى حساسا ، بل ربما أحيانا كثير الشكوى . إن صلابته وشدة بأسه ملأته بالفخر . ولكن سرعان ما أعلنت أمنية جديدة عن نفسها . وقال لنفسه ، كما كانت عادته : « صحيح أني لا أخاف ، ولكن ما ينقصني هو الشجاعة الحقة . إن تحمل أنواع الحرمان واجتياز المصاعب أمر عظيم . ولكن الإقدام والشجاعة أمر آخر ! أود أن أجابه مغامرة حقة تتطلب شجاعة هائلة . هنا في الصحراء لا يمكن مجابهة أحد . ولكن لقاء كائن خطير ، لا بد وأن يكون أمرا عظيما - فقط لا ينبغي أن يكون في مثل فظاعة إجرامول بالذات ، ولكن أكثر خطورة . ينبغي أن يكون جميلا وفي نفس الوقت أخطر مخلوق لفانتازين . ولسوف أواجهه و . . . »

ولم يتقدم باستيان أكثر من ذلك ، لأنه في نفس اللحظة شعر بأن أرض الصحراء تنزل من تحته . لقد كان مثل دوى عميق لدرجة أن الانسان يحس به أكثر من أن يسمعه .

والتفت باستيان ورأى في أفق الصحراء البعيد خيالا لم يستطع أن يتبينه في بادية الأمر . فقد كان هناك شيء يسرع مثل كرة من النار . وبسرعة هائلة اتخذ دائرة واسعة حول المكان الذي يجلس به باستيان ثم اتجه فجأة ناحيته مباشرة . وبدا الكائن في الهواء الحار المتوهج الذي جعل كل المعالم تتأجج كاللهيب ، مثل شيطان راقص من النار .

وتملك باستيان الخوف ، وقبل أن يفكر ، كان قد جرى إلى أسفل إلى الوادي ما بين الكثيب الأحمر والأزرق ، لكي يختبئ من كائن النار المقرب بسرعة . ولكنه ما كاد يقف بأسفل حتى خجل من هذا الخوف وكتمه في نفسه .

ومد يده إلى آورين على صدره وأحس أن الشجاعة كلها التي تمنها لنفسه حالا

قد سرت إلى داخل قلبه وملأته تماما .

ثم سمع مرة أخرى هذا الدوى العميق الذى اهتزت منه أرض الصحراء ولكن هذه المرة من أقرب مكان . ونظر إلى اعلى .

وعلى قمة الكثيب الأحمر النارى وقف أسد عملاق . وكان يقف أمام الشمس بالضبط لدرجة أن لبدته الهائلة أحاطت وجه الأسد بالوهج كإكليل من اللهب . ولكن هذه اللبدة وكذلك باقى جلده لم تكن صفراء كما هو الحال لدى غيره من الأسود ، ولكنها حمراء نارية مثل الرمال التى كان يقف عليها .

وبدا أن الأسد لم يلحظ الصبى الذى كان يقف فى الوادى بين كلا الكثيبين ضئيل الحجم بالنسبة له ، ولكنه نظر إلى الحروف الحمراء التى تغطى منحدر الهضبة المقابلة .

ثم أطلق مرة أخرى هذا الصوت المدوى الهائل :

— « من فعل هذا ؟ »

فقال باستيان : « أنا » .

— « وماذا يعنى هذا ؟ » .

فأجاب باستيان : « إنه اسمى . فأنا أدعى باستيان بلتازار بوكس . »

وحينئذ فقط التفت الأسد بنظره إليه ، وانتاب باستيان شعور كما لو أن رداء من اللهب يحيط به وأنه سوف يحترق فيه على الفور ويتحول إلى رماد . ولكن هذا الاحساس مر على الفور وصمد أمام نظرة الأسد . وقال الحيوان الهائل : « أنا جراًجر مان سيد صحراء الألوان الذى يسمى أيضا بالموت الملون . »

وكانا لا يزالان ينظران إلى بعضهما الآخر وأحس باستيان بالقوة المميّنة التى تخرج من هذه العيون . لقد كان ذلك كقياس غير مرئى للقوى . وأخيراً أخفض الأسد بصره ونزل من الكثيب الرملى بحركات وثيدة ذات جلال . وعندما وطأ الرمل الأزرق اللازوردى تغير لونه أيضا بحيث كانت لبدته وجلده الآن أزرقا أيضا . وظل الحيوان العملاق واقفا لحظة أمام باستيان الذى اضطر إلى التطلع إليه كالفأر إلى

القطعة ، وفجأة رقد جرأوجرمان وأخفض رأسه أمام الصبي إلى الأرض .

وقال : « سيدى ، أنا خادمك وأنتظر أوامرك ! »

فقال باستيان موضحا : « إننى أود الخروج من هذه الصحراء ، أتستطيع أن تخرجنى ؟ »

وهز جرأوجرمان لبدته بالنفى : « هذا يا سيدى ، مستحيل بالنسبة لى . »

— « لماذا ؟ »

— « لاننى أحمل الصحراء معى . »

ولم يستطع باستيان أن يفهم ما يقصده الأسد بذلك .

ولذلك سأل قائلا : « ألا يوجد مخلوق آخر يستطيع أن يبعدنى من هنا ؟ »

فأجاب جرأوجرمان : « كيف يمكن هذا يا سيدى ، فهناك حيثما أكن

لا يستطيع كائن حى آخر أن يتواجد على المدى البعيد . فوجودى وحده يكفى لإحراق أقوى وأفزع الكائنات فى محيط قدره ألف ميل ، ويجوِّهم إلى كومة من الرماد . ولذلك يسموننى الموت الملون وملك صحراء الألوان . »

فقال باستيان : « أنت مخطىء ، فليس كل كائن يحترق فى مملكتك . أنا مثلا

صامد لك كما ترى . »

— « لانك تحمل البريق يا سيدى . أورين يحميك - حتى من أكثر كائنات

فانتازين كلها قتلا ، منى . »

— « أتريد بذلك أن تقول إننى لولم تكن معى الجوهرة ، لكان علىّ أنا أيضا أن

أحترق وأتحول إلى كومة رماد ؟ »

-- « هكذا يا سيدى ، ولكن ذلك سيحدث حتى وإن اضطررت هذا للأسى .

لأنك أنت الأول والوحيد الذى تحدّث معى على الإطلاق . »

وأمسك باستيان بالعلامة وقال بصوت منخفض : « شكرا يا طفلة

الأقمار ! »

وانتصب جرأوجرمان إلى ارتفاعه الكامل مرة ثانية ونظر إلى باستيان إلى أسفل
وقال :

— « أظن يا سيدى ، أننا لدينا أشياء نقولها لبعضنا . وربما أستطيع أن أكشف
لك عن أسرار لا تعرفها . وربما تستطيع أن تفسر لى لغز وجودى الخافى على . »
وهز باستيان رأسه بالإيجاب .

— « إذا أمكن ، فإننى أود أولا من فضلك أن أشرب الآن شيئا . فأنا ظمآن
جدا . . »

فأجاب جرأوجرمان : « خادمك يسمع ويطيع ، أتريد أن تتعطف يا سيدى
بالجلوس على ظهري ؟ سوف أحملك إلى قصرى حيث تجد كل ما تحتاج إليه . »
وامتطى باستيان صهوة الأسد . وتثبت بكلتا يديه باللبدة التى كانت خصلاتها
المنفردة تهتز كألسنة اللهب . ووجه جرأوجرمان رأسه إليه وقال :

« إمسك نفسك جيدا يا سيدى ، لأننى عداء سريع ، وهناك شىء آخر أريد أن
أرجوك من أجله يا سيدى : طالما أنت فى مملكتى أو حتى معى - عدنى ألا تخلع عنك
الجوهره الحامية لأى سبب ولو لأصغر لحظة . »

فقال باستيان : « أعدك هذا . »

ثم تحرك الأسد بطيئا فى بادىء الأمر وبعظمة ، ثم أكثر وأكثر سرعة على
الدوام .

ولاحظ باستيان بدهشة كيف يتغير لون عرف وجلد الأسد عند كل هضبة رملية
جديدة ، دائما حسب لون الكتيب الرملى . ولكن أخيرا قفز جرأوجرمان فى قفزات
هائلة من قمة إلى أخرى وكان يسرع ولا تكاد مخالبه القوية تلمس الارض . وتتغير
الألوان فى جلده بسرعة دائمة التزايد إلى أن تراقصت الأنوار أمام عيني باستيان ورأى
جميع الألوان فى وقت واحد ، كما لو كان الحيوان العملاق كله قطعة واحدة من حجر
الأوبال ذى الألوان القزحية واضطر أن يغلق عينيه . والريح كالبحيم صفر حول
أذنيه وجذب فى معطفه الذى كان يهتف من ورائه . وأحس بحركة العضلات فى

جسم الأسد وشم الخصل الكثة لعرفه الذى كان يبعث عطرا شديدا مثيرا . وأطلق صرخة انتصار مدوية ، رنت كصرخة طائر جارح ، ورد عليه جرأوجرمان بزئير تزلزلت له الصحراء . وفي هذه اللحظة كانا شيئا واحداً مهما كان حجم الفارق بينهما . وكان باستيان فيما يشبه النشوة ، لم يفق منها إلا عندما سمع جرأوجرمان يقول :

— « لقد وصلنا يا سيدى . أتريد أن تتعطف بالنزول ؟ »

وبقفزة واحدة هبط باستيان على الأرض الرملية . ورأى أمامه جبلا مشققا من الصخور السوداء - أم كانت هذه أطلال أحد المباني ؟ ولم يكن فى استطاعته أن يقول ذلك ، لأن الصخور التى كانت متناثرة نصف متآكلة بفعل الرمال الملونة أو التى كانت تشكل قباب أبواب متهالكة وأسوار أو أعمدة وشرفات ، كانت تتخللها فتحات وشقوق وقد تجوفت بطريقة كما لو كانت العاصفة الرملية قد صقلت جميع حوافها ونتوءاتها منذ أزمان سحيقة .

وسمع باستيان صوت الأسد يقول : « هذا يا سيدى هو قصرى - وقبرى . أدخل ، مرحبا بك كالضيف الأول والوحيد لجرأوجرمان . »

وكانت الشمس قد فقدت قوتها المحرقة ووقفت على الأفق كبيرة وشاحبة الاصفراء . وعلى ما يبدو أن الرحلة قد استغرقت أطول بكثير مما بدا لباستيان . بقايا الأعمدة أو الصخور الإبرية أو ما يحتمل أن تكون الآن ، ألقت ظلالات طويلة . وسريعا ما سيأتى المساء .

وعندما تبع باستيان الأسد عبر قبة بوابة مظلمة تؤدى إلى داخل قصر جرأوجرمان بدا له كأنما خطواته قد أصبحت أقل قوة عن ذى قبل ، بل متعبة ومتأقلة .

ومن خلال عمر مظلم وعبر سلام مختلفة تؤدى إلى أسفل ومرة أخرى إلى أعلى ، أتيا إلى باب كبير ، بدت ضلفه مصنوعة كذلك من الصخر الأسود . وعندما تقدم جرأوجرمان إليه ، فتح من تلقاء نفسه وعندما مر منه باستيان أيضا ، انقفل مرة أخرى من ورائه .

ووقفنا الآن في قاعة واسعة . أو بمعنى أصح ، في كهف أضواءه مئآت من المصابيح المعلقة . وكانت النار بها تشبه التنوع الملون من الذهب في جلد جرأوجرمان . وفي الوسط ارتفعت الأرضية المغطاة بالبلاط الملون بشكل تدريجي مكونة مساحات مستديرة قبعت فيها كتلة صخرية سوداء . ووجه جرأوجرمان إلى باستيان نظره ببطء والذي أعطى انطبعا كما لو كان قد انطفأ الآن .

وقال وصوته يرن كاهمس : « اقتربت ساعتى ، يا سيدى . ولن يبق لحديثنا وقت . ولكن لا تشغل بالك وانتظر النهار . وما حدث دائما ، سوف يحدث هذه المرة أيضا . وربما ستستطيع أن تقول لى لماذا .

ثم وجه رأسه إلى بوابة صغيرة عند الطرف الآخر من الكهف .

— « أدخل هناك يا سيدى ، وستجد كل شىء معد لك . وهذا المخدع ينتظرك منذ زمن سحيق . »

واتجه باستيان إلى البوابة ، ولكن قبل أن يفتحها نظر مرة أخرى وراءه . وكان جرأوجرمان قد استقر فوق الكتلة الصخرية السوداء وكان هو نفسه الآن أسودا مثل الصخرة . وقال بصوت كاد أن يكون همسا فقط : « اسمع يا سيدى ، ربما ستسمع أصواتا تفزعك . ولكن لا تشغل بالك . فلا يمكن أن يحدث لك شىء طالما أنك تحمل العلامة . »

وهز باستيان رأسه ثم خطا خلال البوابة .

وكانت أمامه غرفة مزدانة بأروع ما يكون . الأرضية مغطاة بسجاجيد لينة بهيجة الألوان . الأعمدة النحيلة التى كانت تحمل قبة متعددة الانحناءات ، كانت مغطاة بفسيفساء ذهبية كانت تعكس بالآف الانكسارات ضوء المصابيح المعلقة التى كانت تنير هنا أيضا بكل الألوان وفى أحد الأركان كانت أريكة عريضة ذات أغطية ووسائد لينة من كل نوع ، ومن فوقها شدت خيمة من الحرير الأزرق السماوى . وفى الركن الآخر نحتت الأرض الصخرية إلى حوض سباحة كبير ، تتصاعد فيه أبخرة من سائل يضىء بلون ذهبى . وعلى مائدة صغيرة منخفضة كانت أوان وصحاف بطعام ، وكذلك قنينة بمشروب بلون الياقوت وكأس ذهبى .

وجلس باستيان مربعا رجليه عند المائدة الصغيرة ومد يده . والمشروب كان طعمه حمضيا وشديدا وأطفأ الظمأ بشكل رائع . وكانت الأطعمة كلها غير معروفة لديه تماما . ولم يكن في استطاعته حتى أن يقول إذا كانت فطائر أو قرون خضروات كبيرة أو مكسرات بعضها كان يبدو كالقرع أو البطيخ ، ولكن الطعم كان مختلفاً نهائيا ، حريفاً وشديداً .

وبعد ذلك خلع ملابسه - العلامة فقط لم يخلعها - ونزل إلى الحمام . وسبح لاهيا في تيار الماء الناري لفترة من الزمن . واغتسل وغطس ونفث الهواء مثل سبع البحر . ثم اكتشف زجاجات غريبة الشكل موجودة على حافة حوض السباحة . واعتبرها محاليل مركزة للاستحمام . فسكب من كل نوع شيئا في الماء دون أن يبالي . فحدثت ألسنة هب خضراء وحمراء وصفراء لعدة مرات طشت على السطح هنا وهناك وتصاعد قليل من الدخان . وانبعثت رائحة صمغ وأعشاب مُرة .

وخرج أخيرا من الحمام وجفف نفسه بمناشف لينة كانت هناك جاهزة وارتدى ملابسه مرة ثانية . وأثناء ذلك بدا له كما لو كانت المصابيح المعلقة في الغرفة تضيء أكثر عتامة فجأة ، وبعد ذلك اقتحم مسامعه صوت بعث في بدنه رعدة باردة : خشخشة وطققة كما لو كان الجليد قد فجر صخرة ضخمة ، وتلاشى بأنين ازداد انخفاضا على الدوام .

واستمع باستيان وقلبه يخفق . وفكر في كلمات جرأوجرمان ألا يضطرب . ولم يتكرر الصوت . ولكن السكون كاد أن يكون أكثر رعبا . وكان لا بد له أن يعرف ماذا يحدث هناك ؟ وفتح باب مخدع النوم وأطل بنظره إلى الكهف الكبير . ولم يستطع في بادئ الأمر أن يكتشف تغيرا ، خلاف أن المصابيح المعلقة كانت تضيء بعتامة أكثر وبدأ ضوءها ينبض كضربات قلب متزايدة البطء . وكان الأسد لا يزال يجلس بنفس الوضع على الكتلة الصخرية السوداء وبدا أنه ينظر إلى باستيان .

ونادى باستيان بصوت خافت : « جرأوجرمان . ماذا يحدث هنا ؟ ما كان هذا الصوت ؟ أكان هذا أنت ؟ »

ولم يرد الأسد ولم يتحرك . ولكن عندما تقدم إليه باستيان تابعه بعينه .

ومد باستيان يده مترددا لكى يمسح على لبدته ، ولكنه ما كاد يلمسها حتى انتفض مذعورا . لقد كانت صلبه وباردة كالثلج مثل الصخرة السوداء . ونفس الإحساس أعطته مخالب ووجه جرأوجرمان . ولم يعرف باستيان ما يجب أن يفعله . ورأى أن ضلفتى الباب الضخم الحجريتين السوداوين تفتح ببطء . فقط عندما كان فى الممر الطويل المظلم وصعد السلم إلى أعلى تساءل عما كان يريد بالخارج : فلم يكن ممكنا وجود أحد فى هذه الصحراء يستطيع إنقاذ جرأوجرمان .

ولكن لم تعد هناك صحراء .

فقد بدأ لمعان وتوهج فى كل مكان فى ظلمة الليل . ملايين من بذور النباتات الضئيلة نبتت من حبيبات الرمل التى كانت بدورها حبات بذور . لقد بدأت بيريلين غابة الليل تنمو من جديد !

وشعر باستيان فجأة أن تصلب جرأوجرمان له علاقة بهذا بأى شكل من الأشكال .

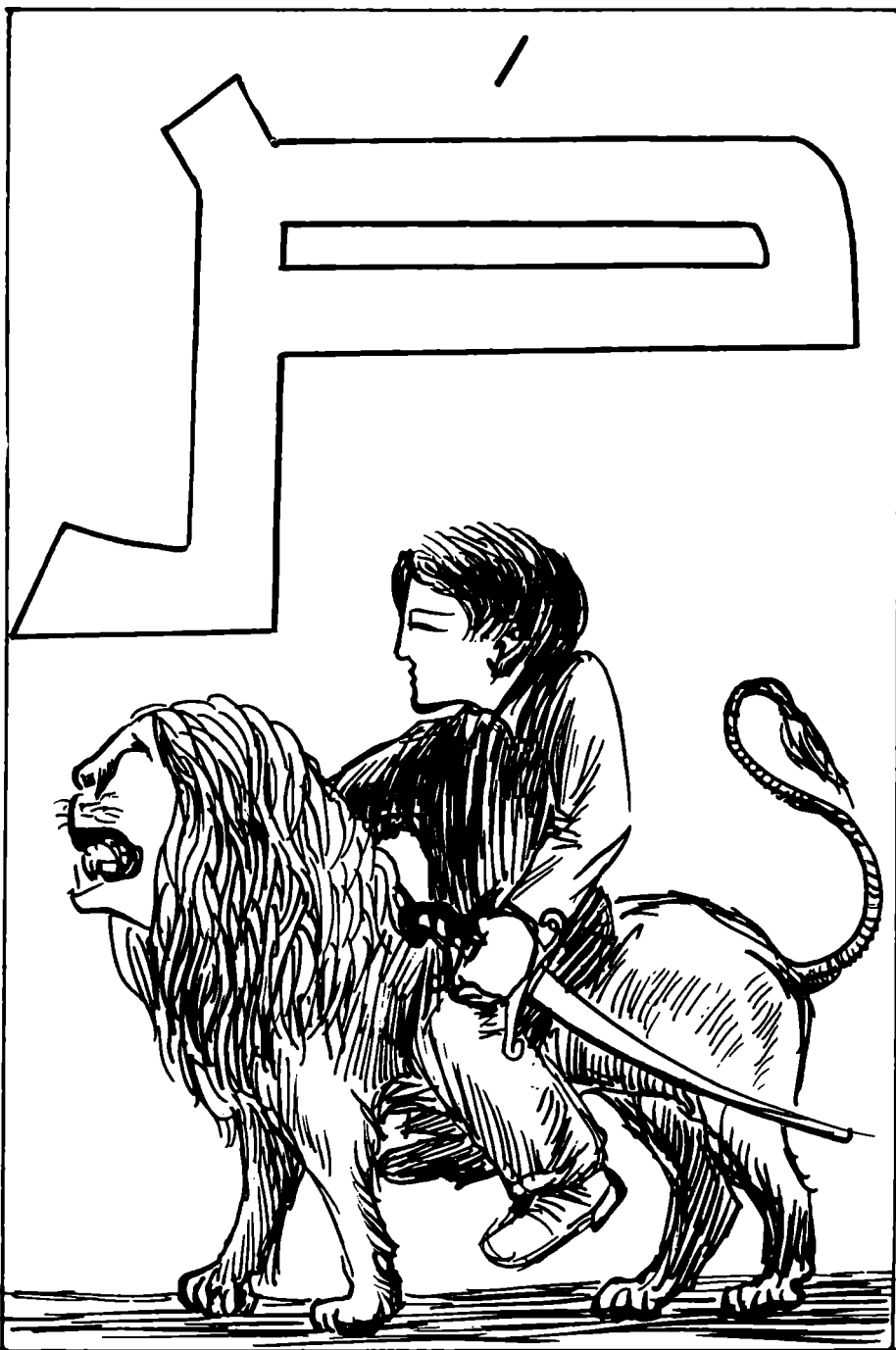
ورجع إلى الكهف . وكان الضوء فى المصاييح المعلقة لا يزال يومض ضعيفا جدا فقط . ووصل إلى الأسد ، واحتوى رقبتة القوية بذراعيه وضغط وجهه على وجه الحيوان .

وكانت عينا الأسد الآن سوداء وميتة كالصخر . لقد كان جرأوجرمان متحجرا . وحدث وميض أخير للأضواء ثم عم الظلام كما فى القبر .

وبكى باستيان بمرارة وبللت دموعه الوجه الحجرى للأسد . وأخيرا تكور بين المخالب الهائلة وراح فى النوم .

١٥

جرأ وجرمان .. الموت الملوحة



ضرغام الصحراء ، قال بصوته المدوّى : « سيدى ، هل قضيت الليلة كلها على هذا النحو؟ » .

فاعتدل باستيان ودعك عينيه . وكان يجلس بين مخالب الأسد ، وتطلع وجه الأسد الكبير إليه إلى أسفل ، وكانت الدهشة مرتسمة في نظرة جرأ وجرمان . وكان جلده لا يزال أسود مثل الكتلة الصخرية التي يجلس عليها ، ولكن عيناه كانتا تتألان . وعادت المصاييح المعلقة تضىء في الكهف .

فقال باستيان متلعثما : « آخ ، أنا ، أنا كنت أعتقد أنك تحجرت . »
فرد الأسد : « ولقد كنت ذلك . فأنا أموت يوميا عندما يقبل الليل ، وكل صباح أصحو ثانية . »

فقال باستيان شارحا : « ظننت أن ذلك للأبد . »
فرد جرأ وجرمان في غموض : « إن كل مرة تكون إلى الأبد . »

ونفض وتمطى وبعد ذلك جرى إلى هنا وهناك في الكهف كعادة الأسود . وبدأ جلده ذو اللهب يتوهج في ألوان البلاطات الملونة بشكل متزايد الإضاءة . وفجأة توقف عن الجرى ونظر إلى الصبى .

- « ترى ، هل سكت الدمع من أجلى؟ »
فهز باستيان رأسه بالإيجاب صامتا .

فقال الأسد : « إذن فأنت لست فقط الشخص الوحيد الذى نام بين مخالب الموت الملون ، بل أيضا الوحيد الذى بكى على موته . »

ونظر باستيان إلى الأسد الذى عاد يتمشى جيئة وذهابا ، وأخيرا سأل بصوت منخفض :

- « هل أنت دائما وحيد ؟ »

وتوقف الأسد من جديد ، ولكنه هذه المرة لم ينظر إلى باستيان ، وظل مشيحا بوجهه وكرر القول بصوت مدو :

- « وحيد . . . »

ورن صدى الكلمة فى الكهف .

- « مملكتى هى الصحراء - وهى أيضا من صنعى . وأى مكان أتوجه إليه ، كل شىء من حولى لا بد وأن يصبح صحراء . إننى أحملها معى . أنا من نار مميتة . فكيف إذن يمكن لشىء آخر أن يكون مُقدرا لى غير الوحدة الدائمة ؟ »
وصمت باستيان مشدوها .

وواصل الأسد كلامه بينما هو يتقدم إلى الصبى وينظر إلى وجهه بعينين متوهجتين : « أنت ، ياسيدى يا من تحمل علامة الإمبراطورة الطفولية تستطيع أن تمنحنى إجابة : لماذا لا بد لى أن أموت عندما يقبل الليل ؟ »

فقال باستيان : « لكى تستطيع بيريلين ، غابة الليل أن تنمو فى صحراء الألوان . »

فقال الأسد مكررا : « بيريلين ؟ ما هذا ؟ »

والآن قص باستيان عن عجائب الأدغال التى تتكون من النور الحى . وبينما جرأجرمان يستمع بدهشة ودون أن يتحرك ، وصف له تنوع وروعة النباتات ذات الوهج والوميض الفوسفورى ، التى تتكاثر من نفسها ، ونموها الصامت الذى لا يتوقف ، وجمالها الحالم وعظمتها . وكان يتحدث بحماس ، وعينا جرأجرمان تتوهج بضوء متزايد على الدوام .

وختم باستيان كلامه قائلا : « وكل هذا لا يمكن إلاّ بينما تكون أنت متحجرا ولكن بيريلين كانت ستبتلع كل شىء وتختنق بنفسها ، إذا لم يتحتم عليها أن تموت وتندوى ، حينها تستيقظ أنت . بيريلين وأنت ، يا جرأجرمان ، تنتميان إلى بعض . »

وصمت جرأوجرمان لوقت طويل .

ثم قال : « سيدى ، إننى أرى الآن أن موتى يمنح حياة ، وحياتى تمنح الموت ، وكلاهما حسن . الآن فهمت مغزى وجودى . أشكرك . »

وخطا ببطء ووقار إلى أظلم ركن بالكهف . ولم يستطع باستيان أن يرى ماذا يفعل هناك ولكنه سمع صليلاً معدنيا . وعندما رجع جرأوجرمان ، كان يحمل شيئا فى فمه وضعه أمام قدمى باستيان بانحناء عميقة برأسه .
لقد كان سيفاً .

وفى الحقيقة لم يكن يبدو عليه الفخامة . والجراب الذى كان بداخله ، كان صدئا ومقبضه يكاد يبدو كمقبض سيف الأطفال المصنوع من أى قطعة خشبية قديمة .

وسأل جرأوجرمان : « أتستطيع أن تمنحه اسما ؟ »
وتأمله باستيان بتفكير .
وقال : « سيكاندا ! »

وفى هذه اللحظة خرج السيف محدثا صفيرا من جرابه وطار بالفعل إلى يده . ورأى الآن أن صفحته تتكون من الضوء اللامع الذى يكاد المرء لا يستطيع النظر إليه . وكان ذا حدين وخفيف الوزن فى اليد كالريشة .

وقال جرأوجرمان : « إن هذا السيف كان منذ الأزل محددا لك . . ؛ لأن لا أحد يستطيع أن يلمسه بدون خطورة إلا من امتطى صهوتى . وأكل وشرب من نارى واستحم فيها مثلك . ولكن فقط لأنك استطعت أن تمنحه اسمه الصحيح فهو يخلصك . » وهمس باستيان وتأمل الضوء اللامع وهو مأخوذ ، بينما هو يدير السيف فى الهواء ببطء : « سيكاندا ! ، إنه سيف سحرى ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب جرأوجرمان : « لا يوجد شيء فى فانتازين يصمد أمامه سواء كان صلبا أو صخرا . ولكن لا يجوز لك أن تستعمل القوة معه . مسموح لك أن تستخدمه فقط عندما يقفز بنفسه إلى يدك مثل الآن – مهما كان ما يهددك . فإنه سوف يقود يدك ويفعل بقوته الخاصة ما يجب فعله . ولكن إذا أنت سحبت من جعبته

حسب رغبتك ، فإنك سوف تجلب شقاء عظيما عليك وعلى فانتازين . لا تنس هذا أبدا . »

فوعد باستيان قائلا : « لن أنسى هذا . »

وعاد السيف إلى جرابه ، وبدا منظره الآن قديما وعديم القيمة مرة ثانية . وربط باستيان السير الجلدى الذى يتدلى منه الجراب ، حول وسطه .

واقترح جرأوجرمان قائلا : « والآن ياسيدى دعنا نعدو سويا خلال الصحراء ، إذا أعجبك هذا اصعد على ظهري ، لأننى لا بد أن أخرج الآن ! »

وامتطى باستيان صهوته وسار الأسد متمهلا إلى الفلاة . وصعدت شمس الصباح فوق أفق الصحراء ، وكانت غابة الليل قد تناثرت إلى رمال ملونة مرة ثانية منذ وقت طويل . وهكذا انطلقا سويا فوق الكثبان كحريق من النيران المتراقصة كرياح عاصفة متوهجة . وشعر باستيان كما لو كان يمتطى نيزكا مشتعلا عبر الضياء والألوان . ومرة أخرى انتابه ما يشبه النشوة الهوجاء .

وفى وقت الظهيرة تقريبا توقف جرأوجرمان فجأة .

- « هذا ياسيدى ، هو الموضع الذى تقابلنا فيه أمس . »

وكان باستيان مخدرا قليلا من العدو الشديد . ونظر حوله ، ولكنه لم يكتشف لا الهضبة الرملية الزرقاء بلون اللازورد ولا الحمراء النارية . وكذلك لم يعد يرى شيئا من الحروف . وكانت الكثبان الرملية الآن خضراء بلون الزيتون ووردية . فقال : « إن كل شىء مختلف تماما . »

فرد الأسد : « أجل ياسيدى ، هكذا الحال كل يوم - فى اختلاف دائم . لم أكن أعرف فيما مضى لماذا الأمر على هذا النحو . ولكننى الآن أستطيع أن أفهم هذا أيضا لأنك حكيت لى أن بيريلين تنشأ من الرمال . »

- « ولكن ممّ عرفت أنه موضع أمس ؟ »

- « إننى أشعر به كما أشعر بموضع فى جسدى . الصحراء جزء منى . »

وترجل باستيان من على ظهر جرأوجرمان وجلس على القمة الخضراء بلون الزيتون . واتخذ الأسد عرينه إلى جانبه ، وكان هو الآن أخضر بلون الزيتون .

وسند باستيان ذقنه على يده ونظر إلى الأفق بتأمل .

وقال بعد صمت طويل : « هل أستطيع أن أسألك شيئا يا جرأوجرمان ؟ »

متبة

t.me/t_pdf

وأجاب الأسد قائلا : « خادمك يسمع . »

- « هل أنت فعلا منذ الأزل هنا ؟ »

فقال جرأوجرمان مقررا هذا : « منذ الأزل . »

- « وصحراء جواب هل هي أيضا كانت موجودة منذ الأزل ؟ »

- « نعم ، الصحراء أيضا . لماذا تسأل ؟ »

وفكر باستيان برهه .

وأخيرا اعترف قائلا : « لست أفهم هذا . إنني كنت سأراهن أنها موجودة فقط

منذ صباح أمس . »

- « ماذا تقصد بهذا ياسيدي ؟ »

وحكى له باستيان الآن كل ما عايشه منذ قابل طفلة الأعمار .

وأنتهى حكايته قائلا : « إن كل شيء غريب ، تأتي إلى أمانة ما وبعد ذلك

يحدث دائما على الفور شيء يناسبها ويحقق الأمانة . إنني لا أخلق هذا ، أتعرف ؟

ليس هذا في استطاعتي . فإنني لن أستطيع أبدا أن أخترع كل نباتات الليل المختلفة

في بيريلين . أو ألوان جواب - أو أنت ! إن كل شيء أكثر روعة وواقعية من أن

أستطيع تصويره . وبرغم ذلك فكل شيء دائما يتواجد فقط عندما أكون قد تمنيته . »

فقال الأسد : « هذا يحدث لأنك تحمل أورين ، البريق . »

وحاول باستيان الإيضاح بقوله : « إن مالا أفهمه شيء آخر . أكل هذا

لا يكون إلا عندما أمتنى لنفسى شيئا ، أم كان موجودا فعلا من قبل ، وأنا خنته فقط

بشكل ما ؟ »

وقال جرأوجرمان : « كلاهما . »

فصاح باستيان وصبره يكاد ينفذ : « ولكن كيف يمكن لهذا أن يكون ؟ أنت

هنا ، من يدري منذ متى ، في صحراء الألوان جواب . والعرقة في قصرك كانت

تنتظرنى منذ الأزل . والسيف سيكوناندا كان مُقدّرا لي منذ قديم الزمن - لقد قلت

هذا بنفسك ! »

- « الأمر هكذا ياسيدى . »

- « ولكنى ، أنا فى فانتازين منذ ليلة أمس فقط ! فإن كل هذا ليس له وجود فقط منذ وجودى هنا ! »

فرد الأسد بهدوء : « سيدى ، ألا تعلم أن فانتازين هى مملكة القصص ؟ يمكن لقصة أن تكون جديدة ولكنها تحكى عن أزمنة قديمة الأزل . الماضى ينشأ معها . »

فقال باستيان فى حيرة : « إذن لابد وأن بيريلين أيضا كانت موجودة دائما . »
فرد جرأوجرمان : « منذ اللحظة التى منحتها فيها اسمها ، ياسيدى ، وُجدت منذ الأزل . »

- « أتريد أن تقول بذلك اننى خلقتها ؟ »

وصمت الأسد برهة قبل أن يجيب قائلا : « هذا ما تستطيع أن تقوله لك الإمبراطورة الطفولية فقط . لقد تلقيت منها كل شىء . »

ونفض . - « حان الوقت ياسيدى ، أن نعود إلى قصرى . الشمس تميل والطريق بعيد . »

وفى هذا المساء بقى باستيان مع جرأوجرمان الذى استقر ثانية فوق الكتلة الصخرية السوداء . ولم يعودا للحديث كثيرا سويا . وأحضر باستيان لنفسه الطعام والشراب من مخدع النوم حيث كانت المائدة الصغيرة المنخفضة معدة مرة أخرى كما لو كانت بيد الأشباح . وتناول الوجبة وهو جالس على الدرجات المؤدية إلى الكتلة الصخرية بأعلى . وعندما ازدادت عتامة المصابيح المعلقة وبدأت تنبض كضربات قلب يتزايد بطئا باستمرار ، نهض ولف ذراعيه وهو صامت حول رقبة الأسد . وكانت اللبدة صلبة قد بدا منظرها مثل الحمم البركانية المتجمدة . وصدر مرة أخرى هذا الصوت المرعب ، ولكن باستيان لم يعد يعرف الخوف . إن ما دفع الدموع إلى عينيه مرة أخرى ، كان الحزن على حتمية آلام جرأوجرمان .

مرة أخرى تحسس باستيان طريقه فيما بعد من الليل خارجا إلى الخلاء وتفرج لوقت طويل على النمو الصامت لنباتات الليل المضيئة . ثم رجع إلى الكهف ورقد مرة أخرى بين مخالب الأسد المتحجر .

وظل ضيفا على الموت الملون لأيام وليال كثيرة وأصبحت أصدقاء . وكانا يقضيان بعض الساعات في لهُو صاحب . فكان باستيان يختبئ بين الكثبان الرملية ، ولكن جرأوجرمان كان يعثر عليه دائما . وكانا يتسابقان ولكن الأسد كان أسرع ألف مرة . بل انها كانا يتقاتلان مع بعضهما مازحين ، يتصارعان ويتعاركان - وهنا كان باستيان نِدًا . وبالرغم من أن ذلك لم يكن إلا هوا ، فقد اضطر جرأوجرمان أن يبذل كل قواه لكي يظهر نفسه نِدًا للصبي . ولم يستطع واحد منهما أن يتغلب على الآخر . ذات مرة ، وبعد أن تصاحبا على هذا النحو ، جلس باستيان مقطوع الأنفاس قليلا وسأل قائلا : « ألا أستطيع أن أبقى معك إلى الأبد ؟ »

وهز الأسد لبدته بالنفى قائلا : « كلا ، ياسيدى .
- « لم لا ؟ »

- « هنا توجد فقط حياة وموت ، فقط بيريلين وجواب ، ولكن لا توجد قصة يجب أن تعيش قصتك . غير مسموح لك بالبقاء هنا . »

فقال باستيان : « ولكنني لا أستطيع الانصراف . الصحراء أكثر بكثير من أن يتمكن أى فرد من الخروج منها . وأنت لا تستطيع إخراجي لأنك تحمل الصحراء معك . »

فقال جرأوجرمان : « أنت لا تستطيع العثور على طرق فانتازين إلا بواسطة أمنياتك . وأنت دائما لا تستطيع إلا أن تسير من أمنية إلى أمنية تالية . ومالا تمناه فهو بالنسبة لك لا يمكن الوصول إليه ، هذه هي معاني كلمات « قريب » و « بعيد » هنا . ولا تكفى أيضا الرغبة في الانصراف من أحد الأمكنة فقط . فعليك أن تسعى إلى مكان آخر . عليك أن تدع أمنياتك تقودك . »

فأجاب باستيان قائلا : « ولكنني لا أتمنى إبعاد نفسي على الإطلاق . »

فرد جرأوجرمان بما يكاد يكون صارما : « سوف يتحتم عليك أن تعثر على أمنيتك التالية . »

وسأل باستيان : « وإذا لم أعثر عليها ، كيف سأتمكن حينئذ من الانصراف من هنا ؟ »

وتحدث جرأوجرمان بصوت منخفض : « اسمع ياسيدى ، يوجد فى فانتازين مكان يؤدى إلى كل مكان ، ويمكن الوصول إليه من كل مكان . وهذا المكان يسمى معبد الألف باب . لا أحد رآه من الخارج من قبل ، لأنه ليس له مظهر خارجى . ولكن داخله يتكون من حديقة تيه ذات أبواب . من أراد التعرف عليه ، فيجب أن يجروء على الدخول فيه . »

– « كيف يمكن هذا ، إذا كان لا يمكن الاقتراب منه من الخارج على الإطلاق ؟ »

وأكمل الأسد كلامه قائلاً : « كل باب ، كل باب فى فانتازين ، حتى باب عادى جدا لحظيرة أولمطبخ ، وحتى باب الصوان يمكنه فى لحظة معينة أن يصبح بوابة الدخول إلى معبد الألف باب . وإذا مرت اللحظة ، فإنه يعود مرة أخرى إلى ما كان من قبل . ولذلك لا أحد يستطيع أن يمر من نفس الباب للمرة الثانية أبدا . ولا يؤدى واحد من الأبواب الألف ثانية إلى المكان الذى جىء منه . فلا توجد عودة . »

فسأل باستيان : « ولكن إذا ما كان الإنسان بالداخل مرة ، فهل يستطيع الخروج مرة أخرى من مكان ما ؟ »

فأجاب الأسد : « نعم ، ولكن الأمر ليس بالسهولة التامة كما هو الحال لدى المباني العادية . لأن أمنية حقيقية فقط هى التى تستطيع أن تقودك خلال حديقة تيه الألف باب . ومن لا يمتلكها يتحتم عليه البقاء بالداخل إلى أن يعرف ما يتمناه لنفسه . وهذا يستغرق أحيانا وقتا طويلا جدا . »

– « وكيف يمكن العثور على بوابة الدخول ؟ »

– « يجب تمهينها . »

وفكر باستيان طويلا ثم قال :

– « عجيب ألا يستطيع الإنسان مجرد تمنى ما يريد . من أين تأتى الأمنيات إلينا ياترى ؟ وما تكون الأمنية ؟ »

ونظر جرأوجرمان إلى الصبى بدهشة ، ولكنه لم يجب .

وبعد ذلك بأيام كان لهما مرة أخرى حديث هام جدا .

باستيان أرى الأسد النقش المكتوب على ظهر الجوهرة . وسأل قائلاً : « تُرى مامعنى هذا ؟ أفعل ماأنت تُريدُ ، هذا يعنى أنه مسموح لى أن أفعل كل ما يحلولى ، ألسنت من هذا الرأى ؟ »

وبدا وجه جرأوجرمان فجأة جادا بشكل مفزع وبدأت عيناه تتوهجان . وقال بذلك الصوت العميق المدوى : « كلا ، هذا يعنى أن عليك أن تفعل إرادتك الحقيقية . وليس هناك أصعب من ذلك . »

فكرر باستيان القول متأثرا : « إرادتى الحقيقية ؟ وماهذه ؟ »

- « إنها سرك الخاص الدفين الذى لا تعرفه . »

- « وكيف يمكننى التوصل إليه ؟ »

- « بأن تسير فى طريق الأمانى ، من أمنية إلى أخرى وحتى الأمنية الأخيرة . وهذه سوف تقودك إلى إرادتك الحقيقية . »

فقال باستيان : « إن هذا يبدو لى ليس صعبا فى الواقع . »

فقال الأسد : « إنه من ضمن كل الطرق أخطرها . »

فسأل باستيان : « لماذا ؟ إننى لست خائفا . »

فقال جرأوجرمان بصوته المدوى : « ليس هذا هو محور الأمر ، إنها تتطلب أعلى درجة من الصدق والاهتمام ، لأن الأمر فى أى طريق آخر ليس على نفس القدر من السهولة لكى يضل الإنسان نهائيا . »

فسأل باستيان متفحصا : « أتقصد ، ربما لأن الأمنيات التى لدى الإنسان ليست ، دائما طيبة ؟ »

وفرقع الأسد بذيله على الرمال التى يرقد عليها . ورفع أذنيه وتكشرت أشفاره وتطايرت النار من عينيه . واختبأ باستيان لا إراديا عندما قال جرأوجرمان بصوت زلزل الأرض مرة أخرى :

- « ماذا تعرف عما هى الأمانى ! ماذا تعرف عما هو طيب ! »

وفى الأيام التالية فكر باستيان كثيرا فى كل ما قاله الموت الملون له . ولكن بعض الأشياء لا يمكن تقصيصها عن طريق التفكير ، يجب أن يعايشها الإنسان . وهكذا

حدث أنه بعد ذلك بوقت طويل وبعد أن خابر الكثير أن أعداد تفكيره في كلمات جراًوجرمان وبدأ يفهمها .

وحدث لباستيان في هذا الوقت تغير آخر . فقد أتت الآن الشجاعة أيضا إلى جانب كل المواهب التي تلقاها منذ التقائه بطفلة الأقمار . ومثل كل مرة أخذ منه شيء هذه المرة أيضا في مقابل ذلك ، وهو ذلك التذکر لشعوره السابق بالخوف .

وحيث إنه لم يعد الآن هناك شيء يخاف منه فقد أخذت تتشكل به أمنية جديدة غير ملحوظة في بادئ الأمر ، وبعد ذلك إزدادت دائما في الوضوح . انه لم يعد يريد أن يكون وحيدا . وحتى مع الموت الملون كان وحيدا بشكل ما . لقد أراد أن يظهر قدراته أمام الآخرين ، أراد أن يكتسب الإعجاب والمجد .

وفي ليلة من الليالي ، عندما كان يشاهد نداء بيريلين مرة أخرى ، شعر فجأة أن هذه هي المرة الأخيرة وأنه يجب عليه أن يودع بهاء غابة الليل المنيرة . لقد نادى عليه صوت داخلي بالابتعاد

وألقى نظرة أحيرة على روعة الألوان المتوهجة ، ثم نزل إلى كهف قبر جراًوجرمان وجلس على الدرجات في الظلام . ولم يكن في استطاعته أن يقول ماذا كان ينتظر ، ولكنه كان يعرف أنه غير مسموح له أن يخلد للنوم في هذه الليلة . ولكنه ربما راح في إغفاءة بسيطة وهو جالس ، لأنه استيقظ فجأة كما لو كان شخص ما قد ناداه بالاسم .

وكان الباب المؤدى إلى مخدع النوم قد فتح . وسقط من الشق شريط طويل من الضوء المائل للحمرة خلال الكهف المظلم . ونهض باستيان . هل تحول الباب في هذه اللحظة إلى مدخل لمعد الألف باب ؟ واقترب من الشق في تردد وحاول أن ينظر من خلاله . ولم يستطع أن يتعرف على شيء . ثم بدأ الشق ينغلق مرة ثانية ببطء ولسوف تمر الفرصة الوحيدة وتنقضى على الفور !

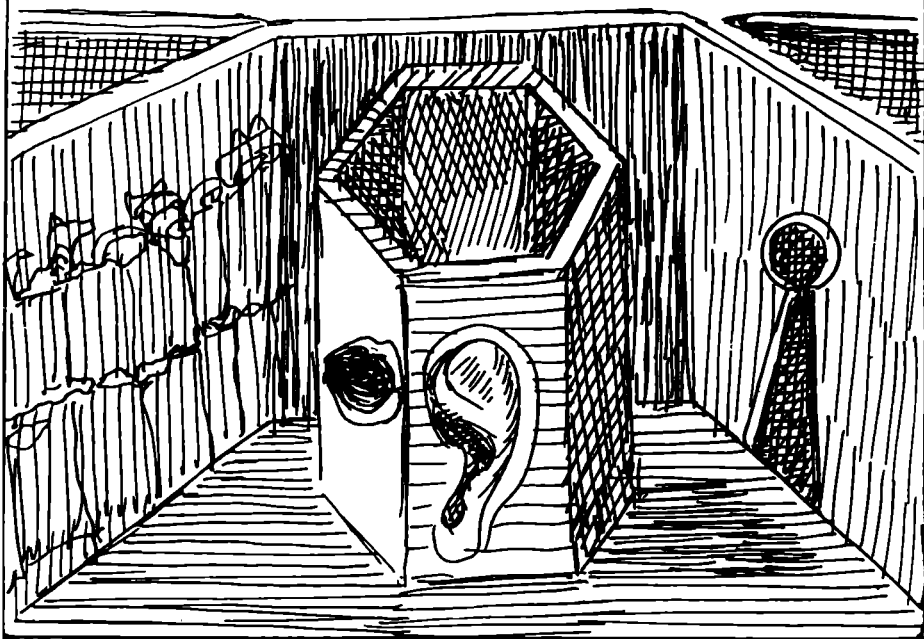
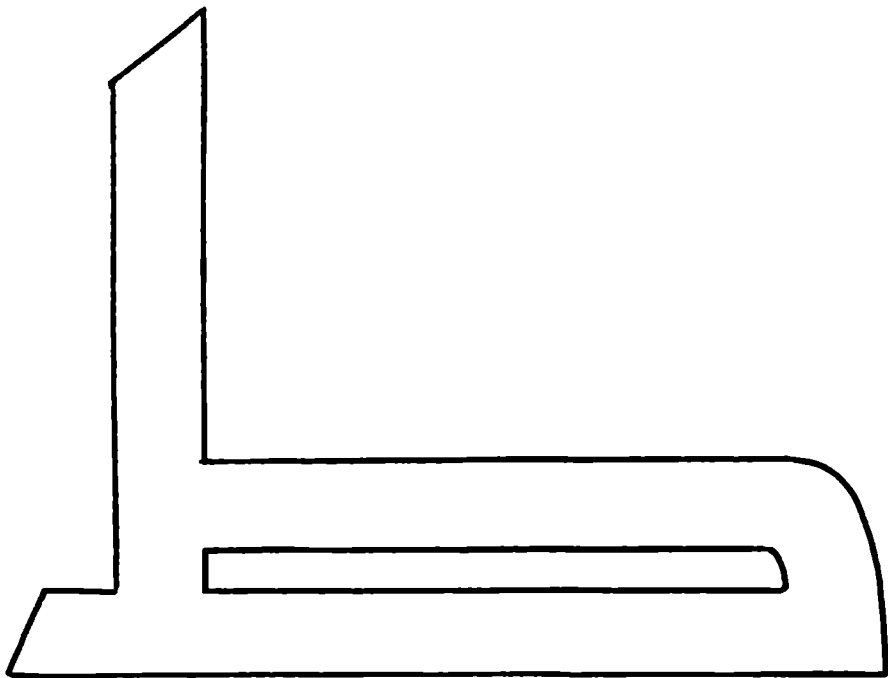
واستدار مرة أخرى إلى جراًوجرمان الجالس بلا حراك على قاعدته بعيون حجرية ميتة . وكان شريط الضوء الآتي من الباب يقع عليه بالذات .

وقال بصوت منخفض : « وداعا يا جرأوجرمان ، وشكرا على كل شيء .
سوف أعود ، بالتأكيد التام سأعود . »

ثم دلف من خلال شق الباب الذي انقفل من ورائه مباشرة .
ولم يكن باستيان يعرف أنه لن يفى بوعدده . وسوف يأتي شخص فيما بعد بوقت
طويل طويل ويحققه بإسمه وبالنيابة عنه .
ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تُحكى في مناسبة أخرى .

١٦

أمريجانتي.. مدينة الفضة



طاف ضوء أرجواني في موجات بطيئة على أرضية وجدران الغرفة . لقد كانت غرفة سداسية الأركان ، تشبه خلية نحل كبيرة . وفي كل ثاني جدار كان يوجد باب ، والجدران الثلاثة الباقية الواقعة بينها ، كانت مرسومة بصور غريبة ، لقد كانت مناظر طبيعية من الأحلام ومخلوقات يحتمل أن يكون نصفها نبات ونصفها حيوانات . وكان باستيان قد دخل من أحد الأبواب ، والبابان الآخران كانا يقعان عن يمينه وعن شماله . وكان شكلهما متساويا تماما ، غير أن الأيسر كان أسود والأيمن أبيض اللون . وقرر باستيان اختيار الأبيض .

وكان ضوء أصفر اللون يسود الغرفة التالية . والجدران كانت بنفس النظام . والصور تعرض هنا أدوات مختلفة الأنواع لم يستطع باستيان أن يفهم منها شيئا . هل كانت أدوات أم أسلحة ؟ وكلا البابين المؤديين إلى اليسار وإلى اليمين كان لهما نفس اللون ، وكانا باللون الأصفر ، ولكن الباب الأيسر كان عاليا وضيقا ، أما اليمين فقد كان منخفضا وعريضا . ومشى باستيان من خلال الأيسر .

الغرفة التي دخلها الآن كانت مثل الاثنتين السابقتين ، ولكنها مضاءة بلون أزرق . وعرضت صور الجدران زخارف متعرجة أو كتابات لأبجدية غريبة . وهنا كان فعلا لكلا البابين نفس الشكل ولكن من مادة مختلفة ، واحد من الخشب والثاني من المعدن . وقرر باستيان اختيار الخشبي .

من المستحيل وصف جميع الأبواب والغرف التي سار باستيان من خلالها أثناء تجواله عبر معبد الألف باب . فكانت هناك بوابات منظرها مثل ثقب الكوالين ، وأخرى تشبه مداخل الكهوف ، وكانت هناك أبواب ذهبية وصدئه ، مبطنة ،

ومزودة بالمسامير ، رقيقة مثل الورق ، وأخرى في سمك أبواب الخزائن ، وكان هناك باب منظره كقم عملاق ، وآخر لا بد أن يُفتح مثل الجسر الذي يُجذب بالسلاسل ، وباب يشبه أذن كبيرة وآخر مصنوع من الكعك ، وباب مُشكل على هيئة غطاء المدفأة ، وآخر لا بد أن يُفتح بالأزرار . ودائما كان لكلا البابين المؤديين إلى خارج الغرفة ، شىء ما مشترك بينهما : الشكل ، المادة ، الحجم ، اللون - ولكن أيضا شىء ما كان يفرق بينهما تفريقا أساسيا .

وكان باستيان قد دخل لمرات عديدة من غرفة سداسية إلى أخرى . وكل قرار اتخذهُ ، كان يقوده دائما إلى قرار جديد يجذب بدوره قرارا آخر من بعده . ولكن هذه القرارات لم تغير من أنه مازال في معبد الألف باب - وأنه سوف يبقى . وبينما هو يواصل المسير باستمرار ، أخذ يفكر فيما يمكن أن يكون سببا لذلك . صحيح أن أمنيته كانت كافية لقيادته إلى حديقة التيه ، ولكنها على ما يبدو لم تكن كافية بالضبط ، لكي تجعله يعثر أيضا على الطريق إلى الخارج . وكان قد أعرب عن أمنيته في رفقة الناس . ولكنه أدرك الآن ، أنه لم يكن لديه مطلقاً تصور دقيق عن ذلك . ولم يفده بأقل القليل أن يقرر اختيار باب من زجاج أو من جدائل الخوص . وحتى الآن كان يتخذ قراره لمجرد نزعة أو رغبة عنده ، دون أن يفكر كثيرا أثناء ذلك . وفي الواقع كان يستطيع كل مرة أن يتخذ الباب الآخر بنفس القدر . ولكنه بهذا الشكل لن يعثر على طريق الخروج أبدا .

وفي ذلك الوقت كان يقف في غرفة ضوءها أخضر . ثلاثة من الجدران الستة كانت مرسومة بأشكال على هيئة السحاب . الباب الأيسر مصنوع من الصدف الأبيض . والباب الأيمن من الأبنوس الأسود . وفجأة عرف ما يتمناه لنفسه : أتريو .

لقد ذكّر الباب الصدفي باستيان بتنين الحظ فُخور الذي كانت قشوره تتلأأ كالصدف الأبيض ، ولهذا قرر اختيار هذا .

وفي الغرفة التالية كان هناك بابان ، أحدهما كان مصنوعا من جدائل الأعشاب لأنه كان يفكر في بحر الأعشاب ، وطن أتريو .

وفي الغرفة التي بعدها وجد نفسه أمام بايين لم يكن هناك اختلاف بينهما سوى أن أحدهما مصنوع من الجلد والثاني من اللباد . ومشى باستيان طبعاً عبر الباب الجلدي . ومرة أخرى وقف أمام بايين ، وهنا كان عليه أن يفكر مرة أخرى . أحدهما كان أحمر أرجوانيا والثاني أخضر زيتونيا . وكان أتريو من ذوى الجلد الأخضر ، وكان يرتدى معطفاً من جلد الجاموس الأرجواني . وكان مرسوماً على الباب الأخضر الزيتوني بعض العلامات البسيطة بلون أبيض مثلما كان على جبهة وحدى أتريو عندما أتى إليه كايرون العجوز . ولكن نفس العلامات كانت أيضاً على الباب الأحمر الأرجواني ، ولم يكن باستيان يعرف إذا كانت مثل هذه العلامات على معطف أتريو . إذن لا بد وأنه عبارة عن طريق يؤدي إلى شخص آخر ولكن ليس إلى أتريو .

وهكذا فتح باستيان الباب الأخضر الزيتوني - ووقف في الخلاء . ولكنه لدهشته لم يأت إلى بحر الأعشاب ، ولكن إلى غابة غير كثيفة في نضارة الربيع . وتخللت أشعة الشمس من بين الأوراق الياضعة ، لمعت تنوعات الضوء والظلال على الأرض المغطاة بالطحالب . وانبعث عطر الأرض ونبات عش الغراب ، والهواء العليل تملأه شقشقة الطيور .

واستدار باستيان ورأى أنه قد خرج على التومن مصلى صغير للغاية . لقد كان إذن في هذه اللحظة هو مخرج معبد الألف باب . وفتحه باستيان مرة أخرى ، ولكنه لم ير أمامه سوى الغرفة الصغيرة الضيقة للمصلى . وكان السطح يتكون فقط من عدة دعائم خشبية متداعية تبرز في الهواء بالغابة وكانت جدرانها مكسوة بالطحالب .

ومشى باستيان دون أن يدرى في بادئ الأمر إلى أين . ولم يشك في أنه إن أجلا أو عاجلا سيلتقى بأتريو . وابتهج غاية الابتهاج التام للقاء . وكان يصفر للطيور التي ردت عليه وكاد يغنى بصوت عال وسعادة بما يخطر على باله في ذلك الوقت .

وبعد وقت قصير من التجول شاهد في مكان خال من الأشجار مجموعة من الأشخاص قد نصبت خيامها هناك . وعند اقترابه اتضح له أنها عبارة عن عدة رجال في دروع ضخمة . وكذلك كانت لديهم سيدة جميلة . وكانت تجلس على الحشائش

وتداعب أوتار عود موسيقى . وفي الخلفية كانت تقف بعض الأحصنة المطهمة وذات السروج الغالية . وكانت ملاءة بيضاء مفرودة أمام الرجال الراقدين على الحشائش يتسامرون ، وعليها مختلف أنواع المأكولات وكنثوس الشراب .

واقترب باستيان من المجموعة ، ولكنه خبا قبلها حجاب الامبراطورة الطفولية تحت قميصه ، لأنه كان يرغب في التعرف على الجماعة في بادئ الأمر وهو مجهول ودون أن يلفت النظر .

وعندما رآه قادما نهض الرجال وحيوه بأدب وهم ينحنون . على ما يبدو أنهم اعتقدوا أنه أمير شرقي أو ما شابه ذلك . وكذلك السيدة الجميلة أحنت رأسها أمامه وهي تبتسم واستمرت في مداعبة آلتها . ومن بين الرجال كان رجل ذا ضخامة خاصة ، وملابس فخمة جدا ، وكان لا يزال شابا وله شعر أشقر ينسدل على كتفيه

وقال « أنا البطل هينريك ، وهذه السيدة هي الأميرة أوجلمار ، ابنة ملك لُن . هؤلاء الرجال أصدقائي وهم هيكريون وهيزبالد وهيدورن . وما هو اسمكم أيها الصديق الشاب ؟ »

فأجاب باستيان « لا يجوز لي أن أذكر اسمي - ليس بعد . »

فسألت الأميرة أوجلمار بشيء من التهكم : « أهو نذر ؟ بهذا السن الصغير وتهب نذراً ؟ »

فقال البطل هينريك راغبا المعرفة : « أنتم قادمون بالتأكيد من مكان بعيد ؟ »

فرد باستيان « نعم ، من بعيد جدا . »

فاستفسرت الأميرة وهي تنتظر إليه بإعجاب « هل أنتم أمير ؟ »

فأجاب باستيان « إنني لأبوح بذلك . »

فصاح البطل هينريك : « على كل حال مرحبا بكم لدى مائدتنا المستديرة . أتريدون أن تشرفونا بالجلوس معنا وتناول الطعام والشراب ، أيها السيد الشاب ؟ » وقبل باستيان الدعوة شاكرا وجلس ومد يده

وعلم من الحديث الذى أدارته السيدة والسادة الأربعة أن مدينة الفضة الكبيرة الرائعة أمرجانت تقع على مقربة شديدة . وهناك سيجرى نوع من المبارزة . وقد أتى من كل صوب وحذب أشجع الأبطال وأحسن المطاردين ، وأكثر المقاتلين إقداما ، ولكن أيضا شتى المغامرين والجسورين لكى يشتركوا فى الاحتفال . فقط أفضل وأشجع ثلاثة يهزمون الآخرين كلهم ، سوف ينالون شرف الاشتراك فى نوع من بعثات البحث . وهى على ما يبدو عبارة عن رحلة طويلة جدا وملیئة بالمغامرات ، هدفها العثور على شخصية معينة تقيم فى مكان ما من بلاد فانتازين التى لا تحصى والذى يسمى فقط « المنقذ » ولم يكن أحد بعد يعرف الاسم . وعلى كل حال فإن مملكة فانتازين كلها تدين له بالعرفان على أنها عادت إلى الوجود أو مازالت موجودة . ففى وقت ما من الأزمنة السالفة فاجأت فانتازين كارثة مروعة كادت أن تدمرها عن آخرها ، وهذا ما صنعه « المنقذ » المذكور فى آخر لحظة بأن جاء ومنح الإمبراطورة الطفولية اسم طفلة الأقمار الذى تُعرف به اليوم لدى كل كائن فى فانتازين . وهو يهيم مجهولا منذ ذلك الوقت من خلال البلاد ، وستكون مهمة بعثة البحث هى العثور عليه ثم مرافقته بما يشبه الحرس الخاص لكيلا يحدث له شىء . ولذلك تم اختيار أمهر وأشجع الرجال فقط ، لأنه من المحتمل ضرورة اجتياز مخاطر لا يمكن تصورها .

صحيح أن المبارزة التى سيتم فيها هذا الاختيار قد نظمها العجوز الفضى كثير كقوباد - ففى مدينة أمرجانت كان يحكم أكبر الرجال أو النساء سنا دائما وكثير كقوباد كان عمره مائة وسبع سنوات - ولكنه لن يجرى هو الاختيار من بين المتبارزين ، ولكن صياد شاب اسمه أتريو ، صبى من شعب أصحاب الجلود الخضراء ، الذى هو ضيف على كثير كقوباد . وأتريو هذا سوف يقود فيما بعد بعثة البحث . فقد كان هو الوحيد الذى يستطيع التعرف على « المنقذ » لأنه رآه مرة فى مرة سحرية .

وصمت باستيان واستمع فقط . ولم يكن الأمر سهلا عليه ، لأنه أدرك بسرعة جدا ، أن موضوع « المنقذ » يدور حوله هو نفسه . وعندما أتى اسم أتريو ضحك قلبه فى جسده ، وبذل أعظم الجهد لكيلا يكشف أمره . ولكنه كان عازما على الحفاظ مؤقتا على سرّيته .

وبالمناسبة فلم يكن يهم البطل هنريك من المسألة كلها حول بعثة البحث وأهدافها أكثر من كسب قلب الأميرة أوجلمار . فقد لاحظ باستيان على الفور أن البطل هنريك غارقا لأذنيه في حب السيدة الشابة . فقد كان يتهدد بين الحين والآخر في أوقات لم تكن تدعو بأى حال إلى التهدد ، وكان ينظر إلى معبودته دائما بعينين حزينتين وهى كانت تتصرف كما لو لم تكن تلاحظ ذلك . وكما اتضح فقد نذرت في مناسبة ما ألا تتزوج إلا أعظم الأبطال ، ذلك الذى يستطيع أن يهزم الآخرين جميعا . ولم تكن تريد أن تقنع بأقل من ذلك .

وكانت هذه هى مشكلة هنريك ، لأنه كيف يبرهن لها أنه هو الأعظم . فلم يكن فى استطاعته أن يقتل شخصا لم يفعل به شيئا . ولم تعد هناك حروب منذ وقت طويل . وكان يود أن يصرع وحوشا وجنا ، وكان يود ، لو أن الأمر بيده ، أن يضع لها كل صباح ذيل تنين دامٍ على مائدة الإفطار ، ولكن لم تكن هناك على المدى البعيد أية وحوش ولا تنين . وعندما أتى إليه رسول العجوز الفضى كثير كقوياد ليدعوه للمبارزة وافق بالطبع على الفور . وصممت الأميرة أوجلمار على المجيء معه لأنها كانت تريد أن تقنع بعينها بمقدرته .

وقالت لباستيان وهى تبسم : « من المعروف أن الإنسان لا يمكنه تصديق أقاصيص الأبطال . إنهم يميلون للتمنيق . »

فقال البطل هنريك معترضا : « بتمنيق أو بدون تمنيق فأنا على كل حال أكثر قدرا مائة مرة من المنقذ الأسطورى . »

فسأل باستيان « من أين عرفتم ذلك ؟ »

فقال البطل هنريك : « لو أن الفتى لديه نصف شجاعتي لما احتاج إلى حراسة خاصة يجب أن تحميه وترعاه مثل الطفل الرضيع . يبدو لى أن هذا المنقذ شخص يدعو للأسى الشديد . »

فصاحت أوجلمار باستنكار : « كيف يمكنكم قول مثل هذا ! إنه على الأقل قد حافظ على فانتازين من الدمار . »

فرد البطل هنريك باحتقار : « ولو ! إنه لم يكن ليحتاج إلى بطولة خاصة لذلك . » وقرر باستيان أن يلقيه درسا صغيرا فى الوقت المناسب . السادة الثلاثة

الأخرون كانوا قد التقوا صدقة بالشخصين أثناء الطريق فقط وانضموا إليهما .
وزعم هيكريون الذى كان له شارب أسود غير عادى ، أنه أقوى وأضخم محارب
لفانتازين . هيزبالد ذو الشعر الأحمر الذى يعطى انطبعا أنه رقيق بالمقارنة
بالآخرين ، ادعى أن لا أحد يتعامل بالسيف أمهر وأسرع منه . وهيدورن أخيرا
كان مقتنعا أن لا أحد يدانيه صلابة وصبرا فى النزال . وكان مظهره يؤيد هذا الإدعاء
لأنه كان طويلا ونحيفا ويبدو أنه لا يتكون إلا من العظام والأوتار .

وبعد أن انفضت المائدة بُدئ المسير . الأواني والملاءة ومثونة الطعام خُزنت فى
جرابيات سرج دابة للنقل . وركبت الأميرة أوجلمار حصانها الأبيض وأسرعت دون
أن تلتفت إلى الآخرين . وامتنطى البطل هنريك فرسه الأسود الفحمرى وهرول
وراءها . واقترح السادة الآخرون على باستيان أن يتخذ مكانه على دابة النقل بين
جرابيات المثونة . فاعتلى ظهرها وركبوا هم أيضا أحصتهم الفخمة المطهمة ، ثم
أسرع الركب من خلال الغابة وباستيان آخرهم . وظلت دابة النقل ، وكانت بغلة
عجوز ، متأخرة على الدوام وحاول باستيان أن يحثها ، ولكنها بدلا من أن تجرى
بسرعة أكثر ، ظلت البغلة واقفة وأدارت رأسها وقالت

« لست فى حاجة إلى أن تحثنى ، فقد ظللت متأخرة عن عمد ياسيدى . »

فسأل باستيان « لماذا ؟ »

— « أنا أعرف من أنت ياسيدى . »

— « من أين تزعمين معرفة ذلك ؟ »

— « إذا كان المرء نصف حمار فقط مثلى وليس حمارا كاملا فهو يشعر بمثل هذا .
وحتى الأحصنة لاحظت شيئا . فلست فى حاجة أن تقول لى شيئا ياسيدى . كنت
أود التمكن من أن أحكى لأولادى وأحفادى أننى حملت المنقذ وأننى أول من حيّاه .
للأسف ليس لأمرنا أولاد . »

فسأل باستيان « ماهو اسمك ؟ »

— « إنجنا ياسيدى . »

— « اسمعى يا إنجنا ، لا تفسدى علىّ مزاحى ، واحتفظى بما تعرفينه مؤقتا .
أتريدين هذا ؟ »

وهرولت البغلة بعد ذلك لكى تلحق بالآخرين ثانية .

وانتظرت المجموعة عند طرف الغابة . ونظر الجميع إلى أسفل بإعجاب إلى مدينة أمـرـجـانـت التي كانت تتلأأ أمامهم في ضوء الشمس . وكان طرف الغابة يقع على مرتفع ، يُرى منه منظر شامل بعيد فوق بحيرة كبيرة تكاد تكون بنفسجية اللون ويحيط بها من كل جانب هضاب تكسوها غابات مشابهة . وفي وسط هذه البحيرة تقع مدينة الفضة أمـرـجـانـت . جميع البيوت كانت فوق سفن والقصور الكبيرة فوق قوارب نقل عريضة ، والقصور الأصغر فوق فلك ومراكب . وكل بيت وكل سفينة كانت مصنوعة من الفضة ، من فضة مصاغة صياغة دقيقة ذات زخارف فنية . وكانت أبواب ونوافذ القصور الصغيرة والكبيرة والأبراج الصغيرة والشرفات ، مصنوعة من زخارف من خيوط الفضة بشكل رائع لا يوجد مثلها في كل فانتازين . وكانت تُرى في مكان فوق البحيرة مراكب وزوارق تجلب الزائرين من الشواطئ إلى المدينة . وهكذا أسرع الآن البطل هنريك أيضا وصحبته للوصول إلى الشاطئ حيث كانت في الانتظار معدية فضية لها مقدمة ذات انحناءات رائعة . ووجدت الجماعة كلها بالأحصنة ودابة النقل مكانا فوقها .

وأثناء الطريق عرف باستيان من المراكبي ، الذي كان بالمناسبة يرتدى رداء من نسيج الفضة ، أن ماء البحيرة البنفسجي مالح ومُر لدرجة أن لاشيء يستطيع أن يقاوم تأثيره التحليلي على المدى الطويل ، لاشيء إلا الفضة . وكانت البحيرة تدعى مورهو أو بحيرة الدموع . ففي الأزمنة السحيقة الماضية أخرجت مدينة أمـرـجـانـت إلى وسط البحيرة لتأمينها ضد الغارات ، لأنه مهما حاول أحد الوصول إليها على سفن خشبية أو زوارق حديدية ، كان يغرق ويُفقد لأن الماء كان يحمل المركب وطاقمه في وقت قصير . ولكن الآن هناك سبب آخر لترك أمـرـجـانـت فوق الماء . فالسكان يجبون بين الحين والآخر أن يغيروا تجمعات المنازل ويجددوا تنظيم الشوارع والميادين . فمثلا إذا كانت أسرتان تسكنان على الطرفين المقابلين ، تصادقتا أو ارتبطتا برباط القرابة لأن الشباب منها تزوج ، فهما يغادران مكانهما السابق ويضعان سفنهما الفضية إلى جوار بعض بحيث يصبحان جيرانا . وبالمناسبة ، والفضة كانت من نوع خاص ، فريدة في

نوعها مثل جمال تصنيعها الذى لا يقارن .

وكان باستيان يود أن يسمع المزيد من ذلك ، ولكن المعدية كانت قد وصلت المدينة ، وكان عليه أن ينزل مع رفقاته فى السفر .

وبحثوا أولا عن مَضيِّفة لينزلوا بها هم وحيواناتهم . ولم يكن هذا بالأمر السهل تماما ، لأن أمرجات قد غزاها المسافرون تماما ، القادمون إلى المبارزات من قريب وبعيد . ولكنهم وجدوا أخيرا مكانا فى أحد الفنادق . وعندما قاد باستيان البغلة إلى الحظيرة ، همس فى أذنها :

— « لا تنسى ما وعدتني ، يا إيخا ، سنلتقى قريبا » .

وهزت إيخا رأسها فقط .

وبعد ذلك شرح باستيان لرفقاته فى السفر أنه لا يريد أن يقع عبثا عليهم لفترة أطول من ذلك ، بل إنه سيود أن يشاهد المدينة معتمدا على نفسه . وشكرهم على لطفهم وودعهم . وفى الحقيقة كان يتحرق شوقا بالطبع إلى العثور على أتريو .

وكانت المراكب الكبيرة والصغيرة متصلة ببعضها عن طريق الجسور ، بعضها ضيق وصغير لدرجة أن شخصا واحدا كان يستطيع السير على كل منها ، وأخرى عريضة ضخمة مثل الشوارع التى تتزاحم فيها كثرة من الناس . وكانت هناك أيضا كبارى منحنية ومسقوفة ، وفى القنوات ما بين سفن القصور كانت تسير مئات من الزوارق الفضية الصغيرة هنا وهناك . ولكن أينما ذهب أو وقف الإنسان ، فهو يشعر على الدوام تحت قدميه بارتفاع وهبوط بسيط للأرض يذكر الانسان بأن المدينة كلها تسبح فوق الماء .

وكانت جمهرة الزائرين التى تكاد المدينة أن تفيض بهم ، كانت متنوعة ومتعددة الأشكال لدرجة أن وصفهم يملاً كتابا خاصا به . وكان من السهل التعرف على أهل مدينة أمرجانت لأنهم جميعا كانوا يرتدون ملابس من نسيج الفضة الذى كاد أن يكون فى جمال معطف باستيان . وحتى شعورهم كانت فضية ، وكانوا ضخام البنية وحسنوا الهيئة ولديهم عيون بلون البنفسج مثل مورهو ، بحيرة الدموع . ولم يكن الجزء الأعظم من الزائرين بنفس القدر من الجمال تماما . وكانت هناك عمالقة

مشحونة بالعضلات ولهم رؤوس تبدو صغيرة مثل التفاح بين أكتافهم الهائلة .
وأجلاف يتسكعون بالليل ومنظرهم عابس وجريء ، وأشخاص لهم شخصيات
فريدة يُرى فيهم أنه لا تفاهم معهم . وكان هناك حمقى لهم أياد وعيون سريعة
الحركة ، ومقاتلون شرساء يأتون متكبرين ويتصاعد الدخان من أفواههم وأنوفهم .
ودار المتبارزون الاستعراضيون حول أنفسهم كلعبة حية من لعب النحلة الدوارة ،
وتسكع عفاريت الغابة بأرجلهم الغليظة وعلى أكتافهم هرّوات سميكة . ورأى
باستيان مرة أحد قاضى الصخور أيضا الذى كانت أسنانه تبرز من فمه مثل أزاميل
الحديد الصلب . وقد تقوس الجسر الفضى تحت وطأة ثقله عندما اتخذ طريقه دأبًا
بقدميه . ولكن قبل أن يستطيع باستيان أن يسأله إذا كان ربما يدعى بيور نراخ
تسارك ، كان قد اختفى فى الزحام .

وأخيراً وصل باستيان إلى وسط المدينة . حيث جرت هناك المبارزات . وكانت
على أشدها . ففى ميدان كبير مستدير يبدو كحلبة سيرك ضخمة ، كان المتبارزون
يُجربون قواهم ، ويعرضون مقدرتهم . وحول الدائرة الواسعة تزاومت جمهرة من
المتفرجين التى كانت تحفّز المتبارزين بنداواتهم ، وكذلك كادت نوافذ وشرفات قصور
السفن المحيطة تفيض بالمتفرجين ، وقد نجح بعضهم حتى فى تسلق الأسطح ذات
الزخارف الفضية .

ولكن باستيان لم يكن فى بادئ الأمر مهتماً بالمشهد الذى يقدمه المتبارزون . كان
يريد العثور على أترىو الذى من المؤكد أنه كان يشاهد المباريات من نقطة ما . وبعد
ذلك لاحظ أن الجمهور ينظر باستمرار إلى قصر معين بتشوق — وخاصة على ما يبدو
عندما ينجح فى حركة ذات تأثير خاص . ولكن كان على باستيان أن يتزاحم أولاً عبر
أحد الكبارى المتعرجة ثم يتسلق فوق نوع من أعمدة المصابيح ، وذلك قبل أن
يتمكن من إلقاء نظرة على ذلك القصر .

وفى أحد الشرفات وُضع كرسيان عاليان من الفضة هناك . وجلس على أحدهما
رجل عجوز جدا ، كان الشعر الفضى للحيته ورأسه ينسدل حتى نطاقه . لا بد وأنه
كثير كثرى ، العجوز الفضى . وجلس إلى جواره صبي فى عمر باستيان تقريبا .
وكان يرتدى سروالا طويلا من الجلد اللين ونصف جسمه الأعلى عاريا بحيث أمكن

رؤية بشرته الخضراء بلون الزيتون . وكان تعبير الوجه النحيل جدا ، بل يكاد يكون صارما . وكان شعره الطويل الأزرق بسواد ملموما في خصلة خلف رأسه مربوطة بشرائط من الجلد . وحول كتفيه كان معطف أرجواني . وكان ينظر إلى أسفل إلى حلبة النزال هادئا ولكن بتشوق في الحقيقة . ويبدو أن عينيه لم يكن تفوتها شىء . أتريو .

وفي هذه اللحظة ظهر بيباب الشرفة المفتوح من وراء أتريو وجه آخر ضخم جدا بدا يشبه الأسد ، غير أن لديه قشور صدفية بيضاء بدلا من الجلد ، ويتدلى من عند فمه شعر لحى طويلة بيضاء . وكانت كُريات عينيه حمراء بلون الياقوت ، وتتلأأ ، وعندما ارتفع الرأس عاليا فوق أتريو ، شوهد أنه يقبع على رقبة طويلة مرنة تغطيها القشور الصدفية أيضا ، وكان يتدلى منها عرف كالنار البيضاء . لقد كان فُخور ، تنين الحظ . ويبدو أنه قال شيئا في أذن أتريو لأن هذا هز رأسه بالإيجاب .

وانزلق باستيان مرة أخرى نازلا من عمود المصابيح . لقد شاهد بما فيه الكفاية . ووجه انتباهه الآن إلى المبارزات .

وفي الواقع لم تكن صراعات حقيقية وفعلية إلى حد كبير ، بل إنها كانت بالأحرى نوعا من عروض السيرك بمقياس كبير . فصحيح كان في ذلك الحين تصارع بين عملاقين تلاحم جسدهما إلى عقدة واحدة هائلة تندرج إلى هنا وهناك ، وصحيح كانت عدة أزواج هنا وهناك من نفس النوع أو من نوع مختلف تماما ، تعرض فنها في المبارزة بالسيوف أو في استعمال الهراوة أو الحربة ، ولكنها بالطبع لم تكن جديا من أجل الجسد والحياة . وكان من ضمن قواعد التبارى إظهار مدى العدالة والخلق في تصارع الفرد وكيف يتحكم في نفسه جيدا في حالة القوة . المتصارع الذى يندفع من الغضب أو الطموح ويجرح شريكه في التصارع جرحا خطيرا ، تعلن على الفور عدم صلاحيته على شتى الأحوال . وكانت الغالبية مشغولة بالبرهنة على مهارتها في رمى النبال أو اظهار قواها لرفع أثقال هائلة ، وآخرون يعرضون مواهبهم بالقيام بالألعاب بهلوانية أو اجتياز شتى أنواع اختبارات الشجاعة . فعلى قدر اختلاف أنواع المتنافسين ، كان ما يعرضوه أيضا متنوعا .

وكان على الدوام يضطر البعض الذين انهزموا أن يغادروا الميدان وهكذا قل العدد باستمرار شيئا فشيئا . ثم رأى باستيان هيكريون القوى ، وهيزبالد السريع وهيدورن العنيد يدخلون الحلبة . ولم يكن البطل هنريك ومعبودته الأميرة أوجلمار معهم .

وفي ذلك الوقت كان لا يزال في الميدان حوالى مائة متصارع . ونظراً لأنهم كانوا صفوة الأفاضل فلم يكن سهلاً على هيكريون وهيزبالد وهيدورن أن يثبتوا أمام خصومهم كما كانوا ربما يعتقدون . وقد استغرق الأمر طيلة العصر حتى أثبت هيكريون على أنه أقوى الأقوياء ، وهيزبالد على أنه أمهر خُفاف الحركة ، وهيدورن على أنه أكثر العنيدين مثابرة . وهلل وصفق لهم الجمهور بحماس وانحنى الثلاثة تجاه الشرفة حيث كان يجلس العجوز الفضى كثير كفو باد وأتريو . ونهض أتريو ليقول شيئا ، فدخل منازل آخر فجأة إلى الميدان . لقد كان هنريك . وعم صمت متوتر ، وجلس أتريو مرة أخرى . ولأنه لا ينبغي إلا لثلاث رجال أن ترافقه فقد كان هناك بأسفل شخص زائد . ولا بد لواحد منهم من الانسحاب .

وقال هنريك بصوت عال لدرجة أن كل فرد استطاع أن يسمعه : « أيها السادة إننى أرجح أن هذا العرض الصغير لمهاراتكم والذي أنهيتموه حالا ، قد نال من قواكم . وبالرغم من ذلك فإنه لن يكون جديرا بى أن أتحداكم للنزال فرداً فرداً تحت هذه الظروف . ونظراً لأننى لم أر حتى ذلك الوقت خصماً مناسباً لى من بين كل هؤلاء المتصارعين ، فإننى لم اشترك معهم ولذلك مازلت منتعشا . فإذا كان واحد منكم يشعر بالإرهاق الزائد فعليه الخروج بمحض إرادته . وإلا فإننى مستعد لمصارعتكم أنتم الثلاثة جميعاً في وقت واحد . هل لديكم اعتراض على ذلك ؟ »

فأجاب الثلاثة كما كانوا من فم واحد : « لا »

وبعد ذلك كانت هناك مبارزة تطاير فيها الشرر . ولم تفقد ضربات هيكريون أقل القليل من قوتها ولكن البطل هنريك كان أقوى . وهوى عليه هيزبالد كالبرق من كل جانب ولكن البطل هنريك كان أسرع . وحاول هيدورن أن يهشمه ولكن البطل هنريك كان أكثر جَلداً . ولم تكد المبارزة تستغرق عشر دقائق حتى كان السادة الثلاثة منزوعى السلاح وركعوا أمام البطل هنريك ونظر حوله مفتخراً ،

وبحث - على ما يبدو - عن نظرة إعجاب سيدته التي ربما تقف في مكان ما من الجمهور . وهدر تهليل وإعجاب المشاهدين كالعاصفة فوق الميدان . وربما كان يمكن سماعه عند أبعد شواطئ بحيرة الدموع مور هو .

وعندما عمّ السكون نهض العجوز الفضى كثير كقوباد وسأل بصوت عال :
- « هل هناك شخص يود أن يجرؤ على التقدم ضد البطل هنريك ؟ »
وفي وسط الصمت العام سُمع صوت صبي يجيب : « نعم ، أنا ! »
لقد كان باستيان .

وتوجهت جميع الوجوه إليه ، وأفسح الجمهور له طريقا ، وتقدم خارجا إلى الميدان .

وسُمعت صيحات الدهشة والقلق : « انظروا ، كم هو جميل ! » -
« يا خسارته ! »

- « لا تسمحوا بهذا ! »

وسأل العجوز الفضى كثير كقوباد : « من أنت ؟ »
فأجاب باستيان : « إنني لا أريد أن أقول اسمي إلا فيما بعد » .
ورأى أن عيني أتريو أصبحت ضيقة وأنها نظرت إليه فاحصة ولكنها مازالت مليئة بالشك .

وقال البطل هنريك : « أيها الصديق الشاب ، لقد أكلنا وشربنا سويا . لماذا تريدني الآن أن ألحق بك العار ؟ أرجوك أن تسحب كلمتك وتنصرف » .
فرد باستيان : « كلا ، إن ما قلته سيكون » .

وتردد البطل هنريك لحظة . ثم اقترح قائلا : « إنني لن أكون محقا إذا ما قست نفسي بك في النزال . نود أن نرى أولا من منا يستطيع أن يطلق السهم إلى ارتفاع أكثر » .

فرد باستيان : « موافق ! »

وأحضر لكل منها قوس قوى وسهم . وشد هنريك الوتر وأطلق السهم إلى أعلى ، أعلى من أن يستطيع أحد أن يتابعه بعينه . وفي نفس اللحظة تقريبا شد باستيان قوسه وأرسل سهمه من خلفه .

ومرت فترة صغيرة قبل أن يعود كلا السهمين ويسقطا على الأرض بين كلا الراميين . واتضح الآن أن سهم باستيان ، ذا الريش الأحمر قد أصاب السهم البطل هنريك ذا الريش الأزرق على ما يبدو في أعلى مكان وبقوة لدرجة أنه فلقه من الخلف . وحملق البطل هنريك في السهمين المتداخلين في بعضهما . وكان قد أصبح شاحب اللون قليلا ، وبدت على وجنتيه فقط بقع حمراء .

وتتم قائلًا : « يمكن أن يكون هذا مجرد صدفة . نريد أن نرى من هو الأمهر بالسيف » . وطلب سيفين ومجموعتين من أوراق اللعب . وأحضر كلاهما . وخلط كلا المجموعتين بعناية . ثم قذف الآن مجموعة من أوراق اللعب إلى أعلى في الهواء وأخرج السلاح بسرعة البرق وطعن به . وعندما سقطت الأوراق الباقية على الأرض شوهد أنه قد أصاب قلب ورق الآس ، وفي وسط القلب الوحيد الذي تبينه الورقة . ونظر مرة أخرى حوله باحثًا عن سيدته ، بينما يدور عارضا السيف بالورقة .

وألقي باستيان الآن المجموعة الأخرى من الورق إلى أعلى وجعل سلاحه يصفر في الهواء . ولم تسقط ولا ورقة على الأرض . لقد حرق بسيفه جميع أوراق اللعب الاثني والثلاثين وفي الوسط بالضبط ، وفوق ذلك بالترتيب الصحيح أيضا - بالرغم من أن البطل هنريك كان قد خلطها جيدا .

ونظر البطل هنريك إلى الشيء ، ولم يقل شيئاً . ارتعشت شفثاه قليلا فقط . وأخيرا نطق قائلًا بصوت مبحوح : « ولكنك لا تفوقني قوة . » ومد يده إلى أثقل الأحمال جميعا التي كانت موجودة في الميدان ورفعها ببطء إلى أعلى . ولكنه قبل أن يستطيع أن يعيد إنزالها ، كان باستيان قد أمسك به ورفعها إلى أعلى . وأظهر البطل هنريك وجهها مندهشا لدرجة أن بعض المشاهدين لم يستطع كتمان الضحك .

فقال باستيان : « حتى الآن قررتم أنتم في أى شيء نريد أن نتبارى . فهل أنتم توافقون أن أقترح أنا شيئاً ؟ » وهز البطل هنريك رأسه بالإيجاب صامتا .

فواصل باستيان كلامه : « إنه اختبار للشجاعة . »
واستجمع البطل هنريك قواه مرة أخرى وقال : « لا يوجد شيء تتفهم أمامه شجاعتي ! »

فرد باستيان : « إذن فاني أقترح أن نتسابق للسباحة عبر بحيرة الدموع . فمن يصل إلى الشاطئ أولاً ، يكون هو الفائز . »

وعم الميدان كله سكون كاتم للأنفاس .
وتغير لون البطل هنريك بالتناوب بين الحمرة والشحوب .
وصاح قائلاً : « إن هذا ليس اختباراً للشجاعة . إنه جنون . »
فرد باستيان : « إنني مستعد لذلك ، إذن هيا ! »
وفقد البطل هنريك الآن السيطرة على نفسه .

وصاح وهو يدب بقدمه : « كلا ! أنتم تعرفون جيداً مثلئ أن ماء مور هو يحلل كل شيء . وهذا يعنى الذهاب إلى الموت الأكيد . »
فرد باستيان بهدوء : « إنى لست خائفاً . لقد جُبتُ صحراء الألوان وأكلت وشربت من نار الموت الملون واستحمت فيها . ولم يعد لدى خوف من هذه المياه . »

فزأر البطل هنريك بوجه أرجواني من الغضب : « هذا افتراء منكم ! فلا أحد في فانتازين يستطيع الحياة بعد الموت الملون . وهذا يفهمه كل طفل ! »
فقال باستيان ببطء : « أيها البطل هنريك ، بدلا من أن تتهمنى بالكذب كان من الأفضل أن تعترفوا بأنكم في منتهى البساطة خائفون »

وكان ذلك أكثر من اللازم على البطل هنريك . فنزع سيفه الكبير من مغمده دون وعى من الغضب واندفع إلى باستيان . وتراجع هذا وأراد أن يصرح بكلمة تحذير ولكن البطل هنريك لم يدع له فرصة لذلك . وانهال على باستيان وكان الأمر بالنسبة له جادا حقاً . وفي نفس اللحظة انطلق السيف سيكاندا كشعاع البرق من مغمده الصدىء إلى يد باستيان وبدأ يتراقص .

وما حدث الآن كان أمراً فظيعاً لدرجة أنه لم ينسه أحد من المشاهدين في حياته مرة أخرى . فلحسن الحظ لم يستطع باستيان أن يترك مقبض السيف في يده ، وهكذا كان عليه أن يتابع كل حركة يقوم بها سيكاندا بنفسه . ففي بادئ الأمر مزق السيف الدرع الفاخر للبطل هنريك قطعة قطعة . وتطايرت الهلاهيل في كل جانب

ولكن جلده لم يصب حتى بخدش . ودافع البطل هينريك عن نفسه يائسا وانهاه بالضربات حول نفسه كالمجنون ولكن بريق سيكاندا كان يلمع من حوله كدوامة من النار يعميه بحيث لا تصيب ضربة من ضرباته . وعندما وقف أخيرا بملابسه الداخلية فقط وما زال لا يكف عن توجيه الضربات إلى باستيان ، حطم سيكاندا سيفه تماما إلى قطع صغيرة ، وذلك بسرعة لدرجة أن سلاحه طار كاملاً للحظة في الهواء قبل أن يقع على الأرض ككومة من النقود ذات صليل . وحملق البطل هينريك بعينين مشدوهتين في القبض عديم الفائدة الذى بقى في يده . وتركه يسقط وأخفض رأسه . وعاد سيكاندا إلى مغمده الصدىء واستطاع باستيان أن يتركه .

وتعالت صيحات الحماس والإعجاب بآلاف الأصوات من جمهور المشاهدين واندفعوا إلى الميدان وأمسكوا باستيان ورفعوه عاليا وداروا به فرحين بالنصر . ولم يكن التهليل يريد أن ينتهى . والتفت باستيان من مكانه المرتفع إلى البطل هينريك وكان يريد أن يصيح له بكلمة مصالحة لأنه في الحقيقة كان يأسف للمسكين ، ولم يكن فى نيته أن يسخر منه بهذا الشكل . ولكن البطل هينريك لم يعد يُرى فى أى مكان .

وبعد ذلك عم الصمت فجأة . وتراجع الجمهور وأفسح مكانا . فوقف أتريو ونظر مبتسما إلى باستيان ، وكذلك باستيان ابتسم . وأنزل من على الأكتاف ، ووقف كلا الصبيين الآن أمام بعضهما ونظرا إلى بعض صامتين لوقت طويل . وأخيرا بدأ أتريو الحديث :

— « إذا كنت فى حاجة إلى مرافق للذهاب باحثا عن منقذ فانتازين ، فسوف أكتفى بهذا الفرد ، لأنه يُعد أكثر من مائة آخرين مجتمعين . ولكننى لم أعد فى حاجة إلى مرافق لأن بعثة البحث لن تتم . »

وسمعت همهمة من التعجب وخيبة الأمل . واستمر أتريو يقول بصوت مرتفع : « إن منقذ فانتازين لا يحتاج إلى حمايتنا ، لأنه يستطيع أن يحمى نفسه أفضل من استطاعتنا نحن جميعا . ولم يعد هناك داع لنا أن نبحت عنه لأنه عثر علينا . إننى لم أعرف عليه على الفور ، لأننى عندما رأيته فى بوابة المرآة السحرية فى أرض التنبوءات الجنوبية ، كان منظره مختلفا عن الآن —

مختلفا تماما . ولكن نظرة عينيه لم أنسها . إنها هي نفسها التي تصيبنى الآن . لا يمكن أن أكون مخطئا .

وهز باستيان رأسه مبتسما وقال :

— « أنت لست مخطئا يا أتريو . لقد كنت أنت الذي أحضرتني للإمبراطورة الطفولية لكي أمنحها اسما جديدا . وأنا أشكرك على ذلك » .

وسرت همهمة ملؤها التبجيل كالرياح المندفعة خلال جمهور المشاهدين .
فرد أتريو قائلا : « لقد وعدتنا أن تذكر لنا الآن أيضا اسمك ، الذي لا يعرفه أحد في فانتازين غير سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية . أنتوى أن تفعل ذلك الآن ؟ »

— « اسمى باستيان بلتازار بوكس »

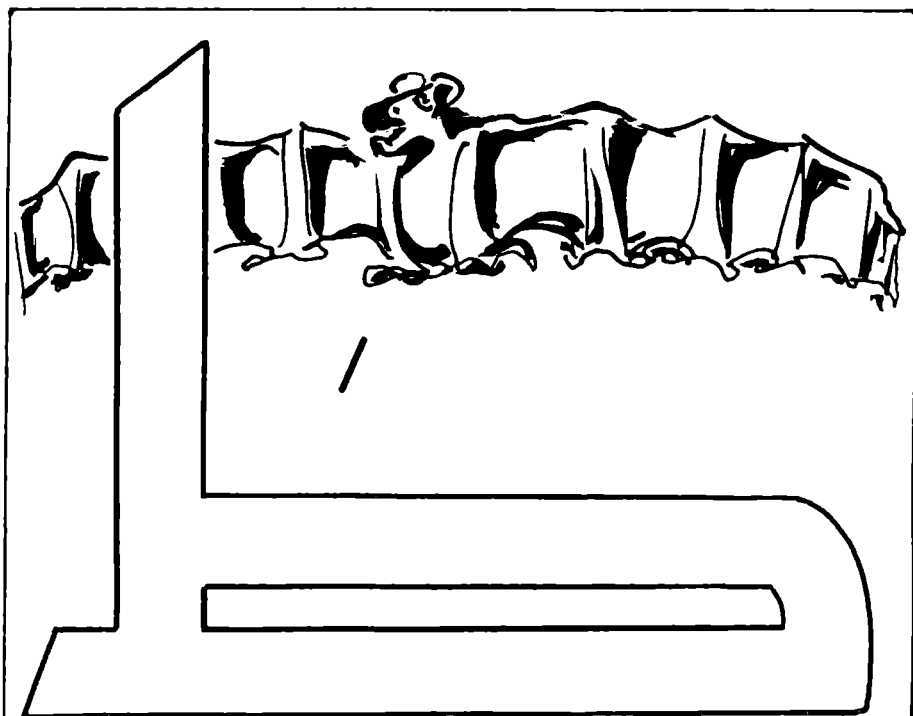
ولم يستطع المشاهدون الآن أن يتمالكوا لفترة أطول ، وانفجر تهليلهم في آلاف من صيحات الهتاف . وراح الكثير يرقصون من الحماس لدرجة أن الجسور والكبارى ، بل والميدان كله أخذ في الاهتزاز ، ومد أتريو يده ضاحكا وصافحها باستيان ، وهكذا — يدا بيد — مشيا إلى القصر حيث كان ينتظرهما على درجات مدخله العجوزالفضى كثير كقوباد وفخور تنين الحظ .

وأقامت مدينة أمرجانت في هذا المساء أجمل احتفال احتفلت به من قبل . وكل ما كانت له أرجل ، سواء كانت قصيرة أو طويلة ، مقوسة أو معتدلة ، رقص ، وكل ما كان له صوت جميل أو قبيح ، عميق أو عال غنى وضحك .

وعندما حل الظلام أشعل أهل أمرجانت آلاف من الأنوار الملونة في مراكزهم وقصورهم الفضية . وأشعلت الألعاب النارية في منتصف الليل بمثل ما لم يشاهد حتى الآن في فانتازين من قبل مطلقا . ووقف باستيان مع أتريو في الشرفة وعلى يسارهما ويمينها وقف فخور والعجوزالفضى كثير كقوباد وشاهدوا كيف تنعكس حزم النيران الملونة في السماء وآلاف الأنوار للمدينة في المياه الداكنة لبحيرة الدموع مورهو .

١٧

نتين.. من أجل البطل هينريك



ظلّ كثير كقوباد العجوز الفضى غارقاً في النوم على كرسيه ، لأن الوقت كان متأخراً من الليل . وهكذا فاتته أعظم وأجمل خبرة كان يمكنه المرور بها أثناء وجوده البالغ مائة وسبع سنوات . ولم يحدث أمر مختلف لكثير من الأشخاص الآخرين من أمر جانت ، من وطنيين وضيوف ، خلدوا للراحة مجهدين من الحفل . قليلون فقط كانوا لا يزالون متيقظين ، وهؤلاء سمعوا شيئاً فاق كل شيء سمعوه أو سيسمعونه جالاً

لقد كان فخورتين الحظ الأبيض يغنى .

فقد طار عالياً ودائراً في سماء الليل فوق مدينة الفضة وبحيرة الدموع وأطلق صوته الجرسى . وكانت أغنية بلا كلمات ، اللحن العظيم البسيط للسعادة الصافية ، ومن سمعها انفتح قلبه أوسع انفتاح .

وهذا ما حدث أيضاً لباستيان وأتريو اللذين جلسا جنباً إلى جنب في الشرفة العريضة لقصر كثير كقوباد . فقد كانت أول مرة بالنسبة لهما أن يسمعا تنين حظ يغنى . وأمسكا بأيدي بعض دون أن يلاحظا ذلك ، واستمعا في سعادة صامتة . وكل منهما كان يعرف أن الآخر يشعر بنفس ما يشعر هو : سعادة من عثر على صديق . وتفاديا التشويش عليها بالحديث .

وانقضت الساعة العظيمة ، فقد إنخفض غناء فخور شيئاً فشيئاً وتلاشى خيراً .

وعندما عم السكون تماماً ، استيقظ كثير كقوباد ، ونهض وقال معتذراً :

— « إن العجائز الفضيين مثلى يحتاجون إلى النوم . والأمر يختلف لديكم أيها

الشباب . لا تؤاخذوني ولكن يجب أن أذهب إلى الفراش الآن » .

وتمنيا له ليلة سعيدة وانصرف كثير كقوباد .

وجلس كلا الصديقين مرة أخرى صامتين لفترة طويلة ونظرا إلى أعلى إلى سماء الليل ، حيث كان تنين الحظ ما يزال يطير دائراً في حركات متموجة بطيئة وهادئة . وكان يحوم بين الحين والآخر أمام قرص البدر كشریط أبيض من السحاب .

وأخيراً سأل باستيان : « ألا يذهب فخور للنوم ؟ » .

فقال أتريو بصوت منخفض : « إنه نائم فعلاً » .

— « أثناء الطيران ؟ » .

— « نعم . إنه لا يجب الإقامة في المنازل ، حتى وإن كانت في ضخامة قصر كثير كقوباد . فهو يشعر بالضيق والانحصار ويحاول التحرك بحرص على قدر المستطاع لكيلا يسقط أو يقلب شيئاً . إنه فقط ضخم زيادة عن اللزوم . ولذلك فهو ينام غالباً بأعلى في الهواء » .

— « أترى أنه سيدعنى مرة أركب عليه أيضاً ؟ » .

فقال أتريو : « بالتأكيد . ولكن الأمر ليس سهلاً تماماً . فلا بد من التعود على ذلك » .

فقال باستيان مذكراً : « لقد ركبت فوق جرأ وجرمان » .

وهز أتريو رأسه ونظر إليه وهو مليء بالإعجاب .

— « لقد قلت ذلك للبطل هينريك عند إختبار الشجاعة ، كيف تغلبت على الموت الملون ؟ » .

فقال باستيان : « إننى أحمل آورين » .

فقال أتريو : « آخ ؟ » . وبدت عليه المفاجأة الشديدة ، ولكنه لم يقل شيئاً بعد ذلك . وأخرج باستيان علامة الإمبراطورة الطفولية من تحت قميصه وأراها لأتريو . وتأملها أتريو لفترة ثم تتمم قائلاً : « إذن الآن تحمل أنت البريق » .

وبدا لباستيان أن وجهه عابس قليلاً ، ولذلك قال بحماس :

— « أتريد أن تعلقها حول عنقك مرة أخرى ؟ » .

وتبهاً لخلع القلادة .

— « كلا ! » .

وكاد رنين صوت أتريو أن يكون حاداً ، وتوقف باستيان عن الكلام مرتبكا .
وابتسم أتريو معتذراً وكرر قوله برفق : « كلا يا باستيان ، لقد حملتها بما فيه الكفاية » .

فقال باستيان : « كما تريد . » ثم أدار العلامة وقال : « انظر . هل قرأت النقش المكتوب ؟ » .

فأجاب أتريو : « ربما رأيته ، ولكنني لا أعرف ما عليها » .

— « كيف ذلك » .

— « نحن ذوى البشرة الخضراء نقرأ الأثر ، وليس الحروف » .

وهذه المرة كان باستيان الذى صاح قائلاً : « آخ » .

وقال أتريو وهو يريد المعرفة : « ماذا يقول النقش ؟ » .

فقرأ باستيان : « افعل ما أنت تُريد » .

ونظر أتريو إلى العلامة دون أن يجيد عنها بصره .

وتتم قائلاً : « إذن هكذا تعنى ؟ » ولم يكشف وجهه أى انفعال ، ولم يستطع باستيان أن يخمن ما فى فكره . ولذلك سأل قائلاً :

— « إذا كنت عرفت ذلك ، فهل كان شيئاً ما قد اختلف بالنسبة لك ؟ » .

فقال أتريو : « كلا ، لقد فعلت ما أردت » .

فقال باستيان وهز رأسه : « هذا صحيح » .

ومرة أخرى صمت كلاهما برهة .

وأخيراً فتح باستيان الحديث ثانية : « لا بد أن أسألك شيئاً آخر يا أتريو . لقد قلت إن منظري كان مختلفاً عندما رأيتني في بوابة المرأة السحرية » .

— « نعم ، مختلف تماماً » .

— « كيف إذن ؟ » .

— « لقد كنت بدينا جداً وشاحباً وكنت ترتدي ملابس مختلفة تماماً » .

فسأل باستيان وابتسم غير مصدق : « بدين وشاحب ؟ هل أنت متأكد حقاً أنني كنت ذلك ؟ » .

— « ألم تكن أنت ؟ » .

وفكر باستيان .

— « لقد رأيتني ، أنا أعرف ذلك ، ولكنني كنت دائماً كما أنا الآن » .

— « حقاً ؟ » .

فصاح باستيان : « وإلا لتذكرت ذلك بالتأكيد ! » .

وقال أتريو ونظر إليه متأملاً : « أجل ، لا بد لك » .

— « ربما كانت امرأة مشوهة ؟ » .

وهز أتريو رأسه بالنفي . — « لا أعتقد ذلك » .

— « كيف تفسر لنفسك إذن أنك رأيتني على ذلك النحو ؟ » .

فاعترف أتريو قائلاً : « لست أدري . أعرف فقط أنني لم أخطيء » .

وبعد ذلك صمتا مرة أخرى لفترة طويلة وأخيراً ذهباً للنوم .

وعندما رقد باستيان في فراشه المصنوعة عوارضه الأمامية والخلفية بالطبع من أدق النقوش الفضية ، لم يغادر خاطره الحديث مع أتريو . لقد بدا له بشكل ما كما لو كان انتصاره على البطل هينريك وحتى إقامته لدى جرأ وجرمان قد قل إنطباعها على أتريو منذ أن عرف أن باستيان كان يحمل البريق . ربما اعتقد أن الأمر لم يكن

بالشئ الخاص في هذه الظروف . ولكن باستيان كان يريد أن يكتسب احترام أتريو الذي لا حدود له .

وفكر طويلاً لا بد وأن يكون شيئاً لا يستطيع عليه أحد في فانتازين ، ولا بواسطة العلامة . شئ لا يقدر عليه إلا هو ، باستيان .

وأخيراً خطر بباله : وهو أن يخلق قصصاً ! .

لقد قيل دائماً أن لا أحد في فانتازين يستطيع إبداع شئ جديد . وحتى صوت أيولالا تحدّث عن ذلك . وكان هذا الشئ بعينه هو الذي يتقنه اتقاناً تاماً .

ولا بد لأتريو أن يرى أنه ، أي باستيان ، أديب عظيم !

وتمنى لنفسه أن تتاح بأسرع وقت ممكن فرصة لكي يبرهن ذلك لصديقه . ربما غدا .

ومن المحتمل مثلاً أن يكون هناك احتفال أدبي في أمر جانت حيث يتفوق باستيان على الجميع بخواطره . أو أنه من الأفضل إذا ما أصبح كل ما يريد أن يحكيه ، حقيقة واقعة . ألم يقل جرأ وجرمان أن فانتازين هي بلد القصص ولذلك من الممكن أن ينشأ شئ مضي منذ وقت طويل إذا ما أتى ذكره في إحدى القصص ؟ .

لا بد لأتريو أن يندهش ! .

وبينما باستيان يتخيل الإعجاب المدهش لأتريو ، راح في النوم .

وعندما جلسوا في الصباح التالي في قاعة التشريفات للقصر على طعام إفطار فاخر ، قال العجوز الفضى كثير كثوباد : « لقد قررنا أن نقيم احتفالاً خاصاً جداً من أجل ضيفنا منقذ فانتازين وصديقه الذي أحضره إلينا . لعلك لا تعلم ، يا باستيان بلتازار بوكس ، أننا نحن أهل أمر جانت منشدو الأغاني والقصاصون في فانتازين تبعاً لتقليد عريق القدم ، فأولادنا يُعلّمون هذا الفن منذ الوقت المبكر . وعندما يكبرون عليهم أن يرحلوا لسنوات طويلة عبر كل البلاد وأن يمارسوا هذه الوظيفة لنفع وخير الجميع . ولذلك نحن نُستقبل في كل مكان بالإحترام والسرور .

ولكننا قلقون : فمخزوننا من الأغاني والقصص - بأمانة - ليس كبيراً جداً . وكثير منا يضطرون إلى تقسيم هذا القليل . ولكن هناك قول يشيع - لست أدري إذا كان صحيحاً - أنك معروف في عالمك بأنك تستطيع اختلاق القصص .

هل هذا صحيح ؟ » .

فقال باستيان : « نعم ، لقد سخروا مني أيضا من أجل ذلك » .

فرجع العجوز الفضي كثير كقوباد حاجيه إلى أعلى مندهشا وقال : « يسخرون منك لأنك تستطيع أن تحكى قصصاً لم يسمعها أحد أبداً ؟ كيف يمكن ذلك ! لا أحد منا يستطيع ذلك ، وسوف نكون جميعا ، أنا ومواطني ، غاية الامتنان لك إذا ما أردت أن تحكى لنا بعض القصص الجديدة . هل ستعينا بعقيرتك ؟ » .

فأجاب باستيان : « سرور ! » .

وبعد الإفطار خرجوا إلى سلام قصر كثير كقوباد ، حيث كان فخور في انتظارهم .

وفي تلك الأثناء كانت جمهرة كبيرة قد تجمعت في الميدان ، ولكن هذه المرة كان من بينهم ضيوف قليلون أتوا إلى المدينة من أجل المبارزات . فقد كانوا في الأساس يتكونون من أهالي أمر جانت ، رجالا ونساء وأطفالاً ، وجميعهم حسنو الهيئة وزرق العيون وجميعهم في زى فضي جميل . وكان مع معظمهم آلات وترية فضية ، هارب ، أرغن ، قيثارات أو آلات عود ، كانوا يريدون أن يصاحبوا بها إلقاءهم ، لأن كل واحد منهم كان يأمل أن يُسمح له بإنتاج فنه أمام باستيان وأتريو .

ومرة أخرى وُضعت مقاعد واتخذ باستيان مجلسه في الوسط ما بين كثير كقوباد وأتريو .

ووقف فخور خلفهم .

ثم صفق كثير كقوباد بيديه وقال في السكون المنتشر :

« إن الأديب العظيم يريد أن يحقق رغبتنا . إنه سيهدينا قصصا جديدة . لذلك ابدلوا أفضل ما عندكم ، أيها الأصدقاء لكي تبيثوه للصفاء ! » .

وانحنى جميع أهالى أمرْ جائت بعمق وهم صامتون . ثم تقدم الأول وبدأ فى الإلقاء . وبعده أتى آخرون ، وآخرون باستمرار . وكلهم كان لديهم أصوات جميلة رنانة ، وكانوا يقومون بعملهم على وجه حسن جدا .

القصص والأشعار والأغانى التى ألقوها كانت حسب المقام ، مشوقة أو مرحة أو أيضاً محزنة ، ولكنها ستحتل هنا مكانا بكثرة زائدة . وسوف تُحكى فى مناسبة أخرى ، وجميعها كانت حوالى مائة قطعة مختلفة فقط . وبعد ذلك راحوا يعيدون أنفسهم . ولم يستطع أهالى أمرْ جائت المتقدمون مؤخرا أن يلقوا شيئاََ أخرا غير ما أسمعهم من سبقوهم .

وبرغم ذلك فقد تزايد توتر باستيان باستمرار ، لأنه كان ينتظر اللحظة التى يأتى فيها دوره هو نفسه . لقد تحققت أمنيته فى مساء البارحة بحذافيرها . وكاد من تشوقه ألا يقدر على الصبر بأن كل شىء آخر سوف يتحقق أيضاً . ونظر إلى أتريو من الجانب ، ولكنه كان يجلس بسحنة غير متأثرة ويستمتع . ولم يكن يلاحظ عليه أى إنفعال .

وأخيرا أمر العجوز الفضى كثير كقوباد مواطنيه بالتوقف . واتجه متنهدا إلى باستيان وقال :

« لقد قلتُ لك يا باستيان بلتازار بوكس ، إن مخزوننا للأسف صغير جدا . ليس ذنبنا أنه لم تعد هناك قصص جديدة . وكما ترى ، نحن نفعل ما فى وسعنا . هل سوف تمنحنا الآن إحدى قصصك ؟ » .

وقال باستيان بسخاء : « سوف أهبكم جميع القصص التى اختلقتها ، لأن فى استطاعتى أن اختلق أية كمية جديدة . كثيراََ منها حكيتها لفتاة صغيرة اسمها كريس تا ، ولكنى حكيت معظمها لنفسى فقط . وبالتالي لا أحد آخر يعرفها . ولكن الأمر سيستغرق أسابيع وشهورا لقص كل منها على حدة ، وليس فى استطاعتنا أن نبقى لديكم هذا الوقت الطويل . ولذلك أريد أن أحكى لكم قصة كل القصص الأخرى متضمنة فيها . واسمها قصة مكتبة أمرْ جائت . وهى قصيرة جدا » .

وفكر قليلا وبدأ مُجْرَبًا حظه :

« في الزمان القديم الغابر كانت تعيش في أمرْ جانت امرأة فضية عجوز اسمها كقوانا كانت تحكم المدينة ، وفي تلك الأيام الماضية منذ قديم الزمان لم تكن هناك لا بحيرة الدموع مورهو ، ولم تكن أمرْ جانت مصنوعة من الفضة الخاصة التي تقاوم المياه . لقد كانت مدينة عادية تماما ببيوت من الحجارة والخشب . وكانت تقع في واد بين هضاب تكسوها الغابات .

وكان لكقوانا ابن اسمه كقين وكان صيادا عظيما . وفي يوم من الأيام رأى كقين في الغابات حيوان وحيد القرن كان يحمل حجرا مضيئا على طرف قرنه . وقتل الحيوان وأخذ الحجر إلى المنزل . ولكنه جلب شقاء كبيرا على مدينة أمرْ جانت . فقد قل باستمرار الأطفال التي يلدها السكان . وإذا لم يعثروا على النجدة فقد حكم عليهم بالانقراض . ولكنه لم يكن ممكنا إعادة الحياة إلى وحيد القرن ، ولم يعرف أحد المشورة .

فأرسلت العجوز الفضية كقوانا رسولا إلى أرض التنبؤات الجنوبية . التي كانت لا تزال موجودة في ذلك الوقت ، لكي يتلقى من أيولالا قولها فيما ينبغي عمله . ولكن أرض التنبؤات الجنوبية كانت بعيدة جدا . وقد بدأ الرسول رحلته وهو شاب ، وعندما رجع كان طاعنا في السن . وكانت العجوز الفضية قد ماتت منذ وقت طويل ، وقد حل ابنها كقين محلها في تلك الأثناء . وهو أيضا كان بالطبع عجوزا جدا ، وكذلك جميع أهالي أمرْ جانت الآخرين . ولم يكن هناك سوى زوج واحد من الأطفال ، صبي وفتاة . وكان اسمه أكفيل وهي موكفوا .

وأعلن الرسول الآن ما صرح له به بصوت أيولالا : إن أمرْ جانت لن تتمكن أن تستمر في وجودها إلا إذا جُعلت أجمل مدن فانتازين . وبهذه الطريقة فقط يمكن إعادة إصلاح خطيئة كقين . ولكن أهالي أمرْ جانت لم يكن بوسعهم إحداث ذلك إلا بمعونة الأخارائي ، وهم أقبح مخلوقات فانتازين . وهم يدعون أيضا بـ « دائمي البكاء » ، لأنهم يذرفون الدمع دون انقطاع حزنا على قبح خلقتهم . وبتيارات الدموع هذه يجللون تلك الفضة الخاصة من أعماق الأرض ويستطيعون أن يصنعوا منها أكثر النقوش روعة .

فذهبت أهالى أمر جانت حينئذ للبحث عن ال أخارائى ، ولكن لم يوفق أحد فى العثور عليهم ، لأنهم يعيشون تحت الأرض بعمق . وأخيراً لم يتبق سوى أكفيل وموكفوا وجميع الآخرين كانوا قد ماتوا ، وكلاهما كبر فى تلك الأثناء . ولقد نجح كلاهما فى العثور على الأخارائى وإقناعهم أن يجعلوا من أمر جانت أجمل مدينة لفانتازين .

وهكذا صنع الأخارائى أولاً زورقا فضياً وفوقه قصر صغير من الزخارف ووضعوه فى ميدان السوق للمدينة الميتة . وبعد ذلك وجهوا تيار دموعهم تحت الأرض بحيث خرج إلى النور كنبع فى الوادى بين الهضاب التى تكسوها الغابات . وامتلاً الوادى بالمياه المرة وتحول إلى بحيرة الدموع مور هو التى يسبح فوقها أول قصر فضى . وعاش فيه أكفيل وموكفوا .

وكان الأخارائى قد وضعوا شرطاً على الزوجين الشابين وهو أنهم وجميع خلفتهم يكرسوا أنفسهم لإنشاد الأغاني وحكاية القصص . وطالما هم يفعلون ذلك فإن الأخارائى يريدون أن يساعدهم حيث إنهم سيكونون بهذه الطريقة مشتركين فى ذلك ويساهم قبحهم فى شىء جميل .

وهكذا أسس أكفيل وموكفوا مكتبة - وهى مكتبة أمر جانت المشهورة - حيث جمعوا فيها كل قصص . وقد بدأوا بقصتي هذه التى سمعتموها حالاً ، ولكن أضيف إليها جميع القصص الأخرى شيئاً فشيئاً والتى حكيتها من قبل ، وهكذا أصبحت فى آخر الأمر من الكثرة لدرجة أن لاهما ولا سلالتهما العديدة التى تسكن اليوم فى المدينة سيستهون منها .

وكون أمر جانت ، أجمل مدينة لفانتازين ، ما زالت موجودة حتى اليوم ، يرجع إلى أن الأخارائى وأهل أمر جانت قد أوفوا بعهدهم تجاه بعضهم الآخر - بالرغم من أنهم لم يعودوا يعرفان شيئاً عن بعضهما . لا شىء سوى اسم بحيرة الدموع هو الذى يذكر بهذا الحدث فى الزمان القديم الغابر .

بعد أن انتهى باستيان ، نهض العجوز الفضى كثير كقوباد من مقعده ببطء .

وأظهر وجهه ابتسامة تشع الصفاء . وقال : « باستيان بلتازار بوكس لقد وهبتنا أكثر من قصة ، وأكثر من جميع القصص . لقد وهبت لنا أصلنا نحن . والآن نعرف من أين تأتي مورهو ومراكبنا الفضية وقصورنا التي تحملها البحيرة . الآن نعرف لماذا نحن شعب من منشدى الأغاني والقصاصين منذ قديم الزمن . نحن نعرف الآن قبل كل شيء ماذا يحتوي عليه ذلك المبنى المستدير لمدينتنا والذي لم يدخله أحدنا من قبل أبدا ، لأنه مغلق منذ أزمان غابرة . إنه يحتوي على أعظم كنوزنا ، ولم نكن نعرف ذلك من قبل . إنه يحتوي على دار كتب أمر جانت ! » .

وكان باستيان نفسه مأخوذاً من أن كل ما حكى عنه حالا ، قد أصبح حقيقة (أم أنه كان من الأزل ؟ ربما أن جراً وجرومان كان سيقول : « كلاهما !) . وعلى كل فقد أراد أن يقتنع بذلك بعينه هو ، فسأل قائلاً : « أين هو هذا المبنى ؟ » . فقال كثير كثوباد : « أريد أن أريك إياه » ، وصاح متجهاً إلى الجمهور : « تعالوا جميعاً معنا . ربما نحصل على معجزات أخرى اليوم ! » .

وتحرك موكب طويل في مقدمته العجوز الفضي إلى جوار أتريو وباستيان ، فوق الجسور التي تربط المراكب الفضية ببعضها ، وتوقف أخيراً أمام مبنى كبير جداً فوق سفينة مستديرة ، وكان هو نفسه له شكل علبة فضية عملاقة . وكانت الجدران الخارجية ملساء وبلا زخاف ولم تكن لها نوافذ أيضاً . ولم يكن هناك سوى باب واحد كبير ، ولكنه كان مغلقاً .

وفي وسط ضلفة الباب الملساء الفضية كان حجر في إطار على شكل حلقة ، وكان يبدو كقطعة من الزجاج الصافي . وكان عليه النقش التالي :

« بعد ما أن أخذتُ من قرن وحيد القرن ، انطفاً نوري .
ولسوف أبقى على الباب مغلقاً ، إلى أن يوقظ نوري ،
من يذكرني باسمي .

ولسوف أضىء له طيلة مائة عام
وأرشدته في الأعماق المظلمة
لمينرود يور

ولكن إذا ذكر اسمى مرة ثانية
من النهاية إلى البداية
فإننى أشع بمصايح مائة عام
في لحظة واحدة .

وقال كثير كقوباد : « لا أحد منا يستطيع تفسير هذا النقش . لا أحد منا يعرف معنى كلمات مينرود يور . ولم يعثر أحد حتى الآن على اسم الحجر بالرغم من أننا جميعاً عاودنا المحاولة باستمرار . ولكننا جميعاً لا نستطيع أن نستخدم إلا الأسماء الموجودة فعلاً في فانتازين . ونظراً لأنها أسماء لأشياء أخرى فلم يجعل أحد الحجر يضىء وبالتالي يفتح الباب . أتستطيع أن تعثر عليه يا باستيان بلتازار بوكس ؟ »
وعم سكون عميق مليء بالتوتر . وتوقف جميع أهالى أمر جانت وغير أمر جانت عن التنفس .

وصاح باستيان : « التساهير ! »

وفي نفس اللحظة أشع الحجر منيراً وقفز من إطاره إلى يد باستيان مباشرة . وانفتح الباب . وخرجت آهة الدهشة من آلاف الحناجر . ودخل باستيان والحجر المضىء في يده من الباب يتبعه أتربو وكثير كقوباد . وتدافع الجمهور من ورائهم .

وكانت الغرفة الكبيرة المستديرة مظلمة ، ورفع باستيان الحجر عالياً .

وصحيح أن ضوءه كان أكثر نوراً من نور الشمعة ولكنه لم يكن كافياً لإنارة الغرفة تماماً . وشوهد فقط أن هناك كتباً فوق كتب على الجدران بطولها ، ولعدة أَدوار .

وأحضرت مصايح وسرعان ما أنيرت الغرفة الكبيرة كلها . وشوهد الآن أن حائط الكتب كان مقسماً على مدى الدائرة إلى أقسام كثيرة مختلفة تحمل ألواحاً إرشادية . فكان هناك مثلاً : « قصص مرحة ، أو قصص مشوقة » أو « قصص جادة » أو « قصص قصيرة » وهكذا داتهاً .

وفي وسط القاعة المستديرة كانت كتابة كبيرة لا يمكن إغفالها منقوشة
ومضغوطة على الأرض :

مَكْتَبَةٌ

الأعمالِ الكاملةِ

لباستيان بلتازار بوكس

ووقف أتريو ونظر حوله بعينين مشدوهتين . وقد تملك عليه الإعجاب والدهشة
لدرجة أن انفعاله رؤى بأكثر من الوضوح . وابتهج باستيان لذلك .

وسأل أتريو وهو يشير بأصبعه من حوله : « كل هذا ، كل هذه قصص
ألفتها ؟ »
- « نعم » ، قال ذلك باستيان وأدخل التساهير في جيبه .

ونظر إليه أتريو بدهشة بالغة . وقال معترفاً : « إن هذا يفوق عقلي . »

وكان أهالي أمرجانت قد انهالوا منذ وقت طويل طبعاً على الكتب بحماس
مشتعل ، يقلبون صفحاتها ، ويقرأون لبعضهم ، منهم من جلس ببساطة على
الأرض ، وبدأوا فعلاً في حفظ مواضع معينة عن ظهر قلب .

وبالطبع كان نبأ الحدث العظيم قد انتشر في كل المدينة الفضية في سرعة
النيران ، سواء بين المواطنين أو الضيوف .

وكان باستيان وأتريو في اللحظة يخرجان من المكتبة إلى الخلاء ، عندما أتى
ناحيتهم السادة هيكريون وهيزبالد وهيدورن .

وقال هيزبالد الذي على ما يبدو ليس فقط الأعظم مهارة بالسلاح ولكن باللسان
أيضاً : « ياسيدي باستيان لقد سمعنا أية مهارات لا تقارن قد أظهرتموها ، ولذلك
نريد أن نرجوكم أن تأخذونا في خدمتكم ، وأن تدعونا نسير معكم في مواصلة
رحلتكم . إن كل فرد منا نحن الثلاثة يشاق إلى أن يحصل على قصة خاصة به .
وإذا لم تكونوا بالتأكيد التام في غير حاجة إلى حمايتنا ، فمن المحتمل أن يكون من
المفيد لكم أن يكون لديكم ثلاثة فرسان ماهرين حاذقين مثلنا في خدمتكم . أترغبون
في هذا ؟ »

فأجاب باستيان : « بسرور ، إن كل فرد ليفخر بمثل هؤلاء الرفقاء . »

وأراد السادة الثلاثة الآن من كل بد في الحال أن يقسموا قسم الإخلاص على سيف باستيان ولكنه منعهم .

وقال مفسراً لهم : « إن سيكاندا سيف مسحور . ولا يجوز لأحد لم يأكل ويشرب من نار الموت الملون ويستحم فيها ، أن يمسه ، دون أن يكون هناك خطر على جسده وحياته . » وهكذا اضطروا أن يقنعوا بمصافحة صداقة باليد .
وسأل باستيان مستفسراً : « وماذا عن أمر البطل هنريك ؟ »

فقال هيكريون : « إنه محطم تماماً . »

وأضاف هيدورن : « الأمر بسبب سيده . »

وختم هيزبالد قائلاً : « ينبغي عليكم أن تهتموا بأمره . »

وهكذا بدأوا السير - وهم الآن خمسة - إلى الفندق الذي نزلت فيه الجماعة في البداية ، وحيث أقام فيه باستيان إيخا في حظيرته .

وعندما دخلوا إلى القاعة لم يجدوا هناك سوى رجل واحد . وقد انكفأ على المنضدة ودس يديه في شعره الأشقر . لقد كان البطل هنريك .

وعلى ما يبدو كان لديه درع احتياطي في أمتعة سفره ، لأنه كان يرتدى الآن زياً أكثر بساطة من الذي تمزق إرباً في اليوم السابق أثناء قتاله مع باستيان .

وعندما تمنى له باستيان نهراً سعيداً ، هب واقفاً وحلق في كلاً الصبيين . وكانت عيناه محمرتين . وسأل باستيان إذا كان يسمح لهما بالجلوس إليه ، فهز كتفيه

ورأسه بالإيجاب وهوى ثانيةً على مكانه ، وكانت أمامه على المنضدة ورقة تبدو كما لو كانت قد كورت لمرات عديدة وأعيد فردها .

وبادره باستيان قائلاً : « أود أن أسأل عن أحوالكم ، يؤسفني إذا كنت قد أهنتكم . » وهز البطل هنريك رأسه بالنفي .

وقال بصوت خشن : « لقد انتهى أمرى ، هاكم ، اقرأوا بأنفسكم . » وجذب باستيان الورقة ، وكان مكتوباً عليها : « إننى لا أرغب إلا في الأعظم وهذا

ليس أنت ، لذلك وداعاً ! »

وسأل باستيان : « من الأميرة أوجلمار ؟ »

وهز البطل هنريك رأسه بالإيجاب . - « لقد جعلتهم يحملونها إلى الشاطئ بعد صراعنا مباشرة ، مع خيامها . من يدري أين هي الآن ؟ إنني لن ألقاها بعد اليوم . ماذا أفعله في هذه الدنيا ! »

- « ألا تستطيعون اللحاق بها ؟ »

- « لماذا ؟ »

- « ربما لكى تغيرون رأيها . »

وأطلق البطل هنريك ضحكة مريرة .

- « إذن أنتم لا تعرفون الأميرة أوجلمار . لقد تمرنت أكثر من عشر سنوات لكى أتمكن من كل ما أستطيعه ، وأعرضت عن كل ما هو غير مفيد لحالتي الجسمانية . وتعلمت بنظام حديدي المبارزة لدى أعظم أبطال المبارزة ، وجميع أنواع المصارعة لدى أقوى المصارعين إلى أن تغلبت عليهم جميعاً . إنني أستطيع الجرى أسرع من حصان والقفز أعلى من غزال ، إنني أستطيع كل شىء بأفضل ما يكون ، أو بمعنى أصح ، - كنت أستطيع حتى أمس . من قبل لم تكن تجدنى جديراً بنظرة أبداً ، ولكن بعد ذلك ازداد اهتمامها بي شيئاً فشيئاً لمهارتي . وجاز لي أن أمل في اختيارها لي - والآن كل شىء بلا جدوى إلى الأبد . كيف لي أن أعيش بلا أمل ؟ »

فقال باستيان : « ربما ينبغى عليك ألا تهتم كثيراً بالأميرة أوجلمار . فمن

المؤكد أن هناك أخريات سينلن إعجابك بنفس القدر . »

فرد البطل هنريك : « كلا ، إن الأميرة أوجلمار تعجبني بالذات لأنها

لا ترضى إلا بالأعظم . »

فقال باستيان حائراً : « هكذا ، إن هذا بالطبع أمر صعب . ماذا يمكن إذن

فعله وماذا إذا ما حاولت معها بشكل آخر ؟ كمنشد مثلاً أو كشاعر ؟ »

فأجاب هنريك وقد أثرت أعصابه قليلاً : « إنني بطل ، ولا أستطيع ولا أريد

أية مهنة أخرى . أنا كما أكون . »

فقال باستيان : « نعم ، إنني أفهم ذلك . »

وصمت الجميع . وألقى السادة الثلاثة نظرات مشفقة على البطل هنريك .
لقد استطاعوا أن يفهموا ما يجري بداخله . وأخيراً تنحى هيزبالد وقال بصوت
منخفض ، متجهاً إلى باستيان :

- « بالنسبة لكم ، ياسيد باستيان ، لن يكون أمر مساعدته أمراً كبيراً في
الحقيقة . »

ونظر باستيان إلى أتريو ، ولكنه اتخذ وجهها لا يبوح بأى انفعال مرة أخرى .
وأضاف الآن هيدورن قائلاً : « إن شخصاً كالبطل هنريك يكون في وضع
سوء فعلاً ، إذا لم تكن هناك أية مَرَدَّة على المدى البعيد . أتفهمون ذلك ؟ »
وكان باستيان لا يزال غير فاهم .

فقال هيكر يون وهو يمسح شاربه الأسود الهائل : « إن المردة ضرورية لكي
يستطيع البطل أن يكون بطلاً . » وأثناء ذلك غمز بعينه لباستيان .
وأخيراً فهم باستيان الآن .

وقال : « اسمع أيها البطل هنريك ، إنني باقتراحى أن تهبوا قلبكم لسيدة
أخرى ، قد اختبرت فقط مدى ثباتكم . ففي الحقيقة إن الأميرة أوجلمار تحتاج الآن
لمساعدتكم ، ولا أحد غيركم يستطيع إنقاذها . »
وأنصت البطل هنريك باهتمام .

- « أتتكلمون جدية ياسيد باستيان ؟ »
- « بكل الجدية ، سيكون بإمكانكم حالاً الاقتناع بذلك . فقد هوجمت
الأميرة أوجلمار منذ بضع دقائق وتم اختطافها . »
- « ممن ؟ »

- « من أحد أكثر المردة رعباً الذين تواجدوا في فانتازين من قبل . إنه المارد
سميرج ، ففي لحظة ما كانت تمر بمنطقة كثيفة بالغابة رآها الشرير واندفع إليها من
الهواء ورفعها من ظهر فرسها وانتزعها معه . »

وهب هنريك واقفاً . وبدأت عيناه تتلأأً ووجنتاه تتوهج . وصفق بيديه من
السرور . ولكن انطفاً لمعان عينيه مرة أخرى وجلس .
وقال وهو مهموم : « للأسف هذا لا يمكن ، فلم تعد هناك مردة على المدى
البعيد . »

فقال باستيان مفسرا : « إنكم تنسون أيها البطل هينريك ، اننى قادم من بعيد جدا - أبعد جدا من أى مكان كنتم فيه . »

وقال أتريو مؤيدا ، وهو يتدخل لأول مرة : « هذا حقيقى . »

وصاح البطل هينريك : « وهى فعلا اختطفها هذا المارد ؟ »

وبعد ذلك ضغط بكلتا يديه على قلبه وتنهَّد قائلا : « آه ، يا معبودتى أوجلمار ، كم تقاسين الآن ؟ ولكن لا تخافى ، منقذك قريب ، إنه فعلا فى الطريق . قولوا لى ، ماذا على أن أفعله ؟ إلى أين يجب أن أذهب ؟ ماهو الأمر ؟ »

وبدأ باستيان يقول : « فى مكان بعيد جدا عن هنا يوجد بلد اسمه مورجول أوبلد النار الباردة ، لأن اللهب هناك أبرد من الثلج . وأنا لا أستطيع أن أقول لكم ، كيف تعثرون على هذا البلد ، وعليكم أن تعثروا عليه بأنفسكم . وفى وسط هذا البلد توجد غابة متحجرة اسمها فود جاباى ، ومرة أخرى فى وسط هذه الغابة المتحجرة يوجد حصن الرصاص رجار ، وتحيط به ثلاثة خنادق . فى الأول يسرى سم أخضر ، وفى الثانى حامض التريك أو ملح البارود يتصاعد منه الدخان ، والثالث يعج بالعقارب كبيرة فى حجم أقدامكم . ولا توجد كبارى ولا جسور فوقها ، لأن السيد المسيطر على حصن الرصاص رجار هو ذلك المارد ذو الأجنحة المسمى سميرج . أجنحته من الجلد اللزج ويبلغ طول امتدادها اثنين وثلاثين مترا . وعندما لا يطير فهو يقف منتصبا كحيوان كغفر عملاق . وجسمه يشبه فأرا أجرب ، ولكن ذنبه ذنب عقرب . وحتى أخف لمسة بالشوكة السامة تجلب الموت المحتم . وأرجله الخلفية أرجل جرادة عملاقة ، ولكن أرجله الأمامية التى تبدو ضئيلة وضامرة ، تشبه أيادى طفل صغير . ولكن لا يجوز الانخداع بذلك ، لأن فى هاتين اليدين الصغيرتين بالذات توجد قوة مخيفة . وهو يستطيع أن يكمش رقبته الطويلة كما تفعل القوقعة بقرون استشعارها ، وفوقها تقبع ثلاثة رؤوس . أحدهم كبير ويشبه رأس تمساح ، ومن هذا الفم يستطيع أن يقذف نيران الحديد ، ولكن هناك حيث يكون للتمساح عيان ، له عضوان ناميان ، وهما رأسان مرة أخرى . الأيمن يبدو كرأس رجل عجوز ، وهو يستطيع أن يسمع ويرى به . ولللكلام لديه الرأس الأيسر الذى يبدو كوجه مجعد لامرأة عجوز . »

وأثناء هذا الوصف أصبح البطل هينريك شاحب الوجه قليلا .
وسأل قائلا : « كيف كان الاسم ؟ »

فقال باستيان مكررا : « سميرج ، إنه يعيش في الأرض فسادا منذ ألف سنة ،
لأن هذا هو عمره . فهو يعاود دائما اختطاف عذراء جميلة يجب أن تدير شؤون المنزل
حتى نهاية أيامها . وعندما تموت يختطف واحدة جديدة . »

- « كيف أننى لم أسمع بذلك أبدا ؟ »

- « إن سميرج يستطيع الطيران سريعا وبعيدا بشكل لا يمكن تصوره . في
الماضى كان يختار دائما بلادا أخرى لفانتازين من أجل حملات سطوه . وهذا يحدث
مرة واحدة فقط في كل نصف قرن . »

- « ولم يطلق أحد من قبل سراح إحدى السجينات ؟ »

- « كلا ، فالأمر يحتاج إلى بطل فريد جدا . »

وعند هذه الكلمات عاد الاحمرار إلى وجنتى البطل هينريك .

وسأل سؤال الخبير : « هل لدى سميرج موضع يمكن جرحه فيه ؟ »

فأجاب باستيان : « آه . كدت أن أنسى أهم شيء . يوجد في أكثر الأقبية
عمقا للحصن رجار بلطة من الرصاص . ربما تستطيعون تصور أن سميرج يحرس
هذه البلطة مثل مُقلّة عينيه عندما أقول لكم إنها هى السلاح الوحيد الذى يمكن أن
يقتل به . فلا بد أن تقطع بها الرأسين الصغيرين . »

وسأل البطل هينريك : « من أين تعرفون كل هذا ؟ »

ولم يكن هناك ما يدعو باستيان إلى الإجابة لأن فى هذه اللحظة تعالت صيحات
فزع على الطريق :

- « تنين ! - مارد ! - انظروا ، هناك بأعلى فى السماء ! - فظيع - إنه يتجه

إلى المدينة . - فلينج بنفسه من يستطيع ! لا ، لا ، إن معه فعلا ضحية ! »

وانطلق هينريك إلى الطريق ، وتبعه الآخرون كلهم ، وآخرهم أتريو

وباستيان .

وفى السماء رفر فبجناحيه شيء يشبه وطواط عملاق . وعندما اقترب كان كما

لو أن ظلا بارداً قد حط على المدينة الفضية كلها للحظة . لقد كان سميرج ، وبدا

مظهره بالضبط كما اختلقه باستيان منذ قليل . وكان يمسك بيديه الضامرتين ولكن الخطيرتين جدا سيدة شابة كانت تصرخ بأعلى صوت وترفس بأرجلها .

وسُمع من البعد المتزايد على الدوام : « هنريك . النجدة يا هنريك . إنقذني يا بطل ! » ثم انتهى

وكان هنريك قد أحضر فعلا فرسه الأسود من الحظيرة ، ووقف في إحدى المعديات الفضية التي تسير إلى اليابسة .

وسُمع وهو يصيح على المراكبي قائلا : « أكثر سرعة ! سأعطيك ما تريد ، ولكن أسرع . »

وتابعه باستيان بنظرة وتمتم قائلا : « أرجو ألا أكون قد جعلت الأمر أصعب من اللازم عليه . »

ونظر أتريو إليه من طرف عينيه . ثم قال بصوت منخفض :

- « ربما من الأفضل لنا أن نبدأ الرحيل أيضا . »

- « إلى أين ؟ »

فقال أتريو : « لقد أتيت إلى فانتازين عن طريقى ، وأعتقد أنه ينبغي على أيضا أن أساعدك في العثور على طريق العودة . من المؤكد أنك في وقت ما ستريد العودة ثانية إلى عالمك ، أليس كذلك ؟ »

فقال باستيان : « أوه ، إننى لم أفكر في ذلك حتى الآن مطلقا . ولكن معك حق يا أتريو . نعم ، بالطبع أنت معك حق تماما . »

وواصل أتريو قوله : « لقد أنقذت فانتازين ، ويبدو لي أنك تلقيت الكثير في مقابل ذلك . ويمكننى الاعتقاد أنك تود الآن العودة لكي تجعل عالمك مُعافى الصحة . أم لا يزال هناك شيء يمنعك ؟ »

باستيان الذى نسى أنه لم يكن دائما قويا وجميلا وشجاعا وذا نفوذ ، أجاب :

- « كلا ، ليس في علمي شيء من ذلك . »

ونظر أتريو إلى الطريق بتأمل مرة أخرى وأضاف قائلا :

- « وربما يكون طريقا طويلا وصعبا ، من يدري ؟ »

وقال باستيان مؤيدا : « نعم ، من يدري ؟ إذا أردت ، دعنا إذن نبدأ الرحيل فوراً . »

ثم كان هناك نزاع صداقة قصير بين السادة الثلاثة الذين لم يستطيعوا الاتفاق على من منهم يجوز له وضع حصانه تحت أمر باستيان . ولكن باستيان إختصر الموضوع بأن رجاهم أن يهبوا له البغلة إيجاً . وكان من رأيهم أن دابة نقل مثل هذه أقل من درجة باستيان ، ولكن نظرا لتمسكه بذلك فقد انصاعوا في آخر الأمر .

وبينما كان السادة يعدون كل شيء لبدء الرحيل ، عاد باستيان وأتريو إلى قصر كثير كقوياد لكي يشكروا العجوز الفضى على كرم ضيافته ويودعوه . وكان فخور ، تنين الحظ ينتظر أتريو أمام القصر . وكان مسرورا جدا عندما سمع بالرغبة في بداية الرحيل . فالمدن لم تكن بالشىء الصحيح بالنسبة له ، حتى وإن كانت بجمال أمرجانت .

وكان العجوز الفضى كثير كقوياد مستغرقا في قراءة أحد الكتب الذى أخذه معه من مكتبة باستيان بلتازار بوكس .

وقال بشىء من السرور : « كنت أود أن تكونوا ضيوفا عندى لوقت طويل . فالمرء لا يستضيف أديبا عظيما مثل هذا في جميع الأيام . ولكننا الآن لدينا مؤلفاته سلوى عنه . » وودعوا بعضهم بعضا وخرجوا .

وعندما جلس أتريو على ظهر فخور ، وسأل باستيان :

- « ألم تكن تريد أن تركب أيضا على فخور ؟ »

فأجاب باستيان : « قريبا ، فالآن تنتظرني إيجاً ، وقد وعدتها بذلك . »

فصاح أتريو : « إذن نحن في انتظاركم على اليابسة . »

وارتفع تنين الحظ في الهواء وفي اللحظة التالية كان خارج مرمى البصر .

وعندما عاد باستيان إلى الفندق ، كان السادة الثلاثة ينتظرون جاهزين للرحيل بالأحصنة والبغلة في إحدى المعديات . وقد نزعوا عن إيجاً بردعة الأحمال وبدلوها بسرج فرسان ملء بالزينة . ولكنها لم تعرف لماذا إلا عندما تقدم إليها باستيان وهمس في أذنها :

- « أنت الآن تخصينى يا إيجاً . »

وأثناء إقلاع الزورق وابتعاده عن المدينة الفضية كانت صيحة الفرح للبلغلة العجوز مازالت تسمع لوقت طويل عند المياه المرة لبحيرة الدموع مورهو .

وأما فيما يتعلق بالبطل هينريك ، بالمناسبة ، فقد نجح فعلا في الوصول إلى مورجول بلاد النار الباردة . واقتحم كذلك الغابة المتحجرة فُود جاباي واجتاز الخنادق الثلاثة من حول حصن رجار . وعثر على البلطة الرصاص وهزم الثنين سميرج . ثم أعاد أوجلمار إلى أبيها بالرغم من أنها كانت الان مستعدة أن تتزوجه . ولكنه الآن لم تعد لديه الرغبة . ولكن هذه قصة أخرى وإسوف تحكى في مناسبة أخرى .

١٨

الإخراجه

Э



على رؤوس الفرسان كادت تمزق السحب التي انهمر منها المطر كثيفا وثقيلا .
ثم بدأت تثلج في نُدْف كبيرة لزجة ، وفي النهاية أثلجت وأمطرت في نفس الوقت .
وكانت العاصفة من الشدة بحيث اضطرت حتى الأحصنة أن تقاومها وهي مائلة .
وثقلت معاطف الفرسان من البلل وكانت تضرب مصفحةً على ظهور الدواب .

وكانوا الآن على سفرهم منذ أيام كثيرة ، والثلاثة الأخيرة منها ساروا عبر هذا
السَّهْل المرتفع . وقد ازداد الطقس سوءا يوما عن يوم وأصبحت الأرض خليطا من
الطين وكبسور الصخور حادة الأطراف والتي جعلت التقدم أمرا متزايدا الارهاق .
وفي مواضع متفرقة كانت توجد مجموعات من الأحراش أو الشجيرات التي أمالها
عصف الرياح ، وخلاف ذلك لم يعرض للعين أى تنوع .

باستيان الذي تقدم ممتطيا البغلة إنحأ ، كان في وضع حسن بمعطفه الفضي
اللامع بالمقارنة بغيره . فلقد اتضح أن هذا برغم أنه خفيف ورقيق ، كان يبعث
الدفء بشكل رائع ، وكان الماء ينزلق من عليه . وكاد الجسم المربع هيكريون
القوى أن يختفى في معطف صوفى أزرق سميك . وكان هيزبالد رقيق الأعضاء ، قد
شد القلنسوة الكبيرة لبعائه الجوخ البنية اللون فوق شعره الأحمر . والتصقت عباءة
هيدورن ذات قماش قلع المراكب الرمادي بأعضاء جسمه النحيلة .

وبالرغم من ذلك فقد كان السادة الثلاثة في روح معنوية جيدة بطريقتهم الخشنة
قليلا . ولم يكن في توقعهم أن رحلة المغامرات مع السيد باستيان ستكون نوعا من
نزاهات أيام الأحد . وبين الحين والآخر كانوا يغنون في مواجهة العاصفة بأصوات
عالية قوية أكثر منها جميلة ، تارة فرادى وتارة في مجموعة . وكانت أغنيتهم المفضلة

على ما يبدو أغنية تبدأ بالكلمات التالية :

« عندما كنت صبيا صغيرا ،

ترا الّلا لآ أثناء المطر والرياح . . . »

وكما شرحوا قائلين بأن أصلها يرجع إلى رحّالة فانتازى من أيام مضت منذ وقت طويل ، وكان يدعى شيكس بير أو ما شابه ذلك .

والشخص الوحيد في المجموعة الذي كان يبدو لا يتأثر أى تأثير بالبلبل أو البرودة ، كان أتريو . فكما هو الحال في أغلب الأوقات منذ بداية الرحلة ، فقد انطلق على ظهر فخور بين نتف السحاب وفوقها ، وكان يسرع متقدماً إلى بعيد ليستكشف البلاد ويعود ثانية ليعطى التقرير .

وكان الجميع ، وحتى تنين الحظ ، يعتقدون أنهم يبحثون عن الطريق الذي سيقود باستيان للعودة إلى عالمه . وأيضا باستيان كان يعتقد ذلك . وهو نفسه لم يعرف أنه أيد اقتراح أتريو في الحقيقة فقط من أجل الصداقة ومن حسن النية ، وأنه في الواقع لم يكن يتمنى ذلك على الإطلاق . ولكن جغرافية فانتازين تحددها الأمان سواء كان يدركها الشخص أم لا . ونظرا لأن باستيان كان ذلك الشخص الذي لديه قرار تحديد الاتجاه الذي يواصلون السير فيه ، فقد حدث أن طريقهم كان يقودهم دائما أكثر عمقا إلى داخل فانتازين - وهو لن يعرف ما أهمية ذلك بالنسبة له إلا فيما بعد . فمؤقتا لم يكن لا هو يشعر بشيء من ذلك ولا أحد من مرافقى رحلته .

لقد كانت أفكار باستيان مشغولة بشيء آخر .

وفي اليوم الثاني مباشرة ، بعد بدء رحيلهم من أمر جانت عثروا في الغابات المحيطة بمورهو على أثر واضح للنتين سميرج . وكان جزء من الأشجار الموجودة هناك قد تحجر . فعلى ما يبدو أن المارد قد حط هناك ومس الأشجار بنار حلقة الباردة برودة الثلج . وكان من السهل التعرف على آثار أقدمه العملاقة كهيئة أقدام الجراد . وعثر أتريو الذي كان خبيرا بذلك ، على آثار أخرى ، ألا وهي آثار حصان البطل هينريك . إذن لقد كان هينريك في أعقاب التنتين .

وقال فُخور فيما يشبه المزاح وهو يدير كريات عينيه الحمراوين كحمرمة الياقوت :
« إننى لست راضيا تماما عن ذلك . لأنه سواء كان سميرج شريرا أم لا ، فهو برغم

كل شيء أحد أقربائي - وإن كان ذلك من بعيد . »

ولم يتبعوا أثر البطل هينريك ، ولكنهم اتخذوا اتجاهها آخراً ، لأن هدفهم كان البحث عن طريق عودة باستيان للوطن .

ومنذ ذلك الوقت فكر فيما فعله في الحقيقة عندما اختلق تينا للبطل هينريك . من المؤكد أن البطل هينريك كان يحتاج إلى شيء يرهن به جدارته ويقاقل ضده . ولكن لم يذكر أبداً أنه سوف ينتصر . ماذا ، لو أن سميرج قد قتله ؟ وإلى جانب ذلك فقد كانت الأميرة أو جلمار أيضاً في موقف مخيف . أكيد كانت متكبرة بعض الشيء ، ولكن هل كان لباستيان الحق أن يأتي بها إلى التعاسة بهذا الشكل ؟ وبصرف النظر عن كل ذلك ، من يدري ماذا كان سميرج سيقترفه في فانتازين غير ذلك . لقد خلق باستيان دون أن يفكر كثيراً في تلك الأثناء خطراً لا يدرك مداه والذي كان سيستمر وجوده بدونه وربما كان سي جلب دماراً لا يوصف على كثير من الأبرياء . لقد كان يعرف أن طفلة الأعمار لا تفرق في مملكتها بين الشرير والطيب ، بين الجميل والقيح . فبالنسبة لها كان كل مخلوق في فانتازين متساوياً في الأهمية والحقوق . ولكن هل كان مسموحاً له ، أي لباستيان - أن يتصرف مثلها ؟ وقبل كل شيء هل كان يرغب في ذلك على الإطلاق ؟

وقال باستيان لنفسه ، لا إنه لم يرد أبداً أن يدخل تاريخ فانتازين كخالق للمردة والأشرار . من الأجل كثيراً لو أنه اشتهر بالطيبة وإنكار الذات ، لو أنه كان المثل الأعلى المضيء للجميع ، لو أنه سُمي بالرجل الطيب ، أو كُرم على أنه « رجل الخير العظيم » أجل ، لقد كان هذا هو ما يتمناه لنفسه .

وفي تلك الأثناء أصبحت الأرض صخرية ، وأعلن أتريو الذي عاد من رحلة طيران استطلاعية على ظهر فُخور ، أنه رصد على مسافة بضعة أميال إلى الأمام واد عميق يتيح حماية جيدة نسبياً ضد الرياح . ولو كان ما رآه صائبا ، فإن هناك أيضاً عديد من الكهوف يمكن للمرء أن يجد بها مأوى من المطر والثلج .

وكان الوقت قد تحطى العصر ، وأن الأوان أن يبحثوا عن مكان يعسكرون فيه لليل . وهكذا ابتهج الجميع نبأ أتريو وحثوا دوابهم على المسير . وامتد الطريق على

قاع وإد تحيط به صخور يتزايد ارتفاعها على الدوام ، وربما كان مجرى أحد الأنهار التي جفت . وبعد حوالي ساعتين وصلوا إلى الوادي العميق ، وفعلا كانت هناك كهوف عديدة في الحوائط فيما حولهم . واختاروا أرحبها وهياؤه لراحتهم بالداخل على قدر المستطاع . وجمع السادة الثلاثة من المكان المحيط بهم حطبا جافا وفروع أشجار كسرتها العاصفة ، وسرعان ما اشتعلت في الكهف نار عظيمة . ونشرت المعاطف المبللة لتجف وأدخلت الأحصنة والبغلة ونزعت عنها السروج ، وحتى فخور الذي كان يفضل دائما المبيت في العراء ، تكوّر في خلفية الكهف . ولم يكن المكان أساسا غير مريح بالمرّة .

وبينما كان هيدورن شديد المراس ، يحاول أن يشوى قطعة كبيرة من اللحم من مؤونته في سيفه الطويل على النار ، وينظر إليه الجميع بتشوق ، إتجه أتريو إلى باستيان راجيا :

— « احك لنا المزيد عن كريس تا ! »

فسأل باستيان دون إدراك : « عن من ؟ » .

— « عن صديقتك كريس تا ، الفتاة الصغيرة التي كنت تحكى لها قصصك . »

فأجاب باستيان : « إنني لأعرف فتاة صغيرة تدعى هكذا ، وكيف خطرلك أنني حكيت لها قصصا ؟ »

ونظر إليه أتريو ثانية بتلك النظرة المتأملّة .

وقال ببطء : « في عالمك حكيت قصصا كثيرة - لها ولنفسك أنت أيضا . »

— « من أين تدعى معرفة ذلك ، يا أتريو ؟ »

— « لقد قلت ذلك . في أمرٍ جائت . وقلت أيضا ، أنه كثيرا ما سُخر منك لذلك . » وحلق باستيان في النار .

وتمتم قائلا : « هذا صحيح . لقد قلت هذا . ولكنني لا أدري لماذا .

لا أستطيع تذكر ذلك . »

وبدا الأمر له هو ذاته غريبا .

وتبادل أتريو نظرة مع فُخور وهز رأسه بجدية ، كما لو كانا قد تحدثا عن شيء
تحقق الآن . ولم يقل شيئا بعد ذلك . وعلى ما يبدو لم يكن يريد أن يتحدث عن ذلك
أمام السادة الثلاثة .

وأعلن هيدورن : « اللحم جاهز »

وقطع لكل واحد قطعة بالسكين وأكل الجميع . وصحيح أنه لم يكن بالإمكان
الإدعاء بخالص النية أنه كان جاهزا - فقد كان متفحما قليلا من الخارج ومازال نيئا
من الداخل - ، ولكن في الظروف المتاحة لم يكن من غير اللائق أن يكون المرء أنوفاً .

ومضغ الجميع فترة من الزمن ، ثم قال أتريو راجيا مرة أخرى :

— « احك لنا كيف أتيت إلينا . »

فأجاب باستيان : « إنك تعرف هذا . لقد أتيت بي إلى الإمبراطورة
الطفولية . »

فقال أتريو : « أفصد ، قبل ذلك ، في عالمك ، أين كنت حينئذ ، وكيف
حدث كل شيء ؟ »

وحكى باستيان الآن كيف أنه سرق الكتاب من السيد كورياندر ، وكيف هرب
به إلى مبنى مخزن المدرسة ، وبدأ القراءة هناك . وعندما أراد أن يحكى عن مهمة
البحث الكبرى لأتريو ، أشاح هذا بيده . ويبدو أنه لم يكن يهيمه ما قرأه باستيان
عنه . وبدلا من ذلك فقد أهمه للغاية معرفة معلومات أدق عن كيفية وسبب زيارة
باستيان لدى كورياندر وهروبه إلى مبنى مخزن المدرسة .

وأجهد باستيان نفسه بالتفكير ولكنه لم يعثر على شيء من ذلك في ذكاراته .
ونسى كل ما كان يتعلق به ، وهو أنه كان خائفاً وبيدنا وحساسا . ذاكرته كانت بقايا
محطمة وهذه الكسور بدت بعيدة ومُبهمة كما لو لم تكن تعنيه هو ، بل تعنى شخصا
آخر .

وسأله أتريو عن ذكريات أخرى ، وحكى باستيان عن أزمته كانت فيها أمه
لا تزال على قيد الحياة ، وعن أبيه وعن منزله وعن المدرسة وعن مدينته - ما كان
لا يزال يعرفه ، واستغرق السادة الثلاثة في النوم ، وكان باستيان لا يزال يحكى .

وأدهشه أن يكون لدى أتريو اهتمام كبير خصوصا بالأموال اليومية المعتادة . ربما كان السبب يرجع إلى الطريقة التي استمع بها أتريو إليه ، بحيث لم تعد تبدو أكثر الأمور سطحية واعتيادية له هو نفسه غير يومية وعادية شيئا فشيئا ، ولكن أصبح لها كلها سر لم يكن يلاحظه أبدا .

وتمدد باستيان والتف بمعطفه الفضي ، وكان سيفظ في نومه في لحظة أن قال أتريو بصوت منخفض : « السبب يرجع » إلى أورين .

وانكأ باستيان برأسه على يده ونظر إلى صديقه بعينين ناعستين :
— « ماذا تقصد بذلك ؟ »

وواصل أتريو كلامه ، كما لو كان يتحدث إلى نفسه ، « البريق يحدث تأثيرا مختلفا على أمثالنا عنه على طفل من البشر . »
— « وكيف توصلت إلى هذا ؟ »

— « إن العلامة تعطيك نفوذا كبيرا ، وتحقق جميع أمنائك ، ولكنها في نفس الوقت تأخذ منك شيئا : ألا وهو تذكر عالمك . »
وفكر باستيان ولم يشعر أن شيئا ينقصه .

— « لقد قال لي جراً وجرمان أن عليّ أن أسير في طريق الأمان إذا انبغى عليّ العثور على إرادتي الحقيقية . وهذا ما تعنيه الكتابة المنقوشة على أورين . ولكن عليّ فوق ذلك أن أسير من أمنية إلى أخرى . وليس في إمكاني تخطي واحدة . وقال إنني لا أستطيع مواصلة السير في فانتازين علي نحو آخر على الإطلاق . وأنا في ذلك محتاج إلى الجوهرة . »

فقال أتريو : « نعم ، إنها تمنحك الطريق وتأخذ منك الهدف في نفس الوقت . »

فقال باستيان وهو مطمئن البال : « كلا ، من المرجح أن طفلة الأقمار كانت تعرف ما تفعله عندما أعطتني العلامة . إنك تشغل بالك بأفكار ليس لها داع يا أتريو . من المؤكد تماما أن أورين ليس بفخ . »

فتمتم أتريو قائلاً : « لا ، أنا لا أعتقد ذلك أيضا . »

وأضاف بعد برهة من الزمن : « وعلى كل حال فإنه لأمر طيب أننا بصدد البحث عن الطريق إلى عالمك . نحن بصدد هذا ، أليس كذلك ؟ »

وأجاب باستيان وهو نصف نائم : « نعم ، نعم . »

وفي وسط الليل استيقظ على صوت غريب . ولم يستطع أن يفسر كنهه لنفسه . وكانت النار قد انطفأت وأحاط به ظلام تام . ثم أحس بيد أتريو على كتفه وسمعه يهمس قائلاً :

« ما هذا ؟ »

ورد هامساً : « لست أدري أيضا . »

وزحفا إلى مدخل الكهف من حيث أتى الصوت واستمعا بإمعان أكثر .

وكان رنيناً كالنحيب والبكاء المكتوم من حناجر لا تحصى ، ولكنه لم يكن بشريا ، ولا حتى له شبه بأصوات النحيب الحيوانية . لقد كان هديرا عاما أحيانا ما يعلو إلى التهديد مثل الموجة المزبدة ثم يخف ثانية لكي يعلو بعد وقت قليل من جديد . لقد كان أكثر صوت سمعه باستيان من قبل باعثا على الأسى .

وهمس أتريو قائلاً : « لو استطيع المرء أن يرى على الأقل شيئا :

فرد باستيان : « انتظر . إن معى التساهير . »

وسحب الحجر المضىء من جيبه ورفعها عاليا .

وكان الضوء ناعما كضوء شمعة وأتار قاع الوادى بشكل ضعيف فقط ، ولكن هذا الشعاع كان كافيا لكي يظهر للصديقين صورة اقشعرت لها أبدانها من الاشمزاز .

وكان قاع الوادى كله ممتلئا بديدان بطول الذراع غير متناسقة الشكل ، وبدا جلدها كما لو كان ملفوفا في خرق بالية وقطعة قماش قذرة . ومن بين ثناياها كان يمكنها أن تُخرج شيئا كأعضاء مخاطية تبدو كأذرع الأخطبوط . وفي طرف أجسادها أطلت من الخرق عينان من كل منها ، عينان بلا أجفان تجرى منها الدموع على الدوام . وكانت هي نفسها وقاع الوادى كله مبللاً منها .

وفي لحظة أن وقع عليهم ضوء التساهير ، تصلبت ، وهكذا أمكن مشاهدة ما كانوا يشتغلون به في ذلك الحين . فقد ارتفع في وسطهم برج يتكون من أدق المشغولات الفضية – أجمل وأعظم قيمة من كل مارأى باستيان . وكان كثير من الكائنات الدودية على ما يبدو على وشك التسلق فوق هذا البرج ويركبونه من أجزاء منفردة . ولكنهم الآن كانوا جميعا بلا حراك ويحملون في ضوء التساهير .

ورن صوت كالهمس المخيف من خلال قاع الوادى : « الويل ! الويل ! لقد بان الآن قبحنا ! الويل ! الويل ! عين من رأتنا ؟ الويل ! الويل ! أن يتحتم علينا أن نرى أنفسنا ! ومهما كنت ، أيها الدخيل القاسى ، فكن عطوفا ورحيما ، وخذ هذا الضوء عنا مرة ثانية ! »
ونفض باستيان .

وقال : « أنا باستيان بلتازار بوكس ، ومن أنتم ؟ »
ودوى صوت ناحيته يقول : « نحن الأخارائى ، الأخارائى ، الأخارائى ، نحن أكثر مخلوقات فانتازين تعاسة . »
وصمت باستيان ونظر إلى أتريو مذهولا ، والذي نهض كذلك الآن وتقدم إلى جواره .

وسأل قائلا : « إذن فأنتم من بنيتم أمرجانت ، أجل مدن فانتازين ؟ »
فصاحت الكائنات : « هو ذلك ، آخ ، ولكن خذنا هذا الضوء ولا تنظر إلينا . كن رحيمًا ! »
– « وبكيتم مكوّنين بحيرة الدموع مورهو ؟ »

وتأوه الأخارائى قائلين : « أيها السيد ، الأمر كما تقول . ولكننا سنموت خجلا ورعبا من أنفسنا إذا ما استمرت على إجبارنا الوقوف في نورك . لماذا تريد من المنا بهذه القسوة ؟ آخ ، إننا لم نفعل بك شيئا ، ولم نلحق الإهانة بأحد عن طريق مرآنا . »

وأدخل باستيان الحجر في جيبه ثانية ، وعم ظلام حالك .

وصاحت الأصوات المتعجبة : « شكرا . شكرا على عطفك ورحمتك
ياسيدى ! »

فقال باستيان : « أود أن أتحدث معكم ، أريد مساعدتكم . »

وكاد يشعر بالغيثان من التقزز والشفقة على مخلوقات اليأس هذه . وكان واضحا
له أنها هي تلك المخلوقات التي تحدث عنها في قصته عن نشأة أمر جانت . ولكن مثل
كل مرة لم يكن غير متأكد في هذه المرة أيضا إذا كانوا منذ الأزل موجودين ، أم أنهم
نشأوا فقط عن طريقه وفي الحالة الأخيرة هذه سيكون بشكل ما مستولا عن كل هذا
الأم .

ولكن مهما كان الأمر ، فقد كان عاقد العزم أن يغير هذا الشيء الفظيع .

وانتجبت الأصوات الشاكية قائلة : « آخ ، من يستطيع مساعدتنا ؟ »

فصاح باستيان : « أنا ، أنا أحمل آورين . »

الآن عم الصمت فجأة . وتلاشى البكاء تماما .

وطرح باستيان سؤالا في الظلام « من أين تأتون هكذا فجأة ؟ »

ورد همس كمجموعة متعددة الأصوات : « نحن نسكن في الأعماق المظلمة
من الأرض ، لكي نخفى منظرنا عن الشمس . وهناك نبكى على وجودنا بلا
انقطاع ، ونحلل بدموعنا الفضة التي لا يمكن تحطيمها من الصخور العتيقة ، ومنها
ننسج بعدئذ تلك الزخارف التي رأيتها . ولا نجرؤ على الخروج إلى السطح إلا في
أحلك الليالي ظلاما ، وهذه الكهوف هي مخرجنا . وهنا بأعلى نركب ما أعددهنا
بأسفل . وهذه الليلة بالذات كانت كافية الظلمة لكي توفر علينا النظر إلى أنفسنا .
ولهذا نحن هنا . وعن طريق عملنا نحاول أن نعوض عن قبحنا للعالم ، ونحن نجد
قليلا من العزاء في ذلك . »

فقال باستيان : « ولكن ليس لكم يد في كونكم هكذا ! »

فأجاب الأخيراي : « هناك أنواع من الذنب ، ذنب الفعل ، وذنب الفكر -
وذنبنا هو ذنب وجودنا . »

فسأل باستيان الذى كاد يبكى من الشفقة : « كيف أستطيع مساعدتكم ؟ »
فصاح الأخارائى : « آخ ، أيها المحسن الكبير ، يا من تحمل آورئين ولديك
السلطة فى إنقاذنا - نرجوك شيئا واحد فقط : امنحنا هيئة أخرى ! » .

فقال باستيان : « إننى أنوى فعل هذا ، ولكن كونوا على ثقة تامة أيتها الديدان
المسكينة . إننى أتمنى أن تناموا الآن وعندما تستيقظون غدا باكرا تزحفون خارجين
من ردايكم وقد أصبحتم فراشات . لا بد أن تكونوا متعددى الألوان ومرحين
وتضحكون فقط ولديكم السرور . ابتداء من الغد لن يكون اسمكم الأخارائى ،
دائىمى البكاء ، بل الشلاموفن ، دائىمى الضحك ! » وأنصت باستيان فى الظلام ،
ولكن لم يكن من المستطاع سماع شىء .

ومس أتريو : « لقد راحوا فى النوم فعلا » .
وعاد كلا الصديقين إلى الكهف . وكان السادة هيزبالد وهيدورن وهيكريون لا
يزالون يشخرون بصوت منخفض ولم يلاحظوا شيئا من كل ما حدث .

ورقد باستيان .
وأحس بغاية الرضا عن نفسه .

قريبا ستعرف كل فانتازين عن هذا العمل الطيب الذى أتمه منذ حين . ولقد
كان فى الحقيقة عملا منكرًا للذات ، لأن لا أحد يستطيع أن يزعم أنه أثناء ذلك قد
تمنى لنفسه أى شىء . إن مجد كرمه سوف يشع بكامل البهاء .

ومس قائلا : « ما قولك فى هذا يا أتريو ؟ »
وصمت أتريو برهة قبل أن يجيب قائلا :
- « ترى ماذا كلفك ذلك ؟ » .

ولم يدرك باستيان إلا بعد ذلك بوقت قصير ، عندما استغرق أتريو فى النوم ، أن
الصديق كان يلمح بذلك إلى النسيان . وليس إلى إنكار باستيان لذاته . ولكنه لم
يستمر فى تفكيره فى ذلك وراح فى النوم وبه إحساس مسبق بالسعادة .

وفى الصباح التالى استيقظ على صيحات ضوضائية متعجبة للفرسان الثلاثة :
- « انظروا إلى هذا ! بشرفى إن مهرق العجوز تكرر ضاحكة أيضا ! »

ورأى باستيان أنهم يقفون في مدخل الكهف وأثريو معهم . وكان هو الوحيد الذى لا يضحك . ونهض باستيان وتقدم إليهم .

وفي قاع الوادى كله كانت أكثر الأشكال الصغيرة غرابة رآها من قبل ، تزحف وتتدحرج وترفرف بأجنحتها . وكانت لجميعها أجنحة فراشات العثة على ظهورها ، وكانت ترتدى مختلف أنواع الملابس القديمة ذات المربعات أو الخطوط أو الحلقات أو النقط . ولكن كل قطعة ملابس بدت إما ضيقة أو واسعة أو كبيرة أو صغيرة أكثر من اللازم ، وحياتها تمت بطريقة عشوائية على نحو ما . لا شيء كان مضبوطا ، وفي كل مكان ، حتى فوق الأجنحة وضعت رقع . ولم يكن أى من هذه الكائنات يشبه الآخر ، وكانت وجوهها ملونة مثل وجوه المهرجين . وكانت لها أنوف مستديرة حمراء أو مناخير مضحكة وأفواه مبالغ في حجمها . بعضها يضع على رأسه قبعات أسطوانية بجميع الألوان ، وأخرى قلنسوات ذات طرف مدبب ، ولدى البعض لم يكن هناك سوى ثلاث خصلات من الشعر الأحمر الفاقع تقف إلى أعلى ، وبعضها لها صلعة لامعة . والجزء الأعظم منها كان يجلس ويتعلق بالبرج الرقيق من الزخارف الفضية الثمينة ، ويقوم بألعاب رياضية عليه ، ويثب عليه ويحاول تحطيمه .

وصرخ إلى أعلى قائلا : «أنتم ، هناك ! كفوا عن هذا فورا ! لا يمكنكم أن تفعلوا ذلك !» .

وكفت الكائنات ونظرت جميعها إليه بأسفل .
وسأل واحد منها بأعلى تماما : «ماذا قال ؟» .

وصاح واحد آخر من أسفل إلى أعلى : «ذلك الشخص هناك يقول إننا لا نستطيع أن نفعل ذلك» .

وسأل ثالث : «لماذا يقول إننا لا نستطيع أن نفعل ذلك ؟» .
فصرخ باستيان : «لأنه غير مسموح لكم أن تفعلوا هذا . انكم لا تستطيعون أن تحطموا كل شيء ببساطة !» .

وأخبرت فراشة العثة الأولى المهرجة الآخرين قائلة : «ذلك الشخص هناك يقول إننا لا نستطيع أن نحطم كل شيء» .

فأجابت أخرى ونزعت قطعة كبيرة من البرج : «بلى ، إننا نستطيع ذلك» .
وصاحت الأولى مرة أخرى إلى باستيان بأسفل ، بينما هى تقفز كالمجنونة :
«بلى إننا نستطيع ذلك» .

وتأرجح البرج وبدأ يقطع بشكل خطير .

وصرخ باستيان قائلا : «ماذا تفعلون !» وكان غاضبا وفرعا ، ولكنه لم يعرف
كيف يتصرف ، لأن هذه الكائنات كانت مضحكة فعلا .
واتجهت الفراشة الأولى مرة أخرى إلى رفقاتها قائلة : «ذلك الشخص هناك
يسأل عما نفعل» .

وأرادت أخرى أن تعرف : «ماذا نفعل حقيقة ؟» .

فشرحت ثالثة قائلة : «إننا نمزح» .

وبعد ذلك انفجر كل من حولها فى كركرة وعطس هائل .

وصاحت الفراشة الأولى إلى باستيان بأسفل وكادت أن تشرق من الضحك :
«إننا نمزح» .

فصرخ باستيان : «ولكن البرج سينهار إذا لم تكفوا !» .

وأخبرت الفراشة الأولى الأخريات قائلة : «ذلك الشخص هناك يقول ،
البرج سينهار» .

وقالت أخرى : «وماذا فى ذلك ؟» .

وصاحت الأولى إلى أسفل : «وماذا فى ذلك ؟» .

وعجز باستيان عن انكلام ، وقبل أن يعثر على رد مناسب ، بدأت جميع
الفراشات المهرجة المتعلقة بالبرج ، فجأة بأداء نوع من الرقص الدائرى فى الهواء ،
بينما هى لا تمسك بأيدي بعضها ، بل بعضها بأرجلها ، وبعضها من الياقة ،
وبعضها كان يدور وهو مقلوب على رأسه والجميع يصرخون ويضحكون .

وكان ما تفعله تلك المخلوقات الصغيرة ذات الأجنحة ، يبدو مضحكا ومرحا
لدرجة أن باستيان اضطر أن يشاركهم الضحك ضد إرادته .

وصاح قائلا : «ولكن هذا غير مسموح لكم ! إنه من صنع الأخرائي !» .
واتجهت الفراشة الأولى المهرجة مرة أخرى إلى رفقاتها : «ذلك الشخص هناك
يقول إن هذا غير مسموح لنا» .

فصرخت أخرى وتقلبت في الهواء : «كل شيء مسموح لنا كل شيء غير
ممنوع علينا . ومن يمنع علينا شيئا ؟ إننا نحن السلاموفن !» .
وصاحت جميع الفراشات المهرجة في صوت واحد : «من يمنع علينا شيئا ؟ إننا
نحن السلاموفن !» .

فأجاب باستيان : «أنا !» .

فقالت الفراشة الأولى للأخريات : «ذلك الشخص هناك يقول ، أنا» .
فسألت الأخريات : ولماذا أنتِ ؟ ليس لكِ أن تقولى لنا شيئا على الاطلاق » .
فشرحت الأولى قائلة : «ليس أنا . ذلك الشخص هناك يقول هو» .
فقال الآخرون وهم يريدون المعرفة : «لماذا يقول ذلك الشخص هناك «هو» ؟
ولن يقول هو «هو» ؟» .

فصاحت الفراشة الأولى إلى أسفل : «لمن تقول هو ؟» .

فصرخ باستيان إلى أعلى وهو نصف غاضب ونصف ضاحك : «إنني لم أقل
«هو» ، إنني أقول أنني أمنع عليكم تحطيم البرج» .
فشرحت الفراشة الأولى للأخريات قائلة : «إنه يمنع علينا تحطيم البرج» .

فسألت واحدة جديدة انضمت إليهم : «من ؟» .

فردت الأخريات : «ذلك الشخص هناك» .

وقالت القادمة مؤخرا : «إنني لا أعرف ذلك الشخص هناك . من يكون على
الاطلاق ؟» .

فصاحت الأولى : «أيها الشخص الذى هناك ، من تكون على الاطلاق ؟» .

فصرخ باستيان الآن وهو غاضب نوعا ما : «إنني لست الشخص الذى
هناك ، إنني باستيان بلتازار بوكس ، ولقد جعلت منكم السلاموفن لكى تكفوا عن
البكاء والعويل . ولقد كنتم اليوم ليلا لا تزالون الأخرائي التعمساء . وكان يمكنكم

أن تجيبوا على ولى نعمتكم بمزيد من الاحترام» .

وكفت جميع الفراشات المهرجة في وقت واحد عن القفز والرقص ووجهوا
أبصارهم إلى باستيان . وفجأة عم صمت بلا نفس .

وهست فراشة كانت تجلس أكثر بعدا : «ماذا قال ذلك الشخص هناك ؟»
ولكن الجالسات إلى جوارها أعطوها ضربة على قبعتها لدرجة أنها انزلت فوق عينيها
وأذنيها . وقالت الأخريات جميعا : «بست !» .

ورجت الفراشة الأولى بأدب متعمد : «هل لك أن تقول ذلك من فضلك مرة
أخرى ببطء تام وبالتفصيل ؟» .

فصاح باستيان : «إننى ولى نعمتكم !» .

وبعد ذلك اندلع هرج مضحك فعلا بين الفراشات المهرجة ، ونقلت الواحدة
القول للأخرى ، وأخيرا زحفت ورفرفت جميع الأشكال التى لا تحصى التى كانت
حتى ذلك الوقت موزعة على قاع الوادى كله ، حول باستيان فى تكتل غير منتظم ،
بينما هى تصرخ فى أذن بعضها .

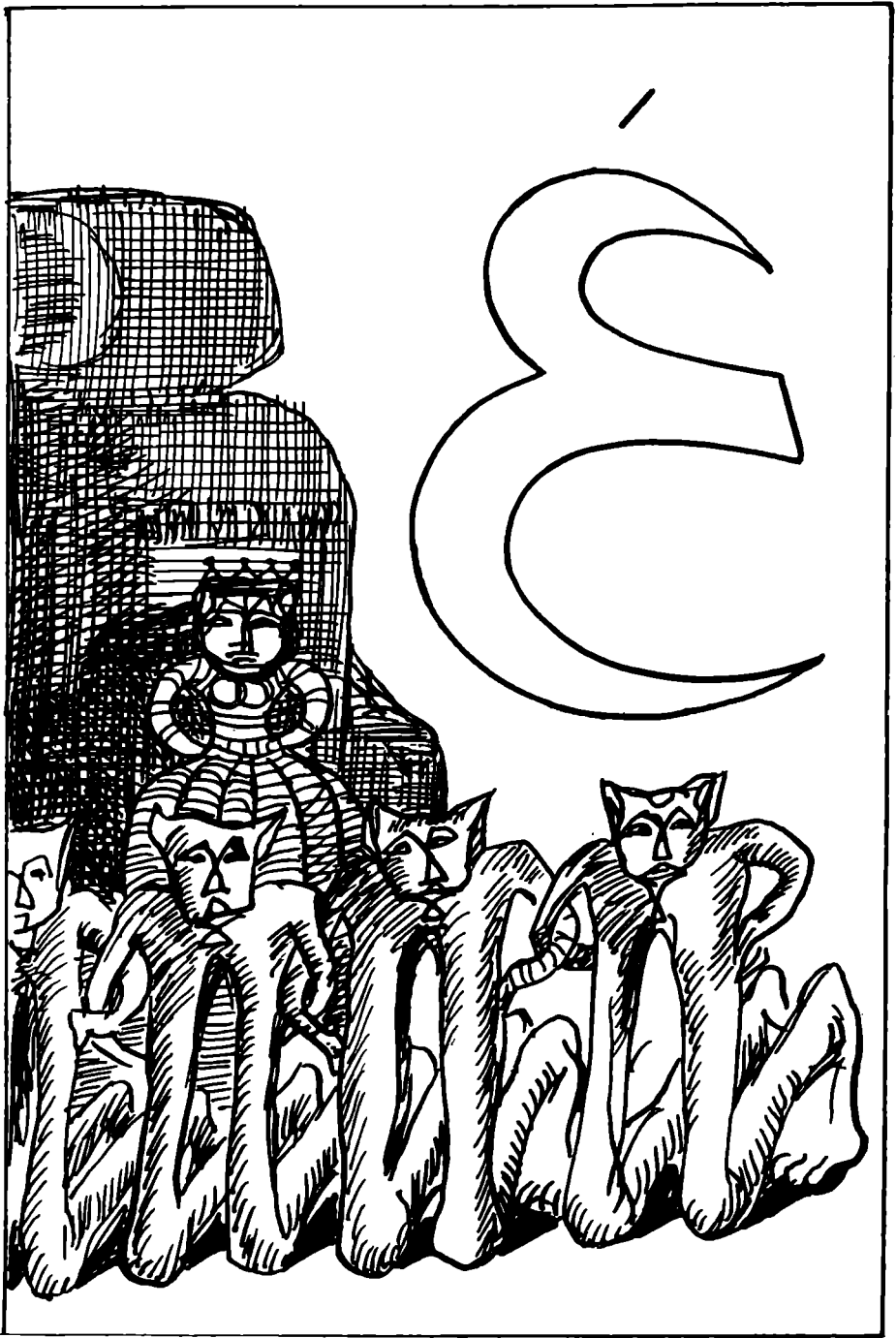
- «أسمعتم هذا ؟ أفهتتم هذا ؟ إنه ولى نعمتنا . إنه يدعى ناستيان
بليتيوكس ! لا ، إنه يدعى بوكسيان ميت نولع . كلام فارغ ، إنه يدعى زاراوى
بوكسينعمة ! لا ، بالدريان هيكس ! شلوكس ! بابلتران ميت نولع ! نيكس !
فلاكس ! تريكس !» وبدت الجماعة كلها قد فقدت السيطرة على نفسها من
السرور . وشدوا على أيادى بعضهم البعض ، ورفعت قبعاتها عاليا وضربت بعضها
على الأكتاف والبطون ، إلى أن ارتفعت سحبات كبيرة من التراب .

وصاحت : «يالنا من سعيادات الحظ . فليعيش بوكسولّى زانز بار
باستيلنعمة !» وتطاير السرب الهائل كله إلى أعلى مستمرا فى الصراخ والضحك ودار
مبتعدا . وتلاشت الضوضاء فى المسافة البعيدة .

ووقف باستيان وهو لا يكاد يعرف بعد اسمه الصحيح .
ولم يعد متأكدا إذا كان قد فعل حقا شيئا حسنا .

١٩

رفقاء الطريق



غشيت أشعة الشمس سائر السحاب المعتم وهي تتخلله بميل ، عندما بدأوا رحيلهم في هذا الصباح . وكانت وطأة الأمطار والرياح قد خفت أخيرا . وكان الفرسان قد دخلوا مرتين أو ثلاث مرات في فترة الضحى في منطقة أمطار شديدة منهمة لفترة قصيرة ، ولكن الجو تحسن بعد ذلك بشكل ملحوظ . وأصبح الجو دافئا بشكل ملموس .

وكانت نفسية الفرسان منبسطة تماما ، فكانوا يمزحون ويضحكون ويداعبون بعضهم بشتى المداعبات . ولكن باستيان كان يركب البغلة صامتا منهمكا عنهم بنفسه . وكان السادة الثلاثة بالطبع يكتنون له احتراما أكثر بكثير من أن يشوشوا عليه أفكاره .

وكانت الأرض التي يسرون من خلالها ، ما زالت ذلك السهل الصخري المرتفع والتي بدت أنها لا تنتهى . ليس إلا الأشجار هي التي ازدادت كثافة وارتفاعا شيئا فشيئا . أتريو الذى كان يطير فوق فخور متقدما حسب عادته ويستطلع المنطقة أيضا من الجوانب الأخرى ، كان قد لاحظ عند بداية رحيلهم نفسيته الشاردة . وسأل تنين الحظ عما يمكنه عمله لكي يدخل البهجة على صديقه . وأدار فخور كريرا عينيه الحمراء بلون الياقوت وقال : « هذا أمر سهل تماما - ألم يكن يريد دائما أن يمتطيني ؟ »

وعندما دارت مجموعة الرحالة الصغيرة بعد ذلك بوقت قصير حول إحدى الزوايا الصخرية كان ينتظرهم هناك أتريو وتنين الحظ . وكان كلاهما يرقدان في راحة في الشمس ويختلسان النظر إلى القادمين .

وتوقف باستيان وتطلع إليهم .

وسأل قائلا : « هل أنتم متعبان ؟ »

فأجاب أتريو : « ولا النذر اليسير ، كنت أرغب فقط أن أسألك إذا كنت تدعني أركب إيحا فترة من الزمن . فإنني لم أركب أبدا على بغلة . لا بد أن يكون هذا شيئا رائعا تماما ، لأنك لم تضجر من ذلك على الإطلاق . بإمكانك أن تجود علىّ بهذا السرور يا باستيان . وأنا أعيرك فخور العجوز في تلك الأثناء . »

واحمرت وجنتا باستيان من الفرح .

وسأل قائلا : « هل هذا حق يا فخور ؟ أتريد أن تحملني ؟ »

فزأرتين الحظ قائلا وهو يغمز بإحدى عينيه : « بسرور ، أيها السلطان صاحب النفوذ العظيم . اركب وامسك نفسك ! »

وقفز باستيان من البغلة واعتلى ظهر فخور بقفزة واحدة . وتشبث بالعرف الأبيض الفضي وصعد التنين إلى الأجواء .

وكان باستيان لا يزال يتذكر جيدا ركوبه لجرأ وجرمان عبر صحراء الألوان ، ولكن ركوب تنين حظ أبيض كان شيئا آخر . فإذا كان الانطلاق فوق الأسد الناري الهائل كالصرخة أو الهدير ، فإن الارتفاع والانخفاض الناعم لجسد التنين اللولبي كان يشبه أنشودة تارة حاملة ورقيقة وتارة قوية ومتألقة . وخاصة عندما كان فخور يسرى في خطوط منحنية في سرعة البرق ، تتلاعب أثناءها الشعيرات على فمه والأهداب الطويلة على أجزاء جسمه كألسنة لهب بيضاء ، كان طيرانه يشبه غناء أجواء السماء . وهفهف معطف باستيان الفضي من ورائه في رياح الطيران ، وتلألأ في ضوء الشمس كأثر ألف شرارة .

وفي وقت الظهر تقريبا هبطا عند الآخرين الذين كانوا قد نصبوا خيامهم فوق هضبة صخرية تسطع عليها الشمس ويجرى من خلالها جدول ماء صغير . وكان البخار يتصاعد فعلا من قدر به حساء فوق النار ، وإلى جانب ذلك كانت توجد أرغفة من الخبز ، وكانت الأحصنة والبغلة تقف بعيدا في أحد المروج وهي ترعى .

وقرر السادة الثلاثة بعد تناول الطعام أن يذهبوا للصيد وقربت مئونة السفر على الانتهاء ، وخاصة اللحم ، وكانوا قد سمعوا صراخ الديوك البرية في الغابة أثناء الطريق . وكان يبدو أن هناك أرانب أيضا . وسألوا أتريو إذا كان لا يريد أن يذهب معهم لأنه لا بد وأن يكون صيادا متحمسا بصفته من ذوى البشرة الخضراء . ولكن أتريو رفض الدعوة شاكرا . ولذلك فقد أمسك السادة الثلاثة أقواسهم القوية وربطوا الجعبات بالسهم على ظهورهم ومشوا إلى الغابة الصغيرة القريبة .

وبقى أتريو وفخور وباستيان وحدهم .

وبعد فترة صمت قصيرة اقترح أتريو قائلا : « ما رأيك يا باستيان إذا ما حكيت لنا مرة أخرى قليلا عن عالمك ؟ »

وسأل باستيان : « وماذا سيثير اهتمامكم ؟ »

وتوجه أتريو إلى تنين الحظ قائلا : « ما رأيك يا فخور ؟ »

فأجاب هذا : « سوف يسرنى سماع شيء عن الأطفال بمدرستك . »

فقال باستيان مندهشاً : « أى أطفال ؟ »

فشرح فخور بقوله : « هؤلاء الذين سخروا منك . »

فكرر باستيان أكثر دهشة : « أطفال سخروا مني ؟ لا أعرف شيئا عن الأطفال - وبالتأكيد التام لم يكن أحدهم يجرؤ أن يسخر مني . »

فاعترض أتريو قائلا : « ولكنك ما زلت تعرف أنك كنت تذهب إلى المدرسة ؟ »

فقال باستيان مفكرا : « نعم ، إنني أتذكر مدرسة ، هذا صحيح . »

وتبادل أتريو وفخور نظرة

وتمتم أتريو قائلا : « هذا ما كنت أخشاه . »

— « ماذا ؟ »

فأجاب أتريو بجدية : « لقد فقدت مرة أخرى جزءا من ذاكرتك . وهذه المرة ترتبط بتحويل الأخرائى إلى السلاموفن . لم يكن ينبغى عليك أن تفعل ذلك . »

وسمع الآن صوت تنين الحظ الذى كاد رنينه أن يكون مهيبا عندما قال :
« باستيان بلتازار بوكس ، إذا كنت تقدر نصيحتى ، فلا تستخدم ابتداء من الآن
القوة التى منحها لك أورين . وإلا تعرضت لخطر أن تنسى أيضا آخر ذكرياتك - ،
وكيف ستنجح حينئذ فى العودة الى هناك من حيث أتيت ؟ »

وقال باستيان معترفا بعد قليل من التفكير : « فى الحقيقة لا أرغب مطلقا فى
العودة إلى هناك »

فصاح أتريو فزعاً : « ولكن يجب عليك ذلك ! عليك أن تعود وتحاول أن
تصلح من شأن عالمك ، لكى يأتى بشر مرة أخرى إلينا إلى فانتازين . وإلا ستهلك
فانتازين من جديد إن عاجلا أو آجلا ، ولكان كل شيء بلا فائدة ! »

فقال باستيان وقد شعر قليلا بالإهانة : « ولكننى ما زلت هنا . إننى منحت
طفلة الأقمار الاسم الجديد منذ وقت قصير فقط »

وتدخل فخور مرة أخرى فى الحديث قائلاً : « وعلى كل حال يتضح الآن لماذا لم
نعثر حتى ذلك الوقت على أصغر إشارة لكيفية تمكن باستيان من العودة . إذا لم يكن
يتمناها على الإطلاق . . . ! »

وقال أتريو فيما يكاد أن يكون رجاء : « باستيان ، ألا يوجد شيء يجذبك إلى
العودة ؟ ألا يوجد شيء تحبه هناك ؟ ألا تفكر فى أيبك الذى من المؤكد ينتظرك
وينشغل عليك ؟ » وهز باستيان رأسه بالنفى .

— « لا أظن ذلك . ربما هو حتى سعيد بالتخلص منى .
ونظر أتريو إلى الصديق بذهول .

فقال باستيان بمرارة : « إذا سمعكم أحد تتحدثون هكذا ، لربما أتى إلى
ما يشبه الظن فى أنكما لا تريدان إلا التخلص منى أيضاً » .

فسأل أتريو بصوت ضعيف : « كيف تقصد هذا ؟ »

فأجاب باستيان : « أعنى ، إن كليكما مشغول بأمر واحد فقط وهو كيف أختفى
بأسرع ما يمكن من فانتازين مرة أخرى » .

ونظر أتريو إلى باستيان وهز رأسه ببطء . ولم يقل واحد من الثلاثة كلمة لوقت طويل . وبدأ باستيان يندم على ما اتهم به كليهما . وكان هو نفسه يعرف أن هذا ليس صحيحا .

وقال أتريو بعد برهة بصوت خافت : « كنت أظن أننا أصدقاء . »

فصاح باستيان : « نعم ، هذا ما نحن عليه أيضا ، وما سوف نكونه دائما سامحنى ، لقد تفوهت بكلام فارغ »

وابتسم أتريو . وقال : « يجب أيضا أن تسامحنا إذا كنا قد أهنأنا . فلم يكن ذلك عن قصد . »

فقال باستيان متصالحا : « وعلى كل حال سوف أتبع نصيحتك . »

وعاد السادة الثلاثة فيما بعد . وقد أسقطوا بعض أفراخ الحجل وديك برى وأرنب . ورفع المخيم واستكمل الرحيل . وعاد باستيان إلى ركوب إيجنا .

وبعد الظهر أتوا إلى غابة تتكون فقط من جذوع عالية جدا . وكانت أشجارها إبرية تكوّن على الارتفاع الكبير سقفا كثيفا أخضر ، لدرجة أنه كاد ألا يسقط شعاع من الضوء على الأرض . ربما لهذا لم تكن هناك أية أحراش منخفضة .

وكان السير على هذه الأرض اللينة الملساء ممتعا . ولقد تنازل فخور بالسير مع مجموعة الرحلة لأنه لو طار بأتريو فوق قمم الأشجار لفقد الآخرين حتما .

ولقد ساروا طيلة العصر كله في دغشة الضوء الأخضر المعتم من بين الجذوع العالية . وفي المساء تقريبا عثروا على أطلال حصن فوق أحد الهضاب واكتشفوا من بين جميع الأبراج والأسوار المتهالكة والجسور والغرف قبوا لا يزال في حالة متوسطة جيدة . وهناك هيأوا أنفسهم لقضاء الليل . وكان الدور هذه المرة على هيزبالد ذى الشعر الأحمر كطباخ ، وقد اتضح أنه كان يفهم في هذا المجال أفضل بكثير جدا . وكان طعم الديك الذى شواه فوق النار ممتازا .

وواصلوا الرحلة فى الصباح التالى . وساروا طيلة اليوم كله من خلال الغابة التى كانت تبدو متشابهة من جميع الجوانب . فقط عندما أتى المساء لاحظوا أنهم ساروا على

ما يبدو في دائرة كبيرة ، لأنهم صادفوا أطلال الحصن مرة أخرى الذى بدأوا منه رحيلهم . غير أنهم اقتربوا منها هذه المرة من جانب آخر .

فقال هيكريون وهو يبرم شاربه الأسود : « إن هذا لم يحدث لى أبدا من قبل . »
وقال هيزبالد وهو يهز رأسه الأحمر : « إننى لا أصدق عينى ! »

ودمدم هيدورن وهو يدب برجليه الطويلتين العجفاوين إلى داخل أطلال الحصن :
« هذا لا يمكن على الإطلاق . »

ولكن الأمر كان هكذا ، وقد أثبت ذلك بقايا طعام اليوم السابق .
وحتى أتريو وفخور لم يستطيعا أن يفسرا لأنفسهما كيف يمكن أن يضلا الطريق على هذا النحو . ولكنها صمتا .

وفي طعام العشاء – وهذه المرة كان شواء الأرانب أعده هيكريون بشكل قابل للأكل نوعا – سأل الفرسان الثلاثة إذا كان باستيان لديه الرغبة فى أن يحكى قليلا من ذخيرة ذكرياته عن العالم الذى أتى منه . ولكن باستيان اعتذر بأن لديه ألم فى الزور . ونظرا لأنه كان صامتا طيلة اليوم كله فقد اعتقد الفرسان أن هذه الحجة حقيقية . وأعطوه بعض النصائح الجيدة فيما ينبغى عليه أن يفعله تجاه ذلك ، ثم خلدوا إلى النوم .

أتريو وفخور فقط كانا يشعران بما يجرى داخل باستيان .

وبدأوا الرحلة مرة أخرى فى الصباح الباكر ، وساروا طيلة اليوم كله من خلال الغابة وراعوا بعناية أن يحافظوا على جهة معينة من الجهات الأصلية – وعندما أتى المساء ، وقفوا ثانية أمام أطلال الحصن .

وبرطم هيكريون قائلا : « فليأخذنى هذا أو ذلك الشيطان ! »

وتأوه هيزبالد قائلا : « إننى سأجن ! »

فقال هيدورن بجفاف : « أيها الاصدقاء ، يمكننا أن نتخلى عن وظيفتنا . إننا لا نصلح أن نكون فرسانا جوالين . »

وكان باستيان قد عثر فى أول مساء على ركن خاص من أجل إيخا لأنها كانت

تحب من بين الحين والآخر أن تنفرد بنفسها تماما لوقت طويل وتسترسل في أفكارها .
ومجموعة الأحصنة التي لم يكن لها حديث فيما بينها إلا عن أصلها العريق وأشجار
عائلتها النبيلة ، كانت تزعجها في تلك الأثناء . وعندما أتى باستيان بالبقلة في هذا
المساء إلى مكانها ، قالت : « سيدى ، إننى أعرف لماذا لم نعد نتقدم . »

— « من أين تدعين معرفة ذلك يا إيخا ؟ »

— « لأننى أحملك يا سيدى . وعندما يكون المرء نصف حمار فقط ، فإن كافة

المشاعر الممكنة تتأبه . »

— « وما هو السبب فى رأيك ؟ »

— « أنت لا تتمنى التقدم يا سيدى . لقد كفت عن أن تتمنى لنفسك شيئا . »

ونظر إليها باستيان فى ذهول .

— « إنك فعلا حيوانة حكيمة يا إيخا . »

وهزت البقلة أذنيها الطويلتين فى حرج .

— « أتعرف فى أى اتجاه كنا نتحرك دائما حتى ذلك الوقت ؟ »

فقال باستيان : « كلا ، أتعرفين أنت ؟ »

وهزت إيخا رأسها بالإيجاب .

— « حتى الآن كنا نتجه دائما بالسير إلى وسط فانتازين . لقد كان هذا هو

اتجاهنا . »

— « إلى ناحية برج العاج ؟ »

— « نعم يا سيدى . وكنا نتقدم جيدا طالما أننا كنا نحافظ عليه . »

فقال باستيان متشككا : « لا يمكن . أتريو وفخور كنا سيلاحظان هذا جيدا .

ولكنهما لا يعرفان شيئا عن ذلك . »

فقالت إيخا : « نحن البغال ، حيوانات ساذجة ولا يمكن بكل تأكيد أن نقارن

بحيوانات تنين الحظ . ولكن هناك عدة أشياء نعرفها ، يا سيدى . ومنها الاتجاه

دائما . وهذه طبيعة موروثه فىنا . ونحن لا نخطئ أبدا . ولذلك كنت متأكدة أنك

تريد الذهاب إلى الإمبراطورة الطفولية . »

فتمتم باستيان قائلا : « إلى طفلة الأقمار . . . ، نعم إننى أود أن أراها مرة أخرى .
وهى سوف تقول لى ما على أن أفعله . »

ثم ربت على فم البغلة الطرى وهمس قائلا : « شكرا إيخا ، شكرا ! »

وفى الصباح التالى جذب أتريو باستيان جانبا .

— « اسمع يا باستيان ، فخور وأنا يجب أن نعتذر لك . النصيحة التى أعطيناها
لك كان قصدنا بها حسنا — ولكنها حمقاء . فمنذ اتباعك لها لم تعد رحلتنا تتقدم .
لقد تحدثنا ليلة اليوم طويلا عن ذلك ، فخور وأنا . إنك لن تنصرف من هنا ،
ونحن معك ، طالما أنك لا تمنى لنفسك شيئا مرة أخرى . ولا يمكن تفادى أنك لهذا
السبب ستنسى المزيد ، ومع ذلك ليس هناك اختيار آخر . لا نستطيع إلا أن نأمل أن
تعثر على طريق العودة فى الوقت المناسب . ولن يساعدك أيضا إذا ما بقينا هنا .
فلا بد أن تستخدم سلطة أورين وأن تعثر على أمنيكت التالية . »

فقال باستيان : « نعم ، إيخا قالت لى نفس الشيء . وإننى أعرف فعلا أمنيتى
التالية . تعال معى ، لأننى أريد أن يسمعها الجميع . »

وعاد إلى الآخرين .

وقال باستيان بصوت عال : « أيها الأصدقاء ، حتى الآن كنا نبحث دون
جدوى عن الطريق الذى يمكن أن يرجعنى إلى عالمى . وأخشى إذا ما استمررنا على
هذا النحو ، ألا نعثر عليه أبدا ، ولذلك قررت أن أزور الشخص الوحيد الذى
يمكنه أن يعطينى معلومات عن ذلك ، إنها الإمبراطورة الطفولية . إن هدفنا ابتداء
من اليوم هو برج العاج . » فصاح السادة الثلاثة كما لو كانوا يصيحون من فم واحد :
« مرحى ! »

ولكن صوت فخور البرونزى زأر من بينها قائلا :

« دع هذا يا باستيان بلتازار بوكس ! إن ما تريده مستحيل ! ألا تعرف أن المرء
لا يقابل سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية إلا مرة واحدة ؟ إنك لن تلقاها مرة
ثانية ! » وانتصب باستيان .

وقال بعصية : « إن طفلة الأقمار مدانة لي بالكثير جدا . إنني لا أستطيع الاعتقاد أنها ستفرض استقبالي . »

فرد فخور : « سوف تتعلم أيضا أن قراراتها من الصعب إدراكها أحيانا . »

فأجاب باستيان وهو يشعر كيف يعلو الغضب جبينه : « أنت وأتريو تريدان دائما إعطائي النصائح ، إنكما تريان بأنفسكما أين أدى بنا اتباعي لنصيححتكما . الآن سوف اتخذ القرار بنفسى . لقد قررت فعلا ، وسيظل الأمر على ذلك الآن . »

وتنفس بعمق وواصل كلامه بشيء من الاسترخاء :

« إلى جانب ذلك فإنكم تتحدثون من منطلقكم دائما . ولكنكم مخلوقات فانتازين ، وأنا بشر . من أين تريدون أن تدعوا أن نفس ما يسرى عليكم يسرى علىّ ؟ وعندما كان أتريو يحمل أورين كان الأمر عنده مختلف عما لدى . ومن سيعيد الجوهرة إلى طفلة الأقمار إذا لم أكن أنا ؟ أتقول أن المرء لا يقابلها مرة ثانية ؟ ولكننى قابلتها فعلا مرتين . المرة الأولى رأينا بعضنا للحظة عندما دخل إليها أتريو ، والمرة الثانية عندما انفجرت البيضة الكبيرة . بالنسبة لى كل شيء مختلف تماما عنه بالنسبة لكم . وأنا سوف أراها للمرة الثالثة »

وصمت الجميع ساكنين . السادة ، لأنهم لم يفهموا عما يدور حونه النزاع فى الواقع ، وأتريو وفخرر لأنها فعلا أصبحت غير متأكدين .

وأخيرا قال أتريو بصوت منخفض : « نعم ، ربما يكون الأمر هكذا كما تقول يا باستيان . لا يمكننا أن نعرف كيف ستتصرف الامبراطورية الطفولية تجاهك . »

وبعد ذلك بدأوا الرحيل ، وبعد ساعات قليلة ، وقيل أن يأتي الظهر ، كانوا قد وصلوا إلى طرف الغابة .

وكانت أمامهم أرضا واسعة هضبية قليلا وتغطيها الحشائش ، ويجرى من خلالها نهر . وعندما وصلوا إليه اتبعوا مجراه .

وطار أتريو مرة أخرى مثل ذى قبل على فخور متقدما مجموعة الفرسان ، ودار حولها فى قوس واسع لكى يستطلع الطريق . ولكنها كانا مشغولى البال وكان طيراهما أقل يسرا عن ذى قبل .

وعندما صعدا إلى أعلى جدا وتقدما في طيرانهما لمسافة بعيدة ، شاهدا أن الأرض تبدو على البعد كما لو كانت منعزلة . منحدر صخري عميق كان يؤدي إلى سهل أكثر عمقا تغطيه الغابات الكثيفة — على مدى إمكانية الرؤية . وكان النهر يندفع إلى مسقط مائي هائل هناك إلى أسفل . ولكن هذا الموضع كان بالنسبة للفرسان يمكن الوصول إليه في اليوم التالي على الأقل .

وعادا أدراجهما .

وسأل أتريو : « أعتقد يا فخور أن الامبراطورية الطفولية لا تكثر بمصير باستيان ؟ »

فأجاب فخور : « من يدري ؟ فهي لا تحدث أية تفرقة . »

واستطرد أتريو قائلا : « ولكنها إذن ستكون فعلا . . . »

فقاطعه فخور قائلا : « لا تنطق به . أنا أعرف ما تقصده ، ولكن لا تنطق به . »

وصمت أتريو برهة قبل أن يقول : « إنه صديقي يا فخور . ويجب علينا أن

نساعده ، حتى ضد إرادة الامبراطورة الطفولية إذا لزم الأمر . ولكن كيف ؟ »

فأجاب التنين : « بالخط » ولأول مرة سُمع كما لو كان جرس صوته البرونزي به تصدع .

وفي هذا المساء تم اختيار كوخ خال مصنوع من جذوع الأشجار موجود على شاطئ النهر ، مكانا يستريحون فيه بالليل . وكان بالطبع ضيقا على فخور وظل كما كان يفعل غالبا فيما مضى ، أن ينام في الأجواء العالية الأحصنة أيضا وإيخا كان عليها أن تظل بالخارج .

وأثناء تناول طعام العشاء حكى أتريو عن مسقط الماء وعن التدرج الغريب في طبيعة الأرض التي رآها . ثم قال كما لو كان الأمر عارضا :

- « بالمناسبة ، هناك مقتفون لأثرنا . »

ونظر السادة الثلاثة إلى بعضهم .

وصاح هيكريون وبرم شاربه الأسود وهو متشوق للعمل : « هيا بنا ! كم

عددهم ؟ »

فأجاب أتريو : « لقد عددت سبعة من وراثنا ، ولكن لا يمكنهم أن يكونوا هنا قبل غد باكرا ، إذا ما واصلوا السير طوال الليل . »
فقال هيزبالد راغبا في المعرفة : « هل هم مسلحون ؟ »

فقال أتريو : « لم أستطع التأكد من ذلك . ولكن هناك المزيد من يأتي من اتجاهات أخرى . فلقد رأيت ستة في الغرب ، وتسعة في الشرق واثنا عشر أو ثلاثة عشر في مواجهتنا . »

فقال هيدورن : « سوف ننتظر ما يريدون . خمسة وثلاثون أو ستة وثلاثون من الناس ليسوا خطرين علينا نحن الثلاثة ، وأقل عدة مرات على السيد باستيان وأتريو . »

وفي هذه الليلة لم يخلع باستيان السيف سيكاندا عنه مثلما كان يفعل غالبا حتى ذلك الوقت . ونام ومقبضه في يده . ورأى في الحلم وجه طفلة الأقمار أمامه . وابتسمت له ابتسامة واعدة . ولم يعرف أكثر من ذلك عندما استيقظ ، ولكن الحلم قوى فيه الأمل في أن يلقاها ثانية .

وعندما ألقى نظرة من باب كوخ جذوع الشجر ، رأى بالخارج في صباح الصباح الذي تصاعد من النهر ، سبعة أشكال بغير وضوح . اثنان منهم كانا مترجلين والآخرين يجلسون فوق دواب ركوب مختلفة الأنواع . وأيقظ باستيان رفقاءه بصوت خافت .

وتمنطق السادة بسيوفهم ثم خرجوا كلهم سويا من الكوخ . وعندما رأت الأشكال المنتظرة بالخارج باستيان ، ترجل الفرسان وركع السبعة أجمعين في نفس الوقت على ركبتهم اليسرى . وأحنوا رؤوسهم وصاحوا قائلين : « السلام والتحية على منقذ فانتازين باستيان بلتازار بوكس ! »

وكان منظر الوافدين عجيبا بما فيه الكفاية . أحد المترجلين كانت له رقبة طويلة بشكل غير عادي ، وعليها رأس ذو أربعة وجوه ، واحد لكل اتجاه . الأول له تعبير مرح ، الثاني غاضب والثالث حزين والرابع له تعبير ناعس . وكل وجه من الوجوه كان جامدا ولا يتغير ، ولكنه كان يستطيع أن يدير إلى الأمام الوجه الذي يناسب

وحالته المزاجية في لحظتها . لقد كان عبارة عن عفريت أربعة أربع ، ويسمى في بعض المناطق تَمِيرًا مِنتِك (١٣)

والشخص السائر الآخر كان ما يسمى في فانتازين كيفالوبود أو الرأس ذات الأرجل ، وهو كائن ، له رأس فقط تحمله أرجل طويلة جدا ونحيلة ، بدون جسم ولا يدين . والرؤوس ذات الأرجل دائمي التجول وليس لهم مقر سكني ثابت . وغالبا ما يسيرون في مجموعات بعدة مئات ، ونادرا ما يقابل المرء واحدا سائرا بمفرده . وهم يتغذون على الأعشاب . وهذا هنا ، الراكع أمام باستيان الآن كان يبدو يافعا وأحمر الوجنتين . ثلاثة أشخاص آخرين جالسين على أحصنة لا تكاد تزيد حجما عن حجم الماعز ، كانوا عفريت قزمي ، ومهرج ظل وأثنى صغيرة حاملة للدروع . كان العفريت القزمي يحمل على جبهته طوقا ذهبيا وكان على ما يبدو أميرا ، والمهرج الظلي كان من الصعب التعرف عليه ، لأنه كان يتكون في الحقيقة فقط من ظل لم يُلَقه أحد . والأثنى الصغيرة حاملة الدروع كان لها وجه يشبه القطة وخصلات شعر طويلة شقراء ذهبية تلفها كالمعطف . وكان جسمها كله مغطى بجلد له خصلات شعر شقراء ذهبية أيضا . ولم تكن أكبر من طفل عمره خمس سنوات .

زائر آخر كان يركب فوق ثور ، كان أصله من بلاد السسافرة الذين يولدون عجائز ويموتون عندما يصبحون رضعا . وهذا هنا كانت له لحية طويلة بيضاء وصلعة ووجه مليء بالتجاعيد ، لقد كان إذن — طبقا لمعايير أحوال السسافرة — صغير السن جدا ، في حوالي عمر باستيان .

وكان جنى أزرق قد أتى على جمل . وكان طويلا ونحिला وكان يلبس عمامة عملاقة . وكانت هيأته بشرية وإن بدا جسمه العلوي العاري المليء بالعضلات كما لو كان يتكون من معدن لامع أزرق . وبدلا من الأنف والفم كان له في وجهه منقار نسر قوى معقوف .

(١٣) يشتق المؤلف هذه التسمية من كلمة Temperament ومعناها المزاج أو الحالة النفسية ، ويقال إن هناك أربعة أنماط للأمزجة ، ولعل المؤلف قد اختار الأربعة وجوه رمزا لذلك .

وسأل هيكريون بقليل من الخشونة : « من أنتم وماذا تريدون ؟ » وبدا له أنه غير مقتنع تماما بعدم خطورة هؤلاء الزائرين برغم مراسم تحيتهم ، وكان هو الوحيد الذى لم يترك مقبض سيفه .

عفريت الأربعة أربع الذى كان يُظهر وجهه الناعس حتى ذلك الوقت ، أدار الآن وجهه البشوش إلى الأمام ، وقال متجها إلى باستيان بينما هو لا يعير هيكريون اهتماما على الإطلاق :

- « سيدى ، إننا أربعة أمراء من بلاد شديدة الاختلاف لفانتازين ، وكل منا اتخذ طريقه لتحييتك وليرجو معونتك . لقد طار نبا حضورك من بلد إلى بلد ، الريح والسحاب تذكر اسمك ، أسواج البحار تخبر عن مجدك بهديرها ، وكل جدول ماء صغير يحكى عن سلطانك . »

وألقى باستيان نظرة إلى أتريو ، ولكنه كان ينظر إلى العفريت نظرة جامدة وتكاد تكون صارمة . ولم ترسم أصغر ابتسامة على شفثيه .

وتناول الكلمة الآن الجنى الأزرق ورن صوته كالصرخة الحادة للنسر : « إننا نعلم أنك أبدعت غابة الليل بيريلين وصحراء الألوان جواب . نحن نعلم أنك أكلت وشربت من نار الموت الملون واستحمت فيها ، وهذا مالم يجتره أحد حيا غيرك فى فانتازين . نحن نعلم أنك جُبت معبد الألف باب ، ونحن نعلم ما حدث فى مدينة الفضة أمرٌ جانت . نحن نعلم ياسيدى أنك قادر على كل شىء . إذا ما لفظت كلمة فإن ما تريده يكون . ولذلك نحن ندعوك للمجىء إلينا وأن تتعطف بمنحنا قصة خاصة بنا . لأننا جميعا ليس لنا قصة بعد . »

وفكر باستيان ثم هز رأسه قائلا : « إن ما تنتظرونه منى لا أستطيع الآن عمله . فيما بعد سوف أساعدكم جميعا . ولكننى أولا لا بد أن أقابل الإمبراطورة الطفولية . ولذلك ساعدونى فى العثور على برج العاج . »

ولم تبد خيبة الأمل على الكائنات بأى حال من الأحوال . وبعد مشاورة قصيرة فيما بينهم ، أعلنوا جميعا عن سرورهم البالغ لاقتراح باستيان أن يرافقه . وبعد ذلك بوقت قصير تحرك الركب الذى أشبه الآن قافلة صغيرة . وقابلهم طوال اليوم كله

وافدون جدد . ليس فقط الرسل الذين أخبر عنهم أتريو في اليوم السابق هم الذين ظهروا من جميع الجهات ولكن أكثر من ذلك بكثير . فقد شوهدت عفاريت لها أرجل كباش ، وأشباح ليل عملاقة وجنيات وعفاريت وفرسان على جعارين ذات ثلاثة أرجل ، وديك في حجم الإنسان مرتديا حذاء طويلا ذا ثنية في رقبته ، وأيل يسير منتصب القامة وله قرون ذهبية ويرتدى بدلة رسمية كهيئة الفراك^(١٤) . وبوجه عام كان من بين الوافدين الجدد مجموعة من الكائنات ليس لها شبه بالصور البشرية . فقد كان هناك على سبيل المثال نمل نحاسي له خوذة ، صخور متحركة ذات أشكال غريبة ، حيوانات مُصَفَّرَة تعزف على مناقيرها الطويلة ، وكذلك ثلاثة من الحيوانات البركية ، التي تتحرك للأمام بطريقة عجيبة جدا ، بأن تذوب عند كل خطوة - إذا ما استطعنا أن نقول ذلك - وتتحول إلى بركة وتلم جسمها من جديد متقدمة قليلا إلى الأمام . ولكن أغرب كائن من الوافدين الجدد ربما كان حيوان ثنائي ، يستطيع جزؤه الأمامي أن يسير مستقلا عن جزؤه الخلفي . وكان له شبه بعيد بفرس النهر ، غير أنه كان مخططا بخطوط حمراء وبيضاء .

وفي تلك الأثناء كانوا ما يقارب المائة . والجميع حضروا لتحية باستيان ، منقذ فانتازين ، وليرجوه من أجل قصة خاصة بهم . ولكن السبعة الأوائل شرحو للوافدين الجدد أن الرحلة ستسير أولا إلى برج العاج ، وكان الجميع مستعدين للمشاركة في الركب .

وركب هيكريون وهيزبالد وهيدورن مع باستيان في مقدمة الموكب الذي أصبح الآن طويلا نوعا .

وفي حوالي المساء وصلوا إلى مسقط الماء . وعند حلول الليل كان الموكب قد غادر السهل الأكثر ارتفاعا وتخطى ممرا جبليا متعرجا إلى أسفل ، وتواجد الآن في غابة من زهور الأوركيدية الكبيرة في حجم الأشجار . لقد كانت زهورا عملاقة رقطاء منظرها يبعث قليلا على القلق . ولذلك تقرر تعيين حراس على شتى الأحوال طوال الليل عندما أقيم المخيم .

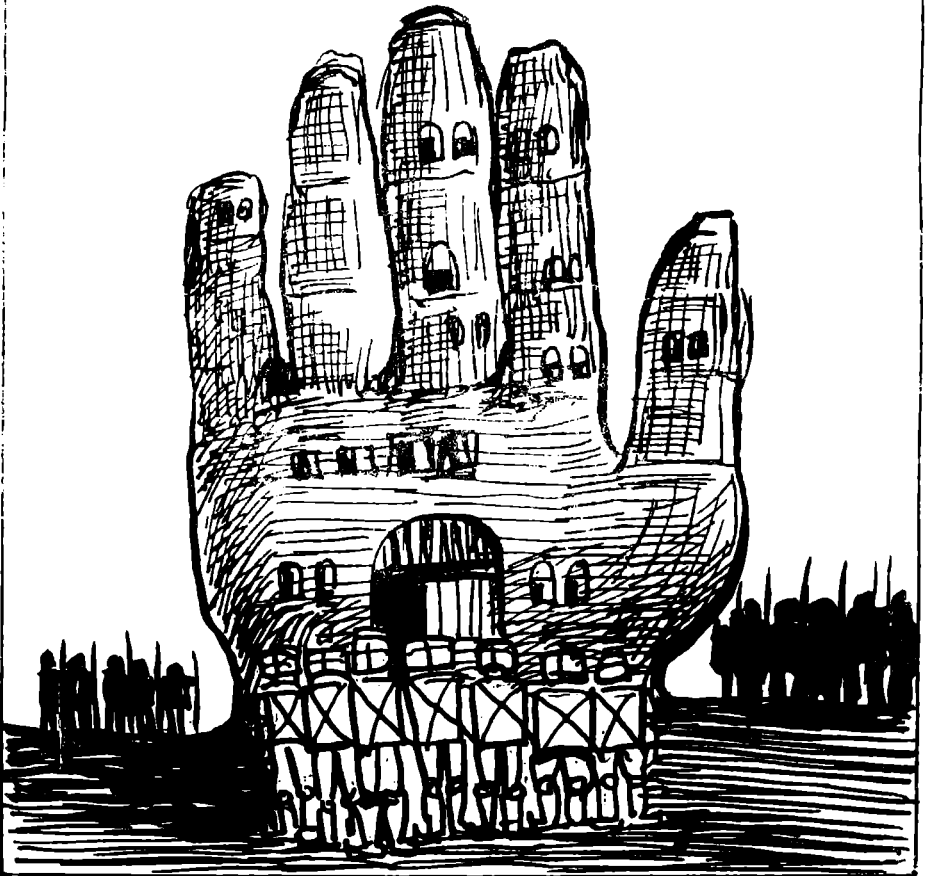
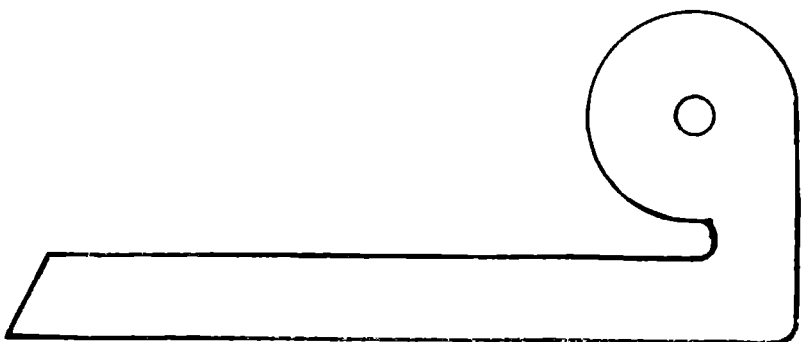
(١٤) Frack بدلة يرتديها الرجال في الحفلات الرسمية لها سترة قصيرة من الأمام وطويلة من الخلف

وكان باستيان وأتريو قد جمعاً أعشاباً تنمو في كل مكان بكثرة وجعلوا منها مخدعاً
لينا . ورقد فُخور ملتفاً على شكل حلقة حول كلا الصديقين ، ورأسه إلى الداخل
بحيث يكونان منعزلين ومحامين كما في داخل حصن كبير على أحد الشطآن . وكان
الهواء دافئاً ومفعماً بعطر غريب ينساب من زهور الأوركيدية ، والذي لم يكن مريحاً
جداً . لقد كان به شيء ينذر بالشر .

٢٠

اليد المبصرة

1



في أول طلوع شمس الصباح تلالأت قطرات الندى على الأزهار وأوراق زهور الأوركيديه ، عندما تحركت القافلة من جديد . ولم تحدث أية أحداث عارضة في الليل خلاف أن انضم مرة أخرى رسل جدد إلى الموجودين من قبل ، لدرجة أن المجموعة كلها قد قارب عددها على الثلاث مائة . ومشاهدة هذه الكائنات مختلفة الأنواع ، كان حقا منظرا جديرا بالرؤية .

وكلما توغلوا في غابة زهور الأوركيديه ، اتخذت الزهور أشكالا وألوانا أكثر غرابة . وسرعان ما تأكد السادة هيكريون وهيزبالد وهيدورن أن الانطباع المقلق الذي دعاهم إلى تعيين الحرس ، لم يكن بدون سبب تماما . فكثير من هذه النباتات كانت من آكلة اللحوم ، وكان حجمها كافيا لابتلاع عجل كامل . صحيح أنها لم تكن تتحرك من نفسها - وفي هذا كان الحراس لا لزوم لهم - ولكن إذا لمسها المرء فإنها تنغلق كمضارب من الحديد . واضطر السادة عدة مرات أن يستخدموا سيوفهم لكي يخلصوا ذراع أو رجل أحد رفاق السفر أوداجته ، وذلك بأن يحطموا الزهرة كلها ويقطعوها إربا .

بأستيان الذي كان يركب على إنحما ، كانت تتزاحم حوله دائما شتى أنواع الكائنات الفانتازية الممكنة ، التي كانت تحاول أن تلتفت نظره إليها أو على الأقل كانت تريد أن تلتقي عليه نظرة . ولكن بأستيان سار صامتا وبوجه جامد لقد استيقظت به أمنية جديدة ، ولأول مرة تجعله إحدى الأمان يبدو منغلقا على نفسه بل وعبوسا أيضا

وكان ما ينفره من سلوك أتريو وفخور ، برغم المصالحة ، الحقيقة غير المشكوك فيها أنها كانا يعاملانه كطفل غير مستقل بذاته ، وشعران نحوه بالمسئولية ، وأن عليهم أن يأخذا بيده ويرشده . وإذا فكر في الأمر جيدا فإن الأمر كان على هذا النحو ابتداء من اليوم الأول للقائهم . كيف توصلا إلى هذا ؟ ربما كانا يشعران أنها يتفوقان عليه لسبب من الأسباب - وإن كان قصدهما به حسنا أثناء ذلك . وبلا شك كان أتريو وفخور يعتبرانه صبيا طيبا يحتاج للحماية . وهذا لم يكن يوافق ، كلاً لم يكن يوافق على الإطلاق .

انه لم يكن طيباً ! وعليهم أن يروا ذلك ، لقد أراد أن يكون خطيرا ، خطيرا ، ومُهَاباً ! شخص يجب على كل فرد أن يأخذ حذره منه - حتى فخور وأتريو .

الجنى الأزرق - وكان اسمه بالمناسبة علوان - أفسح لنفسه طريقاً من خلال التراحم من حول باستيان وانحنى وذراعيه متقاطعه على صدره .
وتوقف باستيان .

- «ماذا هناك يا علوان ، تكلم !»

وقال الجنى بصوته كصوت النسر : «سيدى ، لقد سمعت شيئاً يدور بين رفقاء طريقنا الوافدين حديثاً . بعضهم يدعى علمه ومعرفته لهذه المنطقة التى نتحرك إليها . إنهم جميعاً يرتعدون من الخوف ، يا سيدى .»

- «لماذا ؟ ما كنه هذه المنطقة ؟»

- «غابة زهور الأوركيدية آكلة اللحوم هذه ، ياسيدى ، تدعى حديقة أوجلايس وتنتمى إلى القصر المسحور هوروك ، الذى يسمى أيضاً باليد المبصرة . وهناك تسكن أكثر ساحرات فانتازين قوة وشرا . واسمها كسايد .»

فرد باستيان قائلاً : «هذا حسن ، قل للخائفين أن يهدثوا أنفسهم ، إننى معهم» وانحنى علوان مرة أخرى وابتعد .

وبعد ذلك بقليل هبط إلى جانب باستيان فخور وأتريو اللذين كانا قد طارا متقدمين إلى مسافة بعيدة . وكان موكب الجيش يقوم فى ذلك الحين براحة الظهرية .

وبدأ أتريو بقوله : «لست أدري ما ينبغي علىّ اعتبار ذلك الشيء . فبعد ثلاث أو أربع ساعات من التقدم في الطريق رأينا وسط غابة زهور الأوركيدية مبنى منظره كاليد الكبيرة التي تبرز من الأرض ويحدث انطبعا مخيفا جدا . وإذا ما حافظنا على اتجاهنا الخالي فإننا نسير إليه بالضبط» .

وحكى باستيان ما علمه في تلك الأثناء عن طريق علوان .

فقال أتريو : «في هذه الحالة ، من الأرجح أن نغير الإتجاه ، أليس هذا من رأيك؟»

فقال باستيان : « لا »

- «ولكن لا يوجد سبب يجبرنا على الالتقاء بكسايدته . من الأفضل أن نتفادى المجابهة .»

مكتبة

t.me/t_pdf

فقال باستيان : «يوجد سبب»

- «وهو؟»

فقال باستيان : «لأنني أود ذلك»

وصمت أتريو ونظر إليه بدهشة . ونظرا لتراحم أهالي فاننازيم مرة أخرى من جميع الجوانب لكي يحفظوا نظرة على باستيان ، فلم يكتملا الحديث .

ولكن بعد طعام الغداء عاد أتريو واقترح على باستيان بنبرة تبدو غير مبالية :

- « أليست لديك الرغبة أن تطير معي سويا على فخور؟ »

وفهم باستيان أن أتريو لديه طلب ما . وامتطيا صهوة تين الحظ ، أتريو للأمام وباستيان خلفه وصعدا عاليا في الهواء . وكانت أول مرة يطيران فيها سويا .

وما كادا يتعدان عن مدى السمع حتى قال أتريو :

- «من الصعب الآن التحدث معك وحدك . ولكن يجب حتما أن نتحدث سويا ،

يا باستيان »

فرد باستيان مبتسما : «لقد ظننت ذلك . ماذا هناك؟»

وبدا أتريو حديثه مترددا : «ماوصلنا إليه ، وما نحن متجهين إليه — هل هذا يرتبط بأمنية جديدة لك ؟»

ورد باستيان بقليل من البرود : «من المحتمل» .

واستطرد أتريو قائلا : «نعم ، هذا ما اعتقدناه ، فخور وأنا ، أية أمنية يمكن أن تكون ؟»

وصمت باستيان .

فأضاف أتريو : «لا تفهمنى خطأ ، ليس الأمر أننا خائفون من أى شىء أو من أى شخص ولكننا مشغولون عليك بصفتنا أصدقاؤك .»

ورد باستيان أكثر برودا : «هذا ليس ضرورياً .»

«وأخيرا وجه فخور رأسه إليهما وقال :

- «أتريو لديه اقتراح راجح جدا ، ينبغي أن تسمعه ، ياباستيان بلتازار بوكس»

فسأل باستيان بابتسامه ساخرة : «ألديكم نصيحة جيدة مرة أخرى ؟»

فأجاب أتريو : «لا ، ليست نصيحة ، اقتراح ربما لن يعجبك فى اللحظة الأولى . ولكن عليك أن تفكر فيه أولا قبل أن ترفضه ، لقد أنهكنا فكرنا طيلة الوقت كله بكيفية إمكانية مساعدتك . السبب يرجع إلى التأثير الذى تحدثه عليك علامة الإمبراطورة الطفولية . بدون قوة أورين لن تستطيع التقدم عن طريق الأمانى . ولكن بقوة أورين ستفقد نفسك وسيقل تذكرك على الدوام لما تريد أن تذهب إليه على الإطلاق . وإذا لم تفعل شيئا فسوف تأتى اللحظة التى لا تعلم فيها شيئا على الإطلاق» .

فقال باستيان : «لقد تحدثنا عن ذلك فعلا ، وماذا أيضا ؟»

واستطرد أتريو قائلا : «عندما كنت أنا أحمل الجوهرة فى ذلك الوقت ، كان كل شىء مختلفا . لقد كانت تقودنى ولم تكن تأخذ منى شيئا . ربما لأننى لست بشرا ولذلك ليس عندى ما أفقده من تذكر لعالم البشر . أريد أن أقول ، إنها لم تضرق ،

على العكس تماما . ولذلك أردت أن أقترح عليك أن تعطيني أورين وأن تعهد نفسك لقيادتي . وسوف أبحث لك عن طريقك . ما رأيك في هذا ؟»

فقال باستيان ببرود : «مرفوض»

ووجه فخور رأسه لوراء مرة أخرى .

- «ألا تريد على الأقل أن تفكر في الأمر لحظة ؟»

فأجاب باستيان : «كلا ، لماذا ؟»

والآن أصبح أتريو لأول مرة غاضبا .

«باستيان ، حَكَمَ العقل . يجب أن تفهم أنك لن تستطيع أن تواصل الفعل على هذا النحو . ألا تلاحظ أنك تغيرت تماما ؟ ما هي العلاقة التي مازالت تربطك بنفسك ؟ وماذا سيؤول إليه مصيرك ؟»

فقال باستيان : «جزيل الشكر ، شكرا كثيرا لاهتمامكم بلا انقطاع بشئوني . ولكن بأمانة من الأفضل كثيرا لي ، إذا ما أرحتموني من ذلك - إنني - إذا ما كنتم قد نسيتم هذا - أنا ذلك الذي أنقذ فانتازين ، وأنا ذلك الذي عهدت إليه طفلة الأعمار بسلطتها ولا بد وأن يكون لديها سبب ما لذلك ، وإلا لأمكنها أن تترك لك أورين يا أتريو . ولكنها أخذت منك العلامة وأعطتها لي . أتقول أنني تغيرت ؟ نعم ، يا عزيزي أتريو ، يمكن أن يكون معك حق في ذلك . إنني لم أعد ذلك الساذج الطيب الذي لا يعرف شيئا ، والذي ترونه في شخصي . أتريد أن أقول لك لماذا تريد أن تأخذ مني أورين في الحقيقة ؟ لأنك بكل بساطة غيران مني ، لا شيء سوى الغيرة ، أنتم لا زلتم لا تعرفونني ، ولكن إذا ما استمررتم على هذا النحو - إنني أقولها مرة أخرى بالحسنى - فلسوف تعرفونني !»

ولم يرد أتريو . وفقد طيران فخور فجأة كل قوته ، وجر نفسه بصعوبة عبر الهواء وانخفض أكثر وأكثر عمقا كطائر مجروح .

وأخيرا نطق أتريو بمجهود : «باستيان ، إن ما قلته منذ حين لا يمكن أن تعتقد فيه جدية . نريد أن ننساه إنه لم يُقل أبدا» .

فرد باستيان : «حسن ، كما تريد ، إننى لم أبدأ بذلك . ولكن ليكن . فلننسى هذا» ولم يقل أحد كلمة واحدة لفترة من الزمن

وبزغ أمامهم على البعد من غابة زهور الأوركيدية قصر هوروك . وبدأ فعلا مثل يد عملاقة ذات خمسة أصابع مستقيمة مفرودة إلى أعلى

وقال باستيان فجأة «ولكننى أود أن أوضح أمرا واحدا للمرة الأخيرة ، لقد قررت ألا أعود على الإطلاق . سوف أبقى فى فانتازين إلى الأبد . فالحال يعجبني جدا . ولذلك يمكننى بسهولة التنازل عن ذكرياتى . وفيما يتعلق بمستقبل فانتازين فإننى أستطيع أن أمنح الإمبراطورة الطفولية ألف اسم جديد . نحن لم نعد فى حاجة إلى عالم البشر!»

وفجأة قام فخور بتغيير حاد لا تجاهاه وطار عائدا

فصاح باستيان «يا هذا ، ماذا تفعل ؟ استمر فى الطيران أريد أن أرى هوروك عن قرب!»

فرد فخور بصوت متصدع : «لم أعد أستطيع ، لم أعد أستطيع حقا!»

وعندما هبطوا فيما بعد عند القافلة وجدوا رفقاء الطريق فى اضطراب شديد . واتضح أن هجوما وقع على الركب ، وذلك من عصابة تتكون من حوالى خمسين شخصا ، داخل تسليحات أودروع سوداء على هيئة الحشرات . وكان كثير من رفقاء الطريق قد هربوا وعادوا الآن فقط فرادى أو فى جماعات ، وآخرون دافعوا عن أنفسهم بجسارة ولكن دون أن يحرزوا حتى أقل القليل . وكان هؤلاء العمالقة المدرعون قد قضاوا على كل دفاع مضاد ، وكان الأمر بالنسبة لهم لعبة من لعب الأطفال . ولقد قاتل السادة الثلاثة هيكريون وهيزبالد وهيدورن قتال الأبطال ، ولكن أيضا دون أن يتغلبوا حتى على فرد واحد من الخصوم . وأخيرا نزع سلاحهم وقد قهرتهم الكثرة ووضعوا فى الأغلال وجرجروا إلى بعيد . وكان أحد المدرعين بالدروع السود قد صاح بما يلى بصوت غريب له رنين الصفيح :

«هذه رسالة كسايدة ، سيدة قصر هوروك إلى باستيان بلتازار بوكس . إنها تطالب المنفذ أن يخضع لها بلا قيد ولا شرط ، وأن يقسم على القيام بخدمتها بكل

ما هو عليه ، وما لديه وما يستطيع كخادم مخلص . وإذا كان غير مستعد لذلك ، وفي حالة تفكيره في أية حيلة لكي يحبط من رغبة كسايدة ، فسوف يموت أصدقاؤه الثلاثة هيكريون وهيزبالد وهيدورن موتا بطئيا مشينا وقاسيا مع التعذيب . والمرجو منه أن يفكر بسرعة لأن المهلة ستنتهي غدا مع شروق الشمس . هذه هي رسالة كسايدة ، سيدة قصر هوروك إلى باستيان بلتازار بوكس . وقد بلغت . »

وعض باستيان على شفتيه . وحملق أتريو وفخور أمامهم في جمود ، ولكن باستيان عرف بالضبط مايفكران فيه . ولأنها بالذات لم يظهر شيئا ملحوظا لديهما ، فقد أزداد ذلك من غضبه داخليا . ولكن الآن لم يكن الوقت الصحيح لمحاسبتها على ذلك ، وسوف تسنح فيما بعد الفرصة المناسبة .

وقال بصوت عال للمحيطين به : «إنني لن أخضع لا بتزاز كسايدة هذا بأى حال من الأحوال لعل هذا يكون واضحا . يجب علينا فوراً أن نضع خطة لكيفية التمكن من تخليص الأسرى الثلاثة بسرعة . »

وقال علوان ، الجنى الأزرق ذو منقار النسر : «لن يكون هذا أمراً سهلاً ، إننا جميعاً لن نستطيع التغلب على هؤلاء الغلمان السود ، لقد اتضح ذلك . وحتى وإن قاتلت أنت ياسيدى ، وأتريو وتنين الحظ على رأسنا فسوف يستغرق الأمر وقتاً طويلاً جداً إلى أن نستولى على قصر هوروك . إن حياة السادة الثلاثة في يد كسايدة ، وإذا ما لاحظت هجومنا ، فسوف تقتلهم جميعاً . وهذا بيدولى مؤكداً . »

فقال باستيان شارحاً : «إذن لا يجوز لها أن تلاحظ ذلك . يجب علينا أن نفاجئها . » وسأل عفريت الأربعة أربع ، الذى أدار الآن وجهه الغاضب إلى الأمام ، وكان منظره مرعباً جداً : «وكيف نستطيع ذلك ؟ إن كسايدة لما كرة جداً وستكون متأهبة لكل احتمال» وقال أمير العفاريت القزمية : «وهذا ما أخشاه أيضاً ، إننا أكثر من ألا نلاحظها إذا ما تحركنا تجاه قصر هوروك . إن موكب جيش مثل هذا لا يمكن إخفاؤه ولا حتى في الليل . فمن المؤكد أنها وضعت رجالاً للاستطلاع . »

وفكر باستيان قائلاً : «إذن يمكننا أن نستغل هذا بالذات لخداعها . »

- « كيف تقصد هذا ، ياسيدى ؟ »

- عليكم أن تواصلوا المسير بالقافلة كلها في اتجاه آخر ، بحيث يبدو كما لو كنتم تهربون ، وكما لو كنا قد تغاضينا عن تخلص الأسرى الثلاثة . »

- « وما هو مصير الأسرى ؟ »

- « سوف أتولى أنا ذلك مع أتريو وفخور »

- « أنتم الثلاثة فقط ؟ »

فقال باستيان : « نعم بالطبع فقط إذا ما وقف أتريو وفخور في صفى . وألا أقوم أنا بكل شىء وحدى . »

ورمقته نظرات الإعجاب . وأخبر الواقفون بالقرب منه بالهمس الآخرين الذين لم يستطيعوا سماع ذلك . وأخيرا صاح الجنى الأزرق : « إن هذا ياسيدى سيدخل في تاريخ فانتازين سواء ستتصر أم ستنهزم . »

واتجه باستيان إلى أتريو وفخور قائلا : « هل ستأتين معى ؟ أم أن لديكما مرة أخرى اقتراح من اقتراحاتكما ؟ »

فقال أتريو بصوت منخفض . « لا ، سنأتى معك . »

فأصدر باستيان أمره : « إذن فليتحرك الركب الآن طالما أن الدنيا ما زالت منيرة يجب أن تثيروا الانطباع انكم هاربون . هيا أسرعوا ! وسوف ننتظر هنا حلول الظلام . وغدا باكرا نلتقى بكم مرة ثانية - مع السادة الثلاثة أو لا نلتقى على الإطلاق . اذهبوا الآن »

وانحنى رفقاء الرحلة صامتين أمام باستيان ثم بدأوا الرحيل . واختبأ باستيان وأتريو وفخور في أحراش زهور الأوركيديه وانتظروا الليل بلا حركة صامتين .

وعندما حل الغسق سمعوا فجأة صليلا منخفضا ورأوا خمسة من الأشخاص العمالقة السود يدخلون مكان المخيم المهجور . وكانوا يتحركون بطريقة آلية غريبة . وهم جميعا متساوون تماما . وكل ما عليهم كان يبدو من المعدن الأسود ، وحتى وجوههم كانت كأقنعة من الحديد . ووقفوا في نفس الوقت ، واستداروا إلى

الاتجاه الذى اختفت فيه القافلة ، واقتفوا أثرهم فى خطوة منتظمة دون أن يتحدثوا كلمة مع بعضهم . ثم عاد السكون مرة أخرى .

فهمس باستيان : « يبدو أن الخطة تسير على ما يرام . »

فرد أتريو : « لقد كانوا خمسة فقط ، أين الآخرون ؟ »

فقال باستيان : « من المؤكد أن الخمسة سوف ينادون عليهم بطريقة ما . »

وعندما عم الظلام التام أخيرا زحفوا بحذر من مخبئهم وارتفع فخور بكلا راكبيه إلى الأجواء بلا صوت ، وطار بانخفاض على قدر الإمكان فوق هامات غابة زهور الأوركيدية لكيلا يُكتشف أمرهم . وكان الاتجاه فى بادىء الأمر محمدا . لقد كان نفس الاتجاه الذى اتخذته فى عصر هذا اليوم . وبعد حوالى ربع ساعة من الطيران السريع المنزلق ، تبادل سؤال وهو إذا كانوا سيعثرون الآن على قصر هوروك وكيف سيتم ذلك . وكان الظلام مطبقا . ولكن بعد ذلك بدقائق قليلة شاهدوا القصر يبرز أمامهم . وكانت نوافذه الألف مضاءة إضاءة ساطعة . ويبدو أن كسايدة كانت مهتمة بأن يُرى هذا . وكان من السهل تفسير ذلك ، لأنها كانت تتوقع زيارة باستيان ، وإن كانت بمعنى آخر .

ولدواعى الحذر فقد انزلق فخور إلى الأرض من بين زهور الأوركيدية ، لأن رداءه القشرى فى بياض الصدف كان يلمع ويعكس الضوء . ولم يكن جائزا بعد رؤيتهم فى بادىء الأمر .

واقتربوا من القصر مستترين بالنباتات . وأمام بوابة المدخل الكبيرة كان يقوم بالحراسة عشرة من العمالقة المدرعين . وعند كل نافذة من النوافذ المضاءة بنور ساطع كان يقف واحد منهم بلا حركة وبلون أسود كظل منذر بالخطر .

وكان قصر هوروك على مرتفع صغير خال من أحراش زهور الأوركيدية . وكان شكل المبنى فعلا كشكل يد عملاقة تبرز من الأرض . وكان كل أصبع يشكل برجاً ، والإبهام كان مبنى جانبيا بارزا فوقه برج مرة أخرى . والجميع بارتفاع عدة طوابق ، وكل عقلة أصبع تكوّن طباقا وكان للنوافذ شكل عيون مضيئة تنظر إلى جميع الاتجاهات فى البلد . وكان يُسمى بحق اليد المبصرة .

وهمس باستيان في آذانها : « لا بد أن نكتشف أين يقبع الأسرى » .

وهز أتريورأسه بالإيجاب وأفهم باستيان أن يصمت ويبقى مع فخور . ثم ابتعد زاحفا على بطنه دون أن يحدث أدنى صوت . واستمر وقتا طويلا قبل أن يعود .

وهمس قائلا : « لقد تسللت من حول القصر كله . ولا يوجد سوى هذا المدخل وحده . ولكنه في حراسة جيدة . ولكنني استطعت أن اكتشف فقط كوة في سقف طرف الأصبع الوسطى بأعلى تماماً ، ويبدو أنه لا يقف أحد من العمالقة المدرعين عنده . ولكننا إذا حلقنا بفخور إلى أعلى فإنهم حتماً سوف يروننا . وعلى ما يبدو فإن الأسرى موجودون بالقبو ، وعلى كل حال فقد سمعت مرة صرخة ألم طويلة كما لو كانت آتية من العمق » .

وفكر باستيان بإمعان . ثم همس قائلا :

« سأحاول الوصول إلى هذه الكوة . وعليك أنت وفخور أن تصرفا نظر الحراس في تلك الأثناء إفعلا أى شىء يجعلهم يعتقدون أننا سوف نهاجم بوابة المدخل . . عليكما أن تستدرجوهم جميعاً إلى هنا . تستدرجوهم فقط ، فاهم ، لا تنساق بأى حال إلى القتال . وفي تلك الأثناء سأحاول أن أتسلق اليد من الخلف . عطل الأشخاص على قدر الإمكان . ولكن لا تقدم على أية مخاطرة . اترك لى بضعة دقائق من الوقت قبل أن تبدأ » .

وهز أتريورأسه بالإيجاب وصافحه . ثم خلع باستيان معطفه الفضى . ودلف مبتعداً خلال الظلام وتسلل في نصف دائرة كبيرة حول المبنى . وما كاد أن يصل إلى الناحية الخلفية ، حتى سمع أيضاً أتريو وهو يصيح بصوت عال :

« يا هذا . أتعرفون باستيان بلبتازار بوكس ، منقذ فانتازين ؟ لقد حضر ، ولكن ليس من أجل أن يلتمس فضل كسايدة ، ولكن لكي يمنحها فرصة لاطلاق سراح الأسرى طواعية . وبهذا الشرط لها أن تحتفظ بحياتها المشينة » .

وكان باستيان قد استطاع في ذلك الحين أن يستطلع بنظره من خلال الأحرش إلى ما حول إحدى زوايا القصر . وكان أتريو قد التف بالمعطف الفضى واستطاع أن يلف شعره الأزرق بسواد إلى أعلى كهيئة العمامة . وبالنسبة لشخص لا يعرفهما

جيداً ، فهناك فعلا احتمال لوجود شبه ما بينهما .

وبدا العمالقة المدرعون السود حيارى للحظة من الزمن . ولكن فقط للحظة واحدة . وبعدها اندفعوا إلى أتريو ، وسُمع الدبيب المعدن لخطواتهم . وحتى الظلال عند النوافذ تحركت الآن وتركوا أماكنهم ليروا ماذا هناك . وآخرون تزاحموا في جمع كبير خارجين من بوابة المدخل . وعندما كاد أوائلهم أن يصلوا إلى أتريو فلت منهم كحيوان ابن عُرس ، وفي اللحظة التالية ارتفع فوق رؤوسهم وهو جالس على فخور . ولوح العمالقة المدرعون بسيوفهم في الهواء وقفزوا عالياً ، ولكنهم لم يستطيعوا اللحاق به .

ومرق باستيان بسرعة البرق إلى القصر وبدأ يتسلق واجهته إلى أعلى . وقد ساعدته في بعض المواضع إطارات النوافذ ونتوءات الجدران ، ولكنه في أغلب الأوقات لم يستطع التثبيت إلاً بأطراف أصابعه . وتسلق إلى أعلى باستمرار ، ومرة تفتت قطعة من الجدار كانت قدمه سائدة عليها ، وظل متعلقاً طيلة عدة ثوان بيد واحدة ، ولكنه جذب نفسه إلى أعلى واستطاع العثور على ممسك لليد الأخرى وواصل التسلق . وعندما وصل أخيراً للأبراج تقدم بسرعة أكبر ، لأن المسافة بينها كانت من الضالة بحيث استطاع أن يضغط نفسه بينها ويسحب نفسه بهذا الشكل إلى أعلى .

وأخيراً وصل إلى الكوة ودلف بداخلها . وفعلا لم يكن في غرفة البرج هذه أحد من الحراس ، ومن يدرى لماذا ؟ وفتح الباب ، ورأى أمامه سلماً حلزونياً ملتويًا . وبدأ النزول بلا صوت . وعندما أتى طابقين إلى أسفل ، رأى حارسين سوداوين يقفان عند إحدى النوافذ ويراقبان بصمت ما يحدث هناك بأسفل . ونجح في أن يمرق من خلفهما دون أن يلاحظا شيئاً . وواصل التسلق عبر سلام أخرى وطرق وممرات وكان هناك شيئاً مؤكداً ، وهو أن هؤلاء العمالقة المدرعون ربما هم في القتال لا يقهرون ، ولكنهم لم يكونوا يصلحون للحراسة كثيراً

وأخيراً وصل إلى طابق القبو ، وأحس بذلك على الفور من الرائحة العفنة المكتومة والبرودة التي لفته ، ولحسن الحظ كان كل الحراس هنا على ما يبدو قد أسرعوا إلى أعلى لكي يمسكوا بباستيان بلتازار بوكس المزعوم . وعلى كل حال لم

بشاهد أحد منهم وكانت هناك شعلات مثبتة بالحوائط أنارت له الطريق . واستمر السير إلى أعماق وأعماق بأسفل . وبدا باستيان كما لو كانت هناك أعداد من الطوابق تحت الأرض مماثلة لما فوقها . وأخيراً وصل إلى أعماقها ، ورأى الآن أيضاً السجن الذى يتعذب فيه هيكريون وهيزبالد وهيدورن . وكان المنظر يبعث على الأسى .

وكانوا يتدلون ، وهم معلقون من أرساعهم ، بسلاسل حديدية طويلة في الهواء فوق حفرة يبدو أنها ثقب أسود بلا قرار . وكانت السلاسل تسير عبر بكرات في سقف السجن إلى رافعة ، ولكن هذه كانت مغلقة بقفل كبير من الصلب ولا يمكن تحريكها . ووقف باستيان حائراً .

وكان الأسرى مغمضين أعينهم ، كما لو كان مغمى عليهم ، ولكن هيدورن شديد المراس ، فتح عينه اليسرى ثم تتم قائلاً بشفتين جافتين :

« هيه ، أيها الأصدقاء ، انظروا من أتى إلى هنا ! » .

وفتح الآخرين الآن أجفانهم بتعب أيضاً ، وعندما رأيا باستيان برقت ابتسامة على شفاهها .

وقال هيكريون بصوت متحشرج : « لقد كنا نعرف أنكم لن تتخلوا عنا ، يا سيدى » .

فسأل باستيان : « كيف أستطيع إنزالكم إلى أسفل ؟ إن الرافعة مغلقة ؟ » .

ونطق هيزبالد قائلاً : « خذوا سيفكم وحطموا السلسلة ببساطة » .

فسأل هيكريون : « لكى نسقط في الهاوية ؟ ان هذه ليست خطة جيدة تماماً » .

فقال باستيان : « إننى أيضاً لا أستطيع أن أسحبه ، سيكونا يجب أن يقفز من نفسه إلى يدى » .

فدمدم هيدورن قائلاً : « هم ، هذا هو الشيء السخيف في السيوف السحرية ، فعندما يكون المرء في حاجة إليها تكون عنيدة » .

وفجأة همس هيزبالد : « هيه ! لقد كان هناك مفتاح للرافعة . تُرى أين وضعوه ؟ » .

فقال هيكريون : « لقد كان هناك في مكان ما لوح حجري غير ثابت . إنني لم أكن أستطيع الرؤية جيداً ، عندما جذبوني ها هنا إلى أعلى » .

وأجهد باستيان عينيه . وكان الضوء معتماً ومرتعشاً ، ولكنه اكتشف بعد المشي عدة مرات إلى هنا وهناك لوحاً حجرياً على الأرض كان بارزاً قليلاً . ورفع بحذر عالياً ، وفعلاً كان المفتاح هناك .

واستطاع الآن أن يفتح القفل من الرافعة وينزعه . وبدأ يلفها ببطء ، وأحدثت قعقعة وأنيباً عالياً لدرجة أنه لا بد بالتأكيد كان مسموعاً في طوابق القبو الأخرى التي فوقهم . وإذا لم يكن العمالقة المدرعون صمّاً تماماً ، فلا بد وأن يكونوا الآن في حالة تأهب . ولكن لم تكن هناك فائدة الآن من التوقف . واستمر باستيان في التدوير ، إلى أن تعلق السادة الثلاثة على ارتفاع الحافة فوق الحفرة . وبدأوا يتأرجحون إلى هنا وهناك وأخيراً وصلوا بأقدامهم إلى أرض ثابتة . وعندما تم ذلك أنزلهم باستيان تماماً . وهبطوا إلى أسفل مجهدين وظلوا راقدين حيث كانوا ، وكانت السلاسل السميقة مازالت عالقة بأرساغهم .

ولم يعد لدى باستيان وقت طويل للتفكير ، فقد سُمعت الآن خطوات ذات ديبب معدني الصوت تهبط درجات القبو الحجرية إلى أسفل ، وكانت فرادي في بادئ الأمر ثم ازدادت على الدوام . لقد أتى الحراس ، وكانت دروعهم تلمع في ضوء الشعل كدروع حشرات عملاقة . وأخرجوا سيوفهم ، الجميع بنفس الحركة ، واتجهوا ناحية باستيان الذي كان لا يزال واقفاً خلف المدخل الضيق للسجن .

والآن قفز سيكاندا أخيراً من مغمده الصلديء وحط في يده ، وانقضت صفحة السيف اللامعة كالبرق على أول عملاق مدرع ، وقبل أن يدرك حتى باستيان نفسه ماذا يحدث ، كان قد مزقه إرباً . واتضح الآن ما هو كنه هؤلاء الغلمان : لقد كان داخلهم أجوفاً ، ولا يتكوّن إلا من الدروع التي تتحرك من نفسها ، ولم يكن بداخلهم شيئاً ، ليس إلا الفراغ .

وكان وضع باستيان حسناً ، لأنه لم يستطع الاقتراب منه من خلال البوابة الضيقة للسجن إلا واحداً بعد الآخر دائماً وسيكاندا حطم واحداً بعد الآخر إلى قطع صغيرة ، وسرعان ما رقدوا على الأرض مكومين كقشور بيض سوداء لطائر ما من الطيور العملاقة . وبعد أن مَزَّق حوالي عشرون منهم إلى قطع صغيرة ، بدأ أن الباقين قد اتخنوا خطة أخرى . وانسحبوا إلى الوراء ، على ما يبدو لكي ينتظروا باستيان في موضع أفضل بالنسبة لهم .

وانتهز باستيان هذه الفرصة لكي يفصل بنصل سيكاندا السلاسل من حول أرساغ السادة الثلاثة ونهض هيكريون وهيدورن بصعوبة وحاولوا أن يسحبوا سيوقهم الخاصة ، التي للغرابة لم تنزع عنهم لكي يعضدوا باستيان ، ولكن أيادهم كانت قد فقدت الإحساس بسبب التعلق لوقت طويل ، لم تطاوعهم ، وهيزبالد ، أكثر الثلاثة رقة ، لم يكن لديه مجرد القدرة على الوقوف معتمداً على قواه الذاتية . واضطر الرفيقان أن يسنداه .

وقال باستيان : « لا تقلقوا فان سيكاندا لا يحتاج إلى مساعدة . قفوا ورائي ولا تسبوا إلى أية صعوبات زائدة بمحاولتكم مساعدتي » .

وغادروا السجن ، وصعدوا السلم ببطء ، ووصلوا إلى غرفة كبيرة كهيئة البهو . وهنا انطلقت جميع الشعل . ولكن سيكاندا سطم منيراً .

ومرة أخرى سمعوا الخطوة ذات الدبيب المعدني لكثير من العمالقة المدرعين وهي تقترب . فقال باستيان : « بسرعة . ارجعوا إلى السلم . سادافع عن نفسي هنا ! » . ولم يتمكن من رؤية ما إذا كان الثلاثة قد اتبعوا أمره ، ولم يبق له وقت أيضاً ليتأكد من ذلك ، لأن السيف سيكاندا بدأ يتراقص في يده . والضوء الحاد الأبيض الخارج منه أنار القاعة كضوء النهار . وبالرغم من أن المهاجمين كانوا يرغبوه على الابتعاد عن المدخل المؤدى للسلم ، لكي يستطيعوا أن يضيقوا عليه الخناق من كل جانب ، فلم تمس باستيان ولا ضربة واحدة من ضرباتهم الهائلة . وكان سيكاندا يدور حوله بسرعة لدرجة أنه بدأ مثل مائه من السيوف التي لم يعد المرء يستطيع أن يفرق بينها . وأخيراً وقف في حقل أطلال من الدروع المحطمة السوداء . ولم يعد شيء يتحرك .

وفادى باستيان على الرفقاء قائلاً : « هيا ! »

وأتى السادة الثلاثة من المدخل المؤدى للسلم ، وقد دهشوا .

وقال هيكر يون مع اهتزاز شاريه : « إننى لم أر مثل هذا من قبل ، بشرفى ! »

وقال هيزبالد متلعثماً : « إننى سأقص عن ذلك حتى لأحفادى » .

وأضاف هيدورن آسفاً : « وهم لن يصدقوننا للأسف »

ووقف باستيان حائراً والسيف فى يده ، ولكنه عاد فجأة إلى مغمده .

فقال : « يبدو أن الخطر قد زال » .

فقال هيدورن : « على كل حال ذلك الذى يمكن التغلب عليه بالسيف . ماذا

نفعل الآن ؟ »

فأجاب باستيان : « الآن أود التعرف على كسايدة شخصياً . لدى كلمة أريد

أن أقولها لها »

وصعدوا هم الأربعة سلام طوابق القبو إلى أن وصلوا إلى الطابق الموجود بمحاذاة

الأرض . وهناك فيما له هيئة بهو للمدخل ، كان فى انتظارهم أتريو وفخور . فقال

باستيان وهو يربت على كتفى أتريو : « أحستما صنعاً » .

فقال أتريو راغباً المعرفة : « ماذا جرى مع العمالقة المدرعين ؟ »

فأجاب باستيان بلا تفكير : « حبات جوز جوفاء . أين كسايدة ؟ »

فرد أتريو قائلاً : « فوق فى قاعتها السحرية » .

فقال باستيان : « تعالوا معى ! » والتف مرة ثانية بمعطفه الفضى الذى فرده

أتريو له . وبعد ذلك صعدوا جميعاً السلم الحجرى العريض معاً إلى الطوابق

العليا . وحتى فخور ذهب معهم .

وعندما دخل باستيان ، يتبعه أنصاره ، القاعة السحرية الكبيرة ، نهضت

كسايدة من عرش مصنوع من المرجان الأحمر . وكانت أكبر حجماً بكثير من باستيان

وجميلة جداً . وكانت تلبس رداء طويلاً من الحرير البنفسجى ، وكان شعرها أحمر

كالنار ومرفوعاً إلى أعلى في تسريحة عجيبة من الجدائل والصفائر وكان وجهها في شحوب المرمر وكذلك يداها الطويلتان النحيلتان . وكانت نظرتها غريبة ومحيرة ، احتاج باستيان إلى برهة من الزمن قبل أن يكتشف من أين أتى ذلك : لقد كانت لها عينان مختلفتان ، واحدة خضراء وواحدة حمراء . وكانت تبدو خائفة من باستيان لأنها كانت ترتعش . وتحدى باستيان نظرتها ، وأخفضت من رموشها الطويلة .

وكانت الغرفة ممتلئة بكافة أنواع الأشياء الغريبة التي لم يكن بالإمكان تخمين غرضها ، كرات أرضية ضخمة عليها صور ، ساعات للنجوم وبنود يتدلّى من السقف . وكانت من بينها مباحر نفيسة ، تنبعث منها سحبات ثقيلة بألوان مختلفة ، كانت تزحف على الأرض كالضباب .

وكان باستيان لم يقل حتى الآن ولا كلمة . وبدا أن هذا قد أخرج كسايدته عن طورها ، لأنها جرت إليه فجأة وألقت بنفسها على الأرض أمامه ، ثم تناولت إحدى قدميه ووضعتها بنفسها على رقبته .

وقالت بصوت له رنين عميق ومحملي ، ومبهم بشكل غير محدد : « سيدى ومعلمى ، لا يستطيع أحد أن يقاومك في فانتازين . أنت أقوى من جميع الأقوياء ، وأخطر من جميع الشياطين . إذا كانت لك الرغبة في الانتقام منى لأنى كنت حمقاء بما فيه الكفاية ، لكيلا أعرف عظمتك ، فيمكنك أن تهرسنى بقدمك . فأنا أستحق غضبك . ولكن إذا أردت أن تظهر كرمك الذى تشتهر به ، نحوى أنا غير الجديرة ، فاسمح أن أخضع لك خادمة ومطبعة ، وأن أقوم على خدمتك بكل كيانى ، وكل ما أملك وما أستطيع . علمنى أن أفعل ما تعتبره مرغوباً فيه ، وأنا أريد أن أكون تلميذتك المتواضعة ، وأن أطيع كل إشارة لعينيك . إننى نادمة على ما أردت أن أفعله لك ، وأتوسل عفوك . »

فقال باستيان : « انهضى يا كسايدته . »

لقد كان حانقاً عليها ، ولكن حديث الساحرة أعجبه . فإذا كان سلوكها فى الحقيقة بسبب عدم معرفتها له فقط ، وإذا كانت فعلاً نادمة على ذلك ندماً شديداً ، فسيكون دون قدره ، إذا ما عاقبها الآن . ونظراً لأنها كانت عاقدة النية كذلك على

أن تتعلم منه ما يعتبره مرغوباً فيه ، فلم يكن هناك في الحقيقة سبباً على الإطلاق لرفض رجائها .

وغيضت كسايدة ووقفت أمامه منكسة الرأس . وسأل قائلاً : « أتريدين أن تطيعيني بلا قيد ولا شرط ، حتى وإن صعب عليك ما أمرك به — وبدون معارضة وتذمر ؟ »

فأجابت كسايدة : « إنني أريد ذلك ، سيدي ومعلمي ، ولسوف ترى أننا نستطيع أداء كل شيء إذا ما وحدنا فنوننا مع قوتك » .

فرد باستيان : « حسن ، إذن إنني أقبلك في خدمتي . إنك ستغادرين هذا القصر وترحلين معي إلى برج العاج ، حيث أنوي لقاء طفلة الأقمار » .

وتوجهت عينا كسايدة لجزء من الثانية بلون أحمر وأخضر ، ولكنها أخفضت أهدابها الطويلة عليها على الفور وقالت :

— « إنني أطيع ، سيدي ومعلمي » .

ومشى الجميع إلى أسفل وتقدما خارجين أمام القصر .

وقرر باستيان قائلاً : « لا بد أولاً أن نعثر على رفقاء طريقنا الآخرين مرة ثانية من يدري أين هم الآن . »

فقالت كسايدة : « ليس ببعيد جداً عن هنا . لقد توهتُهم قليلاً . »

فرد باستيان : « للمرة الأخيرة . »

فكررت قائلة : « للمرة الأخيرة ، يا سيدي ، ولكن كيف لنا الذهاب إلى هناك ؟ أينبغي أن أسير على الأقدام ليلاً ومن خلال هذه الغابة ؟ »

فأصدر باستيان أمره قائلاً : « فخور سوف يحملنا ، إنه قوى على قدر كاف للطيران بنا جميعاً . »

ورفع فخور رأسه ونظر إلى باستيان . ولمعت كريتينا عينيها الحمراء في حمرة الياقوت .

ودوى صوته البرونزي قائلاً : « إنني قوى بما فيه الكفاية ، يا باستيان بلتازار بوكس ، ولكنني لا أريد حمل هذه المرأة . »

فقال باستيان : « ولكنك ستفعل ذلك ، لأننى أمرك به . . . »
ونظر تين الحظ إلى أتريو ، وهذا هزله رأسه فى الخفاء ولكن باستيان رأى ذلك . وجلس الجميع على ظهر فخور الذى ارتفع فى الأجواء على الفور .
وسأل قائلاً : « إلى أين ؟ »
فقلت كسايدته : « إلى الأمام فقط . »

فسأل فخور مرة ثانية كما لو لم يسمع ذلك « إلى أين ؟ »
فصاح عليه باستيان قائلاً : « إلى الأمام لقد فهمت ذلك جيداً ! »
فقال أتريو بصوت منخفض . « افعل ذلك ! » وفعل فخور ذلك .

وبعد ذلك بنصف ساعة - وكان الصبح قد انبلج - شاهدوا أسفلهم نيران مخيم كثيرة وهبط تين الحظ وفى تلك الأثناء كان قد التقى بهم فانتازيون جدد ، وقد أحضر كثير منهم خياماً معهم . وكان المخيم يشبه مدينة حقيقية من الخيام التى انتشرت على طرف غابة زهور الأوركيدية فوق مرج واسع تغطيه الزهور .

وقال باستيان راغباً فى المعرفة « كم عددهم الآن ؟ » وشرح له علوان ، الجنى الأزرق الذى كان فى تلك الأثناء يقود البركب ، والذى ظهر الآن لأداء التحية ، إن المرء لم يستطع بعد احصاء المشتركين ولكنهم من المؤكد يقتربون من الألف . وبالمناسبة هناك شىء آخر غريب نوعاً : فبعد أن أقيم المخيم بوقت قصير ، أى قبل منتصف الليل ، ظهر خمسة من هؤلاء العمالقة المدرعين ولكن سلوكهم كان مسالماً ، ومكثوا مُتحين جانباً . وبالطبع لم يجروا أحد على الاقتراب منهم وأنهم كانوا يحملون معهم هودجاً كبيراً من المرجان الأحمر ، ولكنه كان فارغاً فقالت كسايدته لباستيان بنبرة راجية : « إنهم حُمالى . لقد أرسلتهم مساء أمس ليسبقونى .
فهى أفضل الطرق راحة فى السفر . إذا ما سمحت لى بها يا سيدى . »

فقال أتريو مقاطعاً لها : « إن هذا لا يعجبنى »

فسأل باستيان : « لم لا ؟ ما هو اعتراضك على ذلك ؟ »

فأجاب أتريو بحدّة : « لها أن تسافر كما تشاء ، ولكن كونها أرسلت الهودج مساءً أمس فعلاً ، يعنى أنها كانت تعرف مسبقاً أنها ستأتى إلى هنا . وكل هذا كان من خطتها ، يا باستيان . إن نصرك فى الحقيقة هزيمة . لقد جعلتك تنتصر عن قصد

لكى تكتسبك لنفسها بطريقتها . «

فصرخ باستيان وعليه حمرة الغضب : « كفى . إننى لم أسألك إبداء رأيك . إن تعاليمك الأزلية تبعث السقم فى نفسى . إنك تريد الآن أن تنكر على انتصارى أيضاً وأن تسخر من شهامتى ! »

وأراد أتريو أن يرد بشيء ولكن باستيان صرخ فيه قائلاً :

« اقل فمك ودعنى فى سلام . إذا لم يكن يناسبكما ما أفعل وكيفما أكون ، فاذهباً فى طريقكما . إننى لا أمنعكما . اذهباً حيثما تريدان . إننى مللتكما ! »
وعقد باستيان ذراعيه على صدره وأدار ظهره لأتريو . وكتمت الجمهرة الواقعة حولهم أنفاسها . ووقف أتريو برهة منتصباً وصامتاً . ولم يكن باستيان حتى هذه اللحظة قد أنبه أبداً أمام الآخرين . وضاق عليه حلقه لدرجة أنه لم يستطع التنفس إلاً بجهد . وانتظر برهة ، ولكن نظراً لأن باستيان لم يلتفت إليه مرة أخرى ، فقد استدار ببطء وانصرف . وتبعه فخور .

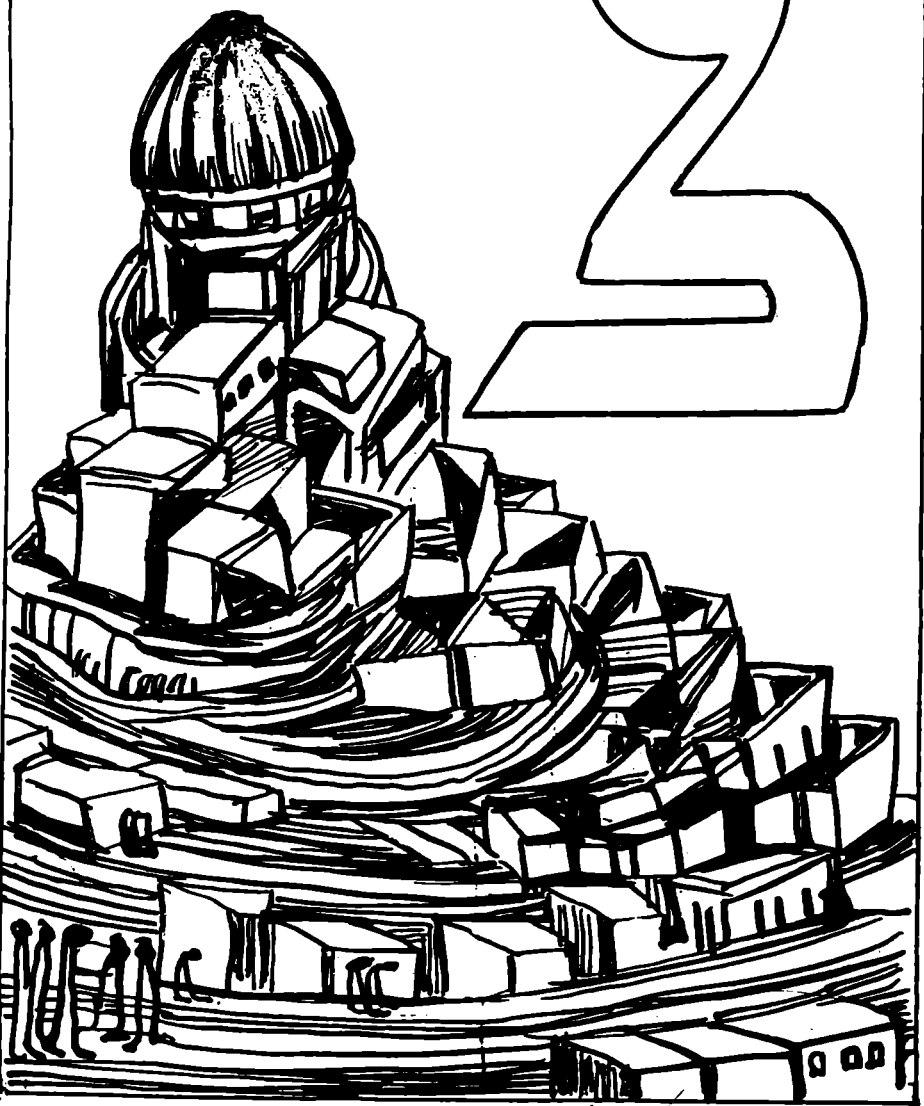
وابتسمت كسايدة . ولم تكن ابتسامة طيبة .

ولكن فى هذه اللحظة كانت قد انطفت فى باستيان الذاكرة بأنه كان فى عالمه طفلاً .

٤١
ديزل الجوم

//

2



قدم رسل جدد بلا انقطاع من جميع بلدان فانتازين إلى المجموعة التي كانت ترافق باستيان في ركبته إلى برج العاج . ولقد تبين عدم جدوى الإحصاءات ، لأنه ما يكاد ينتهي المرء منها ، حتى يصل جدد مرة أخرى ، وفي كل صباح كان يتحرك جيش به عدة آلاف رأس ، وعندما كانوا يقيمون للراحة ، كان المخيم هو أكثر المدن الخيمية غرابة التي يمكن تخيلها . فنظرا لأن رفقاء طريق باستيان لم يكونوا مختلفين عن بعضهم جدا في الشكل فقط ولكن أيضا في حجم الجسم ، فكانت هناك خيام ذات مقاييس إحدى ساحات السيرك حتى تلك التي لم تزد حجما عن حجم قمع الخياطة (الكستبان) . وحتى العربات والمركبات التي كان يسافر بها الرسل ، كانت في تعدد أشكالها أكثر من أن يتمكن فرد وصفها ، ابتداء من العربات المسقوفة العادية والعربات التي تجرها الدواب حتى البراميل المتدحرجة غاية في الغرابة ، والكور القافزة أو أوعية ذات أرجل تزحف ذاتيا .

وقد هُيئت خيمة في تلك الأثناء من أجل باستيان كذلك ، وكانت أكثرها فخامة . وكان لها شكل بيت صغير ، ومصنوعة من حرير لامع بهي الألوان ، وكل موضع بها مطرز بصور ذهبية وفضية . وعلى سقفها ترفرف راية تبين شعارا مزينا بشمعدان ذي سبعة أذرع . وداخلها كان مزوداً بأغطية وحشيات لينة . وأينما نصب مخيم الجيش - كانت هذه الخيمة في المركز . والجنى الأزرق ، الذي أصبح في تلك الأثناء بما يشبه الخادم والحارس الخاص ، كان يتولى الحراسة أمام مدخلها .

وكان أتريو وفُخور لا يزالان بين مجموعة مرافقي باستيان ، ولكنه منذ التائب العلني لم يعد يتحدث معها كلمة . وانتظر باستيان في سره أن يلين أتريو ويرجوه

الصفح . ولكن أترى لم يفعل شيئا من ذلك . وحتى فخور بدا غير مستعد لاحترام باستيان . وهذا الشيء بعينه لا بد وأن يتعلموه الآن ، قال ذلك باستيان لنفسه : وإذا كان الأمر يتوقف على من يستطيع أن يتحمل لوقت أطول ، فلا بد أن يفهم كلاهما في آخر الأمر ، أن عزيمته لا تلين . ولكن إذا ما استسلما ، فسوف يقابلهما بذراعين مفتوحين . وإذا ركع أترى أمامه فسوف يرفعه ويقول : لا ينبغي لك أن تركع أمامي ، يا أترى ، لأنك صديقي وستظل صديقي

ولكنهما سارا مؤقتا كآخر من في الركب . وبدا فخور قد نسي الطيران وسار على رجليه ، ومشى أترى إلى جواره ، مطأطأ الرأس في أغلب الأحيان . وإذا كلنا فيما سبق يسرعان سابقين الركب في الأجواء كمقدمة له ، لكي يستطلعا المنطقة ، فهما الآن يمشيان في الخلف كمؤخرة له . ولم يكن باستيان سعيدا بهذا ، ولكنه لم يستطع تغيير ذلك .

وإذا ما سار ركب الجيش في طريقه ، كان باستيان غالبا ما يمتطي إيجاح في المقدمة . ولكن حدث أن تزايد باستمرار إحساس باستيان بعدم الميل لهذا وبدلا من ذلك كان يقوم بزيارة كسايدة في هودجها . وكانت تستقبله دائما بتبجيل عظيم ، وتختصه بأكثر الأماكن راحة وتجلس عند قدميه . وكانت تعرف دائما موضوعا مشوقا للحديث ، وتتجنب أن تسأله عن ماضيه في عالم البشر ، بعد أن لاحظت أن الحديث عن ذلك غير مريح له . وكانت تدخن بلا انقطاع نارجيلة شرقية إلى جوارها . وكان الخرطوم فيها يبدو كحية خضراء زمردية ومبسمها الذي كانت تمسك به بين أصابعها الطويلة البيضاء المرمرية ، كان يشبه رأس الحية . وعندما كانت تشد النفس منها ، تبدو كما لو كانت تقبله . وسحبيات الدخان التي كان تخرجها بتلذذ من فمها وأنفها ، كان لها مع كل نفس لون مختلف ، مرة أزرق ومرة أصفر ، أحمر وردي ، أخضر أو بنفسجي .

- « كنت أريد أن أسألك عن شيء منذ وقت طويل ، يا كسايدة » ، قال ذلك باستيان في إحدى زيارته تلك ، بينما هو ينظر بتفكير إلى الأشخاص العمالقة في دروع الحشرات السوداء ، الذين كانوا يحملون الهودج بخطوة منتظمة تماما .
فردت كسايدة قائلة : « جاريتك تسمع . »

واستطرد باستيان قائلا : « عندما قاتلتُ عمالقتك المدرعين ، اتضح أنهم يتكونون فقط من الدروع وداخلهم أجوف . بأى شىء يتحركون فى الحقيقة ؟ »
وردت كسايدة مبتسمة : « بإرادتى . وبسبب أنهم فارغون من الداخل ، فهم يطيعون إرادتى . وكل ماهو فارغ تستطيع إرادتى توجيهه . »
وتفحصت باستيان بعينها ذات اللونين .
وأحس باستيان بالاضطراب بسبب هذه النظرة بشكل غير واضح ، ولكنها أخفضت أهدابها مرة أخرى .

وسأل قائلا : « أيمكننى أنا أيضا توجيههم بإرادتى ؟ »
فأجابت : « بالتأكيد ياسيدى ومعلمى ، ومائة مرة أفضل منى ، أنا التى أكون لا شىء بالمقارنة بك . أتريد أن تجرب هذا ؟ »
فرد باستيان الذى بدا له الأمر لا يبعث على الارتياح : « ليس الآن ، ربما مرة ثانية . »

واستطردت كسايدة بقولها : « أتجد فعلا أنه من الأجل الركوب فوق بغلة عجوز عن أن تحملك أشكال تحركها إرادتك الخاصة ؟ »
فقال باستيان بقليل من التذمر : « إيحاً تحب أن تحملى . وهى تسعد بالسماح لها بحملى . »

- « إذن أنت تفعل ذلك من أجلها ؟ »
فرد باستيان قائلا : « ولم لا ؟ وما هو الردىء فى ذلك ؟ »
وجعلت كسايدة دخانا أخضر يتصاعد من فمها .
- « أوه ، لا شىء ياسيدى . كيف يمكن لشىء تفعله أنت أن يكون رديئا . »
- « إلى ما ترمين ، ياكسايدة ؟ »
وأحنت رأسها ذات الشعر النارى اللون .

وهمست قائلة : « إنك تفكر أكثر من اللازم فى الآخرين ، سيدى ومعلمى . ولكن لا أحد يستحق لفت انتباهك عن ارتقائك أنت الهام . وإذا لم تغضب منى لهذا السبب ياسيدى ، فيأنى أجرؤ على إعطائك النصيحة : وهى فِكْرُ أكثر فى كمالك ! »

- « وما علاقة ذلك بإيخا العجوز ؟ »

- « ليس الكثير ياسيدى ، يكاد لا يكون شيئا على الإطلاق . ليس إلا - انها ليست دابة الركوب الجديرة بشخص مثلك . إن رؤيتى لك على ظهر حيوان عادى جدا - مثل هذا ، يهينى . إن جميع رفقاء طريقك يدهشون لذلك . أنت فقط ، ياسيدى ومعلمى ، الوحيد الذى لا يدرى ماأنت مدان به لنفسك . »

ولم يقل باستيان شيئا . ولكن كلام كسايده أحدث تأثيرا عليه .

فعندما سار الجيش وعلى رأسه باستيان وإيخا فى اليوم التالى عبر طبيعة من المروج رائعة الجمال ، تتخللها بين الحين والآخر أحراش صغيرة من زهور الليلك العطرة ، استغل راحة وقت الظهيرة لكى ينفذ اقتراح كسايده .

فقال وهو يربت على رقبة البغلة : « اسمعى يا إيخا ، لقد حانت اللحظة التى يتحتم فيها فراقنا . »

وأطلقت إيخا صيحة ألم .

وقالت شاكية : « لماذا ، ياسيدى ، هل قمت بمهمتى على هذا القدر من السوء ؟ »

وجرت دموع من زوايا عيونها الحيوانية الداكنة .

وأسرع باستيان لمواسماتها قائلا : « كلا ، بالعكس ، لقد حملتني هذا الطريق الطويل كله بنعومة وكنت صابرة ومطبعة لدرجة أننى أريد الآن مكافأتك امتنانا . »

فردت إيخا : « أنا لا أرغب فى مكافأة أخرى . إننى أود أن أستمع على حملك . أى شىء أعظم من ذلك يمكننى تمنيه ؟ »

واستطرد باستيان قائلا : « ألم تقولى أنك حزينة من أن أمثالك لا يستطيعن إنجاب الصغار ؟ »

فقالت إيخا بأسى : « نعم ، لأننى سأحب أن أقص عليهم عن هذه الأيام ، عندما أكون عجوزة جدا . »

فقال باستيان : « حسن ، إذن أريد الآن أن أقص عليك قصة ستصبح حقيقة . وأريد أن أقصها عليك أنت فقط ، لك وحدك تماما ، لأنها تحضك . »

ثم أخذ أذن إيخا الطويلة في يده وهمس فيها :

« في مكان ليس ببعيد عن هنا ، في غابة صغيرة من زهور الليلك ، ينتظر والد ابنك . إنه فرس أبيض له أجنحة من ريش البجع . عرفه وذيله طويلان لدرجة أنها يصلان إلى الأرض . لقد تبعنا في السر منذ عدة أيام لأنه واقع في حبك للغاية . »
فصاحت إيخا شبه فزعة : « فيّ أنا ؟ ولكنني لست إلا بغلة ، ولم أعد شابة كذلك ! »

فقال باستيان بصوت منخفض : « بالنسبة له أنت أجل مخلوق لفانتازين ، بالذات لأنك هكذا على ما أنت عليه . وربما أيضا لأنك حملتني . ولكنه خجول ولا يجرؤ على الاقتراب منك بين كل هذه الكائنات الكثيرة هنا . لا بد أن تذهبي إليه ، وإلا مات اشتياقا إليك . »

فقالت إيخا حائرة : « ياخبر ! هل الأمر بهذا السوء ؟ »
فهمس باستيان في أذنها : « نعم ، والآن وداعا يا إيخا . اجري فقط بسرعة وسوف تعثرين عليه . »

ومشت إيخا بضعة خطوات ، ولكنها استدارت مرة أخرى إلى باستيان .

وقالت مفسرة ذلك : « بأمانة ، إنني خائفة قليلا » .

فقال باستيان : « تشجعي ! ولا تنسى أن تحكي عنى لأولادك وأحفادك » .
فردت إيخا بطريقتها البسيطة : « شكرا يا سيدى ! » ومشت .

وتابعها باستيان بنظرة وهي تتهادى مبتعدة ، ولم يشعر بأنه سعيد جدا لحثها على الانصراف . ودخل خيمته الفاخرة ، واستلقى على الحشيات اللينة وحلق عاليا إلى السقف . وقال لنفسه مرارا وتكرارا بأنه حقق لإيخا أعظم أمانها . ولكن ذلك لم يطرده إحساسه المكتئب . فالأمر يرتبط جدا بمتى ولماذا يفعل المرء شيئا لأجل خاطر أحد الأشخاص ولكن هذا كان يخص باستيان فقط ، لأن إيخا عثرت فعلا على الفرس الأبيض كالثلج ذي الأجنحة واحتفلت بزفافها معه . وبعد ذلك خلفت ابنا ، وهو بغل أبيض له أجنحة يدعى بتابلان . وكان مثارا لأحداث كثيرة في فانتازين . ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تحكي في مناسبة أخرى .

وواصل باستيان من الآن فصاعدا رحيله في هودج كسايده . ولقد عرضت عليه فوق ذلك أن تنزل وتمشى على أقدامها إلى جواره لكي تهيم له فقط كل وسيلة راحة ممكنة ولكن باستيان لم يرغب في قبول ذلك منها . وهكذا جلسا الآن سويا في الهودج المرجاني الواسع الذي كان على رأس ركب الجيش .

وكان باستيان لا يزال معكرو الصفو قليلا ، حتى تجاه كسايده التي أعطته النصيحة بالانفصال عن البغلة . ولقد استتجت كسايده ذلك سريعا جدا . فإجاباته المقتضبة لم تدع أية محادثة فعلية تجرى معه .

ولكى تدخل البهجة عليه قالت بمرح :

«أود أن أعطيك هدية ، سيدي ومعلمي ، إذا ما تكرمت وقبلتها مني» .

وسحبت من تحت حشيات الجلوس صندوقا صغيرا ذا زخارف غاية في القيمة . واعتدل باستيان في تشوق . وفتحته وأخرجت منه حزاما غير عريض يتكون من حلقات قابلة للحركة كنوع من السلاسل . وكل حلقة ، وكذلك الإبريم كان من الزجاج الصافي .

فقال باستيان راغبا في المعرفة : «ما هذا ؟» .

وأحدث الحزام صليلا خافتا في يدها .

- «إنه حزام يجعل المرء ينجفى عن النظر . ولكن ، سيدي ، عليك أن تعطيه اسمه لكي يكون ملكا لك» .

وتأمله باستيان ، ثم قال : «الحزام جمال» .

فهزت كسايده رأسها مبتسمة : «والآن هو ملك لك» .

وتسلم باستيان الحزام وأمسكه في يده مترددا .

فسألت : «ألا تريد أن تجربه حالا لكي تقتنع بتأثيره ؟» .

ووضع باستيان الحزام حول وسطه وشعر كيف أنه يناسبه كما لو كان مصبوبا على قالبه . ولكنه شعر بذلك فقط ، لأنه لم يعد يستطيع أن يرى نفسه ، لا جسمه ولا أقدامه ولا يديه . لقد كان شعورا غاية في عدم الراحة ، وحاول أن يفتح الإبريم

على الفور مرة ثانية . ولكن نظراً لأنه لم يعد يستطيع أن يرى يديه ولا الخزام ، فلم يوفق في ذلك .

فأطلق صوتاً مختنقاً : «النجدة !» لقد انتابه الخوف فجأة ألا يستطيع خلع الخزام جمال مرة ثانية أبداً ، وأن يتحتم عليه البقاء غير مرئى على الدوام .

فقالت كسايدة : «لا بد أن يتعلم المرء أولاً التعامل معه ، لقد كان الأمر بالنسبة لى على هذا النحو أيضاً ، سيدى ومعلمى ، اسمح لى بمساعدتك !» .

ومدت يديها فى الهواء الخالى وفى لمح البصر فتحت الخزام جمالاً ، ورأى باستيان نفسه مرة ثانية . وأطلق تنهيدة بالارتياح . ثم ضحك ، وكذلك ابتسمت كسايدة وامتنعت دخاناً من المبسم الشعبانى لنارجيلتها .

وعلى كل حال لقد ساقته إلى أفكار أخرى .
وقالت بنعومة : «الآن أنت محمى من كل ضرر بشكل أفضل ، وهذا يهمنى يا سيدى أكثر مما أستطيع أن أقوله لك» .

فقال باستيان مستفسراً ، وهو لا يزال مضطرباً قليلاً : «ضرر؟ أى ضرر؟» .
فهستت كسايدة : «آوه ، لا أحد يدانيك ، إذا ما كنت حكيماً . الخطر يكمن داخلك أنت ، ولذلك يصعب حمايتك منه» .

فقال باستيان راغباً المعرفة : «ماذا تقصدين بذلك — فى داخلى أنا؟» .
- «الحكمة أن تعلق فوق الأمور ، ألا تكره أحداً ولا تحب أحداً . ولكنك يا سيدى مازلت تُقدر الصداقة . إن قلبك ليس بارداً وليس خالياً من الاحاسيس كإحدى قمم الجبال المغطاه بالثلج — وعلى ذلك يمكن لأحد أن يلحق بك الضرر» .

- «ومن يكون هذا؟» .
- «ذلك ، الذى مازلت تميل إليه برغم كل تكبره ، يا سيدى» .
- «عبّرى عن نفسك بوضوح أكثر!» .
- «ذلك البرى الوقح عديم الاحترام الصغير من قبيلة ذوى الجلود الخضراء ، يا سيدى» .

- «أترىو؟» .

«نعم ، ومعها فخور عديم الحياء» .

وكاد باستيان أن يضطر للضحك : «وكلاهما يقصدان بي الضرر؟» .
وجلست كسايدة مطرقة الرأس .

واستطرد باستيان قائلا : «أنا لا ولن أعتقد ذلك أبدا . أنا لا أريد أن أسمع المزيد في ذلك» .

وصمتت كسايدة وأطرت برأسها بمزيد من الانخفاض .
وسأل باستيان بعد صمت طويل :

- «وأى شيء في ذلك الذى ينويه أتريو ضدى؟» .

فهمست كسايدة : «سيدى ، أتمنى لو أننى لم أقل شيئا» .

فصاح باستيان : «قولى إذن كل شيء أيضا ، ولا تقتصرى على التلميحات .
ماذا تعرفين؟» .

وتلعثمت كسايدة وارتعدت فعلا بجسدها كله : «إننى أرتعد من غضبك ،
يا سيدى ، ولكن وإن كان فى ذلك نهايتى ، فسوف أقوله لك : أتريو يخطط لأخذ
علامة الإمبراطورة الطفولية منك ، خفية أو بالقوة» .

ولم يستطع باستيان التنفس للحظة .

فسأل بصوت متحشرج : «أستطيعين برهنة ذلك؟» .

فهزت كسايدة رأسها بالنفى ودمدمت قائلة :

«إن نوع معرفتى ، يا سيدى ، لا ينتمى إلى ذلك الذى يمكن برهنته» .

فقال باستيان وقد تدفق الدم إلى وجهه : «إذن فلتحتفظى بذلك لنفسك ، ولا
تغتابى أشرف وأشجع صبى يوجد فى كل فانتازين!» .

وبذلك اندفع خارج الهودج وذهب بعيدا .

وداعبت أصابع كسايدة رأس الأفعى وهى مفعمة الفكر ، وتوهجت عيناها
الخضراء - الحمراء .

وبعد برهة ابتسمت مرة ثانية ، وهمست وهى تُخرج من فمها دخانا بنفسجيا :

«سيتضح ذلك ، يا سيدى ومعلمى ، إن الحزام جمال سيرهنه لك» .

وعندما نُصِبَ مخيم الليل ذهب باستيان إلى خيمته . وأمر علوان ، الجنى الأزرق بعدم استقبال أحد ، وكسايده بأى حال من الأحوال . لقد أراد أن يكون وحيدا وأن يتفكر .

إن ما قالته الساحرة له عن أتريو اعتبره لا يكاد يستحق التفكير . ولكن كان هناك شيء آخر يشغل أفكاره : الكلمات القليلة التي أضافتها عن الحكمة .

ولقد عايش الكثير حتى الآن ، مخاوبا وأفراحا ، أحزانا وانتصارات ، وأسرع من تحقيق أمنية إلى تحقيق آخر ، ولم يأت للراحة لحظة واحدة . ولا شيء من كل ذلك جعله هادئا وراضيا . ولكن أن تكون حكيما ، يعني أن ترتفع فوق الفرح والأسى . فوق الخوف والشفقة فوق الطموح والإهانة . أن تكون حكيما ، يعني أن تعلقو فوق كل الأمور ، ولا تكره أو تحب شيئا أو أحدا ، ولكن أيضا أن تقبل بلا مبالاة تامة صدود أو ميل الآخرين . مَنْ كان حكيما حقيقيا ، لم يكن يهمه شيء . لم يكن ممكنا الوصول إليه ، ولم يكن في إمكان شيء أن ينال منه شيئا . نعم ، إنه لأمر مرغوب فيه أن يكون المرء هكذا . وكان باستيان مقتنعا أنه بذلك قد أتى إلى آخر أمانيه ، تلك الأمنية الأخيرة التي ستقوده إلى إرادته الحقيقية ، كما قال جروجرمان . وأعتقد أنه فهم الآن المقصود من ذلك . وتمنى لنفسه أن يكون حكيما عظيما ، أحكم حكيما في جميع فانتازين .

وبعد ذلك بوقت قليل خرج من خيمته .

وأضاء القمر الطبيعة التي لم يكن يعيرها اهتماما من قبل تقريبا . فقد امتدت مدينة الخيام في قاع وادٍ تحيط به جبال ذات أشكال غريبة من كل جانب في دائرة واسعة . وكان السكون كاملا ، وكانت لا تزال بالوادي غابات صغيرة وأحراش ، وعلى الامتداد بأعلى على منحدرات الجبال قَلَّت النباتات ، انعدمت تماما مع مواصلة الارتفاع . وكوّنت مجموعات الصخور التي ترتفع فوق ذلك ، مختلف أنواع الأشكال ، وكادت تحدث تأثيرا كما لو كانت أشكالا مقصودة من إبداع يد مثال عملاق . وكانت الرياح ساكنة والسماء بلا سحب .

وتلألأت النجوم وبدت أقرب عن ذى قبل .

وبأعلى تماما اكتشف باستيان فوق أحد أعلى قمم الجبال شيئا يبدو كمبنى قبى .
ومن الظاهر أنه كان أهلا بالسكان ، حيث ان شعاع ضوء ضعيف كان يخرج منه .
وقال علوان بصوته المتحشرج ، وكان يقف فى موضع حراسته بجوار مدخل
الخيمة : « لقد لاحظته أنا أيضا . ترى ماذا يكون ؟ »

وما كاد ينتهى من كلامه حتى سمع صياح غريب من مكان بعيد . وكان رنينه
كصرخة بومة ممدودة « أهو هو هو ! » ولكنه أكثر عمقا وقوة ، ثم رن النداء مرة ثانية
وثالثة ولكنه الآن بأصوات متعددة .

لقد كانت بالفعل بومات ، وعددها ست ، مثلما استطاع ان يتأكد باستيان من
ذلك بعد وقت قليل وجاءت من اتجاه أعلى الجبل ذى البناء القبى على القمة .
وكانت تحلق فى طيرانها بأجنحة لا تكاد تتحرك . وكلما ازداد اقترابها ، ازداد التعرف
على حجمها المدهش وضوحا . وكانت تطير بسرعة لا يمكن تصديقها . وعيونها تشع
بالضياء ، وعلى رؤوسها آذان منتصبة وعليها خصلات من الريش الناعم . وكان
طيرانها بلا صوت تماما . وعندما هبطت أمام خيمة باستيان سمع بالكاد صغير خافت
لريش أجنحتها .

وها هى تجلس على الأرض ، كل منها أكبر من باستيان ، وتدير رؤوسها ذات
العيون الكبيرة المستديرة إلى جميع الجهات . وتقدم باستيان إليها .
- « من أنتم ، وعنم تبحثون ؟ »

فأجابت إحدى الست بومات : « أرسلتنا أوشتو ، أم التخمين ، إننا رسل الجو
لدير النجوم جيجام . »

وسأل باستيان : « أى نوع من الأديرة هذا »

فأجابت بومة أخرى : « إنه موضع الحكمة ، حيث يسكن رهبان المعرفة .
وواصل باستيان استفساره قائلا : « ومن هى أوشتو ؟ »

وشرحت بومة ثالثة قائلة : « واحدة من الثلاثة متفكرين بعمق الذين يرأسون
الدير ويعلمون الرهبان الحكمة . ونحن رسل الليل ونتمى إليها . »

وأضافت رابعة قائلة: « وإذا طلع النهار ، فان شيركرى ، أبا التأمل ، يبعث رسله وهم نسور . وفي ساعة الغسق ما بين النهار والليل يرسل يسيبو ، ابن الفطنة ، رسله وهم ثعالب . »

— « من هم شيركرى ويسيبو؟ »

— « إنها المتفكران بعمق الأخريان ، كبراؤنا . »

— « وعما تبحثون هنا؟ »

فقالت البومة السادسة: « إننا نبحث عن العارف العظيم . إن الثلاثة متفكرين بعمق يعلمون أنه يقيم بمدينة الخيام هذه ، ويرجونه الإلهام . »

فسأل باستيان: « العارف العظيم ، من هذا؟ »

فأجابت الست بومات كلها في نفس الوقت: « اسمه باستيان بلتازار بوكس . »

فرد قائلا: « لقد عثرت عليه ، إنه أنا . »

وانحنى البومات بعمق في اندفاع كاد أن يبدو مضحكا رغم حجمها المخيف . وقالت البومة الأولى: « إن الثلاثة متفكرين بعمق يرجون في خضوع ورهبة زيارتك ، لكى تحل لهم السؤال الذى لم يستطيعوا أن يحلوه في حياتهم الطويلة . »

وحك باستيان ذقنه في تأمل .

وأخيرا رد قائلا: « حسن . ولكننى أود اصطحاب تلميذى الاثنتين معى . »

فأجابت البومة: « نحن ستة ، كل اثنتين منا تستطيعان أن تحملا واحدا

منكم . »

واتجه باستيان إلى الجنى الأزرق :

— « علوان ، أحضر أتريو وكسايدته . »

وابتعد الجنى مسرعا .

وقال باستيان راغبا المعرفة: « أى سؤال ينبغي على أن أجيب عليه؟ »

فشرحت إحدى البومات قائلة: « أيها العارف العظيم ، إننا لسنا سوى رسل جو مساكين جهلة ، ولا ننتمى حتى لأقل مرتبة من مراتب رهبان المعرفة . كيف لنا أن نخبر عن السؤال الذى لم يستطع الثلاثة متفكرين بعمق أن يحلوه في حياتهم الطويلة . »

وبعد بضع دقائق عاد علوان ومعه أتريو وكسايدته . وقد شرح لهم الأمر بسرعة أثناء الطريق .

وعندما وقف أتريو أمام باستيان ، سأل بصوت منخفض :
« لماذا أنا ؟ »

وقالت كسايدته مستفسرة أيضا : « أجل ، لماذا هو ؟ »
فرد باستيان : « سوف تعرفون ذلك . »

واتضح أن البومات كانت قد أحضرت معها بالتنبؤ ثلاث أراجيح . وأمسكت كل اثنتين منها بمخالبتها الجبال التي تتعلق بها تلك الأراجيح ، وجلس باستيان وأتريو وكسايدته على عوارض الجلوس وارتفعت بهم طيور الليل الضخمة في الهواء .

وعندما وصلوا إلى دير النجوم جيجام ، اتضح أن القبة الكبيرة ليست إلا الجزء العلوى لمبنى شاسع جدا يتركب من أجنحة على هيئة المكعبات . وكانت له نوافذ لا تحصى ، ويقف بسور خارجي عال مباشرة عند هاوية صخرية . وكان من الصعب أو من غير الممكن الوصول إليه بالنسبة للزائرين المتطفلين .

وفي الأجنحة المكعبة كانت صوامع رهبان المعرفة ودور الكتب وغرف الخدمات ومساكن الرسل . وتحت القبة الكبيرة كانت قاعة الاجتماعات التي كان يلقي فيها الثلاثة متفكرون بعمق دروسهم .

ورهبان المعرفة كانوا فانتازيين من مختلف الأصول والأشكال . ولكن إذا أرادوا الالتحاق بهذا الدير كان عليهم أن يقطعوا كل صلة ببلدهم وأسرهم . وكانت حياة هؤلاء الرهبان قاسية وزاهدة ، ومكرسة فقط للحكمة لا غير . ولم يكن يقبل كل من يريد الانضمام للجماعة بأى حال من الأحوال فقد كانت الاختبارات صعبة والثلاثة متفكرون بعمق لا تلين عريكتهم . ولذلك نادراً ما حدث أن عاش هناك أكثر من ثلاثمائة راهب ، ولكن هؤلاء كانوا يشكلون بذلك صفوة أذكى الأذكاء في جميع فانتازيين . وكانت هناك أوقات تقلصت فيها جماعة الاخوان والأخوات إلى سبعة أعضاء فقط . ولكن ذلك لم يغير شيئا من صرامة الاختبارات . وفي الوقت الحالى كان كل عدد الرهبان والراهبات أزيد بقليل عن المائتين .

وعندما أقتيد باستيان ، يتبعه أتريو وكسايدته ، بعدئذ إلى قاعة التدريس الكبرى رأى أمامه مجموعة متنوعة الألوان من جميع كائنات فانتازين الممكنة ، والتي اختلفت عن أتباعه هو فقط في أنها جميعا مهما كان شكلها ، ترتدى عبااء خشنة ذات ألوان بُنية وسوداء ويمكن تخيل كيف يبدو هذا على سبيل المثال على أحد الصخور الجواله المذكورة من قبل أو على مخلوق دقيق .

ولكن الكبراء الثلاثة ، المتفكرون بعمق ، كانت لهم هيئة بشرية . ولكن رؤوسهم لم تكن على عكس ذلك بشرية . أوشتو ، أم التخمين كان لها وجه بومة . شيركرى ، أبو التأمل كان له رأس نسر . وأخيرا كان ليسبو ، ابن الفطنة ، له رأس ثعلب . وكانوا يجلسون على كراس من الحجر ، وأحدث هذا انطبعا بأنهم كبرى الحجم جدا . وبدا أتريو ، وحتى كسايدته قد أصابها الخوف عند رؤيتهم . ولكن باستيان تقدم إليهم متمالكا . وساد القاعة الكبيرة صمت عميق .

شيركرى الذى يبدو أنه أكبر الثلاثة سنا ويجلس فى الوسط ، أشار بتؤده بيده إلى كرسي عرش خال موجود فى مواجهتهم . وجلس باستيان عليه .

وبعد فترة صمت طويلة نوعا بدا شيركرى يتحدث . وتكلم بصوت منخفض ، وللمفاجأة رن صوته عميقا وممتلئا .

— منذ قديم الزمان ونحن نتفكر فى لغز ديانا ، يسيو يفكر بشكل مختلف عما تخمنه أوشتو ، وتخمين أوشتو يبين شيئا مختلفا عما أشاهده ، وأنا بدورى أشاهد بشكل مختلف عما يفكر فيه يسيو . ولا ينبغى ألا يطول الأمر أكثر على هذا الحال . ولذلك رجوناك ، أنت العارف العظيم أن تأتى إلينا وتعلمنا . أتريد أن تحقق رجاءنا ؟

فقال باستيان : « إنى أريد ذلك . »

« إذن استمع ، أيها العارف العظيم ، إلى سؤالنا : ما هى فانتازين ؟ »
وصمت باستيان برهة ، ثم أجاب :

— « فانتازين هى قضة بلا نهاية . »

فقال شيركرى : « إعطنا وقتا لفهم إجابتك . نريد أن نتقابل مرة ثانية هنا فى نفس الساعة غدا . »

ونفض الجميع في صمت ، الثلاثة متفكرون بعمق وكذلك جميع رهبان المعرفة وخرجوا . واقتيد باستيان وأتريو وكسايده إلى صوامع الضيوف حيث كانت في انتظارهم وجبة طعام بسيطة . وكانت الأسرة ألواحاً خشبية بسيطة ذات أغشية صوفية خشنة . ولم يكن لذلك أهمية بالطبع لدى باستيان وأتريو ، غير أن كسايده كانت تود أن تسحر سريراً أكثر راحة ، ولكنه تحتم عليها أن تعرف أن قواها السحرية ليس لها تأثير في هذا الدير .

وفي الليلة التالية والساعة المحددة اجتمع مرة أخرى جميع الرهبان والثلاثة متفكرين بعمق في قاعة القبة الكبرى . وجلس باستيان مرة أخرى على كرسي العرش ووقفت كسايده وأتريو عن يساره ويمينه .

وكانت أوشتو ، أم التخمين ، هي التي نظرت إلى أتريو بدهشة بعيونها البومية وتكلمت : « لقد تفكرنا في درسك ، أيها العارف العظيم ، ولكن نتج لنا سؤال جديد . إذا كانت فانتازين هي القصة بلا نهاية ، كما تقول ، فأين القصة بلا نهاية مكتوبة ؟ »

ومرة أخرى صمت باستيان برهة ثم أجاب :
- « في كتاب مجلد بحريز نحاسي اللون . »

فقالت أوشتو : « إعطنا وقتاً لفهم كلامك . ونريد أن نلتقي هنا مرة أخرى في نفس الساعة غدا . »

وحدث كل شيء كما في الليلة السابقة . وفي الليلة التالية ، وعندما اجتمعوا مرة أخرى في قاعة التدريس ، تناول الكلمة يسيو ، ابن الفطنة :
- « في هذه المرة أيضاً تفكرنا في درسك ، أيها العارف العظيم . ومرة أخرى نفق حائرين أمام سؤال جديد . إذا كان عالمنا هو قصة بلا نهاية ، وإذا كانت القصة بلا نهاية هذه موجودة في كتاب ذي لون نحاسي - فأين يوجد هذا الكتاب ؟ »

وبعد فترة قصيرة أجاب باستيان :

- « في مخزن أحد المباني المدرسية . »

فرد يسيو ذو رأس الثعلب ، قائلاً : « أيها العارف العظيم ، إننا لا نشك في

صدق ما تقوله لنا . ولكننا نريد أن نرجو أن نجعلنا نرى هذه الحقيقة . هل تستطيع ذلك ؟»

وفكر باستيان ، ثم قال :
« أعتقد أنني أستطيع ذلك . »

ونظر أتريو إلى باستيان وقد فوجيء ، وكذلك كسايدته أبدت تعبيراً متسائلاً في عينيها المختلفة الألوان .

وقال باستيان : « إننا نريد أن نلتقي ثانية غداً في نفس الساعة . ولكن ليس هنا في قاعة التدريس ، ولكن بالخارج على أسطح دير النجوم جيجام . ويجب أن نتطلعوا إلى السماء بانتباه وبلا انقطاع . »

وفي الليلة التالية - وكانت كذلك واضحة النجوم كالثلث ليالي السابقة وقف جميع أعضاء جماعة الأخوة بما فيهم الثلاثة متفكرون بعمق . في الساعة المحددة على أسطح الدير . وتطلعوا إلى أعلى في سماء الليل ورؤ وسهم منحنية إلى الوراء . وكذلك تواجد بينهم أتريو وكسايدته وكلاهما لم يكن يعرف ما ينوي عليه باستيان .

ولكن باستيان تسلق إلى أعلى نقطة في القبة الكبيرة . وعندما وقف بأعلى ، نظر إلى بعيد حوله - وفي هذه اللحظة رأى للمرة الأولى ، بعيداً ، بعيداً في الأفق برج العاج يومض في ضوء القمر وميضاً ساحراً .

وأخذ من جيبه الحجر التساير الذي أضواء ضوءاً ناعماً . واسترجع باستيان في ذاكرته كلمات النقش التي كانت على باب مكتبة أمر جانت :

« . . . ولكن إذا ذكر اسمي مرة ثانية

من النهاية إلى البداية

فإنني أشع بمصايح مائة عام

في لحظة واحدة . »

ورفع الحجر إلى أعلى وصاح :

« ربما ستلا ! »

وفي نفس اللحظة حدث برق من شدته أن شحب لون السماء ذات النجوم وأضىء الفضاء المظلم من خلفها . وهذا الفضلاء كان مخزن مبنى المدرسة بدعاماته الخشبية الضخمة التي كساها القدم بلون أسود . ثم انتهى . فقد أنقضت أشعة ضوء مائة عام . واختفى التساهير عن آخره .

واحتاج الجميع ، حتى باستيان إلى برهة من الزمن إلى أن تعودت عيونهم مرة أخرى على الوميض الخافت للقمر والنجوم .

واجتمع الجميع في صمت في قاعة التدريس الكبرى وقد هزتهم الرؤيا . ونهض رهبان المعرفة والثلاثة متفكرون بعمق من أماكنهم وانحنوا بعمق ولمدة طويلة أمامه .

وقال شيركرى : « لا توجد كلمات يمكنني أن أشكرك بها على برق الالهام ، أيها العارف العظيم ، لأنني لمحت بهذا المخزن المليء بالأسرار كائنا من نوعي . نسرا » .

واعترضت أوشتو ذات وجه البومة بإبتسامة ناعمة : « أنت مخطيء يا شيركرى ، لقد شاهدت بدقة أنها كانت بومة » .

وقاطعها يسيو بعينين مشعتين : « كلاهما مخطيء . إن الكائن هناك قريب لي . فهو ثعلب » .

ورفع شيركرى يديه مشيحا بها ، وقال : « ها نحن الآن ثانية حيث كنا من قبل . أنت فقط أيها العارف العظيم . تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال أيضا . من منا نحن الثلاثة معه حق ؟ » .

وابتسم باستيان بيروود وقال : « الثلاثة جميعا » .

فقالت أوشتو راجية : « إعطنا وقتا لنفهم إجابتك » .

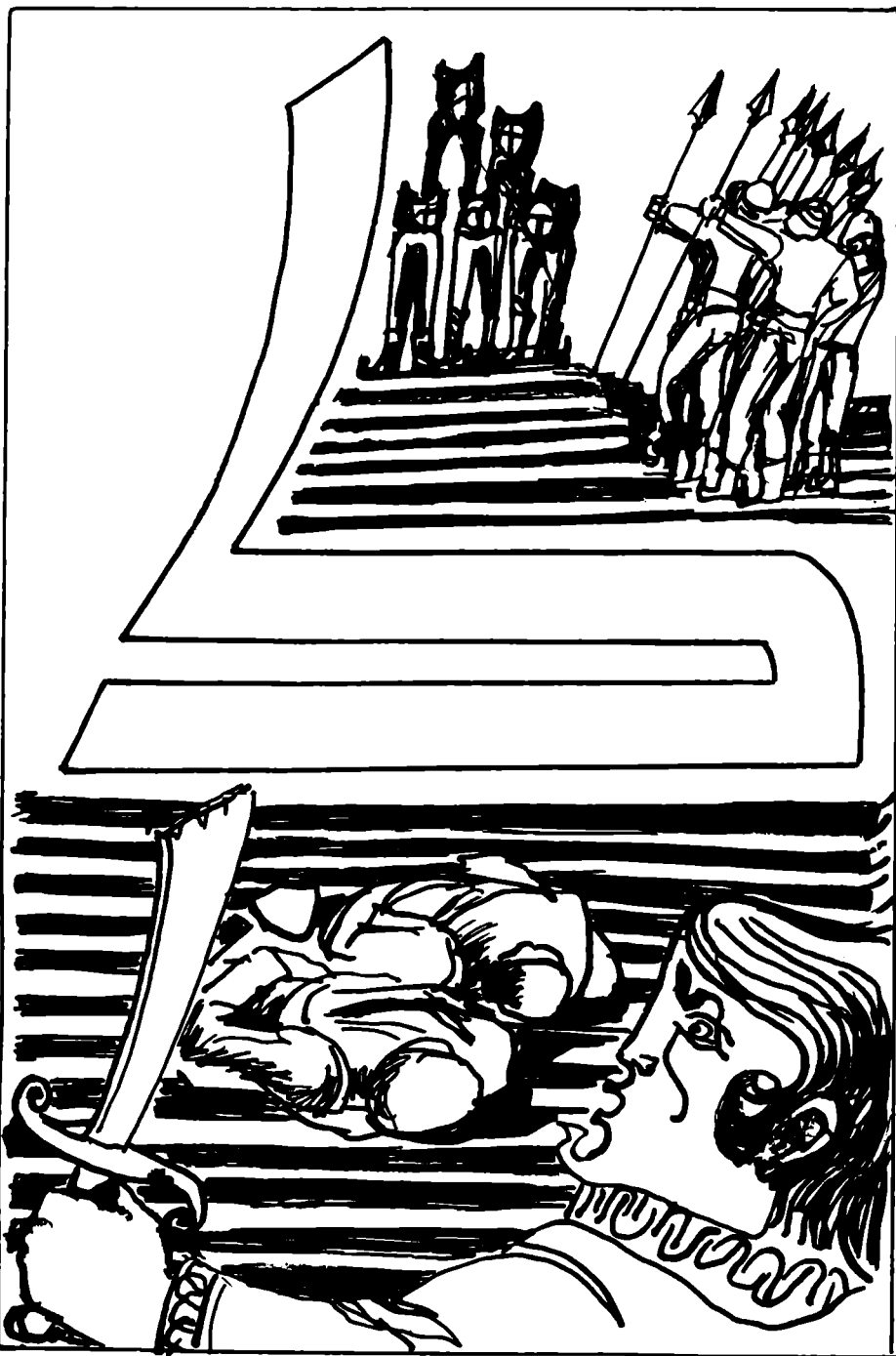
فرد باستيان : « نعم ، وقتا على قدر ما تريدون . لأننا سوف نترككم الآن » . وارتسمت خيبة الأمل على وجوه رهبان المعرفة وكبرائهم أيضا ، ولكن باستيان رفض بلا اكتراث رجاءهم الحار أن يبقى لديهم مدة طويلة أو من الأفضل على

الدوام . وهكذا تمت مرافقته مع تلميذه إلى الخارج ، وأعادوهم رسل الجو إلى مدينة الخيام . وبالمناسبة لقد بدأ في تلك الليلة في دير النجوم جيجام أول خلاف أساسي في الرأي بين الثلاثة متفكرين بعمق ، والذي أدى بعد ذلك بسنوات كثيرة إلى حل جماعة الأخوة ، وأسست أوشتو ، أم التخمين ، وشيركري أبو التأمل ، ويسيبو ابن الفطنة ، لكل منهم ديرا خاصا به . ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تحكى في مناسبة أخرى .

ولكن باستيان فقد ابتداءً من هذه الليلة كل ذاكرة في أنه كان يذهب يوما ما إلى المدرسة ، وكذلك المخزن وحتى الكتاب المسروق ذو الغلاف النحاسي اللون اختفى من ذاكرته . ولم يعد يتساءل عن كيفية مجيئه إلى فاننازين بالمرّة .

٢٢

المحركة حول برج العاج



كّر المستطلعون المرسلون مسبقاً ، عائدين إلى المخيم وأعلنوا أن المرء قريب جداً الآن من برج العاج ، ويمكن الوصول إليه بعد يومين ، وعلى أقصى تقدير ثلاثة أيام من السير السريع .

ولكن باستيان بدا غير مستقر على رأى . فكان يدعو للراحة أكثر من ذى قبل . وفجأة يبدأ بعدها الرحيل متعجلاً . ولم يفهم أحد في ركب جيش رفقائه السبب ، ولكن لم يجرؤ أحد بالطبع على سؤاله عنه . فمنذ عمله العظيم في دير النجوم أصبح متباعدة ، وحتى بالنسبة لكسايدته . وسرت في مخيم الجيش شتى أنواع التكهنات ، ولكن معظم رفقاء الطريق انصاعوا طائعين لأوامره المتناقضة ، إن الحكام العظام — كان هذا رأيهم — كثيراً ما يبدوون متقلبين بالنسبة للكائنات العادية . حتى أتربو وفخور لم يعودا يستطيعان تفسير سلوك باستيان . والأمر الحادث في دير النجوم قد تخطى حدود إدراكهما . ولكن هذا لم يزد إلا من انشغالهم عليه .

وبداخل باستيان كان يتصارع إحساسان ، ولم يستطع أحدهما أن يُسكت الآخر . فهو مشتاق للقاء طفلة الأقمار . وهو الآن موضع للشهرة والإعجاب في كل فانتازين ، وفي إمكانه أن يتقدم نداءً لها . ولكن في نفس الوقت ملأه القلق من أنها سوف تطلب منه إعادة أورين . وماذا بعد ذلك ؟ هل ستحاول إعادته إلى العالم الذى لم يعد يعرف عنه الآن شيئاً تقريباً ؟ إنه لم يكن يريد العودة . وهو يريد أن يحتفظ بالجوهره . — ثم ترد إليه الفكرة في أنه لم يُقل على الإطلاق أنها تريد استردادها . ربما تتركها له لوقت ما يريد . وربما كانت قد أهدتها له وأنها ملكه على الدوام . وفي مثل هذه اللحظات كاد لا يستطيع انتظار لقائها . فيحث ركب الجيش

لكى يكون عندها فى وقت أسرع . ولكن اليأس ينتابه مرة أخرى ويأمر بالتوقف والاستراحة لكى يستوضح ما يجب أن يضعه فى الحسبان .

وهكذا فى تناوب مع السير المسرع المتعجل والتباطؤ لساعات طوال ، تم الوصول أخيراً إلى الطرف الأقصى لحديقة التيه الشهيرة ، ذلك السهل المتسع الذى كان حديقة واحدة من الزهور مليئة بالمرات والطرق المتعرجة . وفى الأفق أضواء برج العاج بلون أبيض ساحر فى مواجهة سماء المساء المتلألئة بلون الذهب .

ووقفت المجموعة الفانتازية كلها وكذلك باستيان فى صمت مهيب . وتمتعوا بالجمال الذى لا يوصف لهذا المنظر . وحتى على وجه كسايدته ارتسم تعبير عن الدهشة ، لم يسبق أن أظهره أبداً ، ولكنه سرعان ما اختفى مرة أخرى . أتريو وفخور اللذان كانا يقفان فى الخلفية تماماً تذكرنا كيف كانت تبدو حديقة التيه عندما كانا هنا فى المرة الأخيرة : وقد نهشها مرض العدم المميت . وبدت الآن أكثر ازدهاراً وجمالاً وضياءً من أى وقت مضى .

وقرر باستيان عدم مواصلة السير هذا اليوم . وهكذا نُصب نعيم الليل . وبُعث بعض الرسل ليبلغوا طفلة الأقمار تحيته ويخبرونها أنه ينوى النزول ببرج العاج فى اليوم التالى . ثم رقد فى خيمته وحاول أن ينام . وتقلب على وسادته جيئةً وذهاباً . ولم تدعه همومه يهجع إلى الراحة . ولم يكن يدرى أن هذه الليلة ستكون أسوأ ليلة لوجوده حتى ذلك الوقت فى فانتازين لأسباب مختلفة تماماً .

وفى حوالى منتصف الليل راح أخيراً فى نوم خفيف قلق ، عندما أفزعه همس وهممة مضطربة أمام مدخل خيمته . فنهض وخرج .

وسأل فى صرامة : « ماذا هناك ؟ » .

فأجاب علوان ، الجنى الأزرق : « هذا الرسول هنا يزعم أنه لا بد أن يبلغك خبراً من الأهمية لدرجة أنه لا يجوز له الانتظار حتى الصباح » .

الرسول الذى كان يرفعه علوان من خناقه ، كان أباً سريع صغير^(١٥) ، وهو

(١٥) Hurtling = اسم من اختلاق المؤلف ومن خياله ، وقد اشتقه من كلمة hurtig وتعنى خفيف الحركة ، سريع .

كائن له شبه خاص بالأرنب غير أن له رداء من الريش الزاهى الألوان بدلا من الفرو ، وكائنات أبى سريع تنتمى إلى أسرع عدائى فانتازين ، وهى تستطيع أن تقطع مسافات هائلة بسرعة لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يراها فعليا أثناء ذلك ، بل يلاحظ مروقها فقط من أثر سحبيات من التراب المثار ، ومن أجل هذه المقدرة بالذات جعل أبو سريع هذا هنا رسولا . وكان قد قطع المسافة كلها إلى برج العاج ذهابا وعودة ثانية ، وكان يلهث مقطوع النفس ، عندما وضعه الجنى أمام باستيان .

وقال لاهنا وهو ينحنى عدة مرات بعمق : اعذرني يا سيدى ، اعذرني ، إذا ما تجاسرت أن أقلق راحتك ، ولكنك كنت ستصبح غير راضٍ بحق ، إذا لم أكن قد فعلت ذلك . الإمبراطورة الطفولية ليست فى برج العاج ، وهذا منذ أمد طويل ، ولا أحد يعرف أين تقيم . »

وأحس باستيان فجأة بأنه خالٍ وبارد بداخله ، وقال : « لا بد وأنت مخطيء هذا غير ممكن . »

— « الرسل الآخرون سوف يشهدون لك بذلك عندما يفدون ، يا سيدى . »
وصمت باستيان برهة ، ثم قال بصوت خالى النبرات : « شكرا ، هذا طيب . » واستدار وذهب إلى خيمته .

وجلس على مخدعه وأسند رأسه على كلتا يديه . لقد كان من المستحيل تماما ، أن طفلة الأقمار لم تعلم منذ متى من الوقت وهو فى طريقه إليها ألم تكن تريد لقاءه ؟ أم أن شيئا حدث لها ؟ كلا ، لم يكن من الممكن تماما تخيل احتمال أن يحدث لها شيء فى مملكتها الخاصة ، لها هى ، الإمبراطورة الطفولية .

ولكنها لم تكن موجودة ، وهذا يعنى أنه لم يكن عليه أن يعيد لها آورين . ومن ناحية أخرى شعر بخيبة أمل مريرة لأنه لن يلقاها . ومهما كان لها من سبب لهذا السلوك ، فقد اعتبره غير مفهوم ، لا ، لقد كان مهينا ! .

ثم خطرت له الملاحظة التى كان يكررها له أتريو وفخور كثيرا ، أن كل فرد يلقى الإمبراطورة الطفولية مرة واحدة فقط .

وقد جعله الحزن يشعر فجأة بالاشتياق إلى أتريو وفخور . لقد كان يريد أن ينفس عن نفسه بالكلام مع أحد ، كان يريد أن يتحدث مع صديق .

وأنت إليه الفكرة أن يتمنطق بالحزام جمال وأن يذهب إليهما وهو غير مرئي . وهكذا يستطيع أن يكون معها وأن يتمتع بوجودهما الباعث على السلوى دون أن يفقد شيئا من ماء وجهه .

وبسرعة فتح الصندوق الصغير المزخرف ، وأخرج الحزام ، ولفه حول وسطه . ومرة أخرى اعتراه الإحساس غير المريح مثل كل مرة عندما لا يرى نفسه . وانتظر برهة إلى أن تعود على ذلك ثم خرج وبدأ يتجول في مدينة الخيام باحثا عن أتريو وفخور .

وفي كل مكان كان يسمع همس وهمهمة مضطربة . وأشكال كالأشباح تمرق بين الخيام هنا وهناك . وفي أماكن متفرقة جلس العديد القرفصاء يتشاورون معا في صوت خافت . وفي تلك الأثناء كان قد عاد كذلك الرسل الآخرون ، وخبر عدم وجود طفلة الأقمار في برج العاج ، انتشر كالنيران السارية في مخيم رفاء الطريق . وسار باستيان من بين الخيام ، ولكنه لم يعثر في بادئ الأمر على الاثنين اللذين يبحث عنها .

وكان أتريو وفخور قد استقرا على طرف المخيم تحت شجرة بان مزدهرة . وجلس أتريو برجلين متربعتين وذراعيه متشابكين على صدره وينظر بوجه جامد ناحية برج العاج . وتنين الحظ يرقد إلى جواره ، واضعا رأسه عند رجله على الأرض .

وقال أتريو : « لقد كان أملى الأخير أنها ستجعله استثناء لكى تستعيد منه العلامة ولكن الآن ضاع كل الأمل » .

فرد فخور : « من المرجح أنها تعلم ما تفعله » .

وفي هذه اللحظة كان باستيان قد عثر عليهما وتقدم إليهما وهو خفى .

وتتم أتريو قائلا : « أتعلم هى حقا ؟ أنه لا يجوز له أن يحمل أورين لوقت أطول » .

فسأل فخور : « ماذا تنوى أن تفعل ؟ إنه لن يسلمه طواعية » .

فأجاب أتريو : « لا بد أن أخذه منه » .

وأحس باستيان عند سماعه هذه الكلمات أن الأرض تميد تحت أقدامه .
وسمع فخور يقول : « كيف تنوى فعل ذلك ؟ حقاً لو كان معك ، ما استطاع أن يجبرك على إعادته إليه » .

فقال أتريو : « أوه ، لست أدرى ، ستكون قوته وسيفه السحري لا يزالان معه . »

فاعترض فخور قائلاً : « ولكن العلامة ستحميك ، حتى منه » .

فقال أتريو : « كلا ، لا أعتقد . ليس منه . ليس على هذا النحو » .

واستطرد فخور قائلاً وهو يضحك ضحكة خافتة مخيفة : « برغم أنه عرضها عليك بنفسه في أول أمسية لكما في أمر جانت . وأنت رفضتها » . وهز أتريو رأسه بالإيجاب . — « في ذلك الوقت لم أكن أعرف ما سيكون عليه الأمر » .

فسأل فخور : « وماذا يبقى لك إذن ؟ ماذا يمكنك أن تفعله لكي تنزع منه العلامة ؟ » .

فأجاب أتريو : « يجب أن أسرقها منه . »

فحرك فخور رأسه بسرعة إلى أعلى . وحملق بكريتا عينيه المتوهجتين بحمرة الياقوت في أتريو الذى خفض بصره إلى الأرض وقال مكرراً بصوت خافت :

— « لا بد أن أسرقها منه . لا توجد أية إمكانية أخرى . »

وبعد صمت خفيف سأل فخور قائلاً : « ومتى ؟ »

فرد أتريو : « هذه الليلة ، لأن غدا يمكن أن يكون الأوان قد فات . »

ولم يرغب باستيان في سماع المزيد . وابتعد ببطء . ولم يعد يشعر إلا بفراغ بارد لا حدود له . لقد أصبح كل شيء عنده سيان — كما قالت كسايدة .

وعاد الى خيمته وخلع الحزام جمال . ثم أرسل علوان لينادى على السادة الثلاثة هيزبالد وهيكريون وهيدورن . وبينما هو يمشى منتظراً جيئة وذهابا ، خطر بباله أن كسايدة قد تنبأت بكل شيء . ولم يكن يريد أن يصدق ذلك ، ولكنه الآن تحتم عليه

أن يفعل . لقد كانت كسايدة تقصد الأمانة معه ، فقد أدرك ذلك الآن . وهي وحدها كانت المطيعة له حقا . ولكن لم يُقل بعد إن أتربو سوف ينفذ حقا خطته . وربما كان مجرد خاطر قد خجل منه فعلا . وفي هذه الحالة ينوى باستيان ألا يعلق بكلمة واحدة على الأمر – بالرغم من أنه الآن لم يعد يضع اعتبارا للصدقة . لقد انتهى ذلك إلى الأبد .

وعندما جاء السادة الثلاثة شرح لهم أن لديه أسبابا لتوقع مجيء لص إلى خيمته هذه الليلة . ولذلك فهو يرجو السادة الثلاثة أن يقيموا الحراسة بداخل الخيمة ، وأن يقبضوا على اللص مهما كان هو . ووافق هيزبالد وهيدورن وهيكريون وأخذوا راحتهم . وابتعد باستيان .

وتوجه إلى هودج كسايدة المرجاني . وكانت تغط في نوم عميق ، غير أن الخمسة عمالقة كانوا يقفون حولها في اعتدال وبلا حركة داخل دروعهم الحشرية السوداء . وكانوا يبدون في الظلام كخمسة كتل صخرية .

وقال باستيان بصوت خافت : « أتمنى أن تطيعوني . »
وعلى الفور وجه الخمسة كلهم وجوههم الحديدية السوداء إليه .
وأجاب واحد بصوت له رنين الصفيح : « مُرنا ، يا سيد سيدتنا . »
وقال باستيان راغبا في المعرفة : « أعتقدون أنكم ستتغلبون على تين الحظ فخور؟ »

فرد الصوت الصفيحي : « هذا يتوقف على الإرادة التي توجهنا . »
فقال باستيان : « إنها إرادتي . »
فكان الرد هو : « إذن ستتغلب على كل شيء . »
فأشار بيده إلى الاتجاه قائلا : « حسن ، سيروا إذن الآن إلى المقربة منه ! وعندما يتركه أتربو ، اقبضوا عليه . ولكن ابقوا معه هناك . وسوف أستدعيكم عندما ينبغي عليكم إحضاره . »

فرد الصوت الصفيحي : « يسرنا أن نفعل ذلك ، يا سيد سيدتنا . »
وتحرك الخمسة السود بلا صوت في خطوة منتظمة . وابتسمت كسايدة في

نومها . وعاد باستيان إلى خيمته ، ولكنه عندما رآها أمامه تردد . إذا كان أتريو سيحاول حقا سرقة فهو لا يريد أن يكون موجودا عندما يقبضون عليه .

وصعد الشعاع الأول للفجر إلى السماء ، وجلس باستيان ، ليس ببعيد عن خيمته ، تحت شجرة وانتظر ، وقد التف بمعطفه الفضي . وكان الزمن يمر ببطء لا نهائي ، وطلع ضوء صباح شاحب ، وازداد النور ، وعقد باستيان الأمل أن يكون أتريو قد تنازل عن خطته ، وذلك عندما اخترقت فجأة ضوءا وخليط مضطرب من الأصوات من داخل الخيمة الفاخرة .

ولم يستغرق الأمر إلا وقت قصير ، وبعدها اقتاد هيكريون أتريو من الخيمة وهو مقيد الذراعين وراء ظهره . وتبعها كلا السيدين . ونهض باستيان متعبا واستند على الشجرة .

وتمتم لنفسه قائلا : « إذن ، لقد فعلا ! »

ثم مشى إلى خيمته . ولم يكن يُحِب أن يرى أتريو ، وأيضا هذا أطرق برأسه . وقال باستيان إلى الجنى الأزرق بجوار مدخل الخيمة : « علوان . أيقظ المخيم كله . وعلى الجميع أن يجتمعوا هنا . وعلى العمالقة السود المدرعين أن يُحضروا فخور . » وأطلق الجنى صرخة نسر حادة وأسرع مبتعدا . وفي كل مكان مر به بدأت الحركة في الخيام الكبيرة والصغيرة والمخيمات الأخرى .

ودمدم هيكريون قائلا وهو يشير بحركة من رأسه على أتريو الذى وقف بلا حراك مطرقا برأسه : « إنه لم يدافع عن نفسه إطلاقا . » فانصرف باستيان وجلس على صخرة .

وعندما أحضر العمالقة السود فخور كان قد تجمع جمهور كبير حول الخيمة الفاخرة . وعند اقتراب الخطوة المنتظمة ذات الدبيب المعدنى ابتعد المتفرجون عن بعضهم وأفسحوا طريقا . ولم يكن فخور مقيدا ولم يمسه العمالقة المدرعون ، وكانوا يسرون فقط عن يساره وعن يمينه شاهرين السيوف .

وقال أحد الأصوات الصفيحية الرنين عندما توقف الموكب أمامه : « إنه لم يدافع عن نفسه إطلاقا ، يا سيد سيدتنا . »

ورقد فخور على الأرض أمام أتريو وأغلق عينيه .

وعم صمت طويل . وأسرع آخر المتأخرين من مخيم الجيش ، ومدوا رقابهم ليروا ماذا هناك . والشخص الوحيد الذى لم يكن حاضرا ، كانت كسايدة . وتلاشى الهمس والهمهمة شيئا فشيئا . وتناقل الجميع بنظراتهم بين أتريو وباستيان . وفى دغشة الضوء المعتم كانت لأشكالهم التى لا تتحرك انطباع كصورة جامدة إلى الأبد .

وأخيرا نهض باستيان .

وقال : « أتريو ، لقد كنت تنوى سرقة علامة الامبراطورة الطفولية منى ، لكى تستحوذ عليها لنفسك وأنت يا فخور كنت تعلم ذلك وقمت بالتخطيط معه . وأنتما الاثنان لم تدنسا الصداقة فقط التى كانت يوما ما بيننا ، لقد أذنبتما كذلك بارتكابكما أشنع جريمة ضد إرادة طفلة الأقمار التى منحتنى الجوهرة . أتعرفان بأنكما مذنبان ؟ »

وألقي أتريو نظرة طويلة إلى باستيان ، ثم هز رأسه بالإيجاب .

واحتبس صوت باستيان . واضطر إلى أن يحاول مرتين قبل أن يستطيع مواصلة الحديث . - « إننى أفكر ، يا أتريو ، أنك أنت الذى أحضرتنى إلى الإمبراطورة الطفولية . وأنا أفكر فى غناء فخور فى أمر جأنت . ولذلك أريد أن أهبكما حياتكما ، حياة لص ، ومساعدته ، افعلما ما تريدان بها . ولكن أغربا عنى أبعد ما تستطيعان ، ولا تتجاسرا مرة أخرى أبدا على المثل أمام عيني . إننى أنبذكما إلى الأبد . إننى لم أعرفكما أبدا ! » وأشار لهيكريون برأسه أن يفك قيود أتريو ، ثم استدار وجلس مرة أخرى . ووقف أتريو فترة طويلة دون أن يتحرك ، ثم ألقى نظرة على باستيان ، وكان يبدو أنه يريد أن يقول شيئا ، ولكنه غير فكره بعد ذلك . وانحنى إلى فخور وهمس له شيئا . وفتح تنين الحظ عينه وانتصب . وقفز أتريو على ظهره ، وارتفع فخور فى الهواء . وطارا مباشرة إلى سماء الصباح المتزايد الضياء باستمرار ، وبرغم أن حركاته كانت ثقيلة ومتعبة ، فقد اختفى فى البعد فى لحظات قليلة . ونهض باستيان وذهب إلى خيمته . وألقى بنفسه على المخدع .

وقال صوت ناعم خفى : « لقد حققت الآن عظمة حقيقية ، والآن لم يعد هناك شىء له اعتبار لديك ، ولم يعد أى شىء يستطيع اللحاق بك . »

واعتدل باستيان . لقد كانت كسايدة هي التي تكلمت . وكانت تقبع في أظلم ركن من الخيمة . وسأل باستيان : « أهذا أنت ؟ كيف دخلت إلى هنا ؟ » وابتسمت كسايدة .

— بالنسبة لي ، يا سيدى ومعلمى ، لا يوجد حراس يستطيعون منعى . أمرك فقط يستطيع ذلك . أتأمرنى بالانصراف ؟»

ورقد باستيان ثانية وأغلق عينيه مرة أخرى . وبعد برهة تتم قائلا :

— « سيان عندى . ابقى أو اذهبي . »

وتطلعت إليه وقتنا طويلا من تحت جفون مسدلة . ثم استفهمت قائلة :

— « وفيم تفكر ، سيدى ومعلمى ؟»

واستدار باستيان بعيدا عنها ولم يجب .

وكان واضحا لكسايدة أنه لا يجوز لها الآن أن تتركه لنفسه بأى حال من الأحوال . لقد كان قريبا من أن يفلت من يديها . وكان عليها أن تواسيه وتسرى عنه — بطريقتها . لقد كان عليها أن تجعله يواصل الطريق الذى رسمته له — ولنفسها . وهذه المرة لن يمكن للأمر أن يتم بهدية سحرية أو بخدعة بسيطة . كان عليها أن تلجأ إلى وسائل أشد قوة . إلى أقوى ما بيدها ، وإلى أكثر أمانى باستيان خفية . فجلست إلى جواره وهمست في أذنه :

— « متى ، سيدى ومعلمى ، تنوى الرحيل إلى برج العاج ؟»

فقال باستيان ووجهه في وسائده : « لست أدرى ، ماذا بقى لي هناك ، اذا لم تكن طفلة الاقمار هناك ، لست أدرى على الاطلاق ماذا ينبغي على أن أفعله الآن . »

— « بإمكانك أن ترحل إليه لكي تكون في انتظار الإمبراطورة الطفولية هناك . »

واتجه باستيان إلى كسايدة .

— « أتعتقدين أنها ستعود ؟ » واضطر أن يكرر سؤاله مرة أخرى بالحاح أكثر

قبل أن تجيبه كسايدة بتردد

— « لا أعتقد ، أظن أنها غادرت فانتازين إلى الأبد وأنك خليفتها ، سيدى

ومعلمى . » وانتصب باستيان ببطء . ونظر في عيني كسايدة ذات اللونين ،

واستغرق الأمر برهة من الزمن إلى أن أدرك تماما ، ما قالته له .

واندفع قائلا : « أنا ؟ » وظهرت على خديه بقع حمراء .

فهمست كسايدة : « أتفزعك هذه الفكرة حدا هكذا ؟ لقد منحتك علامة تفويضها . لقد عهدت إليك بمملكتها . وسوف تكون من الآن الإمبراطور الطفولى ، يا سيدى ومعلمى . وهذا هو حقك السليم . فأنت لم تنقذ فانتازين فقط التى أتيت إليها ، بل إنك أبدعتها منذ ذلك الوقت . نحن جميعا - وأنا نفسى أيضا - لسنا سوى خلائتك . أنت العارف العظيم ، فلماذا يفزعك اذن أن تتولى السلطة العليا الجديرة بك بعد كل هذا ؟ »

وبينما أخذت عينا باستيان تلمع فى حمى باردة متزايدة ، قصت له كسايدة عن فانتازين جديدة ، عن عالم يمكن تشكيله حتى جميع تفاصيله طبقا لهوى باستيان . وفيه يستطيع أن يخلق ويبيد طبقا لمطلق إرادته ، وحيث ينبع كل مخلوق من إرادته وحدها . سواء كان طيبا أم شريرا ، جميلا أم قبيحا ، أبلها أم حكيما ، وهو معتل عرشه مترفعا فوق كل شىء ولا يمكن سبر أغواره ، ويقود المصائر فى حركة أزلية .

وأخيرا ختمت قولها : « حينئذ فقط تكون حرا حقا ، حرا من كل ما يضيق عليك ، حرا فى أن تفعل ما تريد . ألم تكن تريد أن تعثر على رغبتك الحقيقية ؟ ها هى ذى ! » وفى نفس الصباح فك المخيم ، وارتحل الركب المكون من عدة آلاف رأس ، بقيادة باستيان وكسايدة فى الهودج المرجانى إلى برج العاج . وسار موكب يكاد لا ينتهى عبر الطرق الملتوية لحديقة التيه . وعندما وصلت مقدمته إلى برج العاج فى المساء تقريبا ، كان آخر من بالمؤخرة قد تخطى بالكاد الحد الأقصى لحديقة الزهور

وكان الاستقبال الذى أعد لباستيان من الحفاوة بقدر ما كان يستطيع أن يتمناه لنفسه . وخرج كل من ينتمى إلى حاشية الإمبراطورة الطفولية . وعلى جميع أطراف الأسوار والأسطح وقف حراس من الجن بأبواق لامعة وينفخون بما تسمح به رثاتهم . وعرض الحواة فنونهم وأنبأ المنجمون بحظ باستيان السعيد وعظمته ، وخبز الخبازون التورتات عالية كالجبال ، وسار الوزراء ، والأكابر إلى جوار الهودج المرجانى ورافقوه من خلال زحمة الجمهور إلى أعلى الشارع الرئيسى الذى يمتد فى شكل حلزونى يزداد ضيقا على الدوام من حول برج العاج ذى الشكل المخروطى ،

وحتى هناك حيث تؤدي البوابة الكبيرة إلى داخل الجزء الفعلي للقصر . وصعد باستيان ، تتبعه كسايدته وجميع الأكابر ، درجات السلم العريض البيضاء كالثلج ، واستمر يسير من خلال جميع القاعات والممرات ، ومن خلال البوابة الثانية ، مستمرا في الارتفاع إلى أعلى ، من خلال الحديقة التي بها حيوانات وزهور وأشجار من العاج ، عبر الجسور الملتوية ومن خلال البوابة الأخيرة . لقد كان يريد الذهاب إلى ذلك الكشك الذي يكون قمة البرج العملاق والذي كان له شكل إحدى زهور المانوليا . ولكن اتضح أن الزهرة مغلقة ، وأن جزءاً من الطريق ، المؤدى إليها بأعلى ، أملس ومنحدرًا لدرجة أنه لم يكن بإمكان أحد الصعود إلى أعلى .

وتذكر باستيان أن حتى أتربو الذي كان مصابا بجروح بالغة لم يستطع في ذلك الوقت الوصول إلى أعلى ، وعلى كل ليس بقوته الذاتية - لأن لا أحد جاء مرة إلى أعلى ، يعرف كيف نجح في ذلك ، فلا بد أن يوهب ذلك للمرء . ولكن باستيان لم يكن أتربو . إذا كان لفرد أن يبب كتفضل منه هذا الجزء الأخير من الطريق ابتداء من الآن ، فهو هذا الفرد . ولم يكن في نيته أن يسمح باعاقته الآن على طريقة .

وأصدر أمره قائلاً : « احضروا عمالا . عليهم أن يحفروا درجات في السطح الأملس أو أن يبنوا سلما أو أن يخلقوا أى شىء آخر . لأننى أرغب اتخاذ مقر سكنى هناك بأعلى . »

وتجاسر أحد أكبر المستشارين سنا على الاعتراض قائلاً : « هناك بأعلى تسكن سيدة الأمان ذات العيون الذهبية عندما تكون بيننا . »
فصرخ به باستيان آمرا : « افعلوا ما أمركم به ! »

وشجبت وجوه الأكابر وتراجعوا من أمامه . ولكنهم أزعنوا . واستدعى الحرفيون ، الذين توجهوا للعمل بمطارق وأزاميل ثقيلة . ولكن على قدر ما أنهمكوا أنفسهم فلم ينجحوا في كسر حتى أصغر قطعة من قمة الجبل . وكانت الأزاميل تقفز من أياديهم ولم يُخلّف ولو خدش في السطح الأملس .

فقال باستيان وهو ينصرف غاضبا : « اخترعوا أى شىء آخر . لأننى أريد الصعود إلى هناك بأعلى . ولكن فكروا في أن صبرى يمكن أن ينفذ قريبا . »

ثم عاد ووضع يده مؤقتا على الغرف الباقية لدائرة القصر ، ومعه حاشيته التي كانت تنتمي إليها كسايدته بوجه خاص والسادة الثلاثة هيزبالد وهيكريون وهيدورن وكذلك علوان ، الجنى الأزرق .

وفي نفس الليلة أيضا إستدعى جميع الأكابر والوزراء والمستشارين الذين كانوا فيما مضى يخدمون الإمبراطورة الطفولية ، إلى اجتماع عُقد في تلك القاعة المستديرة الكبيرة التي انعقد بها مؤتمر الأطباء في الماضي القديم . وأخبرهم أن سيدة الأمانى ذات العيون الذهبية قد تركت له ، هو باستيان بلتازار بوكس ، كل السلطة على المملكة الفانتازية اللأنهائية وأنه سيأخذ مكانها ابتداء من الآن . وطالبهم أن يبايعوه على الخضوع الكامل تحت إرادته .

قال : « وكذلك وبالذات إذا ما كانت قراراتي غير مفهومة أحيانا بالنسبة لكم . لأننى لست كواحد منكم »

ثم أكد أنه ينوى تنويع نفسه بعد ذلك بسبع وسبعين يوم بالضبط إمبراطورا طفوليا لفانتازين . وسيكون احتفال بفخامة لم يكن له مثيل في فانتازين نفسها من قبل أبدا . ولا بد من إيفاد الرسل فورا إلى جميع البلدان ، لأنه يرغب في أن يبعث كل شعب من المملكة الفانتازية ممثلا عنه لاحتفال التتويج .

وبذلك انسحب باستيان وترك المستشارين والأكابر الحيارى وحدهم . ولم يعرفوا كيف يتصرفون . وكل ما سمعوه كان له وقع كريبه ، لدرجة أنهم وقفوا صامتين لوقت طويل وقد كمشوا رؤوسهم . ثم بدأوا يتباحثون بصوت خافت . وبعد مشاورة استغرقت ساعات اتفقوا على أن يذعنوا لتعليمات باستيان ، لأنه على كل يحمل علامة الإمبراطورة الطفولية ، وهذا يوجب عليهم الطاعة - وإذا كانوا يعتقدون الآن أن طفلة الأقمار قد تنازلت فعلا لباستيان عن جميع السلطات أو إذا كان هذا الأمر كله ليس إلا أحد قراراتها غير المفهومة مرة أخرى . وهكذا بُعث الرسل ، وكذلك نُفذ كل شيء آخر أمر به باستيان .

ولكنه هو نفسه لم يعد يهتم بذلك . فقد عهد لكسايدته بجميع تفاصيل تجهيز حفل التتويج . وقد استطاعت أن تشغل الحاشية ببرج العاج - لدرجة أن أحدا لم يتمكن من التفكير تقريبا .

وجلس باستيان نفسه أثناء الأيام والأسابيع التالية غالبا بلا حراك في مخدعه الذى اختاره . وكان يجملى في الفضاء ولا يفعل شيئا . وكان يود أن يتمنى لنفسه أى شىء أو أن يخلق قصة تسليه ، ولكن لم يعد يخطر بباله شىء . فقد أحس أنه فارغا وأجوفاً .

وهكذا فقد خطر أخيراً بباله فكرة أنه يستطيع أن يستدعى طفلة الأقمار بالأمانى . وإذا كان هو حقاً قادراً على كل شىء ، وإذا كانت كل أمانيه تصبح حقيقة واقعة فلا بد وأن تطيعه هى أيضاً . وجلس لمنتصف عدة ليال وهمس لنفسه : « طفلة الأقمار ، احضرى . يجب أن تحضرى . » وفكر في نظرتها التى كَمِنت في قلبه ككنز منير . ولكنها لم تأت . وكلما أزداد من محاولته إرغامها على الحضور كلما ازداد انمحاء تذكّره لذلك النور في قلبه ، إلى أن عم الظلام التام فيه .

وأقنع نفسه أنه سيعثر على كل شىء مرة أخرى عندما يجلس في كشك زهرة المانوليا .

وكان يذهب باستمرار إلى العمال ومحثم . تارة بالتهديدات وتارة بالوعود ، ولكن كل ما فعلوه أثبت عدم جدواه . فقد تحطمت السلام وانشنت المسامير الصلب وتكسرت الأزاميل .

السادة هيكريون وهيزبالدو هيدورن الذين كان باستيان يجب أن يتسامر معهم أحياناً أو أن يمارس معهم ألعاباً ما ، لم يعودوا يصلحون لشىء إلا نادراً . فقد اكتشفوا في أسفل طوابق برج العاج قبوا للنبيد . فكانوا يجلسون هناك بالنهار والليل ويشربون ويلعبون النرد ويجارون بأغان سخيفة أو يتشاجرون ، ولم يكن نادراً أنهم سحبوا السيوف ضد بعضهم أيضاً أثناء ذلك . وأحياناً ما كانوا يجوبون الشارع الرئيسى مترنحين كذلك ويعاكسون الجنيات والعمفاريات وحاملات الدروع وكائنات نسائية أخرى بالبرج .

وكانوا يقولون عندما يحاسبهم باستيان : « ماذا تريد ياسيدى . لا بد أن تعطينا شيئاً نفعله . » ولكن لم يخطر ببال باستيان شىء ، وعشمهم فيما بعد الترويج بالرغم من أنه هو نفسه لم يكن يعرف ما سوف يتغير عن طريقه .

وتزايد الطقس كآبة باستمرار أيضا شيئا فشيئا . وتزايدت على الدوام ندرة
مرات غروب الشمس التي كانت تبدو كالذهب المنساب . وغالبا ما كانت السماء
معتمة ومغطاة بالسحب ، وأصبح الهواء خانقا . ولم يعد أى ريح يتحرك .
وهكذا اقترب ببطء اليوم المحدد للتويج .

وعاد الرسل المبعوثون . كثير منهم أحضر معه مندوبين من شتى بلاد فانتازين .
ولكن بعضهم عادوا كذلك خائبين ، وأخبروا أن الأقوام الذين أرسلوا إليهم ،
قد رفضوا دون تردد الاشتراك في المراسم . وأن هناك بوجه عام في بعض المناطق
ثورات سرية أو علنية تماما .

ونظر باستيان بجمود إلى الفضاء أمامه .

وقالت كسايدة : « سوف تقضى نهائيا على كل ذلك عندما تكون إمبراطور
فانتازين . »

فقال باستيان : « أرغب في أن يريدوا ما أريد . »

ولكن كسايدة كانت قد أسرعت بالابتعاد لكي تعطى تعليمات جديدة .
وبعد ذلك جاء يوم التويج الذي لن يتم ، بل الذي دخل تاريخ فانتازين كيوم
المعركة الدامية حول برج العاج .

ففي الصباح غطت السماء طبقة سميكة رمادية بلون الرصاص من السحاب ،
التي لم تجعل ضوء النهار يبدو بالفعل . وقبع ضوء أغبش مخيف فوق كل شيء .
والهواء كان ساكنا تماما وثقيلًا ومقبضا لدرجة لا يمكن استنشاقه تقريبا .

وأعدت كسايدة بالتعاون مع الأربعة عشر رئيسا لتشريفات برج العاج برنامج
حفel غاية في الثراء كان سيفوق في الفخامة والتكاليف الباهظة كل ما كان موجودا في
فانتازين من قبل .

وعزفت الموسيقى منذ ساعات الصباح المبكرة في كل الشوارع والبيادين ، ولكنها
كانت موسيقى لم تُسمع أبدا حتى هذا اليوم في برج العاج : صاخبة وصارخة وعلى

وتيرة واحدة برغم ذلك . وكل من سمعها راح يهز أقدامه ، وتحتم عليه أراد أولم يرد ، أن يرقص ويقفز . ولم يكن أحد يعرف العازفين ، الذين كانوا يرتدون أقنعة سوداء ولم يعرف أحد من أين أحضرتهم كسايدته .

وازدانت جميع المباني وواجهات المنازل بأعلام ورايات صغيرة زاهية الألوان ، كانت تتدلى مرتحية لعدم هبوب الرياح . وعلى طول الشارع الرئيسي وحول السور العالى لدائرة القصر وُضعت صور لا تحصى ، صغيرة وهائلة الحجم ، وكلها تبين نفس الوجه ، وجه باستيان ، مراراً وتكراراً ، مراراً وتكراراً .

ونظراً لأن كشك زهرة المانوليا لم يزل بعيد المنال ، فقد أعدت كسايدته مكاناً آخر لاعتلاء العرش . فهناك حيث ينتهى الشارع الرئيسى الحلزوني أمام البوابة الكبيرة فى سور القصر ، كان سيوضع العرش على الدرجات العريضة المصنوعة من العاج . وتصاعد الدخان من آلاف المباخر ، والدخان الذى كان لرائحته تأثير مخدر ولكن مثير فى نفس الوقت ، كان ينساب ببطء إلى أسفل على الدرجات والميدان والشارع الرئيسى ، ويقتحم جميع الأزقة الجانبية والأركان والغرف .

وفى كل مكان كان يقف العمالقة السود فى دروعهم الحشرية ، لا أحد غير كسايدته نفسها تعرف كيف تمكنت من مضاعفة الخمسة المتبقين ، إلى مئات . وليس هذا فحسب : فقد جلس حوالى خمسون منهم على أحصنة قوية مصنوعة كلها أيضاً من معدن أسود وتتحرك تحركاً متماثلاً تماماً .

ورافق هؤلاء الفرسان كرسى عرش فى موكب للنصر بامتداد الشارع الرئيسى . ولم يعرف أحد من أين أتى . وكان ضخماً كبوابة كنيسة ومصنوعاً بالتمام والكمال من مرايا من كل شكل وحجم . وكانت حشية الجلوس فقط مصنوعة من حرير نحاسى اللون . ومن الغريب أن هذا الشيء الهائل اللامع كان ينساب من تلقاء نفسه ببطء إلى أعلى الشارع الحلزوني دون أن يُدفع أو يجذب ، تماماً كما لو كانت له حياة خاصة به .

وعندما توقف أمام بوابة العاج الكبيرة ، خرج باستيان من دائرة القصر واتخذ مجلسه عليه . وبدأ منظره ضئيلاً فى صغر حجمه كدمية ، عندما جلس حينئذ هناك

وسط كل هذا البهاء البراق البارد . وانطلق جمهور المشاهدين الذين كان يكبحهم صفان من العمالقة السود المدرعين ، في هتاف ، لكن رنينه كان خاويا وحادا بطريقة لا يمكن تفسيرها .

وبعد ذلك بدأ أكثر أجزاء الاحتفال مللا وتعبا . جميع رسل و مندوبى المملكة الفانتازية كان عليهم أن يصطفوا فى طابور وراء بعضهم . وهذا الطابور لم يصل من عرش المرايا إلى أسفل الشارع الرئيسى الحلزوني كله فقط ، بل إلى بعيد وبعيد إلى داخل حديقة الته ، وكان يلتحق باستمرار وافدون جدد بخلفية الطابور . وكل فرد يأتي عليه الدور ، يجب أن يسجد أمام العرش ويلمس الأرض بوجهته ثلاث مرات ويقبل قدم باستيان اليمنى ويقول : « باسم شعبى ، وأبناء جنسى ، نرجوك أنت ، يا من ندان كلنا لك بوجودنا أن تتوج نفسك إمبراطورا طفوليا لفانتازين » .

وكانت قد مرت ساعتان أو ثلاث على هذا النحو ، عندما سرى اضطراب مفاجئ من خلال صفوف المنتظرين . وجاء عفريت شاب ذو أرجل كبش منطلقا من الشارع ، وشوهد أنه كان يعدو بآخر قواه ، لأنه ترنح وسقط ، وكان يستجمع قواه بين وقت وآخر ويستمر فى الجرى إلى أن ارتقى أمام باستيان وهو يجاهد من أجل تنفس الهواء . وانحنى باستيان إليه .

— « ماذا هناك ، لكى تجرؤ على تعطيل هذه المراسم ؟ » .

فاندفع العفريت ذو أرجل الكبش يقول : « حرب ، يا سيدى ! لقد جمع أتريو كثيرا من المتمردين وهو فى الطريق إلى هنا بثلاثة جيوش . إنهم يطالبون بأن تسلم أورين ، وإذا لم تفعل ذلك طواعية فهم ينوون أن يجبروك على هذا بالقوة » .

وفجأة ساد صمت القبور . فقد خرست الموسيقى المثيرة وصرخات الهتاف الحادة دفعة واحدة . ونظر باستيان أمامه بجمود . وأصبح لونه شاحبا .

ثم جاء كذلك السادة هيزبالد وهيكريون وهيدورن يجرون . وكانوا يبديون فى غاية المرح .

وصاحوا متداخلين : « أخيرا هناك شىء لنا نفعله ، يا سيدى ! دع لنا هذا ! ولا تزعج نفسك مطلقا فى احتفالك . إننا سنتقى عدة أناس مهرة ونزحف فى

مواجهة المتمردين . وسوف نلقنهم درسا يفكرون فيه أمدا طويلاً .

ومن بين الآلاف العديدة من مخلوقات فانتازين الحاضرين كان هناك البعض الذين لا يصلحون على الاطلاق للعمليات الحربية . ولكن الغالبية كانت تستطيع استعمال أى سلاح بوجه عام ، المراهة ، السيف ، القوس ، الحربة ، المقلاع أو أيضاً مجرد أسنانهم ومخالبهم ، وكل هؤلاء اجتمعوا حول السادة الثلاثة الذين قادوا الجيش .

وبينما هم يتعدون ، بقى باستيان مع الزمرة الكبيرة لمن هم أقل قدرة على القتال لاستكمال المراسم . ولكنه ابتداء من ذلك الوقت لم يعد كامل الحضور . فقد سرحت عيناه مرارا إلى الأفق الذى استطاع أن يراه جيدا من مكانه . سحب هائلة من التراب تصاعدت هنا جعلته يشعر بأى قوة من الجيوش كان أتريو يتقدم من هناك .

وقالت كسايدة التى تقدمت إلى جانب باستيان : « لا تشغل بالك ، فإن عمالقتى السود المدرعين لم يتدخلوا بعد . وسوف يدافعون عن برجك العاجى ، ولا أحد يستطيع أن يقاومهم – سواك وسوى سيفك » .

وبعد ذلك بساعات قلائل وصلت أوائل أخبار المعركة . إلى جانب أتريو كان يقاتل كل شعب ذوى الجلود الخضراء تقريبا ، وكذلك ما يقرب من مائتى كنتاور ، وثمانية وخمسون من قلفسمى الصخور ، وخمسة من تنين الحظ يقودهم فخور يقتحمون مجرى القتال من الجو على الدوام ، وزيادة على ذلك سرب من النسور العملاقة البيضاء التى أتت طائفة من جبال القدر ، وكثير جدا من الكائنات الأخرى . وحتى حيوانات وحيد القرن شوهدت أيضا .

صحيح أنهم من ناحية العدد أقل بكثير عن الجيش الذى يقوده كل من السادة هيكريون وهيزبالد وهيدورن ، ولكنهم كانوا يقاتلون بتصميم للدرجة أنهم قهقروا الجيش المقاتل من أجل باستيان على الدوام إلى ناحية برج العاج .

وأراد باستيان نفسه الخروج لكى يتولى قيادة جيشه ، ولكن كسايدة أثنته عن ذلك .

وقالت : « تذكر ، سيدى ومعلمى ، أنه لا يليق بمقامك الجديد كإمبراطور لفانتازين أن تتدخل . دع ذلك لثقافتك ولا تبالى » .

واستمرت المعركة بقية النهار كله . ودافع جيش باستيان عن كل قدم من حديقة التيه دفاعا مستميتا ، وقد تحول إلى ميدان معركة دام دهسته الأقدام . وعندما بدأ حلول الظلام ، كان أوائل المتمردين قد وصلوا إلى سفح برج العاج .

وحيث أن أرسلت كسايدته عمالقتها المدرعين السود على خيول وبدون خيل ، وراحوا يعيشون بالرعب فى رجال أتريو المقربين .

ومن المستحيل إعطاء تقرير دقيق لهذه المعركة حول برج العاج ولذلك لا بد من التغاضى عن ذلك هنا . فما زالت هناك حتى اليوم أغان وأنباء لا تحصى فى فانتازين عن هذا اليوم وهذه الليلة ، لأن كل من اشترك فيها قد عايش شيئا مختلفا . كل هذه قصص ، ربما ستُحكى فى مناسبة أخرى .

وتقرر بعض التصريحات أن واحداً أو حتى عديدا من السحرة البيض كانوا إلى جانب أتريو كذلك وقد كانوا ندا لقوى كسايدته السحرية . ولا يُعرف شىء عن ذلك بالتأكيد . ربما فى ذلك تفسير لكيفية تمكن أتريو وأتباعه من النجاح فى غزو برج العاج رغم العمالقة المدرعين السود . لكن هناك سبب أكثر ترجيحاً وهو : أن أتريو لم يكن يقاتل من أجل نفسه ولكن من أجل صديقه الذى أراد هو أن يهزمه لكى ينقذه .

وكان الليل قد حل منذ وقت طويل ، ليل خال من النجوم وملىء باللهيب والدخان . شعل واقعة على الأرض . ومباخر مقلوبة أو مصابيح مهشمة أشعلت الحريق فى البرج فى مواضع كثيرة . وجرى باستيان فى ضوء النيران المتراقصة بين المتقاتلين الذين ألقوا ظلالات كالأشباح . ومن حوله ضجيج السلاح وزئير القتال .

وصرخ بصوت مبسوح قائلاً : « أتريو ! أتريو اظهر لى ! تقدم للقتال معى ! أين أنت ؟ » .

ولكن السيف سيكأندا قبع فى مغمده ولم يتحرك . وانطلق باستيان من خلال جميع غرف دائرة القصر ، ثم جرى خارجا إلى السور

الكبير الذى كان هنا عريضا كالشارع ، وعندما أراد فى التو أن يجرى عبر تلك البوابة الخارجية الضخمة ، التى بأسفلها كان عرش المرايا - مهشما الآن إلى ألف من الشظايا - ، رأى أتريو يأتى إليه من الناحية الأخرى . وكان بيد أتريو سيف .

ثم وقفا أمام بعضهما البعض ، العين فى العين . ولم يتحرك سيكاندا . ووضع أتريو سن سيفه على صدر باستيان .

وقال : « أعطنى العلامة ، من أجل صالحك أنت » .

ورد باستيان صارخا : « أيها الخائن . أنت مخلوقى . لقد بعثت الوجود فى كل شىء وفيك أيضا . أتريد أن تتجه ضدى ؟ اركع وارجنى الصفع ! » .

فأجاب أتريو : « أنت مجنون ، إنك لم تخلق شيئا . إن كل شىء أنت مدان به للإمبراطورة الطفولية . أعطنى أورين ! »

فقال باستيان : تعال خذه لنفسك ، إذا استطعت .

وتردد أتريو .

وقال : « باستيان ، لماذا تجبرنى أن أهزمك لكى أنقذك ؟ »

وجذب باستيان مقبض سيفه ، ونجح فعلا بقوته الهائلة أن يسحب سيكاندا من مغمده ، دون أن يقفز من تلقاء نفسه إلى يده . ولكن فى نفس لحظة حدوث ذلك سمع رنين صوت مرعب لدرجة أن المقاتلين حتى بأسفل فى الشارع أمام البوابة ظلوا واقفين كالمجمدين للحظة ، ونظروا إليهما بأعلى . وعرف باستيان الصوت مرة أخرى . لقد كان الصرير المرعب الذى كان قد سمعه عندما تحول جراً وجرمان إلى حجر . وانطفأ بريق سيكاندا . واندفع إلى رأسه ما أخبره الأسد إذا ما سحب هذا السلاح مرة بإرادته الخاصة . ولكنه الآن لم يعد يستطيع ولم يرغب فى الرجوع فى ذلك .

وانهال على أتريو الذى حاول أن يغطى نفسه بسيفه . ولكن سيكاندا قطع سلاح أتريو وأصاب صدره . وانشق جرح غائر وتدفق الدم خارجاً . وترنح أتريو إلى الوراء وسقط من البروز المسنن للبوابة الكبيرة إلى أسفل . فسرى لسان لهب

أبيض من سحابات الدخان من خلال الليل وتلقف أتريو أثناء سقوطه وانتزعه معه بعيدا . لقد كان فخور تين الحظ .

ومسح باستيان بمعطفه العرق عن جبينه . وبينما هو يفعل ذلك لاحظ أن المعطف أصبح أسود اللون ، أسود كالليل ، ونزل من سور القصر إلى أسفل والسيف سيكوناندا لا يزال بقبضته ، وتقدم خارجا إلى الميدان الخالي .

وبالانتصار على أتريو تحول الحظ بالمعركة من لحظة إلى أخرى ، جيش التمردين ، الذى كان النصر يبدو له مؤكدا منذ لحظة ، بدأ فى الهرب . وكان باستيان كمن فى حلم مخيف لا يستطيع اليقظة منه . وكان طعم النصر عنده مرا كعصارة المرارة ، ولكنه شعر فى نفس الوقت بنصر عارم .

ومشى ببطء وهو ملتف فى معطفه الأسود وفى قبضته السيف الدامى ، إلى أسفل الشارع الرئيسى لبرج العاج الذى كان يتأجج الآن فى لهيب النيران كشعلة هائلة . واستمر باستيان يمشى من خلال هدير وعويل اللهب الذى كاد ألا يشعر به ، إلى أن وصل إلى سفح البرج . وهناك صادف بقايا جيشه الذى كان ينتظره وسط حديقة التيه الخربة - التى أصبحت الآن ميدان مذبحه لا نهائى ملء بأهل فانتازين القتلى ، وكان هناك أيضا هيكريون وهيزبالد وهيدورن ، وكلا الأخيرين مصابان بجروح شديدة . وعلوان الجنى الأزرق سقط فى الحرب . وكانت كسايدته تقف عند جثته وتمسك بيدها الحزام جمال .

وقالت : « هذا ، يا سيدى ومعلمى ، قد خلصه من أجلك »

وأخذ باستيان الحزام وضغط عليه بقبضته ثم أدخله فى جيبه .

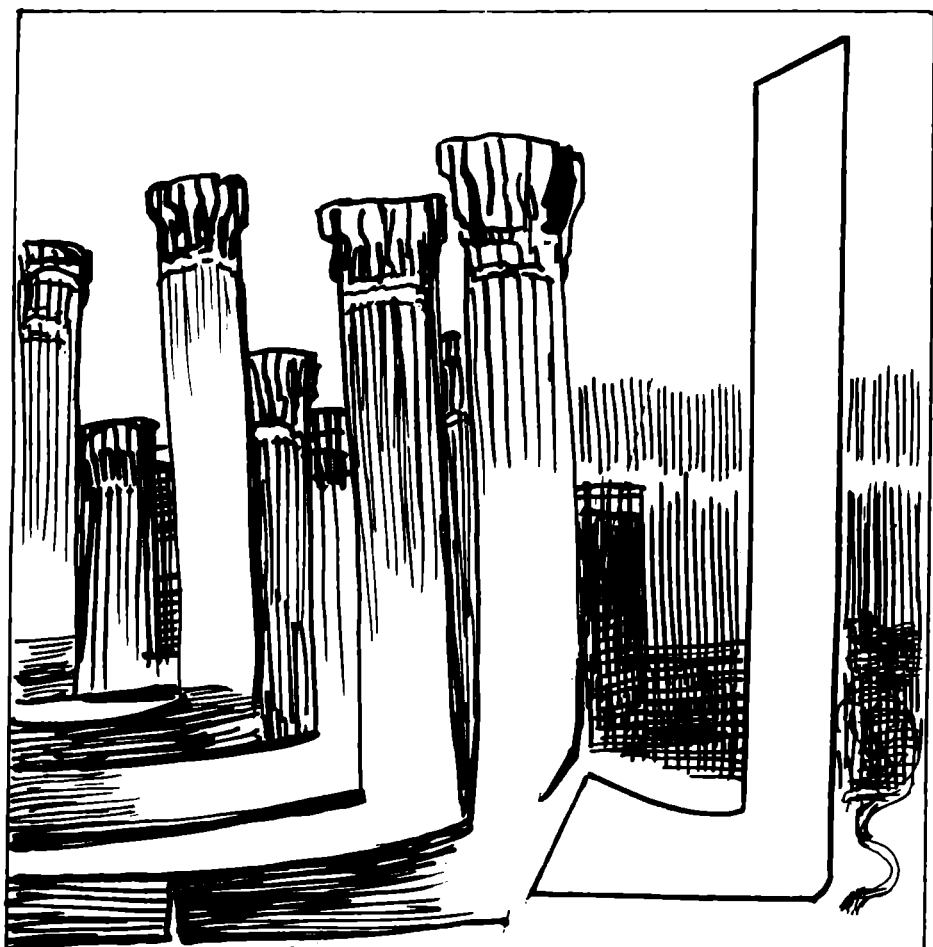
ونظر حوله ببطء فى دائرة رفقاء قتاله وطريقه . ولم يتبق منهم غير بضع مئات وكان يبدو عليهم الإنهاك والدمار . والضوء المتراقص لشعاع النار جعلهم يبدوون كشرذمة من الأشباح .

وتحول الجميع بوجوههم إلى ناحية برج العاج الذى كان يتهاوى أكثر وأكثر على الدوام كالركام . وتطايرت ألسنة اللهب من قمة كشك زهرة المانوليا ، وتفتحت أوراق زهرته باتساع ، وأمكن مشاهدة أنه كان خاليا . ثم ابتلعت النيران هو أيضا .

وأشار باستيان بسيفه على كومة الوهج والأطلال وقال بصوت متحشرج :
« هذا هو صنيع أتريو . ومن أجل ذلك أريد أن أتعبه الآن حتى نهاية العالم . »
وامتطى صهوة فرس عملاق من المعدن الأسود وصرخ قائلاً : « اتبعوني ! »
وحرّن الفرس ، ولكنه أرغمه بارادته وانطلق في ركض سريع في الليل .

٢٢

مدينة القيصرية القديمة



للرحيل تهباً رفقاء القتال المتبقون فقط بينما كان باستيان ينطلق على بعد أميال خلال الليل الحالك . كثير منهم كان جريماً . وكلهم كانوا مجهدين غاية الإجهاد ، ولم يكن لدى أحد منهم القوة والجلد الذى لا حد له لباستيان ، ولا حتى بما يقاربها فقط . وحتى العمالقة السود المدرعون كانوا لا يتحركون بأفراسهم المعدنية إلا مثاقيلين ، وأولئك الآخرون الذين كانوا يمشون على الأقدام لم يتمكنوا من إيجاد خطواتهم المنتظمة المعتادة . وكذلك إرادة كسايدته – التى كانوا يقادون بواسطتها – بدت تبعا لذلك عند حدود قوتها . وراح هودجها المرجاني ضحية النيران أثناء حريق برج العاج . وهكذا صنع من مختلف أنواع ألواح العربات والأسلحة المحطمة والبقايا المتفحمة من البرج هودج جديد كان يشبه بالأحرى كوخا بانسا . وبقية الجيش كانت تجر نفسها وهى تعرج وتجرجر أقدامها بالأرض . وحتى هيكريون وهيزبالد وهيدورن الذين فقدوا أحصنتهم اضطروا أن يتساندوا على بعضهم . ولم يتكلم أحدهم كلمة ولكنهم جميعا كانوا يعرفون أنه من المستحيل اللحاق بباستيان بالمرّة .

وواصل انطلاقه الغاضب عبر الظلام ومعطفه الأسود يهفهف بشدة حول كتفيه والأجزاء المعدنية للحصان العملاق تحدث قعقة وصعصعة مع كل حركة ، بينما تطرق الحوافر القوية على الأرض .

وصرخ باستيان : «ها ! هيا ، هيا ، هيا !»

فلم تكن السرعة كافية بالنسبة له .

لقد كان يريد أن يلحق بأتريو وفخور بأى ثمن ، حتى وإن اضطرت إلى إهلاك هذا الوحش المعدنى الحصان مطياً .

لقد كان يريد الثأر . ففي تلك الساعة كان قد وصل إلى غاية أمانيه منذ وقت طويل ، ولكن أتريو أحبط ذلك . فلم يصبح باستيان إمبراطورا لفانتازين . وكان على أتريو أن يكفر عن ذلك تكفيرا شديدا ! وحثَّ باستيان مطيته المعدنية بلا هوادة أكثر وازداد صوت طقطقة وصرير مفاصلها ارتفاعا باستمرار ، ولكنها أطاعت رغبة فارسها وأسرعت من ركضها المندفع .

واستمر هذا التسابق الضارى لساعات كثيرة دون أن ينبجلى الليل . ورأى باستيان في فكره دون انقطاع برج العاج المحترق أمامه ، وكان يستعيد دائما من جديد لحظة أن وضع أتريو السيف على صدره — إلى أن طرأ له سؤال لأول مرة : لماذا تردد أتريو ؟ ولماذا لم تطاوعه نفسه بعد كل ذلك أن يجرحه لكي يأخذ منه أورين بالقوة ؟ والآن تحتم على باستيان فجأة أن يفكر في الجرح الذي أصاب به أتريو ، وفي منظره الأخير عندما ترنح متراجعا وهوى .

وأدخل باستيان سيكاندا في مغمده الصدىء مرة ثانية والذي كان لا يزال يلوح به في قبضته حتى الآن .

ولاح فجر الصباح ، فاستطاع شيئا فشيئا أن يرى أين هو ، لقد كانت أرضا خضراء تلك التي كان ينطلق فيها الحصان المعدن في ذلك الآن . وبدأت الملامح المظلمة لمجموعات أشجار العرعر كجماعات ساكنة من الرهبان العمالقة يرتدون قلنسوات أو من السحرة ذوى قبعات مديبة الأطراف . ومن بينها كتل من الصخور المتناثرة .

ثم حدث على حين غرة تماما أن تفككت أجزاء الحصان المعدن وسط ركضه السريع . وظل باستيان راقتا وهو مخدر من هول السقوط . وعندما استجمع قواه أخيرا مرة أخرى وذلك أجزاء جسمه المصابة بالكدمات ، وجد نفسه في أحراش أشجار العرعر المنخفضة . وتسلل خارجا منها . وكانت حطام الحصان ذات هيئة القشور موزعة على مساحة واسعة كما لو أن نُصب فارس قد انفجر .

ونفض باستيان وألقى معطفه الأسود على كتفيه ومشى بلا هدف ناحية أفق

الصباح المتزايد الضوء . وبقي في أحراش أشجار العرعر (*) شىء لامع فقدته هناك : الحزام جمال . ولم يلاحظ باستيان شيئا من هذا الفقدان ولم يفكر أبدا فيه فيما بعد . لقد كان إنقاذ علوان للحزام من النيران بلا فائدة تماما .

وبعد ذلك بعدة أيام عثر طائر العقعق (***) على جمال ، والذي لم يكن يدري ما هي أهمية ذلك الشىء اللامع . فحمله إلى عشه ، ولكن بذلك بدأت قصة أخرى ولسوف تُحكى في مناسبة أخرى .

وفي وقت الظهيرة تقريبا أتى باستيان إلى سدّ مرتفع يمتد عبر الطبيعة ذات المروج فتسلفه . ومن خلفه كان قاع وادٍ واسع ، له شكل فوهة بركان منبسطة — تميل بعَمق متزايد ناحية الداخل . وكل هذا الوادى كان مملوءا بمدينة — وعلى كل حال فقد أوحى مجموعة المباني بهذه التسمية ، برغم أنها كانت أكثر المدن التي رآها باستيان من قبل جنونا . جميع المباني بدت في هرج ومرج بلا تخطيط ولا هدف ، كما لو كانت قد سُكبت هناك من جوال عملاق . فلم تكن هناك شوارع ولا ميادين ولا أى نظام واضح .

ولكن المباني الفردية أيضا كان منظرها جنونيا ، باب المنزل في سقفه ، والسلام هناك حيث لا يمكن لأحد الوصول إليها ، أو كذلك تلك التي لا يمكن للمرء دخولها إلا ورأسه إلى أسفل ، والتي تنتهي في الهواء الخالى : أبراج صغيرة تقف بميل ، وشرفات معلقة رأسيا على الجدران ، نوافذ بدلا من الأبواب . أرضيات بدلا من الأسوار . وكانت هناك جسور تنتهي تقوساتها المتعرجة فجأة في أى مكان ، كما لو أن بانيتها قد نسي وسط عمله فجأة ما سيكون عليه كل هذا . هناك أبراج تبدو مقوسة كأصابع الموز ، وأهرامات موضوعة على طرفها المدبب ، باختصار ، هذه المدينة كانت تعطى انطبعا بالجنون .

وبعد ذلك رأى باستيان السكان . وكانوا رجالا ونساء وأطفالا . وكانوا يبدوون

(*) العرعر Wacholder نبات ذو أوراق إبرية .

(**) العقعق Elster طائر من فصيلة الغربان اشتهر بالسرقة وكثرة النعيق ، ولذلك أصبح رمزاً لخب السرقة وكثرة الثرثرة .

من ناحية الشكل عاديين ، ولكن ملابسهم كانت تبدو كما لو أصبحوا جميعا مجانين ، ولم يعودوا يستطيعون أن يفرقوا بين الأشياء التي تلبس والأشياء التي تخدم غرضا آخر . فكانوا يرتدون على رؤسهم برانيط مصابيح أو جرادل رمل صغيرة أو سلاطين شربة ، سلال مهملات ، قراطيس أو عُلب . ومن حول أجسامهم تتدلى مفارش مائدة ، أو سجاجيد ، أو قطع كبيرة من الورق المفضض أو حتى براميل .

كثير منهم كان يجز عربات يد أو مركبات مرصوص عليها كل ما يمكن من الأمتعة المهملة ، مصابيح مكسورة ، مراتب ، أوان ، هلاهيل ومهملات حُلِيّ لامة . وآخرون يجرون أيضا مهملات مشابهة في بالات هائلة على ظهورهم .

وكلما توغل باستيان أكثر في المدينة ازداد التزاحم كثافة . وبالرغم من ذلك بدا أن لا أحد من الناس كان يعرف بحق إلى أين يريد . ولاحظ باستيان مرارا أن أحدهم يشد عربته التي كان يجذبها إلى اتجاه ما ، ومرة أخرى إلى الاتجاه المعاكس ، لكي يسلك بعد ذلك بقليل اتجاهها جديدا مرة أخرى . ولكنهم جميعا كانوا في نشاط دائم .

وقرر باستيان أن يخاطب أحدهم .

- « ما اسم هذه المدينة ؟ »

وترك المخاطب عربته ، واعتدل ، وحكّ جبهته فترة من الزمن كما لو كان يجهد التفكير ثم ابتعد وترك عربته ببساطة . ويبدو أنه نسيها . ولكن بعد ذلك بدقائق قليلة استولت امرأة على المركبة وسحبتها بمجهود إلى ناحية ما . وسألها باستيان إذا كانت المهملات تخصها . فوقفت المرأة برهة غارقة في تفكير عميق ، ثم انصرفت . وجرب باستيان ذلك عدة مرات ، ولكنه لم يتلق إجابة عن سؤال واحد .

وفجأة سمع صوتا ضاحكا يقول : « لا جدوى من سؤالهم ، فلم يعد باستطاعتهم أن يقولوا لك شيئا . فمن الممكن تسميتهم بالذين لا يقولون شيئا »

واستدار باستيان ناحية الصوت ، ورأى قردا صغيرا رمادي اللون يجلس على نتوء في أحد الأسوار ، (والذي كان هو الجانب الأسفل لأحد المباني البارزة الذي كان يقف معكوسا) . وكان الحيوان يرتدى على رأسه قبعة حامل لقب دكتور ، والتي كان

يتأرجح منها زر ، وبدا أنه مشغول بانهماك بالعد على أصابع قدميه . ثم ابتسم
بشماتة إلى باستيان وقال :

- «معدرة ، لقد حسبت بسرعة شيئاً لنفسى .»

فسأل باستيان : «من أنت؟»

فأجاب القرد الصغير وهو يرفع قبعة الدكاترة : «اسمى أرجاكس ، تشرفنا
جداً ، ومع من لى السرور بالحديث ؟»

- «اسمى باستيان بلتازار بوكس»

فقال القرد الصغير برضاً : «تمام!»

فاستفسر باستيان قائلاً : «وما اسم هذه المدينة؟»

فشرح أرجاكس قائلاً : «ليس لها اسم فى الحقيقة . ولكن يمكن تسميتها -
فلنقل - مدينة القياصرة القديمة»

فكرر باستيان القول مضطرباً : «مدينة القياصرة القديمة ؟ لماذا ؟ إننى لا أرى
هنا أحد يبدو كقيصر قديم .»

وضحك القرد الصغير وقال : «أصحيح لا ؟ ولكن جميع من تراهم هنا
كانوا - أو على الأقل أرادوا أن يصبحوا فى زمنهم قياصرة فانتازين .»
وذعر باستيان .

- «من أين تعرف ذلك ، يا أرجاكس؟»

ورفع القرد قبعة الدكاترة مرة أخرى وابتسم بشماتة .

- «إننى - فلنقل - المشرف على هذه المدينة .»

ونظر باستيان حوله ، وعلى مقربة شديدة كان رجل قد حفر حفرة . ووضع فيها
الآن شمعة مشتعلة وردد الثقب ثانية .

وضحك القرد الصغير :

- «أتحب أن تقوم بجولة صغيرة لمشاهدة المدينة ، يا سيدى ؟ فلنقل - أول

تعارف تُجرىه على مقر سكنك المستقبل؟»

فقال باستيان : « كلا ، على ما نتحدث ؟ »

وقفز القرد الصغير على كتفه .

ومس قائلا : « تعال ، إن هذا لن يكلف شيئا ، فقد دفعت كل ما يعطيك

الحق في الدخول . »

وبدا باستيان يمشى بالرغم من أنه كان يفضل الابتعاد في الواقع . وكان يشعر بعدم الراحة ، وازداد هذا الشعور مع كل خطوة . وتطلع إلى الناس ولفت نظره أنهم أيضا لا يتحدثون مع بعضهم . ولم يكونوا يكثرثون ببعضهم على الإطلاق ، بل ويبدو أنهم حتى لم يكونوا يرون بعضهم .

وقال باستيان مستفسرا : « ماذا دهامهم ؟ لماذا يتصرفون على هذا النحو من

الغرابية ؟ »

وضحك أرجاكس في أذنه قائلا : « ليس غريبا ، إنهم مثلك ، ويمكن القول ،

أو بمعنى أفضل ، إنهم كانوا هكذا في زمنهم . »

وظل باستيان متوقفاً وقال : « ماذا تقصد بذلك ؟ أتريد أن تقول إنهم بشر ؟ »

وتفافز أرجاكس من السرور إلى أعلى وإلى أسفل على ظهر باستيان وقال : « هو

ذلك . هو ذلك ! »

ورأى باستيان امرأة تجلس وسط الطريق ، تحاول أن تلتقط حبوب البازلاء بآبرة

رفء من طبق .

وسأل باستيان : « كيف أتوا إلى هنا ؟ وماذا يفعلون هنا ؟ »

فقال أرجاكس مفسرا : « أوه ، لقد كان يوجد في جميع الأزمنة بشرا لم يعثروا

على طريق العودة إلى عالمهم . وفي بادىء الأمر لم يعودوا يرغبون ، والآن — فلنقل —

لم يعودوا يستطيعون . »

وتابع باستيان بنظره فتاة صغيرة تدفع بمجهود بالغ عربة عرائس ذات عجلات

مربعة الشكل .

وسأل باستيان : « لماذا لم يعودوا يستطيعون ؟ »

— « كان عليهم أن يتمنوا ذلك . ولكنهم لم يعودوا يتمنوا شيئا . فقد استخدموا آخر أمنياتهم في أى شيء آخر . »

فسأل باستيان بشفتين شاحبتين : « أمنيتهم الأخيرة ؟ أفلا يستطيع المرء أن يواصل التمني طالما يريد ؟ »

وكرر أرجاكس ضاحكا مرة أخرى . وحاول الآن أن يخلع عن باستيان عمامته لكي يفليه .

فصاح باستيان : « دع هذا . » وحاول أن ينفض عنه القرد ولكنه تشبث وصرخ من السرور .

وزجر قائلا : « دع ذلك ! إنك تستطيع التمني فقط طالما تذكر عالمك . هؤلاء الموجودون هنا قد أنفقوا جميع ذكرياتهم . ومن لم يعد له ماض ، ليس له مستقبل أيضا . ولهذا فهم لا يكبرون سنا كذلك . انظر إليهم . هل سوف تعتقد أن بعضهم هنا منذ ألف سنة وحتى أكثر ؟ ولكنهم سيظلون على ما هم عليه . بالنسبة لهم لم يعد شيء يستطيع أن يتغير لأنهم هم أنفسهم لم يعودوا يستطيعون أن يغيروا أنفسهم . »

وشاهد باستيان رجلا يغطى مرآة برغاوى صابون ثم راح يخلقها . وما ظهر له في بادئ الأمر مضحكا ، اقشعر له بدنه الآن .

وواصل سيره بسرعة وأدرك الآن فقط أنه يزداد توغلا في المدينة باستمرار . وأراد أن يعود أدراجه ، ولكن شيئا ما جذبته إلى هناك كالمغناطيس . وبدأ يجرى ويحاول أن يتخلص من القرد الرمادى المزعج ، ولكنه جلس متشبثا كالقردة ، وكان يحشه فوق ذلك : « أكثر سرعة ! هوب ! هوب ! هوب ! هوب ! »

وأدرك باستيان أنه لا فائدة مما يفعله وتوقف .

وسأل وهو مقطوع النفس : « وكل هؤلاء هنا كانوا مرة أو أرادوا أن يصبخوا قياصرة فانتازين ؟ »

فقال أرجاكس : « واضح ، كل من لا يعثر على طريق العودة ، يريد إن عاجلا أو آجلا أن يصبح إمبراطورا . ولم يحقق كل فرد ذلك ، ولكنهم جميعا كانوا يريدون . ولذلك فهناك نوعان من المجانين هنا . ولكن النتيجة – يمكننا أن نقول – واحدة » .

– « أى نوعين ؟ اشرح لى ! لا بد أن أعرف يا أرجاكس ! »

وضحك القرد واحتوى رقبة باستيان أكثر إحكاما : « بهدوء ! بهدوء ! مجموعة انفقوا ذكرياتهم بالتدرج . وعندما فقدوا الأخيرة لم يستطع أورين أيضا أن يحقق لهم مزيدا من الأمان . وبعد ذلك – فلنقل – جاءوا إلى هنا بأنفسهم تماما . والآخرين الذين جعلوا من أنفسهم قياصرة ، فقدوا أثناء ذلك جميع ذكرياتهم دفعة واحدة . ولذلك لم يستطع أورين أيضا أن يحقق لهم المزيد من الأمان ، لأنه لم تعد لديهم أمان . كما ترى ، النتيجة واحدة . وهم أيضا هنا ولم يعودوا يستطيعون الانصراف » .

– « أهذا يعنى ، أنهم جميعا كان معهم أورين مرة ؟ »

فأجاب أرجاكس : « هذا بديهي ! ولكنهم نسوا ذلك منذ وقت طويل . ولن يساعدهم ذلك أيضا ، هؤلاء المجانين المساكين » .

وقال باستيان متردداً : « هل – هل نزع منهم ؟ »

فقال أرجاكس : « كلا ، فعندما يجعل أحدهم من نفسه قيصرا ، فهو يختفى بواسطة أمنيته الخاصة . الأمر واضح كالشمس ، فيمكن القول ، لأن المرء لا يستطيع أن يستخدم سلطة الإمبراطورة الطفولية في أن ينزع منها هذه السلطة بعينها » .

وشعر باستيان بشقاء شديد لدرجة أنه ود أن يجلس في مكان ما ، ولكن القرد الرمادى الصغير لم يسمح بذلك .

وصرخ قائلاً : « لا لا ، مشاهدة معالم المدينة لم تنته بعد ، فاهم شىء سيأتى ! استمر فى المشى ، استمر فى المشى ! »

ورأى باستيان صبيا يضرب بمطرقة ثقيلة مسامير في جوارب أمامه على الأرض .
رجل بدين يحاول ان يلمص طوابع بريد على فقاعات صابون كانت بالطبع تنفجر
دائما . ولكنه لم يتوقف عن نفخ الجديد منها .

وسمع باستيان الصوت الضاحك لأرجاكس ، وأحس أن هذا يدير رأسه
بيديه القردية الصغيرة إلى ناحية معينة : « أنظر ! أنظر إلى هناك ! أليس هذا
مضحكا ؟ »

وهناك كانت تقف مجموعة كبيرة من الناس ، رجال ونساء . عجائز وشباب
والجميع بأعجب الملابس . ولكنهم لا يتحدثون . كل منهم كان منفردا بنفسه
تماما . وعلى الأرض كانت كمية هائلة من المكعبات الكبيرة ، وعلى كل من الجوانب
السته لكل مكعب كانت حروف . وكان الناس يخلطون هذه المكعبات بلا نظام
مرارا وتكرارا ، وبعد ذلك يحمقون فيها وقتا طويلا .

وهمس باستيان قائلا : « ماذا يفعلون هناك ؟ أية لعبة هذه ؟ ما اسمها ؟ »

فأجاب أرجاكس : « لعبة أى شيء . » ولوّح للأعبين وصاح : « أحسستم
يا أولادى ! استمروا هكذا ! لا تفقدوا الأمل ! »

ثم اتجه إلى باستيان مرة أخرى وهمس في أذنه : « لم يعد بإمكانهم سرد
القصص . لقد فقدوا النطق . ولذلك اخترعت لهم هذه اللعبة . فهي تشغلهم كما
ترى . وهى بسيطة جدا . إذا ما تأملت مرة ، فلا بد أن تعترف أن جميع قصص
العالم تتكون أساسا فقط من ستة وعشرين حرفا^(١٦) والحروف هى نفسها دائما ،
تركيبها فقط هو المتغير . ومن الحروف تتكون كلمات ، ومن الكلمات جمل ، ومن
الجمل فصول ، ومن الفصول تتكون قصص ، انظر ، ماذا هناك ؟ »

(١٦) وهى عدد حروف الأبجدية الألمانية ، بينما تحتوى الأبجدية العربية على ثمانية وعشرين
حرفا .

وقرأ باستيان^(١٧) : هـ ج غ ك ل و ظ م و ي ح خ ق ي خ ش ص ب م ا ز د هـ
ذ ك ل ع ط ق ح غ ز ت ز و ا و ص ي ز د ف ج هـ ذ ك ل ع ط م ن ب ح ش ك ذ ل
ت ي هـ ج ف د ز ا و ت و ي و س ت ر غ ح ق ا ز ق ح ي ر ت س و ي و ظ و ا ز د
ف ي خ ش ث ب ن م ل ك ذ ق ح غ ر ت س و ي ب ا ز د ف ج هـ ذ ك ل ع ط خ
ش و ط و ي و س ت ر غ ج ق ط ع ل ك ذ هـ ج ف د ز ا م ن ب ف ج ك هـ د ز ر س
ي ط ق ع ت و ي ز ف هـ ك ع ي ش ب م ن ر س ي ط ا ر ش ج و ن ي ك غ ع ق ج
غ ر ت س و س و ط ض ا ز د م ن ب ح ش خ ي ا ز د ل ك ذ و ن ج ر غ ف ج هـ ص

وضحك أرجاكس قائلا : « هكذا الأمر في أغلب الأحوال ، ولكن عندما
يلعبها المرء لفترة طويلة جدا ، لسنوات ، فأحيانا ما تنتج الصدفة كلمات . ليست
كلمات ذات مغزى خاص ، ولكنها على الأقل كلمات . مثلا « تقلص السبانخ » أو
« سجع الفُرش » أو « دهان الياقة » . ولكن إذا ما استمر المرء في اللعب مائة عام ،
ألف عام ، مائة ألف عام ، فلا بد وأن ينتج بكل ترجيح أثناء ذلك قطعة شعر عن
طريق الصدفة ذات مرة أيضا . وإذا ما لعبها المرء إلى الأزل ، فلا بد أن تنشأ أثناء
ذلك كل ما يمكن عموما من القصائد والقصص . وبالإضافة إلى ذلك أيضا جميع
قصص القصص ، وحتى هذه القصة التي نتسامر فيها نحن الاثنان في هذا الحين .
هذا منطقي ، أليس كذلك ؟ »

فقال باستيان : « هذا فظيع » .

فقال أرجاكس : « أوه ، هذا يتوقف على ما للمرء من رأى . هؤلاء هناك –
نستطيع أن نقول – متحمسون للأمر . وفوق ذلك ماذا نفعل بهم في فانتازين ؟ »

(١٧) وضع المترجم بدلا من الحروف الألمانية غير الموجودة مثيلاتها بالأبجدية العربية حروفا من
العربية غير موجودة مثيلاتها أيضا بالألمانية لكي ترد جميع الحروف العربية ، كما وردت جميع حروف
الأبجدية الألمانية في الأصل

ونظر باستيان إلى اللاعين طويلا وهو صامت ، ثم سأل بصوت منخفض :

— « أرجاكس — أنت تعرف من أنا ، أليس كذلك ؟ »

— « وكيف لا ؟ من لا يعرف اسمك في فانتازين ؟ »

— « قل لى شيئا واحدا . لو أننى أصبحت أمس إمبراطورا . أكنتُ أنا أيضا هنا ؟ »

فأجاب القرد : « اليوم أو غداً ، أو بعد أسبوع ، إنك كنت على كل حال ستجد مكانك هنا قريبا . »

— « لقد أنقذنى أتريو إذن . »

— وقال القرد معترفا : « لا أعرف ذلك »

— « ولو أنه نجح فى أن ينزع منى الجوهرة . فما كان يحدث بعد ذلك ؟ »

وضحك القرد مرة ثانية .

— « يمكن القول — إنك كنت ستأتى هنا أيضا . »

— « لماذا ؟ »

— « لأنك تحتاج إلى أورين لكى تعثر على طريق العودة . ولكن بأمانة أنا لا أعتقد أنك ستفلح فى هذا . »

وصفق القرد بيديه الصغيرتين ، ورفع قبعة حاملى الدكتوراه وابتسم ساخرا .

— « قل يا أرجاكس ، ماذا على أن أفعله ؟ »

— « أن تعثر على أمنية تعيدك إلى عالمك »

وصمت باستيان طويلا مرة أخرى ثم سأل :

— « أرجاكس ، أستطيع أن تقول لى ، كم أمنية يمكن أن تكون لا زالت

عندى ؟ »

— « لم تعد كثيرة . حسب رأى على أقصى تقدير ثلاث أو أربع . ومن الصعب

أن تكون كافية لك . فأنت تبدأ متأخرا قليلا ، وطريق العودة ليس سهلا . فعليك

أن تتخطى بحر الضباب . وهذا وحده يكلفك أمنية . وماذا سيأتى بعد ذلك ،

لا أعرفه ، لا أحد في فانتازين يعرف أين الطريق بالنسبة لأمثالكم المؤدى إلى عالمكم . ربما تعثر على يورزمينرود ، آخر نجدة للبعض مثلك . بالرغم أنى أخشى ، أن يكون هذا بالنسبة لك – فلنقل – بعيد جدا . إنك ستعثر هذه المرة على طريق الخروج من مدينة القياصرة القديمة .

فقال باستيان : « شكرا ، يا أرجاكس ! »
وابتسم القرد الرمادى الصغير بسخرية .

– « إلى اللقاء ، يا باستيان بلتازار بوكس ! »

وبقفزة واحدة كان قد اختفى فى أحد البيوت الجنونية . وقد أخذ معه العمامة . ووقف باستيان برهة من الزمن دون أن يتحرك . إن ما شاهده قد بعث فيه الاضطراب والبلبله لدرجة أنه لم يستطع أن يتخذ قرارا . لقد انهارت جميع أهدافه ومشاريعه السابقة دفعة واحدة . وأحس كما لو كان كل شىء بداخله قد انقلب رأسا على عقب – مثل ذلك الهرم هناك ، وقلب ما هو بأعلى إلى أسفل ، وما هو بالخلف إلى الأمام . وكان ما يأمله هو أن يهلك . وما يكرهه هو إنقاذه .

وفى بادىء الأمر كان هناك شىء واحد فقط واضحاله : لا بد من الخروج من مدينة بيت المجانين هذه . ولم يكن يريد أن يعود إلى هنا ثانية أبدا .

واتخذ طريقه عبر فوضى المباني عديمة المغزى ، وسرعان ما اتضح أن الطريق إلى الداخل أسهل بكثير جدا من طريق الخروج منها . وكان عليه أن يدرك مرارا أنه أخطأ الاتجاه وأنه كان يسرع فى اتجاه وسط المدينة مرة أخرى . وقد استغرق طيلة العصر كله قبل أن ينجح فى الوصول إلى السّد . وبعد ذلك خرج إلى المرج ولم يكف عن الجرى إلى أن أجبره الليل – الحالك تماما كسابقة – على التوقف . وسقط من الإعياء تحت شجيرة عرعر وراح فى سبات عميق . وفى هذا النوم اختفى من ذاكرته أنه كان يستطيع فى الماضى أن يؤلف القصص .

وشاهد خلال الليل كله صورة واحدة فى حلم أمامه لم تكن تريد أن تغادره ولم تكن تتغير كذلك : أترىو بالجرح الدامى بصدره يقف وينظر إليه بلا حركة ولا كلام .

وانتفض باستيان وقد أيقظه دوى الرعد . وكان يحيط به ظلام دامس ، ولكن يبدو أن كتل السحاب كلها التي تجمعت منذ أيام ، قد أتت إلى اضطراب شديد . وتوهج البرق بلا انقطاع ، ودوى الرعد وهدر لدرجة أن الأرض تزلزلت ، وعوت العاصفة فوق المرج وأحنت أشجار العرعر إلى الأرض . وانهمرت الأمطار كالسُتر الرمادية فوق الطبيعة .

ونفض باستيان ووقف وهو ملفوف بمعطفه الأسود ، والماء يسيل على وجهه . وسرى شعاع برق أمامه مباشرة في أحد الأشجار وقلق الجذع كثير التواء ، واشتعل اللهب في الأغصان على الفور ، ودفع الريح أمطارا من الشرر على المرج في وقت الليل ، والتي أطفأها الماء المنهمر على الفور .

وكانت الفرقة الفظيعة قد ألقت باستيان على ركبتيه . وبدأ الآن يحفر الأرض بكلتا يديه ، وعندما أصبحت الحفرة عميقة بما فيه الكفاية ، فك السيف سيكاندا من وسطه ووضعه فيها .

وقال بصوت منخفض وسط عواء العاصفة : «سيكاندا . إنني أفارقك إلى الأبد . لا ينبغي أبدا أن يحدث الشر مرة أخرى من شخص يستلّك ضد صديق . ولا ينبغي لأحد أن يعثر عليك هنا قبل أن ينسى ما حدث بسبيك وبسببي» .

ثم ردم الحفرة ثانية ووضع أخيرا طحالب وأغصان فوق المكان لكيلا يكتشفه أحد . وهناك لا يزال سيكاندا حتى اليوم . لأنه في المستقبل البعيد سيأتى شخص مسموح له لمسه دون خطر - ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تُحكى في مناسبة أخرى .

وابتعد باستيان عبر الظلام .

وخفت حدة الأنواء عند الصباح تقريبا ، وهدأ الريح ، وتقاطر المطر من الأشجار ، وعم السكون . ومع هذه الليلة بدأ لباسيتان تجوال طويل موحش ولم يعد يريد الرجوع إلى رفقاء الطريق والقتال ، ولا إلى كسايدته . وكان يريد الآن البحث عن طريق العودة إلى عالم البشر - ولكنه لم يكن يعرف كيف وأين ؟ أكان هناك باب في مكان ما ، معبر ، حد فاصل يمكن أن يقوده إلى هناك ؟

لقد كان عليه أن يتمناه ، وكان يعرف ذلك . ولكن لم تكن لديه سلطة على ذلك . وكان يشعر بأنه كالفواص الذي يبحث في قاع البحر عن سفينة غارقة ولكنه كان يُدفع دائما إلى أعلى قبل أن يتمكن من العثور على شيء .

وكان يعرف أيضا أنه بقيت له آمنيات قليلة فقط ، ولذلك راعى بعناية ألا يستخدم أورين ولا يجوز له أن يضحى بالذكريات القليلة المتبقية عنده ، إلا عندما يقترب عن طريقها من عالمه ، و فقط عندما يكون الأمر ضروريا جدا .

ولكن الأمانى لا يمكن للمرء أن يبعثها حسب هواه ولا أن يكتمها . فهي تأتي من أعماقنا الأعمق من جميع المقاصد ، مهما كانت هذه طيبة أم سيئة ، وهى تنشأ دون أن يلاحظها أحد .

وتكونت داخل باستيان أمنية جديدة دون أن يلاحظها ، واتخذت شكلا واضحا بالتدريج .

لقد سببت الوحدة التى كان يتجول فيها منذ أيام وليال عديدة ، أنه تمنى الانتهاء إلى جماعة ما ، أن يُقبل فى إحدى المجموعات ، ليس كسيد أو كمنتصر ، أو كإنسان خاص عموما ، بل فقط كفرد بين الآخرين ، ربما كالأصغر أو كالأقل أهمية ، ولكن كواحد منتم إليهم بالطبع ومشارك فى الجماعة .

وحدث فى أحد الأيام أن وصل إلى شاطئ بحر . وعلى كل حال فقد اعتقد ذلك فى بادئ الأمر . لقد كان الذى يقف عليه شاطئاً صخورياً منحدرًا ، وامتد أمام عينيه بحر من الأمواج البيضاء الجامدة . ولم يلاحظ إلا فيما بعد أن هذه الأمواج ليست فى الواقع غير متحركة ، ولكنها تتحرك ببطء شديد ، وأن هناك تيارات ودوامات تدور ، بشكل غير ملحوظ كعقارب الساعة .

لقد كان بحر الضباب !

وتجول باستيان على طول الشاطئ المنحدر . وكان الهواء دافئا ورطبا قليلا ولم تتحرك نسمة من الرياح . وكان الوقت مازال مبكرا من الضحى ، والشمس تسطع على المساحة البيضاء كالثلج الممتدة حتى الأفق .

ومشى باستيان بضع ساعات ووصل في حوالي الظهر إلى مدينة صغيرة تقف على أعمدة عالية هناك في بحر الضباب على بعد يسير من اليابسة . كوبرى طويل معلق في الهواء كان يربطها بجزء بارز من الشاطئ الصخري . واهتز اهتزازا خفيفا عندما تحطاه حينئذ .

وكانت البيوت صغيرة نسبيا ، الأبواب والنوافذ والسلام ، وكل شيء بدا كما لو كان مصنوعا للأطفال . وفعلا كان كل الناس الذين يسرون في الشوارع في حجم الأطفال بالرغم من أنهم كانوا عبارة عن رجال مكتملي النمو ذوى ذقون ، ونساء دوات تسريحات عالية . ومن اللافت أن المرء لم يكن يستطيع أن يفرق بينهم تقريبا ، فقد كان التشابه بينهم كبيرا إلى هذا الحد . وجوههم كانت بلون بني داكن كالتربة المبللة ويبدو عليهم الرقة والهدوء . وعندما رأوا باستيان انحنوا له ولكن لم يكلمه أحد . وبوجه عام يبدو أنهم صموتين جدا ، فلم تُسمع كلمة أو نداء في الشوارع والأزقة إلا نادرا برغم الحركة الدائبة التي كانت سائدة هناك . وكذلك لم يشاهد شخص أبدا بمفرده ، فقد كانوا يسرون دائما في جماعات صغيرة أو كبيرة متأبطين أو ماسكى أيدي بعضهم .

وعندما دقق باستيان النظر أكثر في المنازل ، تأكد أنها جميعا مصنوعة من نوع من جدائل الخوص ، بعضها من نوع أكثر خشونة ، والأخر أكثر رقة ، بل حتى أرضية الشوارع كانت من نفس الخاصية ، وأخيرا لاحظ أيضا أن حتى ملابس الناس ، السراويل والجونلات والسترات والقباب مصنوعة من الجدائل نفسها . ولكن في هذه الحالة من نسيج دقيق جدا وفنى . ومن المرجح أن كل شيء هنا ببساطة كان يصنع من نفس المادة .

واستطاع باستيان أن يلقى نظرة هنا وهناك في ورش صناعات مختلفة . وكان الجميع منهمكين بصناعة أشياء مجدولة ، فكانوا يصنعون أحذية ، جرار ، مصابيح ، فناجيل ، ومظلات - كل شيء من هذه المجدولات . ولم يكن أحد يعمل وحده أبدا ، لأن كل هذه الأشياء لا يمكن صنعها إلا بالتعاون مع العديدين ، وكان باعثا للسرور مشاهدة كيف يعملون سويا بمهارة ، وكيف يكمل الواحد عمل الآخر دائما ، وأثناء ذلك غالبا ما ينشدون لحنا بسيطا بلا كلام .

ولم تكن المدينة كبيرة جدا ، وهكذا وصل باستيان إلى طرفها بسرعة . والمنظر الذى سنح له من هناك أظهر بجلاء أنها مدينة بحارة ، لأن هناك كانت توجد مئات من المراكب لكل شكل وحجم . ولكنها كانت مدينة بحارة غير عادية نوعا ، لأن كل هذه السفن كانت معلقة بسنانير صيد عملاقة وتتدلى فى اهتزاز خفيف واحدة بجوار الأخرى ، فوق العمق الذى تناسب فيه أفواج الضباب البيضاء . وبالنسبة ، فقد بدت هذه المراكب أيضا كلها مصنوعة من جدائل الخوص ، ولم يكن لها أشعة ولا سواري ، ولا مجاديف أو دفات .

وانحنى باستيان من فوق أحد الأسوار ونظر إلى أسفل إلى بحر الضباب . ولم يستطع أن يرى كم ارتفاع الأعمدة التى كانت تقف عليها المدينة من الظلال التى كانت تلقيها فى ضوء الشمس على السطح الأبيض هناك إلى أسفل . وسمع صوتا إلى جواره يقول : « ليلا يصعد الضباب حتى ارتفاع المدينة . حينئذ نستطيع الإبحار . وفى النهار تلتهم الشمس الضباب وينخفض مستوى البحر . هذا ما كنت تريد معرفته أيها الغريب ، أليس كذلك ؟ » .

وكان يقف إلى جوار باستيان ثلاثة رجال مستندين على السور ينظرون إليه برقة وبشاشة ودخل معهم فى حديث وعلم أن هذه المدينة تحمل اسم إسقال أو كانت أيضا تسمى مدينة البوص . وسكانها يسمون الإسقالناريون . والكلمة تعنى تقريبا « الجماعيون » . والثلاثة كانت مهتهم بحارة الضباب . ولم يرغب باستيان فى ذكر اسمه لكيلا يُتعرّف عليه ، وقال انه يدعى « واحد » . وشرح البحارة الثلاثة له أنه ليس لديهم أسماء لكل فرد على حدة وأنهم يعتبرون هذا غير ضرورى بالمرّة أيضا . وأنهم جميعا الإسقالناريون وهذا يكفيهم .

ونظرا لأن ذلك الحين كان وقت الظهيرة فقد دعوا باستيان أن يذهب معهم ، وقبل شاكرا . وجلسوا على مائدة الطعام فى حانة قريبة وأثناء تناول الطعام علم باستيان كل شىء عن مدينة إسقال وسكانها .

بحر الضباب ، الذى كان يدعى عندهم سكايدان ، كان محيطا هائلا من البخار الأبيض الذى يفصل جزئين من فانتازين عن بعضهما ، ولم يبحث أحد بعد فى

مدى عمق سكايدان ، ولا من أين تنبع هذه الأفواج الهائلة من الضباب . صحيح كان في الاستطاعة التنفس تحت الضباب تماما . والسير مسافة فوق قاع البحر ابتداء من الشاطئ حيث يكون الضباب ضحلا نسبيا ، ولكن فقط إذا كان المرء مربوطا بإحكام بحبل يمكن إعادة شده . فقد كانت للضباب خاصية سلب الفرد كل قدرة على تحديد الاتجاه في وقت قصير . كثير من المتجاسرين أو المتهورين لقوا حتفهم بمرور الزمن عند محاولة عبور سكايدان وحدهم على الأقدام . وأمكن إنقاذ قلة فقط . والطريقة الوحيدة للتمكن من الذهاب إلى الجانب الآخر لبحر الضباب ، كانت طريقة الإسقالنارين .

لأن جدائل الخوص التي كانت تتكون منها منازل مدينة إسقال وجميع الأشياء المستخدمة كالملابس وحتى المراكب ، كانت مصنوعة من نوع من الخوص الذي ينمو بالقرب من الشاطئ تحت سطح بحر الضباب ، والذي - مثلما يسهل فهمه مما قيل من قبل - لا يمكن قطعه إلا مع تعريض الحياة للخطر . وهذا الخوص برغم أنه لين للغاية ، بل ومرتخ كذلك في الهواء العادي ، كان يقف منتصبا في الضباب لأنه أخف من هذا ويسبح فوقه . وبالتالي تعوم بالطبع المراكب أيضا المصنوعة منه . الملابس التي كان يرتديها الإسقالناريون ، كانت في نفس الوقت نوعا من طوق النجاة ، في حالة ما إذا توغل أحد في الضباب . ولكن هذا لم يكن هو السر الفعلي للإسقالنارين ، ولم يُفسر بعد سبب الجماعية المميزة التي كانت تحدد جميع أنشطتهم . فكما لاحظ باستيان سريعا ، بدا أنهم لا يعرفون الكلمة الصغيرة «أنا» . وعلى كل حال لم يستخدموها أبدا ، ولكنهم يتكلمون دائما ب «نحن» فقط . وقد اكتشف فيما بعد ، من أين جاء ذلك .

وعندما استنتج من أحاديث بحارة الضباب الثلاثة أنهم سوف يبحرون هذه الليلة فقط ، سأهم ، إذا لم يكن في إمكانهم أن يؤجروه كصبي بحار . وشرحوا له أن رحلة على سكايدان تختلف اختلافا هائلا عن كل رحلة بحرية أخرى لأن المرء لا يمكنه أن يعرف أبداً كم سيطول السفر وإلى أين سيصل المرء في النهاية . وقال باستيان إن هذا يناسبه تماما وهكذا وافق البحارة أن يأخذوه معهم على المركب .

ومع حلول الليل بدأ الضباب يصعد كما هو متوقع ، ووصل في حوالى منتصف الليل إلى ارتفاع مدينة البوص . وحينئذ كانت فوق السطح الأبيض كل المراكب التى كانت من قبل متدلّية فى الهواء . والمركب التى كان عليها باستيان – وكان زورقا مسطحا طوله حوالى ثلاثون مترا – فُكَّت حباله وانساب بهوادة إلى اتساع بحر الضباب المظلم .

وتساءل باستيان عند النظرة الأولى ، بأية قوة دافعة يتحرك هذا النوع من المراكب ، حيث إنه لم يكن هناك لا شراع ولا مجداف ولا رفاص سفينة . وكما علم ، فإن الأشربة لم تكن ستفيد ، لأن سكون الريح يكاد يكون هو الغالب دائما فوق سكايدان ، وبالمجاديف أو رفاصات السفينة لم يكن من المستطاع بحق السير فوق الضباب . القوة التى كانت تحرك المركب كانت مختلفة تماما .

ففى وسط السطح كانت هناك مساحة مستديرة مرتفعة قليلا ، وكان باستيان قد لاحظها من البداية واعتبرها مركزا للقيادة أو ما شابه ذلك . وبالفعل وقف أثناء الرحلة كلها على الأقل اثنان من بحارة الضباب هناك بأعلى ، وأحيانا أيضا ثلاثة ، أربعة أو أكثر . (وكان عدد الطاقم كله أربعة عشر رجلا – بدون باستيان طبعا) . والذين كانوا على المساحة المستديرة كانوا يضعون أذرعهم حول أكتاف بعض وينظرون فى اتجاه السير . وإذا لم ينظر المرء بدقة شديدة ، لأمكن أن يعتقد أنهم يقفون بلا حراك . ولكن مع المراقبة الواعية أمكن ملاحظة أنهم كانوا يتميلون ببطء شديد وبتوافق تام فيما يشبه الرقص . وأثناء ذلك ينشدون لحنا بسيطا يتكرر على الدوام . وكان جميلا جدا وحالما .

واعتقد باستيان فى بادئ الأمر أن هذا السلوك مراسم خاصة أو عادة قد خفى عنه مغزاها . ولكنه فى اليوم الثالث من الرحلة سأل أحد أصدقائه الثلاثة ، الذى جلس إلى جواره وقد بدا بدوره متعجبا من دهشة باستيان وشرح له أن الرجال يدفعون المركب بقوة تصورهم .

ولم يستطع باستيان فهم هذا التفسير فى أول الأمر وسأل إذا كانوا يحركون أية دواليب خفية .

فأجاب بحار الضباب : « لا ، إذا أردت أن تحرك رجلك ، فيكيفك أيضا أن تتصور ذلك - أم أنه يتحتم عليك أن تشغل رجلك عن طريق دوالب ؟ » .

والفارق بين الجسد الخاص والمركب يتمثل فقط في أن اثنين من الإسقالنارين على الأقل يجب أن يجعلوا قوة تصورهم واحدة تماما . لأنه فقط عن طريق هذا التوحيد تنشأ قوة الحركة . وإذا أرادوا أن يزيدوا من سرعة السير فيتحتم على العديد منهم أن يتكاتفوا . وعادة ما كانوا يعملون في دوريات بكل منها ثلاثة ، والآخرين يستريحون ، لأن هذا - وإن بدا سهلا جدا وجذابا ، كان عملا شاقا ومرهقا يتطلب تركيزا كبيرا ومتواصلا ، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة لكيفية التمكن من الإبحار في سكايدان .

وتتلمذ باستيان لدى بحارة الضباب وتعلم سر جماعتهم : الرقص والغناء بلا كلمات .

وأثناء رحلة العبور الطويلة أصبح بالتدريج واحدا منهم . لقد كان إحساسا فريدا تماما لا يمكن وصفه من نكران الذات والتوافق ، عندما كان يشعر أثناء الرقص كيف تذوب قوة تصوره الذاتية مع قوة تصور الآخرين وتتحد إلى شيء كامل . وأحس فعلا أنه قبل في جماعتهم وبانتمائه إليهم - وفي نفس الوقت اختفى من ذاكرته تذكّره أن في العالم الذي أتى منه ، والذي يبحث الآن طريق عودته إليه ، كان يوجد بشر ، بشر لهم جميعا تصوراتهم وآرائهم الخاصة . والشيء الوحيد الذي كان لا يزال يتذكره تذكرا ضعيفا ، كان منزله والديه .

ولكن في العمق في قرار قلبه كانت تحمى أمنية أخرى غير ألا يكون وحيدا ! وهذه الأمنية الأخرى بدأت تتحرك الآن بشكل خافت

وحدث هذا في يوم أن لاحظ لأول مرة أن الإسقالنارين لم يحققوا جماعتهم عن طريق توفيق طرق مختلفة النوع تماما للتصور ، ولكن لأنهم كانوا يشبهون بعضهم كلية لدرجة أن الإحساس بالجماعية لم يكن يكلف أي مجهود . وعلى العكس فلم تكن هناك أية إمكانية للنزاع أو الاختلاف مع بعض ، فلم يكن أحد يشعر بفرديته . ولم يكن عليهم أن يتغلبوا على المتناقضات ليجدوا التوافق فيما بينهم ، وعلم المجهود

هذا بدا لباستيان غير باعث على الرضا شيئا فشيئا . وبدت له رقتهم ممله ، واللحن المتماثل لأغانيهم رتيباً . وأحس أن شيئا ينقصه في كل هذا ، أنه يشناق إلى شيء ، ولكنه لم يستطع أن يقول ما هو .

ولم يتضح ذلك له إلا عندما شوهد بعد ذلك بوقت قليل غراب ضباب عملاق في السماء . وانتاب الخوف جميع الإسقالنارين واختبأوا تحت سطح المركب بأسرع ما يستطيعون ولكن واحد لم ينجح في الوقت المناسب ، وهبط الطائر الهائل صارخا وأمسك بالشخص التعس وحمله بمنقاره بعيدا .

وعندما زال الخطر ظهر الإسقالناريون مرة أخرى وواصلوا الرحلة بالغناء والرقص كما لو لم يكن قد حدث شيئا . ولم يعطل توافقهم ، ولم يجزنوا ولم يشكوا ، ولم يعلقوا بكلمة واحدة على الحادث .

وقال واحد عندما سأله باستيان لذلك : « كلا ، لم ننقص أحدا . علام نشكو؟ » فالفرد لم يكن له حساب عندهم . ولأنهم لم يكونوا مختلفين ، فلم يكن أحداً لا يعوض ، ولكن باستيان كان يريد أن يكون فردا ، شخصا ما ، ليس مجرد واحد مثل كل الآخرين ، وكان يريد أن يُحِب بالذات من أجل أنه كان على ما هو عليه . وفي جماعة الإسقالنارين هذه كان هناك توافق ، ولكن لم يكن هناك حب .

ولم يعد يريد أن يكون الأعظم أو الأقوى أو الأذكى . كل ذلك خلفه من ورائه . لقد اشتاق إلى أن يُحِب كما هو ، حسن أوردىء ، جميل أوقبيح ، ذكى أو غبى ، بكل نقائصه - أو بالذات من أجلها .

ولكن ما هي كفيته ؟

إنه لم يعد يعرف ذلك . لقد حصل على أشياء كثيرة جدا في فانتازين ، والآن فهو لا يستطيع أن يعثر على نفسه مرة أخرى من بين كل المواهب والقوى .

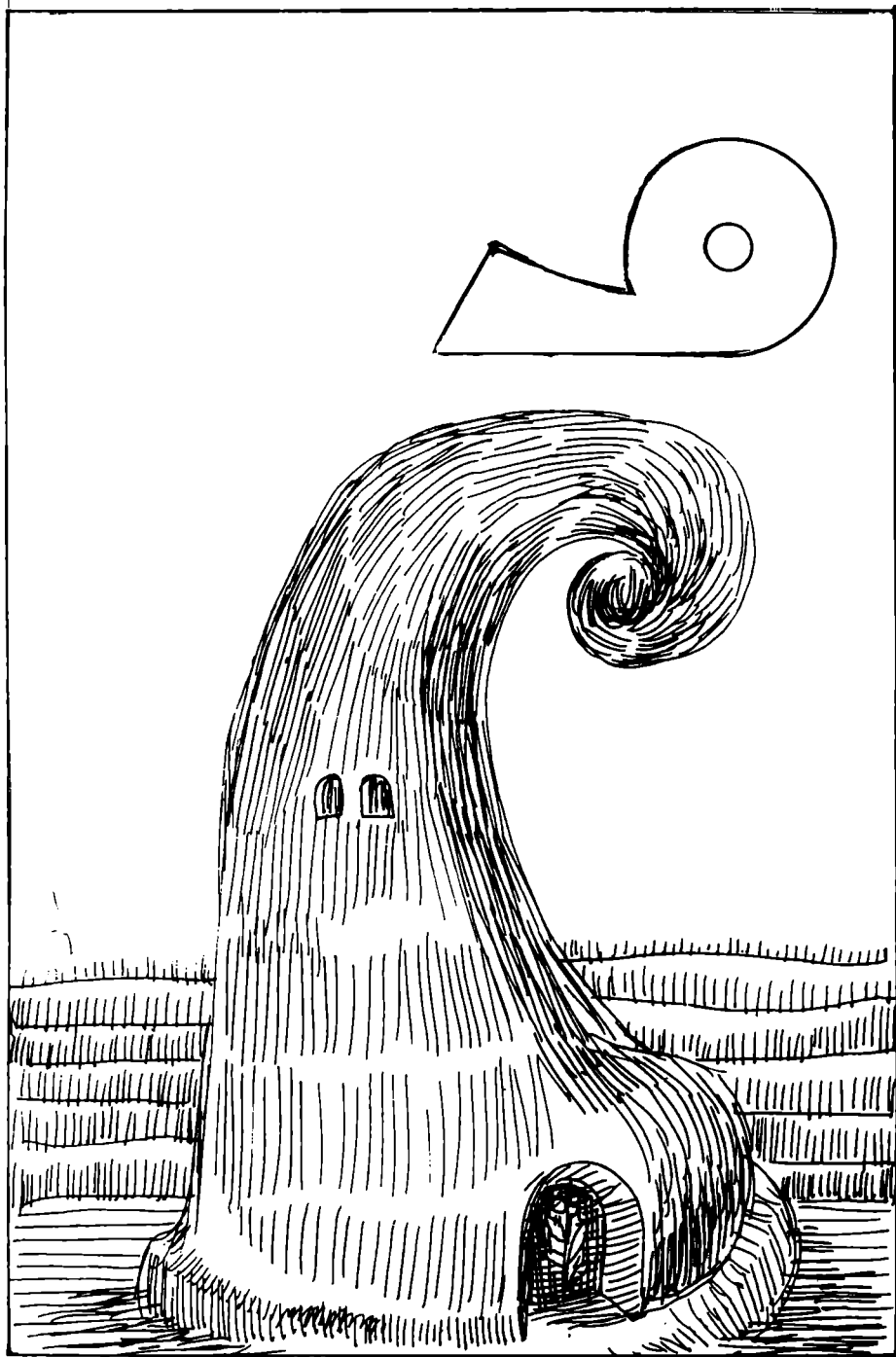
وابتداء من ذلك الوقت لم يعد يشترك في رقص بحارة الضباب . وجلس إلى الأمام تماما في مقدمة المركب ينظر عبر سكايدان طوال نهار الأيام كلها وأحيانا طوال الليالي أيضا .

وأخيرا تم الوصول إلى الشاطئ الآخر ، ورسا مركب الضباب ، وقدم
باستيان شكره للإسقالنارين وسار إلى اليابسه .

وكانت أرضا مليئة بالورود ، وغابات من الورود بجميع الألوان . وفي وسط
هذا المنحدر اللانهائي من الورود امتد ممر متعرج .

وسار باستيان متابعا له .

٢٤
السيدة أيووياً



ملیئة بالمتناقضات ، وصعبة على الإدراك ككثیر من أمثالها فی فانتازین تمت بسرعة حکایة نهاية كسایدة . وحتى یومنا هذا ینك العلماء والمؤرخون فكرهم فی كیفیة إمكان هذا ، بل ویشكك البعض فی الحقائق ومحاولون أن یعطوها تفسیرا آخر . وسوف ینجر هنا عما حدث بالفعل ، ولكل فرد أن یحاول تفسیر الأمور على قدر ما یمستطیع .

ففی نفس الوقت الذی وصل فیة باستیان فعلا إلى بحارة الضباب فی مدینة إسقال ، وصلت كسایدة بعمالقتها السود إلى الموضع من المرج حیث إنهار الحصان المعدن من تحت باستیان إلى قطع . وأحست فی هذه اللحظة أنها لن تعثر علیه مرة أخرى . وعندما رأت السد بعد ذلك وآثار باستیان تمتد إلى أعلاه ، أصبح هذا الإحساس مؤكدا . وإذا كان قد وصل إلى مدینة القیاصرة القدیمة ، فلقد ضاع بالنسبة لمشاریعها ، سواء أنه سیمقی هناك إلى الأبد أو ینجح فی الهروب من المدینة . وفی الحالة الأولى یمكن أن یكون قد أصبح بلا نفوذ كالجَمیع هناك ولم یعد یمستطیع التمنی . وفی الحالة الأخرى تكون جمیع أمنیات السلطة والعظمة قد انمحت فیة . وفی كلتا الحالتین فان اللعبة بالنسبة لها ، لكسایدة ، قد انتهت .

وأمرت عمالقتها المدرعین بالوقوف ولكنهم لم ینصاعوا لإرادتها بلا سبب مفهوم ولكنهم استمروا فی المسیر . فغضبت ، وقفزت من هودجها ووقفت فی مواجعتهم وهی فاردة ذراعیها . ولكن العمالقة المدرعون ، المشاة والفرسان ، واصلوا دبیهم بأقدامهم كما لو لم تكن موجودة ودهسوها تحت الأقدام والحوافر . وعندما لفظت كسایدة أنفاسها توقف الموكب الطویل كله فجأة كزنبك ساعة قد فرغ .

وعندما جاء بعد ذلك هيزبالد وهيدورن وهيكريون مع بقايا الجيش ، رأوا ما حدث هنا ولم يستطيعوا أن يستوعبوه ، لأن إرادة كسايدة وحدها هي التي كانت تحرك العمالقة المدرعين وهي كذلك التي جعلتهم يدوسونها بأقدامهم . ولكن لم تكن القوة الخاصة للسادة الثلاثة تتمثل في التفكر والتدبر ، لذا فقد هزوا أكتافهم في نهاية الأمر ولم يستمروا في متابعته . وتشاوروا فيما يمكن عمله الآن وتوصلوا إلى النتيجة بأن الموكب على ما يبدو قد وصل إلى نهايته . وهكذا سرحوا الجيش المتبقى وأوصوا كل فرد بالذهاب إلى بيته . وهم أنفسهم ، الذين أقسموا قسم الإخلاص لباستيان ولم يكونوا يريدون أن ينقضوه ، قرروا أن يبحثوا عنه في كل فانتازين . ولكنهم لم يستطيعوا الاتفاق على الاتجاه الذي ينبغي إتخاذه ، ولذلك قرروا أن يواصل كل واحد مسيرته على مسؤوليته الخاصة . وودعوا بعضهم ، ومشى كل منهم يعرج متخذاً اتجاهها مختلفاً . وعایش الثلاثة كلهم مغامرات كثيرة ، وتوجد في فانتازين أبناء لا تحصى تدور حول بحثهم عديم المغزى . ولكن هذه قصص أخرى ولسوف نُحكى في مناسبة أخرى .

ولكن العمالقة المعدنيون السود المفرغون وقفوا منذ ذلك الوقت بلا حركة في الموضع من المرج بالقرب من مدينة القياصرة القديمة . ونزل عليهم المطر والثلج ، وصدتوا وانغمسوا شيئاً فشيئاً بميل أو باستقامة في تربة الأرض . ولكن حتى اليوم مازال يُرى العديد منهم . ويُعتبر المكان ملعونا ، وكل جائل يتجنبه في دائرة بعيدة من حوله ، ولكن فلنعد الآن إلى باستيان .

وبينما هوفي طريقه خلال منحدر الورد يتابع الانحناءات الناعمة للممر ، شاهد شيئاً أدهشه ، لأنه لم يشاهد شيئاً مماثلاً أبداً على طريقه كله خلال فانتازين ، وهي لوحة إرشادية بيد منحوته في الخشب تشير إلى اتجاه

مكتوب عليها : « إلى بيت التغيير . »

وتابع باستيان الاتجاه المبين بلا تعجل . واستنشق عير الورد التي لا تحصى ، وأحس بسرور متزايد ، كما لو كانت في انتظاره مفاجأة سارة .

وأخيراً أتى إلى طريق مستقيم على جانبه أشجار مستديرة كالكرة مُحملة بتفاح

أحمر الخدين . وفي نهاية الطريق تماما ظهر بيت . وعند اقترابه منه اتضح لباستيان أنه ربما يكون أكثر بيت رآه من قبل باعنا على الضحك ، سقف مدبب عال يقبع كالطرطور فوق مبنى يشبه بالأحرى ثمرة قرع عملاقة ، لأنه كان مستديرا والجدران لها في مواضع كثيرة بروزات وانبعاجات ، كالبطون البدينة تقريبا ، وهذا مما أعطى البيت منظرا مرحرحا ومرحيا . وكانت هناك أيضا عدة نوافذ وباب للمنزل ، وكل شيء مائل ومقوس ، كما لو كانت هذه الفتحات قد قطعت في ثمرة القرع بطريقة غير ماهرة قليلا .

وبينا كان باستيان يسير متجها إلى المنزل ، لاحظ أنه في تغير دائب بطيء . وبما يشبه الهدوء الذي نُحْرِجُ به القوقعة قرون استشعارها ، فقد تكوّن على جانبه الأيمن بروز صغير ، أصبح بالتدرج برجا جانبيا صغيرا . وفي نفس الوقت انقفلت نافذة على الجانب الأيسر واختفت شيئا فشيئا . وبرزت مدخنة من السطح ، وتكوّنت فوق باب البيت شرفة صغيرة لها تعاريج درابزين .

وتوقف باستيان وراقب التغير المستمر بدهشة وتمعن . واتضح له الآن ، لماذا يحمل هذا البيت اسم « بيت التغير » .

وبينما هو لا يزال واقفا سمع من الداخل صوتا نسائيا دافئا جميلا يغنى ويقول :

« منذ مائة سنة ،

في انتظارك أيها الضيف العزيز .

ولأنك وجدت الطريق إلى هنا

فأنت بالتأكيد هو .

كل شيء لك في إعداد وتجهيز

لاسكات الجموع والظما

وكل ما تبحث عنه وكل ما أردته

تجده بعد كل ما عانيته

حتى السلوى والأمان .

وكيفما تكون فأنت هكذا صالح

سواء كنت طيبا أو أنت طالح

لأنك أتيت من بعيد المكان . »

وفكر باستيان : « آخ ، ياله من صوت جميل . كم أود أن تكون هذه الأغنية تقصدني ! »

وبدأ الصوت يغنى من جديد :

مكتبة

t.me/t_pdf

« أيها السيد الكبير ، كن صغيرا ثانية !

كن طفلا وتعال . ادخل عندنا !

بالباب وقوفك لا تطيل

مرحبا وأهلا بك ها هنا !

كل شيء ، لك مُعدّ عندنا

منذ وقت طويل . . . »

وأحدث الصوت على باستيان قوة جاذبية لا تقاوم . وكان متأكدا أن الذى يغنى شخص لطيف جدا . ولذلك طرق الباب ، وصاح الصوت :

« أدخل ، أدخل ، يا ولدى الجميل ! »

وفتح الباب ورأى حجرة مريحة ليست كبيرة جدا ، تدخلها أشعة الشمس من نافذتها . وفي وسطها كانت مائدة مستديرة معدة بشتى أنواع الصحاف والسلال المليئة بالثمار المختلفة التى لم يكن باستيان يعرفها . وعند المائدة جلست سيدة كانت هى نفسها تبدو قليلا كالتفاحة حمراء ومستديرة الوجنتين ، سليمة الصحة وشهية .

وفي أول وهلة كادت تتغلب على باستيان الرغبة فى أن يجرى إليها فاردا ذراعيه ويصبح قائلا : « ماما ! ماما ! » ولكنه تمالك . فأمه ميتة ، ومن المؤكد تماما أنها لم تكن هنا فى فانتازين . فصحيح أن لهذه السيدة نفس الإبتسامة المحببة ، ونفس الطريقة الباعثة على الثقة فى النظر إلى الشخص ، ولكن الشبه كان على أقصى تقدير شبيها بأخت لها . فأمه كانت صغيرة الحجم ، والسيدة هنا كانت ضخمة ومهيبية الطلعة بشكل ما . وكانت ترتدى قبعة عريضة مملوءة فى كل مكان منها بالزهور والثمار ، وكذلك رداؤها كان من قماش متعدد الألوان منقوشا بالزهور . ولكنه بعد أن تطلع إليه برهة من الزمن ، لاحظ أنه مصنوع فى الحقيقة أيضا من الأوراق

وبينما هو واقف هكذا وينظر إليها اعتراه احساس لم يعرفه منذ وقت طويل جدا . ولم يستطع أن يتذكر متى وأين ، ولكنه عرف فقط أنه شعر بهذا الإحساس أحيانا عندما ما كان لا يزال صغيرا .

وقالت السيدة وهي تشير إلى كرسى بحركة داعية من يدها : « اجلس يا ولدى الجميل . من المؤكد أنك جوعان ، ولذلك كل أولا ! »

فرد باستيان : « معذرة ، إنك تنتظرين ضيفا ، ولكنني هنا بالصدفة المحضة . »

فسألت السيدة وهي تبسم ابتسامة بسيطة : « حقا ؟ ولكن لا بأس . ولهذا السبب يمكنك أن تأكل بالرغم من هذا ، أليس كذلك ؟ وفي هذه الأثناء أحكى لك قصة صغيرة ، مد يدك ولا تجعلني أطيل عليك الرجاء ! »

وخلع باستيان معطفة الأسود ووضعه فوق الكرسى ، وجلس ومد يده مترددا إلى إحدى الثمار . وقبل أن يقضمها ، استفسر قائلا :

— « وأنت ؟ ألا تأكلين شيئا ؟ أم أنك لا تحبين الفاكهة ؟ »

وضحكت السيدة بصوت عال وبحرارة ، ولم يدر باستيان على ماذا .

وقالت بعد أن تماكنت : « حسن ، إذا ما صممت على ذلك ، فإنني أريد أن أونسك وأتناول شيئا أيضا ، ولكن بطريقتي . فلا تفرع . »

ثم مدت يدها إلى رشاشة لسقى النبات كانت بجوارها على الأرض ، ووضعتها فوق رأسها وصبت الماء على نفسها .

وصاحت : « آه ، إن هذا لمنعش ! »

والآن باستيان هو الذى ضحك . ثم قضم الثمرة ، وتأكد على الفور أنه لم يأكل شيئا بهذه الطيبة من قبل أبدا ، وبعد ذلك أكل واحدة أخرى ، وكانت هذه أحسن أيضا وسألت السيدة التى كانت تراقبه بانتباه : « أيعجبك طعمها ؟ »

وكان فم باستيان ممتلئا ولم يستطع الإجابة ، ومضغ وهز رأسه بالإيجاب .
وقالت السيدة : « هذا يسعدنى . لقد بذلت فى ذلك جهدا خاصا أيضا .
لا تبال وكل على قدر ما تحب ! »

ومد باستيان يده إلى ثمرة جديدة ، وكانت هذه احتفالا كاملا . وتنهى
مأخوذا ، واستطردت السيدة قائلة : « والآن أريد أن أحكى لك . ولكن لا تتعطل
عن الطعام . » واضطر باستيان أن يبذل جهدا لسماع كلامها ، لأن كل ثمرة جديدة
كانت تسبب له سعادة جديدة .

وبدأت السيدة المزدانة بالزهور : « منذ وقت طويل ، طويل ، كانت
إمبراطوريتنا الطفولية مريضة مرض الموت ، لأنها كانت فى حاجة إلى أسم جديد ، لم
يكن غير طفل من البشر يستطيع منحها إياه . ولكن البشر لم يعودوا يجيئون إلى
فانتازين ، ولا أحد عرف لماذا . وإذا تحتم عليها أن تموت ، لكان هذا أيضا هو نهاية
فانتازين . ففى يوم من الأيام ، وبمعنى أفضل ، فى ليلة من الليالى جاء بشر مرة ثانية
- وكان صبيا صغيرا ، ومنح الإمبراطورة الطفولية اسم طفلة الأقمار . وأصبحت
معاوية الصحة مرة أخرى ، وامتنانا له وعدت الصبى بأن جميع أمنياته فى مملكتها
ستصبح حقيقة - طالما أنه كان يعثر على إرادته الحقيقية . وابتداء من ذلك الوقت قام
الصبى الصغير برحلة طويلة من أمنية إلى أخرى ، وكل منها تحقق . وكل تحقيق أدى
إلى أمنية جديدة ولم تكن فقط أمنيات طيبة ، ولكن أيضا سيئة ، ولكن الإمبراطورة
الطفولية لم تكن تفرق ، كل شىء كان بالنسبة لها مساويا ، وكل شىء متساويا فى
أهميته فى مملكتها . وحتى عندما دُمر أخيرا برج العاج لم تفعل شيئا لكى تمنع ذلك .
ولكن مع كل تحقيق لأمنية كان الصبى الصغير ينسى جزءا من تذكره للعالم الذى جاء
منه . وهذا لم يكن له أهمية عنده ، لأنه على شتى الحالات لم يكن يريد العودة إلى
هناك . وهكذا استمر فى التمنى ، ولكنه الآن كاد أن ينفق جميع ذكرياته ، وبدون
ذكريات لا يمكن للمرء أن يتمنى المزيد . حينئذ كاد ألا يكون بشرا ، بل كاد أن
يصبح من أهل فانتازين . وكان لا يزال لا يعرف إرادته الحقيقية . وحينئذ نشأت
خطورة أن يستهلك أيضا آخر ذكرياته دون أن يدركها . وهذا سيعنى أنه لن يتمكن
أبدا من العودة إلى عالمه . فإذا بطريقه يقوده أخيرا إلى بيت التغيير ، لكى يبقى هنا

إلى أن يعثر على إرادته الحقيقية . لأن بيت التغيير لا يسمى هكذا لأنه هو نفسه يتغير فقط ، ولكن لأنه أيضا يغير ذلك الذى يسكن فيه . وكان هذا مهما جدا للصبي الصغير ، لأنه حتى ذلك الوقت كان يريد دائما أن يكون شخصا آخر غير ما كان . ولكنه لم يرد أن يغير نفسه .

وعند هذا الموضوع توقفت لأن زائرها كان قد كف من المضغ . وأمسك بيده ثمرة كان قد بدأ فى قضمها ، وحلق فى السيدة المزدانة بالزهور فاغراً فاه . فقالت بقلق : « إذا لم يكن طعامها يعجبك ، فضعها بعيدا ولا تبال ، وخذ واحدة أخرى ! »

فتلثم باستيان قائلا : « نعم ؟ أوه كلاً ، إنها طيبة جدا . »

فقالَت السيدة وهى مسرورة : « إذن كل شىء على ما يرام . ولكننى نسيت أن أقول ماهو اسم الصبي الصغير الذى طال انتظاره فى بيت التغيير . كثيرون فى فانتازين كانوا يسمونه فقط « المنقذ » وآخرون « فارس الشمعدان ذى السبعة أذرع » أو « العارف العظيم » أو أيضا « السيد والأمر » ، ولكن اسمه الحقيقى كان باستيان بلتازار بوكس . »

بعد ذلك نظرت السيدة إلى ضيفها طويلا وهى تبتسم . وابتلع عدة مرات ثم قال بصوت منخفض : « هذا اسمى . »

فقالَت السيدة ولم يبد عليها أية بادرة من الدهشة : « ألم أقل لك ! » وفجأة تفتحت جميع البراعم على قبعتها وردائها فى نفس الوقت وازدهرت . واعترض باستيان مترددا : « ولكننى لست فى فانتازين منذ مائة عام بأى حال من الأحوال . »

فردت السيدة : « أوه ، فى الحقيقة نحن ننتظر منذ وقت أطول بكثير ، فإن جدتى وجدة جدتى كن فى انتظارك . أترى ، الآن تُحكى لك قصة ، جديدة وبالرغم من ذلك فهى تتحدث عن ماضٍ قديم جدا . »

وتذكر باستيان كلمات جرأ وجرمان . في ذلك الوقت عندما كان في بداية رحلته . والآن تبدوله فعلا كما لو كانت منذ مائة عام .

- «وبالمناسبة . أنا لم أقل لك حتى الآن ما اسمي . أنا السيدة أيولا» .

وكرر باستيان الاسم ولاقى قليلا من العناء إلى أن نجح في نطقه نطقاً صحيحاً . ثم مد يده إلى ثمرة جديدة وقضمها ، وشعر كما لو أن تلك التي يأكلها في الحين هي أفضل الجميع مذاقا . ورأى بقلق قليل أنه أكل فعلا الثمرة قبل الأخيرة .

وسألت السيدة أيولا التي لاحظت نظرته : «هل تود المزيد؟» وهز باستيان رأسه بالإيجاب . فمدت يدها إلى قبعتها وردائها وقطفت ثمارا ، إلى أن امتلأ الوعاء .

واستفسر باستيان وهو مشدوه : «أتنمو الثمار على قبعتك؟»

ف نظرت إليه أيولا غير فاهمة : «قبة ماذا؟» ثم انفجرت في ضحك عال من القلب .

«آخ ، أتقصد أن هذه قبعتي التي على رأسي ؟ كلا ، يا ولدي الجميل ، إن كل شيء ينمو في داخلي . مثلما الشعر لديك . ويمكنك أن ترى كم أنا سعيدة بوجودك هنا أخيرا ، ولذلك فإنني أزدهر . وإذا كنت حزينة فإن كل شيء يذبل . ولكن تفضل لا تنس الأكل!» .

فقال باستيان في حرج : «لست أدري ، إن المرء لا يستطيع أن يأكل شيئا يخرج من شخص ما» .

فسألت السيدة أيولا : «ولم لا ؟ إن الأطفال الصغار يحصلون على اللبن أيضا من أمهاتهم . وهذا شيء رائع» .

فقال باستيان معترضا وقد احمر وجهه قليلا : «صحيح ، ولكن فقط طالما هم لا يزالون صغارا جدا» .

فقالت السيدة أيولا متهللة : «إذن فسوف تصبح الآن صغيرا جدا مرة ثانية ، يا ولدي الجميل» .

ومد باستيان يده وقضم ثمرة جديدة ، وفرحت السيدة أيولا لذلك وازداد ازدهارها بهاءً . وبعد فترة صمت قالت : «يبدولى ، انه من المحبب جدا أن نتقل إلى الغرفة المجاورة . من المرجح أنه أعد لك شيئا» .

فسأل باستيان وهو ينظر من حوله : «من ؟» .

فشرحت السيدة أيولا بيديها قائلة : «بيت التغيير» . وبالفعل فقد حدث شيء غريب . فقد تغيرت الغرفة دون أن يلحظ باستيان شيئا من ذلك . فلقد انزلت سقف الغرفة إلى أعلى بينما اقتربت الجدران من المائدة اقترابا شديدا نسبيا من ثلاثة جوانب . وعلى الجانب الرابع كان لا يزال هناك مكان ، ونشأ هناك باب كان مفتوحا حينئذ .

ونفضت السيدة أيولا – وشوهد الآن ، كم كان حجمها كبيرا – واقترحت قائلة :

«فلنذهب ! فهو عنيد . ولا فائده من مقاومته إذا كان قد أعد مفاجأة . فلندع له إرادته . فقصدته غالبا ما يكون حسن فوق ذلك» .

ومشت من خلال الباب إلى المكان المجاور . وتبعها باستيان ، ولكنه أخذ معه لأجل الحرص صحيفة الثمار .

الغرفة كانت كبيرة كالقاعة ، ولكنها كانت غرفة للطعام ، وقد بدت مألوفة لباستيان بشكل ما .

والغريب كان فقط أن جميع قطع الأثاث الموجودة هناك ، وحتى المائدة والكراسى كانت عملاقة ، أكبر بكثير من أن يستطيع باستيان الوصول إليها .

وقالت السيدة أيولا مبتهجة : «انظر إلى هذا ! دائما يخطر على بال بيت التغيير شيء جديد . لقد صنع لك الآن غرفة مثلها يجب أن تبدو لطفل صغير» .

فسأل باستيان : «كيف هذا ؟ ألم تكن القاعة هنا من قبل ؟» .

فأجابت : «بالطبع لا . هل تعلم أن بيت التغيير نشيط جدا . إنه يجب أن يشترك بطريقته في حديثنا . أعتقد أنه يريد بذلك أن يقول لك شيئا» .

ثم جلست على كرسى عند المائدة ، ولكن باستيان حاول بدون جدوى أن يصل إلى أعلى كرسى آخر . وكان على السيدة أيولا أن تساعدته وأن ترفعه ، ثم وصل بالكاد بأنفه فوق سطح المائدة . وكان سعيدا جدا أن أخذ صحيفة الثمار معه ، واحتفظ بها على حجره . فإن كانت فوق المائدة لما كان الوصول إليها ممكنا بالنسبة له .

وسأل قائلا : «هل لابد لك أن تنتقل كثيرا ؟» .

فأجابت السيدة أيولا : «ليس كثيرا ، ثلاث أو أربع مرات على الأكثر يوميا . وأحيانا ما يمزح بيت التغيير مع المرء فقط ، وتكون جميع الغرف معكوسة فجأة ، الأرضية إلى أعلى والسقف إلى أسفل أو ما شابه ذلك . ولكن هذا مجنون محض ، وسرعان ما يعود إلى التعقل عندما أؤنبه . وفي الواقع هو بيت ظريف جدا وأنا أشعر بالراحة التامة فيه . ولدينا الكثير مما نضحك عليه سويا» .

واستفسر باستيان قائلا : «ولكن ليس هذا خطيرا ، أقصد ليلا مثلا والمرء نائم وعندما يتزايد صغر حجم الغرفة ؟» .

فصاحت السيدة أيولا وهي تكاد تكون غاضبة : «إلى أين يقودك فكرك ، يا ولدى الجميل ؟ إنه يجنني ويجبك أيضا ، وهو سعيد بك» .

- «وإذا ما لم يكن يجب شخصا ؟» .

فردت قائلة : «لست أدري ، ويا لها من أسئلة تطرحها ، حتى الآن لم يكن أحد هنا غيري وغيرك» .

فقال باستيان : «أهكذا ! إذن أنا أول ضيف ؟» .

- «طبعاً» .

ونظر باستيان حوله في الغرفة الضخمة .

- «إن المرء لم يكن ليعتقد أن هذه الغرفة ستجد متسعاً لها داخل المنزل على الإطلاق . فمنظره من الخارج ليس بهذا الحجم» .

فقالت السيدة أيولا مفسرة : «بيت التغيير من الداخل أكبر من الخارج» .

وفي تلك الأثناء كان الغسق قد حل وازداد الظلام في الغرفة شيئا فشيئا . واتكأ باستيان بظهره على الكرسي الكبير وأسند رأسه . وشعر بالنعاس بطريقة عجيبة .
وسأل قائلا : «لماذا انتظرتيني لهذه الفترة الطويلة يا سيدة أيولا ؟» .

فأجابت : «لقد كنت دائما أتمنى لنفسى طفلا ، صغيرا يجوز لى أن أدله ، ويحتاج إلى حنانى ، ويمكننى القيام على رعايته - شخصا مثلك ، يا ولدى الجميل» .
وتشاءب باستيان وأحس بأن صوتها الدافئ قد هدده للنوم بشكل لا يقاوم .
ورد قائلا : «ولكنك قلت ، أن أمك أيضا وجدّتك قد انتظرنى» .

والآن كان وجه السيدة أيولا فى الظلام .
وسمعها تقول : «نعم ، أمى أيضا وجدّتى رغبين فى طفل . ولكننى فقط عندى الآن واحد» . وأطبق النوم جفونه فجأة . وسأل بعناء :

- «كيف هذا ، إن أمك كان لديها أنت عندما كنت صغيرة . وجدتك كان عندها أمك . لقد كان عندهن إذن أطفال ؟» .

فأجاب الصوت خافتا : «لا ، يا ولدى الجميل . الأمر عندنا مختلف . إننا لا نموت ولا نولد . نحن دائما نفس السيدة أيولا ، وبالرغم من ذلك لسنا هذه كذلك . فعندما تقدمت والدتى فى السن جفت وسقطت عنها كل الأوراق مثل حال شجرة فى الشتاء ، وانزوت فى بعضها تماما . وبقيت على هذا الحال وقتا طويلا . ولكنها بعد ذلك بدأت تنبت يوما ما أوراقا صغيرة شابة من جديد ، وبراعم وأزهارا وأخيرا ثمارا . وهكذا نشأت أنا ، لأن هذه السيدة الجديدة أيولا كانت أنا . ونفس الشيء كان مع جدتى عندما أتت بوالدتى إلى الدنيا . نحن سيدات أيولا لا يمكن أن يكون لدينا طفلا إلا إذا ما أصابنا الذبول قبلها . ولكن حينئذ نكون نحن طفلنا الخاص ولا نستطيع أن نكون أمهات ولذلك فأنا سعيدة جدا ، أنك الآن هنا ، يا ولدى الجميل . . .» .

ولم يعد باستيان يجيب . فلقد انتقل إلى نعاس لذيذ سمع فيه كلامها كترنيم .
وسمعها وهى تقف وتتقدم إليه وتنحنى عليه . وملست بحنان على شعره وقبلته على

جبهته . ثم شعر وهي ترفعه عاليا وتحمله إلى الخارج على ذراعها ، وارتكن برأسه على كتفها كطفل صغير . وغطس بعمق متزايد على الدوام في ظلام دافئ من النوم . وشعر كما لو كانت ملابسه قد خلعت عنه ووضعت في فراش وثير عطر . وسمع كأخر شيء - من بُعد شاسع - كيف غنى الصوت العذب خافتا أغنية صغيرة :

«نم يا حبيبي ! تصبح على خير !

فأنت قاسيت الكثير

أيها السيد الكبير كن صغيرا ثانيا !

نم يا حبيبي ، نم هانئا !»

وعندما استيقظ في الصباح التالي أحس براحة وسرور لم يشعر بمثلها من قبل أبدا . ونظر حوله ورأى أنه يرقد في غرفة مريحة جدا وصغيرة - ألا وهو سرير أطفال صغير . ولكنه كان سرير أطفال صغير ذا حجم كبير جدا أو بالأحرى ، لقد كان مثلما يجب أن يبدو لطفل صغير . وبدا له الأمر للحظة من الزمن مضحكا ، لأنه من المؤكد تماما لم يعد طفلا صغيرا . فكل ما منحه له فانتازين من قوة ومواهب كان لا يزال في حوزته . وكذلك علامة الإمبراطورة الطفولية ما زالت تتدلى من حول رقبتة مثل ذى قبل . ولكن في اللحظة التالية كان الأمر بالنسبة له سيان تماما ، إذا ما بدا له رقوقه هنا الآن مضحكا أم لا .

فلن يعرف الأمر أحد غيره والسيدة أيوولا أبدا ، وكلاهما كانا يعرفان أن كل شيء حسن وصحيح . ونهض واغتسل وارتدى ملابسه وخرج . وكان عليه أن ينزل سلما خشبيا ، وأتى إلى غرفة طعام كبيرة كانت قد تحولت أثناء الليل إلى مضجع . وكانت السيدة أيوولا تنتظره بطعام الإفطار . وهي أيضا كانت في حالة نفسية جيدة للغاية ، وجميع زهورها كانت يانعة ، وكانت تغنى وتضحك وكذلك رقصت معه حول منضدة المطبخ . وبعد تناول الطعام أرسلته إلى الخارج لكي يأتي إلى الهواء المنعش .

وكان يبدو أن صيفا أبديا يسود منحدر الورود الواسع الذي يحيط ببيت التغيير . وتجول باستيان بلا هدف ، وراقب النحل الذي كان يتلذذ بغذائه في الأزهار بلا كلل . ويستمتع إلى الطيور ، التي تغرد في الأحراش ، ويلعب مع السحالي التي

كانت آمنة جدا لدرجة أنها كانت تزحف على يديه ، ومع الأرانب التي تركته يملس عليها . وأحيانا ما كان يستلقى تحت مجموعة نباتات ويشم العطر العذب للورود ، وينظر بعينين نصف مفتوحتين إلى الشمس ، ويترك الوقت يمر كخزير جدول دون أن يفكر في أى شىء معين .

وهكذا مرت أيام ، ومن الأيام أصبحت أسابيع . ولم يهتم بذلك . وكانت السيدة أيوولا مرحة وترك باستيان نفسه بالكامل لأوموتها في الرعاية والحنان . وكان يشعر دون أن يدري ، كما لو أنه كان يشناق منذ وقت طويل إلى شىء حصل عليه الآن بوفرة . وكاد ألا يستطيع أن يشبع منه .

وفتش فترة من الزمن بيت التغيير من السطح إلى القبو . ولقد كان هذا عملا لا يبعث على الملل بعد فترة قريبة جدا . لأن جميع الغرف كانت في تغير دائم وكان هناك دائما شيئا جديدا يكتشف . وعلى ما يبدو أن البيت كان يجتهد كل الإجهاد ليسلى ضيفه . فكان ينتج غرفا للعب ، وقطارات ومسرحاً للعرائس ، والزلاجات ، وحتى أيضا أراجيح دائرة كبيرة .

وأحيانا ما كان باستيان يقوم بجولات تستغرق اليوم كله في الأماكن المحيطة . ولكنه لم يكن يبتعد أبدا كثيرا عن بيت التغيير ، لأنه عادة ما كان يحدث أن ينتابه فجأة جوع شديد حقيقى إلى ثمار أيوولا . ولم يكن يستطيع الانتظار تقريبا من اللحظة إلى الأخرى ليعود إليها وأن يأكل على هواه إلى أن يشبع .

وفي المساء كثيرا ما كانا يُجريان أحاديث طويلة مع بعضهما . وحكى لها عن كل شىء عايشه في فانتازين ، عن بيريلين وجرأوجرمان ، عن كسايده وأتريو الذى جرحه جرحا بالغا وحتى قتله .

وقال : «لقد فعلت كل شىء خطأ . لقد أسأت فهم كل شىء . أهدتني طفلة الأقمار أشياء كثيرة جدا ، وأنا لم أفعل بها غير الشر بالنسبة لى وفانتازين» . ونظرت إليه السيدة أيوولا طويلا .

وردت قائلة : «لا ، لا أعتقد ذلك ، لقد مشيت في طريق الأمانى ، وهو غير مستقيم أبدا . لقد سرت طريقا لافا طويلا . ولكنه كان طريقك . أتعرف لماذا؟

أنت تنتمي إلى هؤلاء الذين لا يستطيعون العودة إلا عندما يعثرون على العين التي تنبع منها ماء الحياة . وهذه هي أكثر أماكن فانتازين غموضا . فلا يوجد طريق سهل إلى هناك .

وبعد فترة صمت صغيرة أضاف قائلة :

- « كل طريق يؤدي إلى هناك ، كان في النهاية هو الطريق الصحيح » .

وعندئذ اضطرب باستيان فجأة إلى البكاء . وهو نفسه لم يعرف لماذا فقد شعر كما لو أن عقدة في قلبه قد فُكَّت وتخلَّلت إلى دموع . وبكى متنجبا واستمر في النحيب ولم يستطع التوقف . فأخذته السيدة أيوولا على حِجرها وملَّست عليه بحنان ودفن وجهه في الزهور على صدرها وبكى إلى أن شبع تماما وتعب .

وفي هذا المساء لم يُجريا مزيدا من الحديث .

وفي اليوم التالي أتى باستيان باحثا عن الحديث مرة أخرى :

- « أتعرفين أين يمكنني العثور على ماء الحياة ؟ » .

فقالت السيدة أيوولا : « على حدود فانتازين » .

فرد قائلا : « ولكن فانتازين ليس لها حدود » .

- « بلى ، ولكنها لا تقع بالخارج ، بل في الداخل . هناك من حيث تتلقى

الإمبراطورة الطفولية كل سلطتها ، وإلى حيث لا تستطيع هي نفسها المجيء » .

فسأل باستيان وهو مهموم : « وأنا سأعثر على الطريق إلى هناك ؟ ألم يفث

الأوان فعلا ؟ » .

- « توجد أمنية واحدة فقط تعثر بها على الطريق إلى هناك : بالأمنية الأخيرة » .

وفُزع باستيان .

- « سيدة أيوولا - في مقابل جميع أمنياتي التي تحققت عن طريق أورين ،

نسيت شيئا . أهكذا الحال هنا أيضا ؟ » .

وهزت رأسها بالإيجاب ببطء .

- « ولكنني لا ألاحظ من ذلك شيئا على الإطلاق ! » .

- « وهل لاحظته في المرات الأخرى ؟ إن ما نسيت لا يمكنك أن تعرفه بعد

ذلك » .

- « وماذا سأنساه الآن ؟ » .
- « سأقوله لك عندما تحين اللحظة المناسبة . وإلا سوف تتشبث به » .
- « هل لا بد لي أن أفقد كل شيء ؟ » .
- فقالت : « لا شيء يُفقد ، كل شيء يتغير » .
- فقال باستيان بقلقى : « إذن ربما يجب عليّ أن أتعجل . ولا يجوز لي البقاء هنا » .
- وملست على شعره .
- « لا تشغل بالك . سيستغرق وقتها يستغرق . فعندما تستيقظ أمنتك الأخيرة ، فسوف تعرف - وأنا أيضا » .

وفعلاً بدأ منذ ذلك اليوم شيء يتغير بالرغم من أن باستيان نفسه لم يلحظ من ذلك شيئاً . فقوة التحول لبيت التغيير أحدثت تأثيرها . ولكنه مثله كمثل جميع التغييرات الحقيقية حدث خافتاً وثيداً كنمو النبات .

ومرت الأيام في بيت التغيير ومازال الصيف مستمراً . واستمر باستيان أيضاً يتمتع بتدليل السيدة أيوولا كالطفل . وكذلك ثمارها ما زال يستطعم حلاوتها كالبداية ، ولكن نهمه أشبع شيئاً فشيئاً . فكان يأكل منها أقل ، ولاحظت ذلك دون أن تعلق عليه بكلمة . وبنفس قدر قلة حاجته إليها ، استيقظ فيه اشتياق من نوع آخر تماماً ، رغبة لم يشعر بها أبداً حتى ذلك الوقت . وتختلف في كل ناحية عن جميع أمنيائه السابقة : الاشتياق إلى أن يستطيع هو نفسه أن يجب . وأدرك بالتعجب والأسى أنه لا يستطيع ذلك . ولكن أمنيته في ذلك أصبحت أقوى وأقوى .

وفي إحدى الأمسيات عندما جلسا سوياً مرة أخرى ، تحدث عن ذلك مع السيدة أيوولا . وبعد أن استمعت إليه صمتت طويلاً . وتركز بصرها على باستيان بتعبير لم يفهمه .

وقالت : « لقد عثرت الآن على أمنتك الأخيرة ، إن إرادتك الحقيقية هي أن تجب » .

- « ولكن لماذا لا أستطيع ذلك يا سيدة أيوولا ؟ » .

فأجابت : « ستستطيع ذلك فقط عندما تشرب من ماء الحياة . ولن تستطيع العودة إلى عالمك دون أن تأخذ معك شيئاً منها للآخرين » .

وصمت باستيان في ارتباك . وسأل قائلاً : « ولكن أنت ؟ ألم تشرب شيئاً منه أيضاً ؟ » .

فقالت السيدة أيوولا : « لا ، فالأمر عندي شيء مختلف . إنني أحتاج فقط إلى شخص أمنحه من وفرق » .

- « ألم يكن هذا جيباً ؟ » .

وفكرت السيدة أيوولا برهة ثم أجابت :

- « لقد كان ما تمنيته أنت لنفسك » .

فسأل بقلق : « ألا تستطيع الكائنات الفانتازية أن تحب أيضاً مثلي ؟ » .

فردت بصوت خافت : « ذلك يعني أن هناك البعض القليل من مخلوقات فانتازين الذين جاز لهم أن يشربوا من ماء الحياة . ولكن لا أحد يعرف من هم . وهناك نبوءة نادراً ما نتحدث عنها فقط ، أنه مرة في المستقبل البعيد سيأتي وقت يجلب فيه البشر الحب أيضاً إلى فانتازين . حينئذ سيصبح كلا العالمين عالماً واحداً فقط ، ولكنني لا أعرف ماذا يعني ذلك » .

فسأل باستيان بصوت خافت كذلك : « سيدة أيوولا ، لقد وعدتيني ، عندما تحين اللحظة المناسبة ، ستقولين لي ، ما لا بد أن أنساه لكي أعر على أمنيته الأخيرة . هل اللحظة المناسبة قد حانت الآن ؟ » .

وهزت رأسها بالإيجاب .

- « لا بد أن تنسى أباك وأمك . الآن لم يعد لديك غير اسمك » .
وتفكر باستيان .

وقال ببطء : « أبى وأمي ؟ » ولكن لم يعد للكلمات معنى لديه . إنه لم يستطع التذكر . فسأل قائلاً : « ماذا على أأفعله الآن ؟ » .

فردت : « لا بد أن تتركني ، فقد انقضى زمانك في بيت التغيير » .

- « وإلى أين أذهب ؟ » .

- « أمنيتك الأخيرة ستقودك . لا تفقدها ! » .

- « هل أذهب الآن فوراً ؟ » .

- « لا ، الوقت متأخر . غدا مبكرا عند طلوع النهار . فمازالت لديك ليلة في بيت التغيير . والآن نريد الذهاب إلى النوم » .

ونفض باستيان وتقدم إليها . الآن فقط ، عندما كان قريبا منها ، لاحظ في الظلام أن جميع زهورها قد ذبلت .

وقالت : « لا تشغل بالك بهذا . وكذلك غدا باكرا عليك ألا تشغل بالك بي . سر في طريقك . فكل شيء حسن وصحيح هكذا . تصبح على خير يا ولدي الحميل » . ثم صعد إلى غرفته .

وعندما نزل في اليوم التالي رأى أن السيدة أيولا لا زالت تجلس على نفس المكان . وقد سقطت عنها جميع الأوراق والزهور والثمار . وقد أغمضت عينيها ، وبدت كشجرة سوداء ميتة . ووقف باستيان طويلاً أمامها ينظر إليها . وفجأة انفتح باب يؤدي إلى الخلاء .

وقبل أن يمشى إلى الخارج ، التفت وراءه مرة أخرى وقال دون أن يدري إذا كان يقصد السيدة أيولا أو البيت أو كليهما : « شكراً ، شكراً ، على كل شيء ! » .

ثم خطا إلى الخارج عبر الباب . وكان الشتاء قد حل أثناء الليل . والثلج يصل إلى الركبة . ولم يتبق من منحدر الورود المزدهر إلا شجيرات شوك سوداء . ولم تكن أى ربيع تتحرك . وكان الجو قارص البرودة وشديد السكون .

وأراد باستيان الرجوع إلى البيت لكي يحضر معطفه ، ولكن الأبواب والنوافذ كانت قد اختفت . وقد انسد من جميع الجهات . ومضى إلى سبيله وهو يرتعد من البرد .

٢٥
مجمع الطور



نصت يور ، عامل المنجم الضرير الواقف أمام كوخه ، إلى المدى البعيد من المساحة المغطاة بالثلج الممتدة إلى جميع الجهات . وكان السكون تاماً لدرجة أن أذنه الحساسة قد سمعت خطوات تخشخش في الثلج لجائلي لا يزال بعيداً جداً . ولكن الخطوات كانت آتية ناحية المنجم .

يور كان رجلاً ضخماً عجوزاً ، ولكن وجهه غير ملتحم وبلا تجاعيد . وكل شيء عليه ، رداؤه ووجهه وشعره كان رمادياً كالحجر . وقد بدا وهو يقف هناك بلا حراك كما لو كان منحوتاً من قطعة كبيرة من صخور الجِلم . عيناه الضريرتان فقط كانتا داكنتين وفي عمقها بريق كبريق شعلة صغيرة من اللهب .

وعندما اقترب باستيان - فقد كان هو الجائل - قال :

- « طاب يومك . لقد ضللت طريقى . إننى أبحث عن العين التي تنبع منها ماء الحياة . أتستطيع مساعدتى ؟ » .

واستمع عامل المنجم إلى الصوت المتكلم .

وهمس قائلاً : « إنك لم تضل الطريق ، ولكن تكلم بصوت منخفض وإلاً تفككت صوري » .

وأشار إلى باستيان ودخل هذا وراءه إلى الكوخ .

وكان يتكوّن من غرفة واحدة صغيرة موثثة أثاثاً بسيطاً وغاية في الفقر . منضدة خشبية كرسيان ومضجع خشبي للنوم وإطار من الألواح حُفظت فيه شتى أنواع المواد الغذائية والأواني . وفي موقد مكشوف كانت تشتعل نار صغيرة معلق فوقها قدر تتصاعد منه أبخرة من حساء .

وغرف يور ملء طبقين لنفسه ولباستيان ووضعهما في المنضدة ودعا الضيف بحركة من يده للطعام . وتناولوا وجبتها صامتين .

ثم ارتكن عامل المنجم ، وتخللت نظرات عينيه باستيان إلى بعد شاسع ، وسأل هامسا :

- « من أنت ؟ »
- « أنا أدعى باستيان بلتازار بوكس » .
- « آه ، إذن لا زلت تعرف اسمك » .
- « نعم ، ومن أنت ؟ » .
- « أنا يور ، الذى يسمى عامل المنجم الضرير . ولكننى لست ضريراً إلا فى النور . وتحت الأرض فى منجمى ، حيث يسود ظلام تام ، أستطيع أن أرى » .
- « أى منجم هذا ؟ » .
- « اسمه منجم مينرود . إنه منجم الصور » .
- وكرر ذلك باستيان متعجبا : « منجم الصور ؟ إني لم أسمع بمثل ذلك أبدا » .
- وبدا أن يور كان ينصت بلا انقطاع إلى شىء ما .
- وهمس قائلاً : « ولكنه موجود بالذات لأشخاص مثلك ، للبشر الذين لا يستطيعون العثور على الطريق إلى ماء الحياة » .
- وقال باستيان راغبا فى المعرفة : « أية صور هى ؟ » .

وأغمض يور عينيه وصمت برهة . ولم يعرف باستيان إذا كان عليه أن يكرر سؤاله . ثم سمع عامل المنجم وهو يهمس : « لا شىء يُفقد فى العالم . هل حلمت مرة بشىء ، وعند استيقاظك لم تعد تعرف ما كان ذلك ؟ » .

فأجاب باستيان : « نعم ، كثيرا » .

وهز يور رأسه وهو مفعم الفكر . ثم نهض وأشار لباستيان أن يتبعه . وقبل أن يخرج من الكوخ أمسكه بقبضة شديدة من كتفه وهمس فى أذنه :

- « لكن ولا كلمة ، ولا صوت ، مفهوم ؟ ما سوف تراه هو عملى لسنين

كثيرة . وكل صوت يمكن أن يحطمه . ولذلك أسكت وتقدم بصوت منخفض ! » .

باستيان هز رأسه بالإيجاب ؛ وغادر الكوخ . وكان مُقاما من ورائه برج للنقل ومن تحته بئر يؤدي رأسيا إلى عمق الأرض . وخرجا مارين به إلى متسع المساحة الثلجية ، وحينئذ رأى باستيان الصور الموجودة هناك كالمحاطة بالحريز ، كما لو كانت جواهر ثمينة .

وكانت عبارة عن ألواح رقيقة جدا من نوع من الرخام الشفاف ، والملون بجميع الأشكال والأحجام ، مستطيلة ومستديرة ؛ كهيئة المكسورة والسليمة ، بعضها ضخم كنوافذ الكنائس وأخرى صغيرة كالرسومات الصغيرة على إحدى العلب . وكانت مرتبة تقريبا حسب الحجم والشكل ، في صفوف تمتد إلى أفق السهل الأبيض .

وما تُمثله هذه الصور كان غامضا . فقد كانت هناك أشكالا مُلثمة يبدو أنها تطير في عش كبير لأحد الطيور . أو حمير ترتدى أثواب القضاة ، كانت هناك ساعات تسيح كالجبين الطرى ، أو دُمى ذات أعضاء متحركة تقف في ميادين مُبهرة الإضاءة وخالية من الناس . وكانت هناك وجوها ورؤوسا تتركب كلية من الحيوانات ، وأخرى تكوّن منظرا طبيعيا . ولكن كانت هناك أيضا صورا عادية تماما ، رجال يصدون حقا للحبوب ، ونساء يجلسن في إحدى الشرفات . وكانت توجد قرى جبلية ومناظر بحرية ، مشاهد حربية وعروض للسيرك ، شوارع وحجرات ، ووجوه مرارا وتكرار ، عجوزة وشابة ، حكيمة وساذجة ، مهرجون وملوك ، عابسون ومرحون . وكانت هناك صورا مرعبة ، مشاهد إعدام ورقصات الموت ، وصورا مضحكة لسيدات شابات فوق عجل البحر ، أو لأنف يتمشى ويحييه جميع المارة .

وكلما طال تجولهما بمحاذاة الصور ، قلت استطاعة باستيان من تحليل ما تعنيه . شيء واحد فقط كان واضحا له ؛ فقد كان يمكن رؤية كل شيء عليها ، وإن كان غالبا في تركيب غريب .

وبعد ما مر إلى جوار يور بصفوف الألواح لساعات كثيرة ، أسدل الغسق فوق المساحة الشاسعة المغطاة بالثلج . وعادا إلى الكوخ . وعندما أغلقا الباب من

ورائهما . سأل يور بصوت خافت : « هل كانت من ضمنها واحدة تعرفت عليها ؟ »

- فرد باستيان : « لا » .

وهز عامل الجبل رأسه مفكرا .

فقال باستيان راغبا في المعرفة : « لماذا ؟ أية صور هذه ؟ » .

فقال يور مفسرا : « إنها الأحلام المنسية من عالم البشر . الحلم لا يمكن أن يصبح لا شيئا عندما يحلم مرة . ولكن إذا لم يحفظه الإنسان الذى حلمه - فأين يبقى إذن ؟ هنا عندنا فى فانتازين ، هناك إلى أسفل فى العمق تحت الأرض . هناك تُخترن الأحلام المنسية فى طبقات دقيقة جدا ؛ طبقة فوق الأخرى . وكلما حفر المرء إلى أسفل أكثر عمقا ازدادت كثافتها . فانتازين كلها تقف فوق أساسات من الأحلام المنسية » .

فسأل باستيان بدهشة : « وهل أحلامي من ضمنها ؟ » .

وهز يور رأسه فقط .

وواصل باستيان استفساره : « ومن رأيك أنه يجب على العثور عليها ؟ » .

فأجاب يور : « واحد على الأقل ، واحد يكفى » .

فقال باستيان راغبا فى المعرفة : « ولكن لماذا ؟ » .

واتجه عامل المنجم إليه بوجهه الذى لم يكن ينيره الآن غير شعاع النار الصغير بالموقد . ونظرت عيناه الضريرتان مرة أخرى من خلال باستيان كما لو كانت تنظر إلى بعدٍ شاسع .

وقال : « اسمع يا باستيان بلبتازارا بوكس . إننى لا أحب أن أتكلم كثيرا .

فالسكون أفضل عندى . ولكننى هذه المرة سأقولها لك . أنت تبحث عن ماء الحياة وتود أن تستطيع أن تحب لكى تعثر على طريق العودة إلى عالمك . الحب - هكذا تُقال الكلمة ! ماء الحياة ستسألك : « تحب من ؟ فلا يستطيع المرء أن يجيب ببساطة بأى شكل وبوجه عام . ولكنك نسيت كل شيء ما عدا اسمك . وإذا لم تستطع

الإجابة ، فلن يُسمح لك بالشرب ولذلك لا يستطيع مساعدتك سوى حلم منسى ، تعثر عليه مرة أخرى ، صورة تقودك إلى العين ولكنك في مقابل ذلك لا بد أن تنسى آخر شيء لا يزال عندك : أنت نفسك . وهذا يعنى عملا قاسيا وصبورا . احفظ كلامى جيدا ، لأننى لن أتفوه به مرة ثانية أبدا .

وبعد ذلك استلقى فوق مضجعه الخشبي وراح فى النوم . ولم يبق لباستيان شيء آخر سوى أن يقنع بالأرض الباردة مخدعا له . ولكن هذا لم يكن له أهمية عنده .

وعندما استيقظ فى الصباح التالى وأجزاء جسمه متصلبة ، كان يور قد انصرف فعلا . ربما كان قد نزل إلى المنجم مينرود . وأخذ باستيان بنفسه صحنا من الحساء الساخن الذى يبعث فيه الدفء ولكن لم يرقه طعمه بشكل خاص . فقد ذكرته ملوحته قليلا بطعم الدموع والعرق .

ثم مشى إلى الخارج وتجول خلال ثلج السهل الواسع مارا بالصور التى لا تحصى . وتأمل واحدة بعد الأخرى باهتمام ، لأنه الآن كان يعرف ما يرتبط بها بالنسبة له ، ولكنه لم يستطع اكتشاف واحدة تمس مشاعره بأى شكل . فقد كانت كلها عديمة الأهمية تماما عنده .

وفى المساء تقريبا رأى يور وهو يصعد من بئر المنجم فى أحد صناديق النقل . وكان يحمل على ظهره فى قفص خشبي بضعة ألواح مختلفة الأحجام من الرخام الرقيق جدا . ورافقه باستيان صامتا وهو يخرج مرة أخرى إلى بعيد إلى السهل وهو يضع مكتشفاته الجديدة بأعظم الحرص محاطة بالثلج الناعم فى نهاية أحد الصفوف . إحدى الصور كانت تبين رجلا صدره قفص طيور تجلس بداخله حامتان . وأخرى تبين امرأة حجرية تركيب على سلحفاة كبيرة . صورة صغيرة جدا لم تُظهر إلا فراشة تبين أجنحتها بقعا على شكل حروف . وكانت هناك صورا أخرى ولكن ولا واحدة كانت لها أية دلالة عند باستيان .

وعندما جلس مرة أخرى مع عامل المنجم فى الكهف ، سأل قائلا :

— « ماذا يحدث للصور إذا ما ذاب الثلج ؟ »

فرد يور : « هنا شتاء دائم . »

وكان هذا هو كل حديثهم في هذا المساء .

وواصل باستيان بحثه أثناء الأيام التالية عن صورة من بين الصور يتعرف عليها ثانية أو على الأقل يكون لها مدلول خاص لديه - ولكن بلا جدوى . وفي المساء جلس مع عامل المنجم ، ولأن هذا كان صامتا تعود باستيان أيضا على أن يصمت . وحتى الطريقة الحريصة في التحرك لكيلا يحدث صوتا يمكنه أن يجعل الصور تتفكك ، اتخذها عن يور شيئا فشيئا .

وقال باستيان في إحدى الأمسيات : « ماذا أفعل ؟ وهل أنتظر الجديدة التي ستخرجها ؟ » وفكر يور برهة ثم هز رأسه بالنفي .

وهمس قائلا : « لو كنت مكانك لزلت بنفسى إلى منجم مينرود ونقبت في نهايته . »

فقال باستيان : « ولكن ليس لى عيناك ، أنا لا أستطيع أن أرى في الظلام . »

وسأل يور ونظر مرة أخرى من خلال باستيان : « ألم تُمنح أى ضوء في رحلتك الطويلة ؟ أى حجر مضيء ، أى شيء مطلقا يمكنه الآن أن يساعدك ؟ »

فأجاب باستيان حزينا : « بلى ، ولكننى استخدمت التساهير فى شيء آخر . »

فقال يور مكررا بوجه متحجر : « أمر سيء . »

فقال باستيان راغبا فى المعرفة : « بم تنصحنى ؟ »

وصمت عامل المنجم طويلا مرة أخرى قبل أن يجيب :

« إذن عليك أن تعمل فى الظلام . »

وانتابت باستيان رعدة . فصحيح لازالت عنده كل القوة وعدم الخوف التى منحهما له أورين ، ولكن عند تصوره لوجوده بالعمق السحيق هناك فى باطن الأرض فى ظلام تام ، تحول النخاع فى عظامه إلى جليد . ولم يقل شيئا آخر ، وخلد كلاهما إلى النوم .

وفى الصباح التالى هزه عامل المنجم من كتفه .

وانتصب باستيان .

فأمره يور باقتضاب : « تناول حساءك وتعال ! »

وفعل باستيان ذلك .

وتبع عامل المنجم إلى البئر ، وصعد معه سويًا المركبة الناقلة . ثم نزل إلى منجم مينرود . ونزل إلى أعمق وأعمق . وكان آخر شعاع ضوء ضئيل يأتي من فتحة البئر ، قد اختفى ، واستمرت الناقلة في الهبوط إلى أسفل في الظلام . وأخيرا بينت رجة أنهما وصلا إلى القاع . ونزلا .

وكانت الحرارة هناك بأسفل أكثر دفئا بكثير عن فوق في السهل الشتوى ، وبعد فترة قصيرة تصبب العرق من كل جسم باستيان ، بينما هو يجتهد ألا يفقد عامل المنجم الذى يسير مسرعا أمامه في الظلام . وكان طريقا متعرجا عبر ممرات ودروب لا تحصى وأحيانا أيضا قاعات ، كما أمكن استنتاج ذلك من الصدى الخافت لخطواتها . واصطدم باستيان بألم مرات عديدة ببروزات ودعامات خشبية ، ولكن يور لم يعبا بذلك .

وفي اليوم الأول هذا وفي البضعة أيام التالية أيضا علمه عامل المنجم فى صمت بأن اقتاد يدي باستيان فقط ، فن فصل طبقات الرخام الدقيقة الرقيقة جدا عن بعضها ورفعها بحذر . وكانت هناك أدوات لذلك كانت تُحس كمحارات خشبية أو عظمية ، فهو لم يرها أبدا ، لأنها كانت تظل فى موقع العمل عندما ينتهى شغل اليوم .

شيئا فشيئا تعلم أن يدبر أمره فى الظلام التام هناك بأسفل . فقد تعرف على الممرات والسراديب بحاسة جديدة لم يستطع تفسيرها . وفى يوم من الأيام أمره يور بدون كلام عن طريق اللمس بيديه فقط ، أن يعمل ابتداء من الآن وحده فى سرداب منخفض لا يستطيع المرء الدخول فيه إلا زحفا . وأطاع باستيان . وفى نهايته كان ضيقا جدا ، ومن فوقه قبع الثقل الجبل للصخر العتيق .

ورقد متكورا كالطفل الذى لم يولد فى بطن أمه ، فى الأعماق المظلمة لأساسات فانتازين ونقب فى صبر عن حلم منسى ، عن صورة يمكنها أن تقوده إلى ماء الحياة .

ونظرا لأنه لم يكن يستطيع أن يرى شيئا فى الليل الأبدى لباطن الأرض ، فلم يستطع أيضا أن يتخذ اختيارا ولا قرارا . وكان عليه أن يأمل فى أن الصدفة وأن قدرا

رحيما سيبلغه في وقت ما إلى الاكتشاف الصحيح . مساء بعد الآخر كان يجلب إلى الضوء الزائل للنهار بأعلى ، ما استطاع أن يخلصه في أعماق منجم مينرود . ومساء بعد الآخر كان عمله بلا طائل . ولكن باستيان لم يشك ولم يتبرم فلقد فقد كل الإشفاق على نفسه . وأصبح صابرا وهادئا . وبالرغم من أن قواه لم تكن تنضب ، فكثيرا ما أحس بالتعب الشديد .

ولم يكن ممكنا القول كم سيستمر هذا الوقت العصيب ، لأن مثل هذا العمل لا يمكن قياسه بالأيام أو الشهور . وعلى كل حال فقد حدث في إحدى الأمسيات أن جلب معه صورة هيجت مشاعره على الفور جدا لدرجة أنه اضطر أن يتمالك كيلا يطلق صوتا تعبيريا عن المفاجأة ويحطم بذلك كل شيء .

وعلى اللوح الرخامي الرقيق - ولم يكن كبيرا جدا ، وكان له حجم إحدى صفحات الكتاب العادية تقريبا - كان يُرى بوضوح وبجلاء شديد رجل يرتدى معظفا أبيض . ويحمل في إحدى يديه طاقم أسنان من الجبس . وكان يقف هناك وقد أثارت وقفته والتعبير المهموم في وجهه الشفقة في قلب باستيان . ولكن أكثر ما أثار فيه أن الرجل كان متجمدا في كتلة جليد لها نقاوة الرخام . فقد كانت تحيط به كلية ومن جميع الجوانب طبقة جليد لا يمكن اختراقها ولكنها شفافة تماما .

وبينما كان باستيان يتأمل الصورة الموجودة أمامه في الثلج ، استيقظ فيه اشتياق إلى هذا الرجل الذي لم يعرفه . لقد كان شعورا كالأق من بُعد كبير ، كالفيضان العارم في البحر الذي لا يلاحظ في بداية الأمر تقريبا إلى أن يقترب أكثر وأكثر ، ويصبح في النهاية موجة هائلة في ارتفاع المنزل تجرف كل شيء معها وتقذف به بعيدا . وكاد باستيان أن يفرق فيها وجاهد من أجل تنسم الهواء . وآله قلبه ، فلم يكن كبيرا بما يكفي مثل هذا الاشتياق الهائل . وفي موجة المد هذه غرق كل ما كان يمتلكه من تذكر لنفسه . ولشيء آخر ما كان لديه : وهو اسمه الخاص .

وعندما أتى فيما بعد إلى يور في الكوخ ، صمت . وكذلك عامل المنجم لم يقل شيئا ولكنه نظر ناحيته طويلا ، بينما بدت عيناه مرة أخرى كما لو كانت تنظر إلى بُعد كبير ، ثم ارتسمت لأول مرة في كل هذا الوقت ابتسامة قصيرة على ملامحه الرمادية بلون الحجر .

وفي تلك الليلة لم يستطع الصبي ، الذي لم يعد له الآن اسم ، أن ينام برغم كل التعب . فقد كان يرى الصورة أمامه بلا انقطاع . وكان يشعر كما لو أن الرجل يريد أن يقول له شيئا ولكنه لم يكن يستطيع لأنه كان مسجوناً في كتلة الجليد . وكان الصبي عديم الاسم يريد أن يساعده ، كان يريد أن يجعل هذا الجليد يذوب . ورأى نفسه فيما يشبه حلم اليقظة وهو يحتضن كتلة الجليد لكي يذيبه بحرارة جسمه . ولكن كل شيء كان عديم الجدوى .

ولكنه سمع فجأة ما كان يريد الرجل أن يقوله له ، ولم يسمعه بأذنيه ولكن عميقاً في قلبه الخاص :

— « أرجوك ساعدني ! لا تخذلني ! إنني لن أخرج وحدي من هذا الجليد . ساعدني ! أنت فقط تستطيع أن تخلصني . أنت فقط ! »
وعندما نهضا في الصباح التالي عند بزوغ النهار ، قال الصبي عديم الاسم ليور :

« إنني لن أنزل اليوم معك إلى منجم مينرود . »

— « أتريد أن تتركني ؟ »

فهز الصبي رأسه بالإيجاب : « أريد الذهاب والبحث عن ماء الحياة . »

— « هل عثرت على الصورة التي سترشدك ؟ »

— « نعم . »

— « أتريد أن تريها لي ؟ »

وهز الصبي رأسه بالإيجاب مرة أخرى . وذهب كلاهما إلى الثلج بالخارج ، حيث كانت الصورة ، ونظر الصبي إليها ، ولكن يور وجهه عينيه الضريرتين إلى وجه الصبي ، كما لو كان ينظر من خلاله إلى بُعد كبير ، وكان يبدو أنه ينصت طويلاً إلى شيء ما . وأخيراً هز رأسه .

وهمس قائلاً : « خذها معك ، ولا تفقدها . إذا ما فقدتها أو حطمتها ، فكل شيء ينتهي بالنسبة لك . لأنه لن يتبقى لك شيء حينئذ في فانتازين . أنت تعرف عنى هذا . »

الصبي الذي لم يعد له اسم ، وقف منكس الرأس وصمت برهة من الزمن .

ثم قال بصوت منخفض كذلك :
— «شكرالك ، يور ، على ما علمتني له .»
وتصافحا .

وهمس يور : « لقد كنت عامل منجم جيد ، واشتغلت باجتهد .»
وبذلك انصرف ومشى في اتجاه بئر منجم مينرود . وبدون أن يلتفت وراءه مرة
أخرى ركب المركبة الناقلة وراح إلى العمق .
ورفع الصبي عديم الاسم الصورة من الثلج وخاض في متسع السهل
الأبيض .

ساعات كثيرة تجوها . واختفى كوخ يور من ورائه في الأفق منذ وقت طويل ،
ولم يُحيط به سوى المساحة البيضاء الممتدة إلى جميع الجهات . ولكنه شعر كيف تشده
الصورة التي يمسك بها بحرص بكلتا يديه ، إلى اتجاه معين .

وكان الصبي عازما على اتباع هذه القوة ، لأنها سوف تأتي به إلى المكان
الصحيح وإن كان الطريق الآن طويلا أم قصيرا . ولا ينبغي أن يعوقه الآن شيء .
فقد كان يريد العثور على ماء الحياة ، وكان متأكدا أن ذلك في استطاعته .

وفجأة سمع ضجيجا في الأجواء بأعلى ، لقد كان كصراخ وشقشقة من حناجر
متعددة وعندما نظر إلى أعلى للسماء ، رأى سحابة داكنة بدت كسرب كبير من
الطيور . فقط عندما اقترب هذا السرب أكثر ، عرف ما هو في الحقيقة ، فظل واقفا
كالمتسمر من الرعب . لقد كانت الفراشات المهرجة ، الشلاموفن !

وفكر الصبي ، عديم الاسم قائلا : « يا لرحمة السماء . أرجو ألا تكون قد
رأتني . إنها سوف تحطم الصورة بصراخها .» ولكنها كانت قد رآته .

وهوى السرب إلى أسفل بضحك وصراخ هائل على الجائل الوحيد وهبطت من
حوله في الثلج . ونعقت وهي تفتح أفواهها الملونة بشدة : « مرحى ! أخيرا عثرنا
عليه ، وليّ نعمتنا العظيم .»

وتقلبت في الثلج . وتقاذفت بكرات الثلج وتشقلمت ووقفت على رؤوسها .

وهمس الصبي عديم الاسم يائسا : « اخفضوا أصواتكم ! من فضلكم

اخفضوا أصواتكم !»

فصرخت المجموعة كلها بسرور :

— « ماذا قال ؟ »

— « لقد قال إن صوتنا منخفض جدا . »

— « لم يقل هذا أحد من قبل . »

وسأل الصبي قائلا : « ماذا تريدون مني ؟ لماذا لا تتركوني في سلام ؟ »

ودار الجميع من حوله ونقنقوا قائلين :

— « يا ولى النعمة العظيم . يا ولى النعمة العظيم . أما زلت تعرف كيف خلصتنا عندما كنا لا نزال الأخرأى ؟ لقد كنا في ذلك الوقت أتعس الكائنات في فانتازين ، ولكننا الآن ضبقنا ذرعا بأنفسنا . إن ما جعلته منا ، كان في البداية شيئا مضحكا ، ولكننا الآن نشعر بالملل المميت . إننا نرفرف حائمين وليس لدينا شىء نستطيع أن نتعلق به . إننا لا نستطيع حتى أن نلعب لعبة صحيحة لأننا لا نملك القواعد . لقد جعلت منا مهرجين مضحكين بتخليصك لنا . لقد خدعتنا ، أيها المنعم العظيم . »

فهمس الصبي بفزع : « ولكن قصدى كان حسنا . »

فصرخ الشلاموفن بمجموعتهم : « أجل ، مع نفسك . لقد بدوت لنفسك

عظيما جدا . ولكننا دفعنا ثمن كرمك ، أيها المنعم العظيم . »

فسأل الصبي : « ماذا أفعل إذن ؟ ماذا تريدون مني ؟ »

فصرخ الشلاموفن بوجوه مهرجين مشوهة : « لقد كنا نريد اللحاق بك قبل

أن تستطيع الفرار . والآن لقد لحقنا بك ، ولن نتركك في سلام قبل أن تصبح زعيما

لنا . لا بد أن تصبح الشلاموفن الأعلى ، رئيس شلاموفنا ، الجنرال شلاموف .

وكل ما تريد . »

فهمس الصبي متضرعا : « ولكن لماذا ، لماذا ؟ »

وردت مجموعة المهرجين صارخة :

— « نريد أن تصدر لنا الأوامر ، وتنتهى وتأمرفينا ، أن تجربنا على أى شىء ، أن

تخطر علينا أى شىء . نريد أن يكون وجودنا لأى شىء ما ! »

— « إننى لا أستطيع ذلك . لماذا لا تختارون واحدا من بينكم ؟ »
— « لا ، لا ، إننا نريدك أنت ، أيها المنعم العظيم ! فأنت جعلت منا ما نحن عليه الآن . »

فقال الصبى لاهثا : « كلا ! لا بد أن أعود ! »
فصرخت أفواه المهرجين : « ليس بهذه السرعة ، أيها المنعم العظيم . لن تفلت منا . سيروقك جيدا أن تفلت من فانتازين بهذه البساطة ! »
فقال الصبى مؤكدا : « ولكننى انتهيت ! »
فردت المجموعة : « ونحن ؟ ماذا نكون ؟ »
فصاح الصبى : « اذهبوا بعيدا ! لم تعد فى استطاعتى مراعاتكم ! »

فردت الأصوات الحادة : « إذن عليك أن تعيدنا . إذن نحن نفضل أن نصبح الأخرائى مرة أخرى . لقد جفت بحيرة الدموع ، وأمرجانت تقبع على الجفاف . ولم يعد أحد ينسج زخارف الفضة الدقيقة . إننا نريد أن نكون الأخرائى مرة أخرى . »

فأجاب الصبى : « لم أعد أستطيع ذلك . لم يعد لى نفوذ فى فانتازين . »
فدوى السرب كله ودار بلا انتظام : « اذن سنأخذك معنا ! »
وأمسكت به فئات من الأيادى الصغيرة وحاولت أن تجذبه إلى أعلى . ودافع الصبى بكل قواه . وطارت الفراشات فى كل الاتجاهات . ولكنها كانت ترجع دائما بعناد كالزنابير الهائجة .

وفى وسط صيحات الاستنجد والزعيق سُمع فجأة من بعيد رنين خافت ولكنه قوى ، وكان صوته كدوى جرس برونزى كبير .

وفى لمح البصر لاذ الشلاموفن بالفرار ، واختفوا كسرب داكن فى السماء . وركع الصبى الذى لم يعد له اسم ، فى الثلج . وأمامه الصورة ، وقد تفككت إلى تراب . الآن ضاع كل شىء . لم يعد هناك شىء يمكن أن يرشده إلى الطريق إلى ماء الحياة .

وعندما رفع بصره ، رأى من خلال دموعه بغير وضوح على مسافة قليلة شكلين على المجال الثلجى أمامه ، شكلا كبيرا ، وشكلا صغيرا . ومسح عينيه ، ونظر مرة أخرى إلى هناك . لقد كانا فُخور ، تنين الحظ الأبيض ، وأتريو .

٢٦

مَاءَ الْحَيَاةِ



هَبُّ الصبى الذى لم يعد له اسم ، واقفا بتردد ، ومشى عده خطوات ناحية أتريو . ثم توقف . ولم يفعل أتريو شيئا ، ونظر إليه فقط باهتمام وهدوء . الجرح بصدرة لم يعد ينزف .

ووقفا وقتا طويلا فى مواجهة بعضهما ، ولم يقل واحد منها كلمة . وساد السكون لدرجة أن كلاً منهما سمع أنفاس الآخر .

ومد الصبى عديم الاسم يده ببطء إلى القلادة الذهبية حول رقبة وخلع أورين وانحنى إلى أسفل ووضع الجوهرة بحرص أمام أتريو فى الثلج . وأثناء ذلك تأمل مرة أخرى الثعبانين الفاتح والداكن اللون اللذين يعرض كل منهما الآخر فى ذنبه ويكونان شكلا بيضاويا . ثم تركه .

وفى نفس اللحظة أصبح البريق الذهبى لأورين منيرا وساطعا فوق كل الحدود لدرجة أنه اضطر أن يغمض عينيه وقد أصابها الإبهار ، كما لو أنه نظر فى الشمس . وعندما فتحها مرة أخرى ، رأى أنه يقف فى بهودى قباب ، كبيرة كقبة السماء ، كانت لبنات هذا البناء من الضوء الذهبى . وفى وسط هذه الغرفة الهائلة الحجم كان يرقد كلا الثعبانين ، عملاقين مثل سور المدينة .

ووقف أتريو وفخور والصبى عديم الاسم بجوار بعضهم ناحية رأس الثعبان الأسود الذى كان يمسك فى حلقة بطرف الثعبان الأبيض . وكانت العين الجامدة بحدقتها العمودية مصلطة على الثلاثة . وكانوا بالمقارنة به ضئيلين ، وحتى تين الحظ بدا صغيرا كيرقة بيضاء .

وكان جسم الثعبانين العملاقان يتلألآن كمعدن غير معروف . أحدهما أسود كالليل والآخر أبيض كالفضة . وما كان يمنع الدمار الذي يمكن أن يحدثه إلا لأنها بأسران بعضهما الآخر . فإذا ما تركا بعضهما فسوف تنمحي الدنيا . وكان هذا مؤكدا .

ولكن بينما هما يقيدان بعضهما الآخر ، كانا يجرسان في نفس الوقت ماء الحياة لأنه في الوسط ، الذي كانا يرقدان من حوله ، كانت تهدر عين نضاجة هائلة يتراقص شعاعها إلى أعلى وإلى أسفل ، وفي سقوطه يكون آلافاً من الأشكال ، ويتحلل مرة أخرى ، أسرع بكثير من أن تستطيع العين أن تتابعه ، والمياه تتناثر إلى ضباب دقيق ينكسر فيه الضوء الذهبى إلى جميع ألوان قوس قزح . لقد كان هديرا وتهليلا ، وغناء وهتافا ، وضحكا وصياحا بألف صورة للفرح .

ونظر الصبى عديم الاسم إلى هذا الماء كالذى سيهلك من العطش – ولكن كيف السبيل للوصول إليه ؟ فرأس الثعبان لم يتحرك .

وفجأة رفع فخور رأسه . وبدأت كريات عينيه الحمراء بلون الياقوت تلمعان

وسأل قائلا : «أتستطيعان أن تفهما أيضا ما تقوله المياه ؟»

فأجاب أتريو : «لا ، لست أنا»

وهمهم فخور قائلا : «لست أدري كيف يحدث هذا ، ولكننى أفهمها بوضوح تام . ربما لأننى تنين حظ . فجميع لغات الفرح أقارب لبعضها»

وسأل أتريو : «ماذا تقول المياه ؟»

واستمع فخور بانتباه وقال ما سمعه ببطء وكلمة كلمة :

«نحن مياه الحياة

عين تنبع من ذاتها

يزداد ثراء جريانها

كلما زاد ما شربتم مننا .

وأنصت برهة مرة أخرى وقال :

إنها تنادى بلا انقطاع : « اشرب ! اشرب ! اشرب ! افعل ما أنت تريد ! »

فسأل أتريو : « وكيف يمكننا المجيء إلى هناك ؟ »

فشرح فخور : « إنها تسألنا عن أسامينا »

فصاح أتريو : « أنا أتريو »

وقال فخور : « أنا فخور ! »

وظل الصبي عديم الاسم صامتا .

ونظر إليه أتريو ، ثم أخذه من يده وصاح :

« هو باستيان بلتازار بوكس » .

وترجم فخور قائلا : « إنها تسأل لماذا لا يتكلم هو بنفسه »

فقال أتريو : « إنه لم يعد يستطيع ، لقد نسي كل شيء »

ومرة أخرى أنصت فخور برهة للهدير والخرير : « إنها تقول ، إنه لا يستطيع الدخول بلا ذاكرة . الشعبانان لا يسمحان له بالمرور »

فصاح أتريو : « لقد احتفظت بكل شيء من أجله ، كل ما حكاه لي عن عالمه .

اننى أضمنه » وأنصت فخور .

- « إنها تسأل - بأى حق تفعل هذا ؟ »

فقال أتريو : « أنا صديقه »

ومرت برهة من الزمن مرة أخرى بينما يستمع فخور بانتباه .

وهمس قائلا لأتريو : « يبدو أنه غير مؤكد إذا كانت ستجيز ذلك - الآن تتكلم

عن جرحك . إنها تريد أن تعرف كيف حدث . »

فقال أتريو : « كلانا كان معه حق . وكلانا أخطأ . ولكن الآن خلع باستيان

أورين طواعية » .

وأنصت فخور ثم هز رأسه .

وقال : «نعم الآن ستجيز ذلك . هذا المكان هو أورين . وهي تقول إننا على الرحب والسعة»

ونظر أتريو إلى أعلى إلى القبة الذهبية العملاقة .

وهمس قائلاً : «كل منا حمله حول رقبتة - حتى أنت يا فخور لفترة وجيزة»

وأشار له تين الحظ أن يصمت ، وأنصت مرة أخرى لإنشاد المياه . ثم ترجم قائلاً :

- «أورين هو الباب الذى كان يبحث عنه باستيان . لقد كان يحمله معه منذ البداية . وهي تقول - لكن الشعبان لن يسمحا بمرور شيء من فانتازين . ولذلك يجب على باستيان أن يسلم كل شيء أهدته له الإمبراطورة الطفولية . وإلا فلن يستطيع أن يشرب من ماء الحياة»

فصاح أتريو : «ولكننا فى علامتها . أليست هى نفسها هنا ؟»

- «إنها تقول ، هنا ينتهى نفوذ طفلة الأقمار . وهى الوحيدة غير الجائز لها دخول هذا المكان أبداً . إنها لا تستطيع دخول قلب البريق لأنها هى لا تستطيع أن تحلج نفسها .»

وصمت أتريو مرتبكا .

واستطرد فخور قائلاً : «إنها تسأل الآن إذا كان باستيان مستعداً ؟»

فقال أتريو بصوت عال : «نعم ، إنه مستعد»

وفى هذه اللحظة بدأ رأس الشعبان العملاق الأسود فى الارتفاع ببطء ، دون أن يترك أثناء ذلك طرف الشعبان الأبيض الذى يمسك به فى حلقه . وتقوس الجسمان الهائلان إلى أعلى إلى أن شكّلا بوابة مرتفعة نصفها أسود والآخر أبيض .

واققاد أتريو باستيان من يده من خلال هذه البوابة المربعة فى اتجاه العين النضاجة التى كانت الآن أمامهما بكل عظمتها وبهائها . وتبعها فخور . وبينما هم يتجهون

إليها كانت تسقط مع كل خطوة عن باستيان إحدى الهبات الفانتازية الرائعة بعد الأخرى . ومن البطل الجميل القوي الذى لا يهاب أصبح مرة أخرى الصبى الصغير السمين الخجول وحتى ملابسه التى تمزقت إلى هلاهيل تقريبا فى مينرود التابع ليور ، اختفت ، وتحللت كلية إلى لا شىء . وأخيرا وقف عاريا مجردا أمام الدائرة الذهبية الكبيرة التى كانت تتقافز فى وسطها مياه الحياة عاليا كشجرة من البللور .

وفى هذه اللحظة الأخيرة ، حيث لم يعد يمتلك أيا من الهبات الفانتازية ، ولكنه لم يستعد بعد تذكره لعالمه ولنفسه ، عايش حالة من عدم الأمان التام ، لم يعرف فيها إلى أى عالم ينتمى ، وإذا كان هو نفسه موجودا فى الواقع .

ولكنه قفز ببساطة فى الماء البللورى ، وتقلب ونفخ فى الماء ونثره ، وجعل وابل القطرات المتلألئة يأتى إلى فمه . وشرب وشرب إلى أن أطفىء ظمؤه وملأته البهجة من رأسه إلى قدمه ، البهجة بالحياة ، والبهجة بكيانه ذاته ، لأنه الآن عرف مرة أخرى من هو وإلى أين ينتمى . لقد ولد من جديد . وأجمل شىء كان أنه أراد الآن أن يكون بالضبط ذلك الذى كان . وإذا سُمح له أن يختار واحدا من الاحتمالات لما اختار احتمالا آخر . لأنه عرف : يوجد فى العالم ألف وألف شكل من السعادة ، ولكن فى الأساس هى جميعا سعادة واحدة ، السعادة فى أن تستطيع أن تحب . وكلاهما كان هو الشىء نفسه .

وحتى فيما بعد ، عندما رجع باستيان إلى عالمه مرة أخرى بوقت طويل وعندما كبر وأصبح فى النهاية عجوزا ، لم تغادره هذه السعادة أبدا كلية . وحتى فى أصعب أوقات حياته بقيت عنده سعادة فى قلبه جعلته يبتسم ويواسى الناس الآخرين .

وصاح إلى الصديق الذى كان يقف مع فخور عند حافة الدائرة الذهبية الكبيرة :

- « أتريو ! تعال ، أيضا ، تعال ! اشرب ! إنها رائعة ! »

وهز أتريو رأسه ضاحكا .

ورد صائحا : « لا ، هذه المرة نحن هنا لمرافقتك فقط . »

فسأل باستيان : « هذه المرة ؟ ماذا تقصد بذلك ؟ »

وتبادل أتريو نظرة مع فخور ، ثم قال :

- «لقد كنا نحن الاثنان مرة هنا . إننا لم نتعرف على المكان على الفور مرة أخرى لأننا أحضرنا في ذلك الوقت ونحن نائمون وانصرفنا ثانية ونحن نائمون . ولكننا تذكرنا الآن» .

وخرج باستيان من الماء .

وقال ووجهه يشع فرحا : «أجل ، الآن أتعرّف عليك مرة أخرى أيضا . أنت تبدو الآن مثل ذلك الوقت عندما رأيتك في بوابة المرأة السحرية .»

ورفع باستيان بصره إلى الماء المزبدة المتألثة .

وصاح في هديرها : «أود أن أحضرها لأبي ، ولكن كيف؟»

فأجاب أتريو : «لا أعتقد أن هذا ممكنا . فالمرء لا يستطيع أن يأتي بشيء من فانتازين إلى خارج حدودها .»

وأطلق فخور صوته الذي استعاد الآن رنينه البرونزي كاملا : «ولكن باستيان سوف يستطيع ذلك»

فقال باستيان : «إنك حقا تنين حظ»

وأشار له فخور أن يصمت وأنصت للهدير ذى الألف صوت :

ثم شرح قائلا : «المياه تقول لا بد أن ترحل الآن ، ونحن أيضا»

فسأل باستيان : «وأين طريقى؟»

فترجم فخور : «إلى الباب الآخر ، هناك حيث يقع رأس الثعبان الأبيض»

فقال باستيان : «حسن ، ولكن كيف يمكنني الخروج ؟ فالرأس الأبيض

لا يتحرك .»

وفعلا كان رأس الثعبان الأبيض راقدًا بلا حركة . وكان يمسك في حلقه بطرف

الثعبان الأسود وعينه الهائلة تحملت في باستيان .

وأعلن فخور : « المياه تسألك إذا كنت قد أنهيت جميع القصص التي بدأتها في فانتازين » .

وقال باستيان : « لا ، في الحقيقة ولا واحدة »

واستمع فخور برهة . واتخذ وجهه تعبيرا للفرع .

- «إنها تقول ، إذن لن يسمح لك الشعب الأبيض بالمرور . لا بد أن تعود إلى فانتازين وأن تنهى كل شيء»

فتلعثم باستيان قائلا : «كل القصص ؟ إذن لن أستطيع العودة أبدا . إذن كل شيء كان بلا جدوى»

وأنصت فخور متوترا .

وقال باستيان راغبا في المعرفة : «ماذا تقول ؟»

فقال فخور : «صه !»

وبعد برهة تنهد وقال شارحا :

- «إنها تقول ، لا توجد إمكانية في التغيير ، إلا إذا وُجد شخص يتولى عنك هذه المهمة»

فصاح باستيان : «ولكنها قصص لا تحصى عددا ، ومن كل واحدة تأتي قصص جديدة دائما ، ومثل هذه المهمة لا يمكن لأحد توليها .»

فقال أتريو : «بلى ، أنا»

ونظر إليه باستيان بذهول . ثم احتضنه وقال متلعثما : «أتريو ؛ أتريو ! لن أنسى لك هذا أبدا !»

وابتسم أتريو .

- «حسن ، يا باستيان ، إذن لا تنس فانتازين أيضا»

وربت على خده بأخوية ، ثم استدار بسرعة واتجه إلى باب رأس الشعبان الأسود ،

الذى كان لا يزال مقوسا إلى أعلى كما فى اللحظة التى دخلوا فيها المكان .

وقال باستيان : « فخور ، كيف ستختمون ما تركته لكم ؟ »

وغمز التين الأبيض بإحدى كرتينا عينيه الحمراوين بلون الياقوت وأجاب :

- « بالخط السعيد ، يا بنى ! بالخط السعيد ! »

وبذلك تبع سيده وصديقه .

وتابعهما باستيان بنظره وهما يخرجان من خلال الباب عائدين إلى فانتازين واستدار مرة أخرى ولوحا له . ثم انخفض رأس الثعبان الأسود إلى أن رقد مرة أخرى على الأرض . ولم يعد باستيان يرى أتريو وفخور .

وكان الآن وحيدا .

واستدار إلى رأس الثعبان الآخر ، الأبيض ورأى أن هذا قد ارتفع فى نفس الوقت وتقوس جسم الثعبانين بنفس الطريقة مشكلين باباً كما فى الناحية الأخرى من قبل .

وبسرعة غرف بكلتا يديه من ماء الحياة وجرى ناحية الباب . ومن ورائه كان ظلاما .

وارتمى باستيان فيه - وسقط فى الخلاء .

فصرخ قائلاً : « أبى ! أبى ، - أنا - باستيان - بلتازار - بوكس ! »

« أبى ! ، أبى ! - أنا - باستيان - بلتازار - بوكس ! »

وأثناء ما هو يصرخ وجد نفسه دون مقدمات فى مخزن مبنى المدرسة مرة أخرى ، من حيث أتى إلى فانتازين منذ وقت طويل فى الماضى البعيد . ولم يتعرف على المكان على الفور . وبسبب الأشياء العجيبة التى رآها من حوله ، بسبب الحيوانات المحنطة ، والهيكل العظمى واللوحات ، كان فوق ذلك غير متأكد للحظة قصيرة إذا لم يكن لا يزال فى فانتازين . ولكنه رأى بعد ذلك حقيقته المدرسية والشمعدان الصديء ذا السبعة أذرع بالشموع المطفأة ، وحيث عرف أين كان .

تُرى كم مضي من الزمن منذ أن بدأ من هنا رحلته الكبيرة من خلال قصة بلا
نهاية؟ أسابيع؟ شهور؟ ربما سنين؟ لقد قرأ مرة قصة رجل أقام ساعة واحدة فقط
في كهف مسحور، وعندما عاد كانت قد انقضت مائة عام، ولم يكن يجيأ من جميع
الناس الذين يعرفهم، سوى واحد كان في ذلك الوقت طفلاً صغيراً والآن عجوزاً
هرماً.

وسقط من خلال كوة السقف ضوء معتم للنهار إلى الداخل، ولكنه لم يكن ممكناً
تحديد إذا كان الوقت ضحى أم عصرًا. وسادت المخزن برودة قارصة، بالضبط
مثل الليلة التي انصرف فيها باستيان من هناك.

وفك نفسه من لفافة كومة الأغطية العسكرية المتربة التي كان يرقد تحتها وارتدى
حذاءه ومعطفه، وقد فوجيء عندما اتضح أن كليهما كان مبللاً كما في ذلك اليوم
عندما أمطرت مطراً شديداً.

وعلق السيور الجلدية على كتفه ويبحث عن الكتاب الذي كان قد سرقه في ذلك
الوقت والذي بدأ كل شيء به. وكان عاقداً العزم أن يعيده إلى السيد كورياندر
الفظ. فليعاقبه بسبب السرقة أو يبلغ عنه أو أن يفعل شيئاً أسوأ من ذلك، بالنسبة
لشخص مثل باستيان تخطى مثل هذه المغامرات، لم يكن من السهل وجود شيء
يجلب له الخوف. ولكن الكتاب لم يكن هناك.

باستيان بحث وبحث وقلب الأغطية رأساً على عقب ونظر في كل ركن. ولم يُجد
ذلك شيئاً. لقد اختفت قصة بلا نهاية.

وأخيراً قال باستيان: «حسن، إذن لا بد أن أقول له أنه فقد. من المؤكد أنه لن
يصدقني. ولا أستطيع تغيير ذلك. فلينشأ عن ذلك ما يكون. ولكن من يدرى إذا
كان لا يزال يتذكر بعد هذا الوقت الطويل؟ ربما لم يعد لمحل الكتب وجود بوجه
عام؟» سوف يتضح هذا قريباً، لأنه كان لا بد أن يمشی من خلال المدرسة أولاً.
فإذا كان المعلمون والأطفال الذين سيقابلهم، غرباء عليه، فلسوف يعرف ما عليه
أن يضعه في الحسبان.

ولكنه عندما فتح باب المخزن حينئذ ونزل إلى ممرات مبنى المدرسة ، تلقاه
سكون تام هناك . ويبدو أنه لم يكن هناك أى إنسان فى المبنى . وبالرغم من ذلك فقد
دقت الساعة بجرج المدرسة التاسعة فى حينها . لقد كان الوقت إذن قبل الظهر ،
والدراسة لا بد وأن تكون قد بدأت منذ وقت طويل .

ونظر باستيان فى بعض الفصول المدرسية ، ولكن فى كل مكان ساد نفس
الفراغ . وعندما تقدم إلى إحدى النوافذ ونظر إلى الشارع إلى أسفل ، رأى هناك
بعض الناس تمشى وسيارات تسير . فالعالم إذن لم ينقرض على الأقل .

ونزل السلام عدواً إلى بوابة المدخل الكبيرة وحاول أن يفتحها ، ولكنها كانت
مغلقة . واتجه إلى الباب الذى يقع خلفه مسكن مُدبّر شئون المبنى ، ودق الجرس
وقرع الباب ، ولكن لم يتحرك أحد .

وفكر باستيان . وكان مستحيلاً أن يستطيع انتظار احتمال أن يجيء أحد فى
وقت ما لقد أراد الذهاب الآن إلى والده ، حتى وإن كان قد سكب ماء الحياة .
أيفتح نافذة ويظل يصيح إلى أن يسمعه أحد ويعمل على أن يُفتح الباب ؟ لا ، لقد
بدا له ذلك مخجلاً بشكل ما . وخطر له أنه يستطيع التسلق من النافذة . فقد كان
من الممكن فتحها من الداخل . ولكن جميع نوافذ الدور الأرضى كانت عليها
قضبان . ثم ورد إلى ذهنه أنه لاحظ سقالة بناء عندما نظر من الدور الأول إلى
الشارع إلى أسفل . ويرجح أن طلاء أحد الأسوار الخارجية للمدرسة كان يجرى
تجديده . وصعد باستيان إلى الدور الأول مرة أخرى وذهب إلى النافذة . وأمكن
فتحها ، وصعد خارجاً .

وكانت السقالة تتكون فقط من كمرات عمودية وبينها ألواح أفقية على مسافات
معينة . واهتزت الألواح تحت ثقل باستيان إلى أعلى وأسفل . وانتابته للحظة نوبة
من الدوار ، واعتراه الخوف ، ولكنه كتمهما فى نفسه . لشخص كان سيد بيريلين ، لم
تكن هناك مشكلة على الإطلاق — حتى وإن لم تعد لديه القوى الجسمانية الرائعة ،
وإن كان ثقل جسمه السمين يسبب له قليلاً من الصعوبة . وبحث بحرص وهدهوء
عما يمسك به بيده ويستند عليه بقدمه ، ونزل متسلقاً الكمرات العمودية . وقد

دخلت فيه شظية مرة ، ولكنه لم يبال بمثل هذه الصغائر . ووصل إلى الشارع بأسفل وهو محرور ولاهث قليلاً ولكن سليم معافى . ولم يلاحظه أحد .

وجرى باستيان إلى المنزل . علبة الأقلام والكتب كانت تفرقع في حقيقته المدرسية على إيقاع خطواته ، وانتابته وخزات في جنبه ولكنه واصل الجرى . لقد كان يريد أن يذهب إلى والده . وعندما جاء أخيراً إلى المنزل الذي يسكن فيه وقف لحظة ونظر إلى النافذة بأعلى ، التي من ورائها معمل والده . وفجأة أطبق الخوف على قلبه حينئذ ، لأن خاطراً جاءه لأول مرة في احتمال ألا يكون والده موجوداً .

ولكن الأب كان موجوداً ، ولا بد أنه كان قد رآه ، لأنه عندما اندفع باستيان الآن صاعداً السلم ، أتى ناحيته عدواً . وفتح ذراعيه وارتمى باستيان فيهما . ورفع الأب عالياً وحمله إلى المسكن .

وقال مكرراً المرة تلو المرة :

« باستيان ، ولدى ، صغيري العزيز ، أين كنت ؟ ماذا حدث لك ؟ »

فقط عندما جلسا على مائدة المطبخ ، وشرب لبنا ساخناً وأكل خبز الإفطار ، الذي غطاه الأب بعناية بطبقة سميكة من الزبد والعسل ، لاحظ باستيان كم كان وجه أبيه شاحباً ونحيفاً . وكانت عيناه محمرتين وذقنه غير حليق . ولكن خلاف ذلك بدا بالضبط كمثل ذلك الوقت عندما انصرف باستيان .

وسأل الأب متعجباً :

« في ذلك الوقت ؟ ماذا تقصد بذلك ؟ »

— « كم من الوقت كنت غائبا ؟ »

— « منذ أمس يا باستيان . منذ أن ذهبت إلى المدرسة . ولكن عندما لم تعد اتصلت بالمدرسين تليفونياً وعلمت أنك لم تكن هناك على الاطلاق . لقد بحثت عنك طوال النهار وطوال الليل يا بني . ولقد أرسلت الشرطة لأنني خشيت حدوث أسوأ الأمور . يا إلهي ، باستيان ، ماذا حدث ؟ لقد كدت أجن انشغالا عليك . أين كنت ؟ »

وبدأ باستيان الآن يحكى ماعايشه . وحكى كل شيء بالتفصيل التام ،

واستغرق هذا ساعات كثيرة .

واستمع إليه الأب كما لم يسمع إليه من قبل أبداً . وفهم ما حكى باستيان له . وفي الظهر تقريبا قاطعه مرة . ولكن فقط لكي يتصل بالشرطة تليفونيا ويخبرها بأن ابنه عاد وأن كل شيء على مايرام . ثم أعد لكليهما طعام الغذاء ، واستطرد باستيان في حكايته . وحل المساء عندما وصل باستيان إلى قصته عن مياه الحياة وحكى كيف أنه أراد أن يحضر معه منها ولكنه سكبها .

وكان الظلام يعم المطبخ . والأب يجلس ساكناً . فوقف باستيان وأدار مفتاح النور . وحيث رأى شيئاً لم يره من قبل أبداً .

رأى دهوعاً في عيني أبيه .

وأدرك أنه كان في استطاعته أن يجلب له ماء الحياة . وسحبه الوالد بصمت إلى حِجره وضغطه إلى صدره ، وربت أحدهما على الآخر . وبعد أن جلسا طويلاً ، تنفس الأب الصعداء بعمق ، ونظر إلى وجه باستيان وبدأ يتسم . لقد كانت أسعد ابتسامة رآها باستيان عليه من قبل .

وقال الأب بصوت متغير تماماً :

« من الآن فصاعداً ، من الآن فصاعداً سيصبح كل شيء مختلفاً تماماً معنا ، أليس هذا من رأيك ؟ »

وهز باستيان رأسه بالإيجاب . لقد كان قلبه مفعماً أكثر من أن يستطيع الكلام .

وفي الصباح التالي كانت بوادر الثلج قد نزلت . وكان ناعماً وصافياً على أفريز النافذة أمام حجرة باستيان . ووصل زنين الأصوات بالشارع مخففاً إلى أعلى . وقال الأب بسرور أثناء الفطور : « أتعرف يا باستيان ؟ من رأيي أن لدينا حقيقة الداعى الكامل للاحتفال . فمثل هذا اليوم يحدث مرة واحدة فقط في العمر - ولا يحدث لدى البعض أبداً . ولذلك أقترح أن نقوم سوياً بعمل شيء رائع تماماً . سأترك العمل اليوم ، ولا داعى لك أن تذهب إلى المدرسة . سأكتب لك اعتذاراً . ما رأيك في هذا ؟ »

فسأل باستيان : « إلى المدرسة ؟ أما زالت موجودة ؟ عندما جريت بالأمس من خلال الفصول المدرسية لم يكن هناك ولا إنسان . ولا حتى مدبر شئون المبنى . »

فرد الأب قائلاً : « أمس ؟ ولكن أمس كان عيد البشارة يا باستيان . » وقلب الصبي بتفكير في مشروب الكاكاو على إفطاره . ثم قال بصوت منخفض : « أعتقد أن الأمر سيستغرق قليلاً من الوقت إلى أن أعود الحياة مرة ثانية تعوداً صحيحاً . »

فقال الأب وهو يهز رأسه : « فعلاً . ولذلك فلنهيء لأنفسنا يوماً حافلاً . أى شيء تفضل أن تقوم به على الأكثر ؟ في إمكاننا أن نقوم برحلة ما ، أم نريد أن نذهب إلى حديقة الحيوان ؟ وفي الظهر نعد لأنفسنا أعظم وجبة رآها العالم من قبل . وبعد الظهر يمكننا أن نذهب لشراء كل ما تريده . ومساءً - أذهب مساءً إلى المسرح ؟ »

ولمعت عينا باستيان . ثم قال بحزم :

« لكن أولاً لا بد لي أن أفعل شيئاً . لا بد أن أذهب إلى السيد كورياندر ، وأقول له أنني سرقت الكتاب وفقدته . »

ومد الأب يده إلى يد باستيان .

« اسمع يا باستيان إذا أردت ، أنجزت ذلك من أجلك . » وهز باستيان رأسه بالنفي .

وقال حاسماً : « لا ، إن هذا شأن وأريد أن أفعل ذلك بنفسى . والأفضل أن أفعله على الفور . »

ونفض وارتدى معطفه . ولم يقل الأب شيئاً ، ولكن النظرة التي تطلع بها إلى ابنه كانت بها المفاجأة والاحترام . فلم يتصرف ابنه على هذا النحو من قبل أبداً .

وقال أخيراً : « أعتقد أن الأمر عندي أيضاً سيستغرق قليلاً من الوقت إلى أن أعود على التغيير . »

وصاح باستيان ، وهو في الطرقة : « سأرجع سريعاً . من المؤكد أن الأمر لن يستغرق وقتاً طويلاً . ليس هذه المرة . »

وعندما وقف أمام مكتبة السيد كورياندر هبطت شجاعته مرة أخرى . ونظر من خلال اللوح الزجاجي الذي كانت عليه الحروف المزخرقة ، إلى داخل المحل . وكان عند السيد كورياندر في ذلك الحين عميل ، وفضل باستيان أن ينتظر إلى أن ينصرف وراح يمشى أمام مكتبة الكتب القديمة جيئة وذهاباً . وبدأ الثلج ينزل مرة أخرى . وأخيراً غادر العميل المحل .

وأصدر باستيان الأمر لنفسه : « الآن ! »
وفكر في كيفية تقدمه مواجهها جرأوجرمان في صحراء الألوان جواب . وبحزم ضغط على مقبض الباب .

وسمع سعال من وراء حائط الكتب الذي كان يحدد الغرفة المعتمة عند طرفها الآخر . واقترب باستيان منه ، ثم تقدم وهو شاحب قليلاً ولكنه جاد ومتمالك ، أمام السيد كورياندر الذي كان يجلس مرة أخرى على مقعده الجلدي اللامع من الاستهلاك كما في اللقاء الأول .

وصمت باستيان . وكان يتوقع أن السيد كورياندر سيندفع إليه وعلى وجهه حمرة الغضب ويصرخ فيه قائلاً : « لص ! مجرم ! » أو أى شيء من هذا القبيل . بدلاً من ذلك أشعل الرجل العجوز غليونه المنحني متباطئاً بينما هو يتفحص الصبي بعينين نصف مغمضتين من خلال نظارته الصغيرة المضحكة . وعندما اشتعل الغليون أخيراً ، نفث الدخان برهة بنشاط ، ثم دمدم قائلاً :

— « نعم ؟ ماذا هناك ؟ ماذا تريده هنا مرة أخرى ؟ »

وبدأ باستيان متلعثماً : « أنا — سرقت من حضرتك كتاباً . وكنت أريد أن أعيده لكم ، ولكن هذا لا يمكن . لقد فقدته أو بالأحرى — الخلاصة أنه لم يعد موجوداً . » وكف السيد كورياندر عن نفث الدخان وأخذ الغليون من فمه .

وسأل : « أى كتاب ؟ »

— « لقد كان ذلك الذى كنتم تقرأون فيه حين ما كنت فيه هنا المرة الأخيرة . لقد أخذته معى . وحضرتك ذهبت إلى الخلف للتحدث تليفونياً ، وكان موضوعاً هنا على المقعد ، وأنا أخذته معى ببساطة . »

وقال السيد كورياندر وهو يتنحج : « يا سلام . ولكن لا ينقص كتاب عندي . أى كتاب كان هذا الذى تزعمه ؟ »

فقال باستيان شارحاً : « إنه يسمى قِصَّة بلا نهاية . من الخارج مصنوع من الحرير بلون النحاس وهو يلمع عندما يحركه الإنسان إلى هنا وهناك . وعليه ثعبانان ، واحد فاتح وواحد داكن اللون ، وهما يعضان ذنب بعضهما . ومن الداخل مطبوع بلونين - ومزود بحروف بدء كبيرة جداً وجميلة . »

وقال السيد كورياندر : « شئ غريب جداً . إننى لم أركتاباً مثل هذا . وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون قد سرقته منى أيضاً . ربما سرقته من مكان آخر . »

فقال باستيان مؤكداً : « بالتأكيد لا ! لا بد أن تتذكرون . إنه - « وتردد ولكنه نطقها بعد ذلك : « إنه كتاب سحرى . لقد أتيت إلى داخل قِصَّة بلا نهاية أثناء القراءة ، ولكننى عندما خرجت منها بعد ذلك مرة أخرى ، كان الكتاب قد اختفى . » وراقب السيد كورياندر باستيان من فوق نظارته .

— « ألا تسخر منى يا ترى ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب باستيان فيما يقرب الذهول : « لا ، بالتأكيد التام لا . إن ما أقوله حقيقى . لا بد أنكم تعرفون ذلك ! »

وفكر السيد كورياندر برهة . ثم هز رأسه وقال :
— « يجب أن تحكى لى كل شئء بدقة أكثر . اجلس يا بنى ، تفضل اجلس ! » وأشار بمقبض غليونه على مقعد ثان كان فى مواجهة مقعده . وجلس باستيان .

وقال السيد كورياندر : « حسن ، والآن احك لى ماذا يعنى كل ذلك . ولكن على مهل وبالترتيب ، إذا جازى أن أرجو هذا »
وبدأ باستيان يحكى .

ولم يفعل ذلك بالتفصيل كما فعل مع الوالد ، ولكن لأن السيد كورياندر أظهر اهتماماً متزايداً على الدوام ، وكان يريد دائماً المعرفة بأكثر دقة ، فقد استغرق الأمر

أكثر من ساعتين ، إلى أن انتهى باستيان منها .

ومما يدعو للغرابة أنه لم يقاطعها عميل واحد أثناء الوقت كله ، من يدري لماذا .

وعندما أنهى باستيان حكايته ، نفث السيد كورياندر الدخان أمامه لوقت طويل . وبدا أنه كان غارقا بعمق في التفكير . وأخيرا تنحى مرة أخرى ، وعدل من وضع نظارته الصغيرة ، ونظر برهة إلى باستيان متفحفا ، ثم قال :

— « هناك شيء مؤكد : أنك لم تسرق هذا الكتاب ، لأنه لا يخصني ولا يخصك ولا أى شخص آخر . وإذا لم أكن مخطئا فهو نفسه ينبع من فانتازين . من يدري ، ربما يجمله في هذه اللحظة بالضبط شخص آخر في يده ويقرأ فيه . »

فسأل باستيان : « إذن حضرتك تصدقني ؟ » .

فأجاب السيد كورياندر : « طبعا ، كل إنسان عاقل كان سيفعل هذا » .

فقال باستيان : « بأمانة ، أنا لم أتوقع هذا » .

فقال السيد كورياندر : « هناك بشر لا يستطيعون أبدا المجيء إلى فانتازين . وهناك بشر يستطيعون ، ولكنهم يبقون هناك إلى الأبد . ثم هناك البعض الذين يذهبون إلى فانتازين ويرجعون ثانية . مثلك . وهؤلاء يُصلحون كلا العالمين » .

فقال باستيان وقد احمر وجهه قليلا : « آخ ، في الحقيقة ليس لى ذنب فى ذلك . إننى كدت ألا أعود . وإذا لم يكن أتريو ، لكنت الآن بالتأكيد قابعا إلى الأبد فى مدينة القياصرة القديمة » .

وهز السيد كورياندر رأسه ونفث الدخان أمامه فى تفكير .

ودمدم قائلا : « أجل عندك حظ أن لك صديق فى فانتازين . ويعلم الله ، أن ليس كل فرد لديه هذا » .

فسأل باستيان : « سيد كورياندر ، من أين لكم معرفة كل هذا ؟ — أقصد — هل كنتم أيضا مرة فى فانتازين ؟ » .

فقال السيد كورياندر : « بالطبع » .

فقال باستيان : « لكن إذن ، إذن لا بد وأنكم تعرفون طفلة الأقمار ! » .

فقال السيد كورياندر : « نعم ، أعرف الإمبراطورة الطفولية . ولكن ليس بهذا الاسم . لقد سميتها شيئاً آخر . ولكن ليس لهذا أهمية » .

فصاح باستيان : « إذن لا بد وأنكم تعرفون الكتاب أيضا . إذن لقد قرأتم قصة بلا نهاية ؟ » السيد كورياندر هز رأسه بالنفي .

— « إن كل قصة واقعية ، قصة بلا نهاية » .

وجال ببصره إلى الكتب الكثيرة الموجودة على الجدران إلى أعلى حتى تحت السقف ، ثم أشار عليها بمقبض غليونه واستطرد يقول :

« توجد كمية كبيرة من الأبواب المؤدية إلى فانتازين يا بني . وأكثر من هذه توجد مثل هذه الكتب السحرية . وكثير من الناس لا يلاحظون من ذلك شيئاً . فالأمر يتوقف على من يتلقى مثل هذا الكتاب بين يديه » .

— « إذن قصة بلا نهاية تختلف بالنسبة لكل شخص ؟ »

ورد السيد كورياندر قائلاً : « هذا ما أريد أن أقوله . وخلاف ذلك لا توجد كتب فقط ، بل هناك إمكانيات أخرى للعودة مرة أخرى إلى فانتازين . وسوف تلاحظ ذلك . »

فسأل باستيان وملؤه الأمل : « أتعتقد ذلك ؟ ولكن لا بد إذن أن ألتقى بطفلة الأقمار مرة أخرى ، وكل شخص لا يقابلها إلا مرة واحدة فقط . »

وانحنى السيد كورياندر إلى الأمام وأخفض من صوته .

— « دع عجوزاً خبيراً رحالة إلى فانتازين يقول لك شيئاً ، يا بني . إنه سر لا يستطيع أحد في فانتازين معرفته . وإذا ما تفكرت فسوف تفهم أيضاً لم هو هكذا . أنت لا تستطيع أن تأتي إلى طفلة الأقمار مرة ثانية ، هذا صحيح — طالما هي طفلة الأقمار . ولكن إذا ما استطعت منحها اسماً جديداً ، فسوف تراها مرة ثانية

ومهما كثر توفيقك في ذلك ، فسوف تكون كل مرة هي المرة الأولى والوحيدة
باستمرار . «

وكان على وجه السيد كورياندر الذى يشبه وجه كلب البولودوج للحظة من
الزمن بريق ناعم جعله يبدو شاباً ، ويكاد يكون جميلاً .

وقال باستيان : « شكراً ، يا سيد كورياندر ! »

فرد السيد كورياندر : يجب علىّ أنا أن أقدم شكرى يا بنى . ولسوف أعتبر هذا
أمراً لطيفاً ، إذا زرتنى هنا بين الحين والآخر ، لكى نتبادل خبراتنا . فلا يوجد أناس
كثيرون جداً يمكن التحدث معهم عن مثل هذه الأمور . «

ومد يده إلى باستيان وقال : « اتفقنا ؟ »

فقال باستيان ومد يده بالمصافحة : « بسرور . يجب أن أذهب الآن . أبى
ينتظرنى . ولكننى سأعود قريباً . »

ورافقه السيد كورياندر إلى الباب . وعندما اتجها ناحيته رأى باستيان من خلال
الكتابة المعكوسة على اللوح الزجاجى أن الأب يقف على الجانب الآخر من الشارع
وينتظره . وكان وجهه اشعاعاً واحداً بالسعادة .

وفتح باستيان الباب بشدة لدرجة أن عنقود الأجراس النحاسية الصغيرة أخذ
يرن ، وجرى إلى هذا الإشعاع بالسعادة .

وأغلق السيد كورياندر الباب برفق وتابع الاثنین بنظره .

ومهم قائلاً : « باستيان بلتازار بوكس ، إذا لم أكن مخطئاً ، فإنك سوف تبين
الطريق إلى فانتازين لأحدهم لكى يحضر لنا ماء الحياة . »

ولم يكن السيد كورياندر مخطئاً .

ولكن هذه قصة أخرى ولسوف تُحكى فى مناسبة أخرى .

الفهرس

٧	ميشائيل إنده : حياته وأعماله
١٣	مقدمة
٣٣	١ - فانتازين في صحنه
٥٣	٢ - استدعاء أتريو
٧٣	٣ - مورلا .. العجوز الشمطاء
٩٣	٤ - إجرامول المتعددة
١٠٩	٥ - الناسكان ...
١٢٥	٦ - البوابات السحرية الثلاثة
١٤٥	٧ - صوت الصمت
١٦٥	٨ - في بلاد الغوغاء
١٨٣	٩ - مدينة الأشباح
٢٠٥	١٠ - الطيران إلى برج العاج
٢٢٣	١١ - الإمبراطورة الطفولية
٢٣٩	١٢ - عجوز الجبل المتجول
٢٥٧	١٣ - بيريلين .. غابة الليل
٢٧٥	١٤ - جُواب صحراء الألوان
٢٩٣	١٥ - جر أوجرمان .. الموت الملون
٣٠٩	١٦ - أمرجانت .. مدينة الفضة
٣٣١	١٧ - تنين .. من أجل البطل هينريك

٣٥٥	الأخارائى	١٨ -
٣٧٣	رفقاء الطرىق	١٩ -
٣٩٣	اليد المبصرة	٢٠ -
٤١٧	دير النجوم	٢١ -
٤٣٩	المعركة حول برج العاج	٢٢ -
٤٦٥	مدينة القياصرة القديمة	٢٣ -
٤٩١	السيدة أيوولا	٢٤ -
٥١٣	منجم الصّور	٢٥ -
٥٢٩	ماء الحياة	٢٦ -

مكتبة

t.me/t_pdf

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب